المجلد الحادي عشر الجزء ٧ و ٨

مجلة المجمع العلمي العربي

أنشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م

تنشر في دمشق مرة في الشهر

تموز — آب

١٩٣١

دمشق :

المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي المدفع مقدماً:
في سورية ولبنان ٢٥٠ قرشاً سورياً
وفي جميع الاقطار ٦٠ فرنكاً

مجاميع المجلة عن السنين الماضية

في الداخل ٥٠٠ من السنة الاولى الى الرابعة كل سنة منها
» ٣٠٠ » الخامسة الى العاشرة » »
في الخارج ٦٠٠ » الاولى الى الرابعة » »
» ٣٥٠ » الخامسة الى العاشرة » »

السحر والتمائم والحجب

« والرقى والعزائم »

—«×»—

— في معتقدات الشعوب الشرقية والامم السامية وغيرها —

لا بد انك أيهـا القارئ رأيت أطفالاً من الطبقة الفقيرة حملتهن أمهاتهن أحمالاً من الحجب المختلفة الأشكال والألوان والأوزان ، فمن « الخمسة » او الخميسة التي تفقى بها عين الحاسد الى قرن الخرتيت ، وعرق السودان ، وقطعة « الفاسوخ » الملتصقة بشعره ومدلاة على جبينه ، وبجوارها عقد صغير من الخرز الأزرق ، الى منطقة من القيطان ينتهي بحجاب ضخم ، قد كتبه احد المشايخ في ليال وايام عدة ، واخذ ثمنه جنيهاً او جنيهين بعد ان رقاه برقيـة من « شمس المعارف » واذا تحولت ببصرك عن هذا الطفل المسكين الذي تراه على الرغم من تلك الوسائل لحمايته من الشر ، أصفر ضعيفاً خائر القوى ، ومرت بجـانبك سيارة تنهب الارض نهباً فلا تهمل ان تلقي عليها بنظرة ، فسترى فوهة الماء بمقدمتها ، وقد ركبت عليها صورة شيطان بذيل او نسر طائر او قزم ضاحك وحوله عقـد من الخرز الأزرق . واذا مرت بك السيارة والقيت نظرة على مؤخرها لتأخذ عينك بالهانم المضطجعة ، او الباشا المسترسل في أحلامه ، تلمح في نافذتها الخلفيـة ، صورة عروس او قرد « خلف الحبايب » يتدلى ويترجح ، لانه مربوط من عنقه الى سقف المركبة بخيط دقيق كالمشنوق ، فاعلم ياأخي العزيز ان العفريت المذنب ، والخرز الأزرق والعروس المشنوقة ، كلها وقايات للسيارة واصحابها ، لتحويل عين الحاسد عن فخامة السيارة وسرعتها وجمال من فيها وثروتهم : فاذا كنت محباً للتاريخ او لعلم الاجتماع او باحثاً في علم النفس ، أدركت لساعتك ان المسافة بيننا ونحن الآن في

القاهرة في منتصف القرن العشرين ، وبين أجدادنا الأولين الذين عاشوا منذ عشرة آلاف سنة ، لا تزال من حيث العقل والاعتقاد قريبة جداً . . . .

فقد كان الانسان الاول في فجر التاريخ يعيش وهو مملوء بالرعب من الكائنات والاحياء ، يحب الحياة ويتعلق باهداب النجاة بكل الوسائل ، فكان يلجأ الى التمائم والرقى والحجب ، ليحمي نفسه من الحسد او العين الشريرة ومن سحر خصومه ، وقوتهم ، ومن تألب أعدائه عليه . وكذلك تحمل المرأة الحجب لتجذب قلب زوجها ، او معشوقها وتجلب محبته ، وكان بعضهم يلبسون الحجب ، لتقيهم الاصابة بالسلاح في ميدان القتال . وقيل ذلك عن عثمان دقنة في حروب السودان . وروى مثله الكولونل لورنس عن عودة ابو تايه الصديق العربي الشهير للحلفاء . فقد روى للكولونيل الشريف المخلص للعرب ، وللثورة العربية . . . انه لايصاب برصاص الاعداء لانه محجب ، وابرز حجابه الذي اشتراه باربعة عشر جنيهاً « وكان يطلق على الجنيهات كلمة (نيرات) محرفة عن ليرات» فلما استأذنه لورنس في فحص هذا الحجاب ، ألفى انه نسخة فوتوغرافية مصغرة من القرآن الشريف المطبوع في جلاسكو عاصمة اسكوتلاندا ، وثمنها شلن وثمانية بنسات .

وكذلك يلبس الشرقيون الحجب لتحمل نساؤهم العواقر وليتغلبوا على اعدائهم من ظهر منهم ومن اختفى . فلما انتقل الانسان من حالة الفطرة وبدأ يعبد الآلهة ، اخذ يعتقد ان إلاهه المعبود في حاجة الى الحجاب مثل حاجة العابد اليه ، ولم يتخيل ان الآهه يستطيع العيش بغير حاجة الى القوى السحرية التي تنطوي عليها الرقى والعزائم والحجب . ثم تطور فصار يعتقد ان الآلهة أنفسهم يمنحون البشر قوة السحر ، وكانت هذه الفكرة شائعة عند كهنة مصر المتحضرين ورفاقهم كهنة سومير وبابل .

وانتحل هؤلاء الكهنة معتقدات أسلافهم ومزجوها « بالخفاء الديني » اوسر الاسرار ، ومن ذلك الحين اخذ السحر والدين يسيران جنباً الى جنب ويداً بيد . . . فصار الآلهة سحرة ! واخذوا يوزعون السحر على الناس ، بواسطة الكهنة ! لاجل هذا ترى فرعون محاطاً بكهنة وسحرة . وترى المعجزة الاولى التي ظهر بها النبي السامي الاول الذي بعث به الى مصر — كانت معجزة السحر ، من نوع مانبغ به أهل الملة التي بعث بها اليهم .

فاذا اطلعت على الأدب المصري القديم والأدب البابلي ، وجدت السحر في معتقدهم

جزءاً لايتجزأ من حياة الآلهة الذين مازالوا في حاجة اليه ليستعينوا به ، ويعينوا بعضهم بعضاً ، وينقلوه الى الناس عن طريق الكهنة .

وقد تفضل العالم الفاضل الروسي الاستاذ جولينشيف (Golénisceff) الذي كان حيناً أستاذاً للتاريخ المصري القديم بالجامعة المصرية ، فنشر كاغداً مصرياً اسمه « البابيروس الهيراتيقي » عدد ١١٠٥ و١١١٦ حرف (أ) وحرف (ب) بمتحف الهرميتاج ببطرسبرج في سنة ١٩١٣ ، وعهد هذا الكاغد لايتجاوز الاسرة الثامنة عشرة ، ولكنه نسخة من اصل يرجع تأليفه لعهد الأسرة التاسعة او الأسرة العاشرة . وهو خاص بالسحر وقد أطلق عليه بين العلماء اسم (بابيروس بطرسبرج) واليك بعض ما جاء فيه خاصاً بالسحر .

« ان الاله الاعظم (ربما كان يقصد رع) خلق السحر لمنفعة البشر » . وقد كتب الملك خاتي الذي حكم في الفترة الوسطى بين الأسرة السادسة وبين ملوك طيبة ، في الالف الثالثة قبل المسيح رسالة امر فيها ابنه « مري — كا — رع » ان ينفذ ما جاء بها بالدقة . قال الملك : ان الله (كذا) قد أنعم على الناس بخيرات كثيرة ، لانهم رعيته وقطيعه المحتاج لعنايته ورعايته وعطفه ، وقد خلق السماوات والارض لاسعادهم وهناءتهم وبدد ظلمات البحار (يقصد المحيط الاول) وخلق نسيم الحياة ليستنشقوه ، وخلق الله جميع الخلق (رجالاً ونساء) على صورته وصنعهم من اعضائه ، وهو يصعد الى السماء ليفرحهم ويحسن اليهم ، ينعم عليهم ، وخلق الفواكه والخضر والطيور ذات الريش والدواجن المجنحة (الدجاج والاوز والبط) والاسماك السابحة والاغنام والمواشي ليأكلوها . وتبارك الله فقتل اعداءه ، وأهلك اولاده اذ تذمروا ، وتألبوا عليه . ان الله الذي جلت قدرته قد جعل نور النهار احساناً منه اليهم . ثم انه سبحانه خلق لهم السحر ليكون سلاحاً يحاربون به قوة الشر التي تحيق بالحوادث ، ويقاومون احلام الليل وأحلام النهار وما يزعجهم من رؤى !

وقرأ الاستاذ جولينيشيف كلمة (حيكاو) بمعنى السحر ، وهي التي تكتب في الهيروغليفية من الشمال الى اليمين « حبل مفتول — ذراعان مرفوعان — طائر الصقر — واو مقلوبة — رجل راكع » . وكلمة (حيكاو) هذه تؤدي معنى السحر والطلاسم والصلوات المرتلة ، وكلمات القوة وكل فن من فنون السحرة .

و يوجد في المتحف البريطاني بابيروس تحت عدد ١٨٨٠٠ ! يدل على القوة السحرية العظيمة التي كان يتمتع بها الرب (بيب — أر — چر) رب الحدود الذي كان اسمه ايضاً خبيرا (او الخبير !!) . وجاء في « كتاب معرفة أجيال رع » ان الرب وجد بنفسه وذاته ، بمفرده في المحيط الاول (استوى عرشه على الماء ؟ !) بالاسم فقط ، وذلك بطريقة « الحكا » او السحر ولكن هذه الطريقة لم توصف ، وقد اشتغل بقلبه اي بعقله الى ان صار كائناً ، فعرف المصريون بعد ذلك انه خبيرا او رع ! ..

ومعنى هذا ان الرب قد وُجد بالاسم فقط ، وقد جاء في الاسطورة ان الرب قد باح بهذا الاسم السري او الاسم الاعظم لايزيس لتتمكن من حكم العالم به ، وسبب ذلك ان ايزيس تمكنت بسحرها من خلق أفعى عظيمة سامّة واصرتها بلذع الاله ، فلما لذعته وسرى السم في بدنه وأيقن انه لاشك هالك ، باح لها بالاسم الأعظم ، فقرأت ايزيس تعويذةً شفته من لذعة الافعى . فظهر حذق ايزيس في السحرين الأسود والابيض لانها أماتت ثم أحيت .

وترى عند اهل بابل والأحباش عقائد لا تختلف عن معتقدات المصريين في السحر والتمائم . كعقيدة احتياج الارباب جميعاً للسحر ، وما ينفع الأرباب ينفع البشر حتماً ، فترى عند اهل بابل « دوبو شيماتي » اوألواح القدر . وقد شمل السحر قدرة الشيخ على تفسير الأحلام ، وهو دليل اعتقاده بان الآلهة تزيح الستار عن الحقيقة لبني آدم بطريق الرؤيا الصادقة ، فذكر في كتب القدماء كثير من الأحلام ، وجاءت في الكتب المقدسة رؤيا يوسف الصديق ورؤيا فرعون وغيرهما . وكان اليهود يعتقدون في (اوريم) و (تميم) وكانوا يسألونهما عن المستقبل كما كان شاول يستخير الله ، وكما كان اليونان يستفتون الوحي في دلف ، وكما كان العرب يسألون اهل الكهانة وكانت الكهانة علماً محترماً عندهم ، ونبغ فيه كاهنة اليمن التي أنذرت بخراب سد مأرب ومجيء سيل العرم ، وزبراء وسلمى الحميرية وعفيراء وفاطمة الخثعمية وزرقاء اليمامة .

ولما جاء الدين المسيحي صارت صور الرسل والشهداء والعذراء وبعض آيات من الكتاب المقدس بمثابة تمائم وحجب ، وقبل اختراع الورق كانت هذه الاشياء تكتب او ترسم على الجلد والعظم والمعدن . واكتشف المسلمون أن لأسماء الله الحسنى فعلها

السحري ، وكذلك بعض آيات القرآن الكريم مثل « ان بصرك اليوم حديد » وفي القرون الوسطى انتشر السحر الشرقي في انحاء اوربا ولا تزال منه آثار باقية حتى الساعة . وفي فرنسا قرى يعتقد اهلها في السحر و يطلقون اسم الساحر على احد اهلها ، وهذا مشاهد في مقاطعة ساڤوا . وألف هنري بوردو كتاباً اسمه « البحيرة السوداء » ، قصة رجل يقتل زوجة خصمه بفعل السحر عن بعد ، وأسس علماء الفلك والطبيعة والرياضيات علومهم على علوم السومريين والبابليين والاشوريين ، ويقول الاستاذ والاس بدج ان في انجلترا وامريكا الوفاً من الناس يعتقدون بامور كانت محترمة في بابل وآشور ، منذ ٥٠٠٠ سنة . فمهما كبر شأن العلم واتسع نطاق المعرفة وتأصلت الحضارة ، فلن يشفى الانسان من عقيدة السحر ، والتعلق بالتمائم والحجب والتعاويذ والاعتقاد بالتنجيم وصدق التنبؤ بالغيب والكهانة وفي اوربا الآن اشخاص يعيشون و يربحون ارباحاً طائلة من التنجيم وعمل الطوالع وكتابة الحجب والتنبؤ عن المستقبل ، وزاد الاقبال عليهم بعد الحرب ، وظهر في الثورة الفرنسوية كاليوسترو الذي قبض على زمام باريس بسحره وشعوذته ، وفي اوربا وامريكا مئات من أمثال هذا الرجل . ليس علم التنجيم من العلوم الحقة ولكنه يصدق غالباً في معرفة اخلاق الناس بواسطة الطوالع التي تسمى (هوروسكوب) . وفي اوربا لعهدنا هذا آباء خرجوا لاولادهم طوالع وهم يربونهم ولايحيدون عن نبوة الطوالع قيد شعرة . و يوجد أطباء اوربيون وعلى الخصوص انجليز ، يعملون لمرضاهم طوالع و يتبعون العلاج الذي يظهر وصفه فيها . و يظهر في انجلترا في كل عام تقاويم فلكية للتنجيم أشهرها تقويم مستررافايل وتقويم سيفار يال ومس آدمز . وكانت مدام تيب تصدر في فرانسا تقويماً سنوياً شهيراً ولما توفيت حل محلها كثيرون يتنبأون عن المستقبل واذا خاطبت عالماً طبيعياً في هذه الشؤون فانه يؤكد لك انها شعوذة ، فاذا ضربت له الأمثال بحوادث تعرفها معرفة شخصية يقول لك « لا بد ان يكون في الامر سر لا أدري ما هو ! » .

اما علم الكف فقد ظهر في الشرق والغرب ، وكان له شأن عظيم ، وألفت فيه كتب كثيرة وأشهر أربابه شيرو وهو رجل مختف وراء اسم مصطنع ، وتنبأ بمستقبل كثيرين من العظماء بمحض النظر الى خطوط اكفهم . وترى بعض علماء الكف

يدلونك على ماضيك وحاضرك بمهارة ، وأطلق اسم شيرو على هـذه الصناعة فصـارت شيرومانسي .

وأشهر قراء الكف والوجه (علم الفراسة) من طائفة البارسي او مجوس الهند الذين توطنوا في بومباي بعد ان هاجروا من بلاد الفرس . وأقل مايستفيده البارسي لنفسه من علمه بالكف ان يتقي الاختلاط بالشرار ممن يكتشف شرهم بقراءة وجوههم والتفرس في أيديهم وكانت للعرب قدم راسخة في الفراسة .

اما طريقة «المندل» فطريقة علمية ، لانها مبنية على تنويم الناظر مغنطيسياً ثم تستعمل العصب البصري في التأثير في المخ فيستحثه فيبعث الى العين بمناظر الغيب ، وهو على أنواع أشهرها في اوربا الطريقة الهندية او النظر في كرة البلور ، او في كأس ماء او في بحيرة او في مداد مسكوب في الكف . وقد عرف بعض اصدقائنا رجلاً كان يقرأ المستقبل في عظمة من لوح الضأن فيسرد الوقائع بانتظام عجيب ، ولا يزال في ايرلاندا واسكوتلاندا واسبانيا وايطاليا وفرنسا والمانيا وبولونيا سواحر يعشن من قراءة «البخت» بالورق او بغيره من أدوات المعرفة مثل فحص فنجان القهوة او «الهمس» او «قياس الاثر» ونعلم ان في السودان وغرب إفريقية سحرة وبعضهم يتصدون لقتل الناس بالايحاء ، فيذهب الساحر الى الرجل و يأمره بان يموت يوم كذا ثم يتركه « ويحصر ارادته في موته » ولا يزال هكذا حتى يموت الرجل ، وقد وضع مستر سومرست موغام قصة في هذا الموضوع وأيده الاستاذ بدج في مقدمة كتابه في العلوم الخفية ص ٣٣ .

وروى بدج نفسه ان مرشداً عربياً صحبه من دمشق الى بغداد ، وأخبره بان السر في وصولها سالمين يرجع الى خمس خرزات زرق معلقة باعلى جبين كل جمل في القافلة وأقنعه بان نجاح الاستاذ المؤرخ في شراء الكتب المخطوطة في وادي تياري يرجع الى الخرز الأزرق وحجب القرآن التي كان يحملها العربي . ولما بلغوا الموصل اخذوا حفنة تراب من قبر الحاخام «هرمزد» فأنقذتهما من شر اليزدية او عبدة الشيطان ثم أخذوا حفنة مثلها من قبة ادريس فنجوا من الخطر في الشلال الثالث . ولما نهب عرب شمر قافلتهم لم يجرؤوا على قتلهم بسبب حجاب من القرآن كان يحمله المرشد العربي .

وجاء في ص ٣٦ من الجزء الثاني من كتاب التجريد الصريح لاحاديث الجامع

الصحيح (البخاري) عن عائشة رضي الله عنها قالت : سُحِر النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان يخيل اليه انه يفعل الشيء وما يفعله حتى كان ذات يوم دعا ودعا ثم قال : أشعرت ان الله أفتاني فيما فيه شفائي أتاني رجلان فقعد احدهما عند رأسي والآخر عند رجليّ فقال احدهما للآخر ما وجع الرجل ؟ قال مطبوب ، قال ومن طبه ؟ قال لبيد بن الأعصم ، قال فيما ذا ؟ قال في مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر ، قال فأين هو ؟ قال في بئر ذروان ، فخرج اليها النبي (ص) ثم رجع فقال لعائشة : حين رجع « نخلها كأنه رؤوس الشياطين » فقلت : استخرجته ؟ فقال : لا ! اما انا فقد شفاني الله ، وخشيت ان يثير ذلك على الناس شراً ثم دفنت البئر .

وفي رواية أخرى أوردها الشرقاوي والغزي في الحاشية انه صلى الله عليه وسلم وجد في الطلعة تمثالاً من شمع تمثال النبي صلى الله عليه وسلم واذا فيه إبر مغروزة واذا وتر فيه احدى عشرة عقدة فنزل جبريل بالمعوذتين فكلما قرأ آية انحلت عقدة وكلما نزع إبرة وجد لها ألماً ثم يجد بعدها راحة . اه البخاري وشرحه .

وطريقة صنع التماثيل من الشمع او القماش ووخزها بالابر او الدبابيس لاحداث الألم في الشخص المقصود والمصنوع التمثال على صورته شائعة في الشرق ، وكانت معروفة لدى القبائل الوحشية من سكان اوستراليا الاصلاء والهنود الحمر وغيرهم . ولا تزال تعملها الضرائر بعضهن لبعض في مصر .

وكان قيصر روسيا يلبس خاتماً فيه قطعة من خشب الصليب الصحيح ويتعلق به ، وكان يعتقد ان هذا الخاتم قد وقى حياة جده فنسيه يوماً فصادف حدوث قتله في ذلك اليوم (راجع كتاب اصول الاوهام الشعبية تأليف شارل نولصون ص١٥٦) وكان مستر روكفلر الشهير يحمل في جيبه حجر النسر وفي داخله أجسام لها كما اتزرنين خاص ويؤمن بان هذا الحجر يقيه المرض والغرق وغيرهما من المصائب (الكتاب نفسه ص١٠) وكان الاستاذ رايت المعلم في كامبردج يلبس خاتماً من الذهب من لوانجو عليه رسم خاتم سليمان ، ويقول انه لا يستطيع العمل ان لم يكن متختماً به .

وكان هنري منجراف يحمل تميمة في جميع مسابقاته فنسيها يوم موته . والانجليز من اهل اوستراليا يعتقدون بان صورة الكانجرو تحميهم وتأتيهم بصنوف من النجاح والنصر .

وروى لي شاهد عيان ان الخديوي عباس حلمي يوم أطلق عليه الرصاص في الاستانة (يوليو سنة ١٩١٤) بيد الطالب المصري محمد مظهر ، كان يحمل في احد جيوبه حجراً من الزبرجد عليه بيت البردة الشهير :

وقاية الله اغنت عن مضاعفة   من الدروع وعن عالٍ من الأُطُمِ

فمرت الرصاصة على الحجر وانزلقت ، ولم تصب جسم الرجل ولو انها تخطت الحجر الكريم ، لأصابت القلب نفسه ·

واحة عين شمس (مصر) :   محمد لطفي جمعة

—((*•*))—

مجالس اناتول فرانس

- ٢ -

كانت مجالس اناتول تغص بكبار الناس عقائل وأوانس وسادات مشهورين من رجال السياسة الى الأدب الى رجال الفن الى الصحافة والطباعة الى الشعراء والشاعرات والكتاب والكاتبات الى المشتغلين بالمشرقيات ، وكانت هذه الطبقة ملازمة له كل اربعاء ، ومنها من يتناول الطعام على مائدته ، ومن جملة من كان يغشى مجلسه المفيد جوريس وطومسون وكليمانسو وبريان ولوتي وسوللي برودوم وريجان ولوبي فوللر وهالفي وبريال ، ولم ينقطع عن مجلسه سوى ليترو باريس ومورياس وكوبيه لانه تطوع في قضية دريفوس فأصبح في نفوسهم شيء منه ، ومع هذا كان يجعل لكرام العقائل والغادات الفاتنات نصيباً من الكلام وربما فاه أمامهن بامور قد تستنكرها العادة والعرف ·

تكلم مرة على البكارة في العوانس وهزءاً بها ضمناً ، وقال ان الفتاة اذا بلغت الثلاثين كيف يطلب منها وهي بهذا الاختلاط ان تحتفظ بعفتها الخ · وذكر في مجلسه ذات يوم ان فتاة خطبت وانتظرت خطيبها مدة الحرب اربع سنين لم تنبس ببنت شفة ، وقالوا ان من كانت على هذه الصورة لا بد ان تحفظ بعد العهود الزوجية ، فقص اناتول قصة شاب انكليزي من أصحاب الأطوار الغريبة ومن ارباب السمة · قال انه خطب فتاة وكان غيوراً جداً وادعى ليلة البناء عليها انه طلب الى مكان بعيد وان شرفه يقضي عليه بالاسراع · فزوّد خطيبته مالاً تعيش به وسافر في الارض خمس سنين ، ثم جاء الى لندرا وعاد ثانية مدة طويلة ، ثم عاد الى بلده واكترى دكاناً في حي خطيبته واخذ يستقري أخبارها ، فعرف انها صابرة على الفراق تنتظر أوبته ، وانه دخل عليها الدار بعد مدة وقد علاه المشيب وقال انه وان أضاع كثيراً من السنين في البعاد الا انه يرجو

ان يعيش في السنين الباقية له مغتبطاً . قال اناتول : ان هذا الرجل بعد التجربة الطويلة يكون من حظه ان لاتخونه زوجته ، اما ان يكون على ثقة من ذلك فليست موضوع بحث .

كان فرانس عجباً في نقده المجمع العلمي الباريزي ، يصف اعضاءه بانهم أناس رجعيون ، وانهم يؤلفون دولة في وسط دولة ، وانهم يتألفون رجال السياسة بلباقة . وانهم لا يعنون بالانشاء والتأليف وانهم اعداء الحكم الجمهوري ، وهم يسكنون في قصر من قصور الأمة ، ويتمتعون بامتيازات طيبة ، والوصايا تتدفق على مجمعهم من كل صوب وحدب ، فهم أغنياء لا تخضع موازناتهم لمراقبة الدولة ، وينفقون الأموال والجوائز على الجمعيات الدينية وعلى النافهين وارباب الثقافة التافهة ، والمجمع آلة فساد ادبي لغوي ، وأشهر ساسة فرنسا يقدمون على أنواع الدناءات والسفاسف لينالوا شرف الدخول فيه .

وسألته امرأة اميركية لها صلات كثيرة بالماليين — وكان يهزأ بها في باطنه ، فاذا غشيت مجلسه يسألها عن اسهم شركات الذهب وعن اسعار الاوراق المالية والسندات — قائلة اني لم أذهب قط الى المجمع العلمي فما تصنعون هناك اذا اجتمعتم . وكان فرانس منقطعاً عن المجمع العلمي منذ مدة ، فتلقى كلماتها بدهشة وأجاب بقوله : اننا ايتها العقيلة نخوض في الموضوعات السامية ، ونحاول ايضاً ان نحل المسألة التي طالما ذهبت فيها الآراء مذاهبها ، وأعني بها خلود الروح ، وأحياناً نلقي نظرات وتأملات في الجمال على ما عرفه أفلاطون ، فنحن ابداً في نظام غير مادي ، نبحث فيما وراء المادة ، وحديثنا في السموات العلى . فدهشت السيدة لمقاله ، وأعجبت بهذه الجلسات التي يجلسها رجال المجمع ، فعاد هو وعقب على قوله : لا ياسيدتي ليست جلسات المجمع على شيء من الجمال ، فلا تصدقي شيئاً من ذلك ، فانا في الحقيقة نتكلم قليلاً ونظل سكوتاً هناك وكثيراً ما نشعر بالبرد لعدم التدفئة في قاعات المجمع . ولما كانت جمهرتنا من الشيوخ ترينا محزونين فانا هناك نحمل معنا أحقادنا وهمومنا القاسية ، ونحن مخلوقات على صغرنا اي نحن أناس يقل فينا الذكاء ، فجلسات المجمع العلمي موحشة لا تخلو من رقاعة .

وقال مرة انه لم ينتفع من لقب المجمع العلمي الا يوماً واحداً وذلك انه كان مع فتاة في مكان لا تسوغه القوانين العامة فجاء الشرطي فلما اقترب منه ، اخرج فرانس من جيبه

بطاقته وشفعها بريال ودفعها له ، فسلم الشرطي تسليم اجلال ، وقال : ولكن ياسيدي ان فسطان السيدة احمر وهو يبدو عن بعد كأنه علم فقال لا بأس . فان الفسطان سيرفع عما قريب . وهذا من غرائب فرانس ويستدل من كثير من وقائعه انه كان يعبث بمصطلحات المجتمعات ويضحك من القوانين والعادات وتغلب عليه امور الحس .

تكلم يوماً على الشاعر فقال انه اكبر من ملك ، وهو رب في الارباب فان قريحته توليه سلام القلب وافراح الفكر ، فهو بدون ان ينقلب من سريره يكتشف مثل خريستوف كولمبس قارات جديدة ، وبدون ان يتحرك يفتح مثل شارلمان بلاد الامم الاصلية الاربع ، ومن دون ان يبتعد عن منضدته يحب جميع النساء مثل دون خوان . فالناس من اجله يكشفون الجمال ، وينفذون المشاريع العظيمة ، وهو الذي يرى ان هيلانة فتانة وكليو باترا ملولة ، وهو يلتقط جميع الحركات ، ويرى جميع ضروب الحياة ، ويستمتع بكل ما في العالم من سرور وهو من القدرة على التصرف بحيث يجمع الكلمات ولكنه يبدد صورة العالم .

وقال مرة اثناء كلامه على فيني الشاعر : ما من احد يتلو شعره ولكن الناس كلهم يعرفون اسمه ، وهذا المجد خاص بالشعراء عامة فهم أداة تعين العشاق على الحب وهم سماسرة من الطراز الاول ، وأرى ان الناس اليوم يحبون قليلاً ، فان الناس يتلاقون ويتضامون ولكنهم قلما يحبون ولذلك تخلوا عن تلاوة أقوال الشعراء . واي امرأة تستطيع اليوم ان تكرر كلمة شقيقة شاتو بريان وهي تحتضر قلقة امام الراهب بقولها : آه ايها الأب ماذا اقول للمولى اذا مثلت أمامه وانا لا أعرف غير أبيات من الشعر . اي انها كانت تحاذر ان تلقى الله وهي لم تتعلم غير الغزل .

* * *

كان فرانس خلال الحرب العامة يلتزم الصمت ولا يجاهر بافكاره بعد ان رأى ماحل بصديقه جوريس من الاغتيال ، بل كان كثيراً مايصانع القائمين بالحرب ويمتدحهم ويثني على اعمالهم . وقد رأى ذات يوم فتاة لصديقه وراويته تحمل اليه باقة زهر فتذكر قصة وقال : هل في وسع الفتيان والفتيات ان يقضوا ياترى بتأثيراتهم على الحرب ، فقد حدث في الحرب الدينية بين الكاثوليك والبرتستانت ان الموسيين في فاجعة كوتزبو

ضاق خناقهم من محاصريهم ، فأرسلوا ذات يوم أولادهم ذكوراً واناثاً من سن السادسة الى الثانية عشرة يحملون أغصان الزيتون ، فدهش المحاصرون من هذا المشهد ، وكفوا عن الطعن بحرابهم ونشابهم ، وتصالح الإخوان المتقاتلون على الدين ، وكان ذلك اول مرة تغلبت فيه الشفقة على القسوة . وقال : ان عصر الموسيقيين كان متوحشاً ، ونحن ارتقينا منذ ذلك العهد ، ولا نستطيع ان نتصور اليوم ان جيشاً من الأطفال ذاهباً الى الالمان ، فانهم قبل ان يلمحهم العدو تكون المدافع قد أتت عليهم بجملتهم ، واذا ساغ تحريك عواطف الجندي القديم فهل في المكنة تحريك عواطف السياسيين وأرباب الاموال ، فنحن قد تمدنا ولذلك ليس للعواطف سلطان علينا .

حدث راويته قال : ان اناتول كان ذات يوم يتمدح الماضي بفصاحة زائدة وانه كثيراً ما كان يحب المتناقضات ويوردها مختاراً قال : أصبحنا بارتقائنا اقل صبراً من أجدادنا واقل قابلية لتحمل المكاره ، فان المدنية لا تساعد على توسيع الأمل ، وتحمل الشدائد ، لانها تظهر الحقيقة على علاتها ، ولذا يذهب بي الفكر الى الاسف على الماضي ، وعلى الرغم مما تم من المخترعات والمظاهر والمعارف المتنوعة ، وعلى الرغم مما اخترع من الطيارات والغواصات والاسلاك البرقية ، لا أرى اننا بلغنا من حيث المعنويات ما بلغه أجدادنا . فقد كان للمجتمعات قديماً شراب مسحور عجيب في اسكاره ، وبلاسم مؤثرة تعينها على الاحتمال . ولم يكن الامل والحرية قد اقفرت منهما الارض ، وكان آباؤنا يعترفون مثلنا ان الحياة ممزوجة بآلام ، بيد انهم كانوا يرون انه لابد ان يعقبها سرور دائم ، فكان الشر في نظرهم كظل صورة جميلة ملئت بالمنازع ، والالم شارة اصطفاء ، والموت ممر الى النور ، وكانوا على ثقة اذا رفعوا عيونهم خلال صلواتهم ان عيوناً أخرى تأتيهم من السماء فتقابلهم . واي عزاء للنفس أحسن من الاعتقاد بان صوتاً الهياً يناديننا يوم الحشر في قبورنا ، ويتجلى لنا تعالى ولوليماقبنا بماجنينا . وأحب ايضاً ان أعتقد ان الارض خلقت خلقة اسمية وانها متصلة بالسماء كل الاتصال وذلك بطائفة من الملائكة او وسطاء الشياطين وانها في وسط الوجود .... ولكم كانت الأوهام عذبة في مذاق من يعانون المصائب ، ونحن نعلم الآن ان هذه الكرة الارضية ليست سوى نقطة من الطين في محيط غير متناه مما يتألف منه العدم . نعرف هذا ونعرف ان الانسان ليس من العوالم

الخسارة ، بل هو درجة من السلم الكبيرة في العوالم ٠٠٠٠ ولم يبلغ الانسان من النظام مبلغاً يؤهله الى فهم الحقيقة ولا يرى ولن يري ابداً شيئاً من الحق فهو مخدوع وسيخدع على الدوام ٠ وذكاؤه اوصله الى معرفة الفناء ، وهو في الواقع ذكاء محدود لا يطلعه على شيء اللهم الا على أوهام في الحواس ٠

بقيت مسألة الوجدان فانها ما زالت منذ عهد (كانت) الفيلسوف موضع نظر الفلاسفة المحدثين ، يدعون ان صوته يسمع فينا ، وهو يملي علينا واجباتنا ، وينادينا حيّ على المعنويات ، ويدعونا الى ان لا نعمل بالغير مالا نريد ان يعمله معنا ٠ وهكذا فانا نشاهد الفيلسوف رنان مثلاً يريد الاحتفاظ بمظهر المقصد الاسمى ، فبعد ان انكر وجود ادنى أثر للارادة الالهية في العالم صادق على فكرة الوجدان الذي يستلزم فكرة وجود الاله تعالى ٠ وهذا يذكرني ببعض الفلكيين الذين ظلوا على نصرانيتهم يقومون بما تفرضه عليهم و يؤكدون انه اقتضى للنور مليون من السنين حتى وصل الينا ، وان الشمس ونظامها تسيران في اللانهاية منذ مليارات من القرون ، ومع هذا فانهم لم يبرحوا يعبدون الاكاذيب التي اتى بها ذاك الشيخ اليهودي الذي زعم ان الارض خلقها في سبعة ايام و يؤكد انه أدار الشمس حول الارض وان اصل الخليقة لا يرد الى اكثر من سبعة آلاف سنة ٠

وقال يوماً : الناس في غفلة عن ان العالم ينقضّ و يتداعى فهم لا ينظرون الى ما يحدث مع ان الحالة بادية محسوسة فالعالم بل وكل عالم لا يعيش اذا لم يجعل الكمال له غاية الغايات ، بيد ان المقصد الأسمى على ما يظهر آخذ بالنفاد ، مشرف على الانتهاء ٠ وما من امر يأخذ بيدنا ، وما تمدنا المرائي سوى ركام من المظالم آخذ بالخراب ، فقد كان الناس فيما مضى يعيشون بالمعتقدات والرجولية والذكاء ، فكان عيشهم وحشياً ، ولكنهم يعيشون بقوة ونشاط ٠ ولا يعيش الناس اليوم الا بالمال ، وكل أمانينا منصرفة الى الاستمتاع ٠ كانت الكلمات المحبوبة التي تتعالى في القرون الوسطى عبارة عن تأليف الاغاني وعن الابتعاد عن الاختلاط ٠ وأقصى غاياتنا اليوم ان نبلغ ما نريد وان نخادع ونخدع وان نضارب ونضرب ولاشيء بكبح من جماحنا ٠ والناس لا يحسنون التفكير ولا يجيدون الكتابة ٠ وما خلا هذه البلاغة السياسية التي هي فن الغش بالألفاظ وصوغ الوعود بدون القيام بهـا ، والقاء البارود في العيون ، والاختفاء وراء حجاب لا شيءٌ يبقى و يدوم ٠

لقد خلف ارباب الأموال فرسان القبر المقدس وكبار العلماء وعظماء المحاربين والقديسين والأبطال وأصبحت المجتمعات في ثورة متقدة لانها لاتقوم على اساس، ولانها خالية من رأس مال حقيقي في الأخلاق وكل انسان يطالب بالسعادة ، و يعتقد انها عبارة عن ان يأكل طيباً وان يقتني مركبات لحسابه ، اما الامل والمفاداة والصبر والشعور وانها فرع من أسرة في مجموع العالم فهذا ما لا بال له · ولانزال نتبجح بكلمات مبهمة لا محصل لها كالحب والاخاء ، ولكننا أضعنا معناها او وضعنا لها معنى نرتجله وهو الفدامة بعينها · أصبح المجتمع على خطر لانه ضعف ضعفاً طبيعياً وتبدل لمكان المدنية من التسرب اليه وهو يقضي بامراض السرطان والسل ، وهو الى المرض أدبياً لانه لا يقوم على أساس راهن · وتكثر في هذا المجتمع المصائب والنوائب ، ولذا كان حرياً بالهلاك ، وذلك لان كل ما هو ماثل لا اثر فيه للفضيلة · وعزّ فيه ظهور العظماء من الناس وانقطعت الحماسة الحقيقية ·

ولما قال له مخاطبه : ان حكمك على هذا العصر قاس ياسيد ، اجاب : وبعد فما أعمل وانا لم أرزق ملكة الاستسلام للأوهام ، وهي من العوامل المساعدة على الحياة · ولما كنت أنظر الى الامور نظراً واضحاً فقد ارى أناساً ليست لهم اقل قيمة في الأخلاق والعلم وهم مع هذا يضطهدون غيرهم · واذا طمحت المجتمعات الى ان نظل قائمة بتعذيب الضعاف فعلى الاقوياء ان ينجوا و يبرزوا و يخلصوا لما هم بسبيله ليكونوا اهلاً بالامتياز به من الخصائص ، بيد اننا لانفتأ نعيش في الظلم على حين نتساوى في التوسط والاعتدال وفي كل مكان نجد للاتجار بالسلم الرديئة رواجاً ، واينما تطلعت ترى الطمع في الاستمتاع على صورة بشعة مفرطة آخذاً باعنة الناس · قال : واني لأرى المصانع القديمة آيلة الى مرض شديد ولا أعتقد ان في المكنة احياء الأموات ، وارى شعلة الدين والحكم المطلق ، وكانت مما يعز على بلزاك ، قد اخذت تنطفئ ، اما الجمهورية التي هي طراز من الحكم طالما دعوت اليه ، فالظاهر انها لاتحوي عناصر لمقاومة الاعاصير ، بيد ان تبديل الحكومات ليس الا ظاهرة من الظواهر ، والأزمة عمت وطمت ، فنحن يا صاح في حالة تشبه حال العالم الروماني غداة غارات البرابرة · عالم ينتهي وآخر يبتدي ·

ومن آرائه (بتعريب فاخوري) : ليس التاريخ بعلم بل هو فن ، ولا ينجح فيه الا اصاحب المخيلة ، ينسخ المؤرخون بعضهم عن بعض فيكفون انفسهم العناء ولا يتهمون بالغرور . اقتد بهم ولا تكن مبتكراً ، فالمؤرخ المبتكر موضع ريبة واحتقار واشمئزاز عند الناس كافة . ومما قاله ان التاريخ ليس مجموعة أقاصيص اخلاقية او مزيجاً من الحوادث والخطب البليغة فقد لا توجد فيه قطع بيانية جميلة ولكن لا ينبغي ان نلتمس فيه حقيقة ، لان الحقيقة هي اظهار مابين الاشياء من نسب لازمة ولا سبيل الى اثبات هذه النسب لان المؤرخ عاجز عن اتباع سلسلة العلل والمعلولات . فليس التاريخ اذاً بعلم لانه مقضي عليه بعيب في طبيعته ان يلزمه غموض الكذب وان يعوزه السياق والاتصال اللذان لا معرفة حقيقية بدونهما . التاريخ ليس بعلم لان الثورات والحروب لا تضبط بحساب . قال : على مَ تؤلف تاريخاً وليس عليك الا ان تنسخ من أشهر كتب التاريخ كما هي العادة ، ان كان عندك فكر جديد او رأي خاص ، او كنت تظهر الناس والاشياء من وجهة غير مألوفة . فانك اذاً تباغت القارئ والقارئ لا يحب ان يباغت . هو لا يلتمس في التاريخ الا الحماقات التي يعرفها فاذا اجتهدت بتعليمه كانت ثمرة جهدك ان حقرته في عين نفسه فأغضبته . لا تحاول إثارة فكره والا صرخ قائلاً : انك تسفه عقائده .

وقال ان الحرب اليوم عار الانسانية وكانت من قبل فخرها ، لقد أوجبتها الضرورة على الممالك فكانت مربية النوع البشري الكبرى . بها مارس ابناء آدم الفضائل التي تشاد عليها الحضارات وتدعم بها قواعدها ، علمتهم الصبر والحزم والاستهانة بالمخاطرة ومجد التضحية . ويوم دحرج الرعيان قطع الحجارة الضخمة ليبنوا منها سوراً يحامون وراءه عن نسائهم وثيرانهم ، أنشئ اول مجتمع انساني وضمن ترقي الصناعات . وهذا الخير العظيم الذي ننعم به أعني الوطن او المدنية او ذلك الشيء الجليل الذي عبده الرومان ورفعوه فوق الآلهة انما هو ابن الحرب .

وقال في هذا المعنى : لا مراء في انه ستقع ايضاً حروب كثيرة فان الغرائز الوحشية والاطماع الفطرية والكبرياء والجوع التي أتلفت العالم خلال عصور متطاولة ستستمر على إتلافه ايضاً . وهذه الكتل البشرية الكبرى الآخذة اليوم في التألف لم تجد بعد قاعدتها ولم توفق الى توازنها . وكذلك لم ينتظم تداخل الشعوب بعضها في بعض الانتظام الكافي

لضمان الرفه العام بحرية المبادلات و يسرها كما ان الانسان لم يصبح بعد محترماً في نظر الانسان ولم تتساو أجزاء البشرية في دنوها من روح الاشتراك والتعاون لتكون جميعاً كالحجيرات والاعضاء في الجسد الواحد ، وليس بمقدر حتى لاحدثنا سناً ان يشهد ختام عهد السلاح . بيد ان تلك الايام السعيدة التي لم نعرفها نحن نحس بمجيئها ، فاذا مددنا الى عالم الغيب هذا الخط الذي نرى بدايته كان في وسعنا ان نرى مواصلات أوفر وأكمل بين الامم والشعوب ، وشعوراً أعم وأقوى بالتضامن الانساني ، وتنظيماً أفضل للعمل ، و بالنهاية قيام (الدول المتحدة) في العالم بأسره ، وسيتحقق السلم العام ذات يوم لا لأن البشر يصبحون خيراً مما كانوا (هذا لم يؤذن لنا ان نرجوه) بل لأن نظاماً شديداً للاشياء وعلماً جديداً وضرورات اقتصادية ستلزمهم بحالة السلام .

* * *

هذه بعض جمل اثرناها مما نقل من كلام اناتول فرانس في مجالسه ونظن انها تمثل لكم روحه ومنازعه في الحياة ويتلخص منها انه من اصحاب الشكوك يشك في كل شيء و يقدح في المدنية الحاضرة و يسيء الظن فيها ، فليس هو اذاً من المتعصبين العادبين الذين أنبغهم الغرب ، بل هو عالم يحسن بث علمه في الجمهور ، وعليه هذا تقرأوه في قصصه منثوراً نثر الذهب على نمارق من مختلف الزهور ، ولا تفهمها على جليتها الا اذا قدرت لك تلاوتها باللسان الذي كتبها به ابوعذرها ، وهو الغاية في الإبداع والبيان وجمال المأتى .

واذا رأيت الكاثوليكي المتدين قد تنقبض نفسه لذكره فاعرف ان اناتول لم يترك للصلح مكاناً مع اهل الاديان . واذا سمعت بان مالياً غنياً يحتقر افكاره فاعرف ان اناتول حاول ان يسقط هذه الطبقات لانها جائرة على ما يرى على المجتمع . ومعظم ما أصابه من الشرور كان بصنعهم و كزازة ايديهم ، وما ارتكبوه من الموبقات للاحتفاظ بمكانتهم والاستمتاع بشهواتهم . واذا قيل لك ان بعض طلاب التوسع في فتوح الممالك احصوا عليه أنفاسه في حياته ، وخافوه وعدوا موته نعمة عليهم فأيقن انه حاربهم طول حياته ، يريد ان يقنع كل مالك بملكه ، وترجع كل دولة الى حدودها الطبيعية . والحاصل ان اناتول عادى كل الطبقات في الباطن وان ألان لها في الظاهر أساليب الكلام ولذلك قل في قومه خصوصاً أنصاره وأعوانه ، وزامر الحي لا تطرب مزامره ، ورحم الله عمر بن الخطاب إذ قال ماترك الحق لعمر من صاحب ، فالناس مذ كان اول اجتماعهم قد يرضون عمن

برائيهم ، ولا يرضون بحال عمن يتقدم ليقودهم الى الخير والسلام .

وبعد كتابة ما مضى القول فيه حملت جريدة لنوفيل ليتريرLes nouvelles littéraires الباريزية . مقالة لروزني البكر من اعضاء مجمع كونكور العلمي ، جاء فيها ان امرأة من مدهشات النساء كانت هي الملاك الحارس لأناتول استولت زمناً على عقله ، فكانت تصرفه كما تريد ، وتمنى بمادياته عنايتها بمعنوياته ، تتعهده في لباسه وهندامه ، وتحمله على حضور جلسات المجمع العلمي ، وتفصل في قضاياه مع المتجرين بادبه لتحفظ له حقوقه بما تعقده لمصلحته من الشروط ، ولتكسبه من قلمه أقصى مايمكنه احتجانه من مال ، وكانت تريده من حيث المعنويات ان يكتب كتابات حية ، بعيدة ماأمكن من مقتبسات الكتب ، وقد وُصف اناتول بانه أرضة المكاتب او جرذ الخزائن . ومع هذا حملت كتبه كمية وافرة من آراء الناس وعتيق فلسفتهم . ذلك لان اناتول كان بطبيعته مهملاً متوانياً يرضيه ان يضيع اوقاته في معالجة النصوص التي أكل الدهر عليها وشرب ، وهو على نوع من البلاهة يحملق فيما يشاهد ، ولا حظ له من امور الدنيا ، فكانت العقيلة تشذب من حواشيه ، وتحمله على الجادة لتخلد اسمه ، وتدخل النظام في عمله ، وتنحيه عن موضوع المحاورات الكثيرة فيما يكتب ، وتبعثه على ادخال الحياة في كتاباته ، وتجد كل الجد ان تلقي في روعه قصصاً حية قائمة على الملاحظة مملوءة بالغرام والحب ، وكان معها اذا ضايقته يغضب و يقف باهتاً لاحركة ولاسكون ، لانه عرف بميله الى الكسل ، ولا يتلذذ الا بقراءة المفكرات والامالي القديمة ، ينشر ما ينم عن تحقيق علمي ودقة في الانتفاع بالأسفار ، والاخذ بمذاهب الفلاسفة .

وكان يضيق صدره من معالجة قصة جديدة وكثيراً ما يقول : انا لا تطمئن نفسي اذا حاولت ان اقص شيئاً من عندياتي ، بل خلقت في حاجة لان أقع على قصة كتبت بقلم غيري ، وهيأت في الجملة . اما صديقته فكانت تعذله وتسوقه الى وضع قصصه مباشرة من تلقاء نفسه ، وتطلب منه عملاً وحباً ، وبعملها ومراقبتها جوّد اناتول روايات تايس ، والزنبقة الحمراء ، وسلسلة قصص برجريه البديعة ، وكان من احسانه فيها مكافأة له ومكافأة لها ، ولكن ذلك لم يمنعه من الرجوع الى مايحلو له من القصص البالية . وبالجملة فقد كان لها تأثير حقيقي في فن اناتول ، وهي لم تعدّل اصول عمله ، ولاحسنت ذوقه ،

بل بددت فيهما ، وحققتهما بدم طري ، فأسدت اليه معروفاً لايبلى على الايام ، حتى اذا أطلق وشأنه أوشك ان يعود « جرذ كتب » مع ما يتخلل عمله من فترات وخلاعات . كان لا يتعب مما يدون من مطالعاته ، ولا يربأ بنفسه ان يكون عبد الكتب القديمة ، ومغرماً في التحدث بما كان يقرأ من الأسفار .

قال : ولقد كان لهذا الملاك الحارس بعض التأثير في آراء اناتول السياسية الظاهرة . قلنا الظاهرة لانه كان من المتعذر علينا ان نعرف حقيقة آرائه ، وكيف يتصور في هذا السفسطائي العام ان يدخل في حزب او يدين بمذهب اجتماعي ، فقد رأيناه الا قليلاً من حزب البولانجيين لما كانت هذه العقيلة منه . فلما حدثت قضية دريفوس وتحزبت له ماشاها اناتول ايضاً ، وأصبح اشتراكياً عندما اخذ جوريس يعد من ندماء بيت السيدة ، وكان في آخر مرحلة من حياته يميل الى الشيوعية السوفيتية حتى قال علناً : اني احب لينين حباً مازج قلبي . ويرى من المضحك ان يتشدد المرء في الاحتفاظ بمعتقده ، وكل عمله خروج على المعتقدات ، وما كان أمام المعتقدين الا هازئاً او مشفقاً او خائفاً .

وقال ، بعد ان وصف كيف كانت ذاك الملاك الحارس يفتح قصره برضى زوجه لاناتول وضيوفه وكانوا علية الطبقات السياسية والعلمية والفلسفية وفيهم أجمل العقائل والاوانس : ان اناتول كان ناكراً للجميل وذلك انه لما بلغ قنة الشرف ، واغتني بتآليفه ، وأصبح يأتيه منهـا ريع عظيم ، نفض يديه ممن عملت كل شيء للاخذ بيده ومزجت شخصيتها بشخصيته ، فأصبح لايحب ان يراها ، وتركها كأنه لم يعرف امس في حماها . وما يدريك انه كان حانقاً عليها على غير رضاه ، لانها حاولت دون سيره السير الطبيعي . وحقيقة انها منذ اخذت بزمامه انشأ في الأحايين يبدو كأنه يحاول التفلت من قيد ، ويسير على غير هواه وميله . لقد كان الكسل حبيباً الى قلبـه ، والعقيلة تحاول ان تطرد عن فطرته تشرده العقلي كما تطرد ربة الدار نسيج العنكبوت عن متاعها . انها لم ترم الى تهذيبـه ، اما هو فاستطاع بدون عائق ولا هم كثير ان يتذوق طعم الجمع والبحث الى آخر ايامه اهـ .

***

هذا ما قاله روزني في اناتول وكتب جورج لوكونت من أعضاء المجمع العلمي البار يزي

في آخر عدد صدر من مجلة لاروس الشهرية المصورة Larousse Mensuel Illustré خلال كلامه على القصاصين في فرنسا ان اناتول فرانس من الرجال الذين أحرزوا مكانة للخطة الجريئة التي ساروا عليها في المعارك السياسية الرنانة التي وقعت في عهدهم . فهو بلا جدال كاتب محمود بالنظر لما يتخلل افكاره من حرية تنطوي على جرأة جميلة ، ولادائه المعاني الجليلة المفرغة في ديباجة ناصعة كاملة ، ولسعة معارفه الدقيقة . واذا ذكر اناتول فلا يذكر الا بالاعجاب والاحترام . وهو ممن رنّ صدى صوته الساحر في القاصية . وربما وضعوه في مكانة عظيمة قد يظن ان التاريخ الادبي لا يقره فيها جملة . وبلغ من الناس بالنظر لما خصت به أقاصيصه من السحر البراق ، ولاحكامه الحرة ولدعابته في نقده النفاق والمظالم الاجتماعية ، ان اصبحوا لا يرون فيما خطته انامله ما كان فيه ناسجاً على منوال غيره مقتبساً عن الكتب على سبيل الذكرى . ولا مراء في ان اناتول قد قيد نفسه في حدود خزائن الكتب اكثر من تقيده بمشاهد الحياة ، فهو نظار في الاسفار اكثر مما هو نظار في الانسان ؛ هو مبدع في أحاديثه ، رزق ذاكرة مطواعة مجهزة اجمل جهاز علمي ، وكان يطرب في التبسط في ايراد آرائه فيما يقرأه من الاسفار ، وفيما سقط عليه من امور تافهة في ذاتها ، وهو يوردها باسلوب الحاذق الفنان ، ولذلك قلما كان يهتم ليستمع لما يقال ، او ليجول في علم الحال كل مجال . ولما كان يأتي بشيء كان مستمعوه الواقفون على طريقته في صناعته ، وعلى نظامه في أفكاره ، يتساءلون من اي كتاب مجهول صاد تلك النكتة الشاردة ، وحمل تلك الفائدة الدقيقة بأثر . وماعدا كتبه التي أوحى بها تاريخ المعاصرين ما كان المعجبون به يفحصون ابداً في سلخ هذه الصورة عن كتاباته مهما بلغ من سحرها وجاذبيتها . ولذلك كانوا يدعون ان السخرية البادية في كتبه قد اخذها عن فولتير وعلى طريقته سار وبهديه اهتدى . اما لغته السهلة العذبة فهي لغة احسن كتاب القرن الثامن عشر اه .

هذان رأيان لاديبين كبيرين من معاصري اناتول وهما احدث الآراء فيه . واذا جاز لمثلي ان يلقي دلوه في الدلاء امام اولئك الفحول ، فانا انظر اليه من الوجهة التي تحدث أفكاره فيمن يطالعها منا مطالعة امعان لا مطالعة تسلية وتفكهة ساعات الفراغ . انظر في تأثيراته بعد الذي تلونه من مجموعة تآليفه التي انتهت الي في العام الغابر وهي في اثنين

وثلاثين مجلداً ، وفيها كتابه الذي اسماه (الحياة الادبية) وهو يدخل في اربعة مجلدات عرض فيه لكتاب عصره وأدبائه وشعرائه وقصاصيه وممثليه ، فجاءت في مقالاته عبقة من النقد الشهي نشرها اولاً في جريدة الطان ايام كان يتولى فيها منصب الناقد الادبي . ثم جعلها في مجلدات برأسها على نحو مافعل صديقه من قبل جول ليمتر ، ونشر في الطان مقالات في أدباء عصره ثم كسرها على ثمانية مجلدات وسماها (المعاصرون) . ولهذه المقالات مدين اناتول فيما أحسب بالجزء الاعظم من شهرته الاولى .

والشهرة رأس مال الكاتب في الغرب وكم كاتب لم تكتب له شهرة مستفيضة فبقي ذكره مطوياً عن اهل جيله والاجيال التالية . اما الباقي من أقاصيصه ورواياته فهي المرآة الصقيلة التي تعكس على انظارنا نبوغه وعبقريته تراه تارة يأتي بقصة قد تظنها تافهة بادئ الرأي حتى اذا سرت في تلاوتها شوطاً ورأيت اناتول يحلّيها بدرره الغوالي التي ظفر بها خلال مطالعته وعدّ ذلك (روزني ولوكونت) المشار اليهما من موجبات مؤاخذته ، تستعظم عمل المؤلف فلا تعرف بماذا تصف قصصه ، اذ تشهده يورد عليك بالمناسبات مسائل اجتماعية وتاريخية واخلاقية وعلمية ومادية ، وسدى اكثر مايكتب ولحمته من هذا الطراز الممتاز ، فهو ملمّ واي إلمام بعامة علوم البشر ، يعرف الناس من قرب ومن بعد لا كما حاول ناقدوه ان يصوروه ليسلبوه محامده ، ويشوّهوا من طرف خفي محاسنه المجسمة للفكر والنظر ، ويعدوا غرامه في الاخذ عن القدماء واستخراج المدفون من الآراء من أسباب ضعفه ، وربما حسب المتجرد عن الغرض ان ذلك كان من دواعي فخره وعظمته .

الكتاب الجيد هو الذي يقفك على فكرة جليلة ، ويقرب من ذهنك علم مالم تكن تعلم من أيسر سبيل ، لا الذي تنتقل بين سطوره وصفحاته فتحدث لك تلاوته لذة موقتة ثم تنساه او تتناساه بحيث لا يضرك علمه ولا جهله . يختص كل واحد من القصاصين في الغرب اليوم بناحية من نواحي المجتمع الانساني يلونون الكلام فيه ، والقصة عندهم هي الاداة الكاملة التي تفعل في اصلاح الجماعات والافراد فعلاً محمود الاثر في الجملة ، ولكم هذبت من حواشي مجتمعهم وعلمت جاهلهم وأصلحت بما تبث من معوج شؤونهم . اما أقاصيص اناتول فهي الادب السامي والافكار الناضجة الطريفة ، والحرية المطلقة النادرة ، ولذلك لم ير خصومه او من كان في حكمهم ، الا ان ينالوا منه من ناحية ضعف تخيلها فوصفوه بانه

ماجن هزأة هدّام للنظم الاجتماعية ، والمنصف يتجلى له في تضاعيف كتب اناتول ان أسلوبه الممتع لا يبلغ عقول من يريد تهذيب عقولهم ان لم يبرز بهذه المظاهر المتنوعة العجيبة . ولطالما شوهد كأنه يعبث وهو يجدّ وكم تخيل انه يضحك وهو في الواقع يبكي .

للاصلاح طرق وطريقة اناتول راقت البعيد والقريب ، بيد ان القريب قد يبدو منه بعض تأفف لدن سماعها ، لمكان التقاليد والوراثة ، وللحرص الداعي الى الاكتفاء بما علم وتقرر في العرف ، وللكسل المغروس في أغلب الخلق لا يتعبون انفسهم للاجادة في عملهم ويلوكون السنتهم فيمن يستلذون الذم فيه . وهناك شيء آخر يقال له الحسد يأكل قلب صاحبه ، والحسد مسألة المسائل في كل مجتمع ، والحساد يرون ان مما يسكن ثائر نفوسهم ان يطعنوا في مثل اناتول يحطون من ادبه ومكانته لانه ينعم بنعمتهما . وكل ذي نعمة محسود . وما يدريك ان كان معظم الناقدين من الناقمين عليه لذهابه بفضل السبق دونهم ولان منهم من يحاولون اقامة بنائهم الضئيل على حساب مجده المؤثل ، ليوهموا العوام ومن يعلو فوق طبقتهم بعض الشيء انهم سباق في حلبة الأدب ، وان اناتول مهما بلغ من المنزلة وزيد بسطة في العلم لا يتطاول الى مساماتهم ولديهم العلم الجم الذي لا يعرفه ، ومن صحيح الافكار ما انفردت به أذهانهم الثاقبة . وقلما خلا مجتمع من حسد مرمض ، والمعاصرة كما قيل حرمان ، والناس معادن ، والفضل لا يخفى مهما حاول المنطعون ستره . والشهرة ربيبة الدرس الطويل ، والبحث المتواصل ، وقلما سلب دعيّ شهرة غيره فاستأثر بها دونه ، او كتب له ان يتعدى طوره ، ويخرج عن مقدار حجمه !.

محمد كرد علي

—((*~~*))—

عصر الجاحظ (١)

— ٣ —

« الانقلاب الفكري »

بقي علينا الكلام على الناحية العجيبة من نواحي عصر الجاحظ أي على ناحية استفاضة العلم ، لقد جاءت العربية من هذه الجهة ببرهان بليغ على صلاحها للحياة وعلى استعدادها لقبول ما يندمج فيها من صور الفن والعلم ، وأعجب من هذا كله استعداد العرب للدخول في كل طور من أطوار الحياة ، ولا شك في ان التطور من علامات الحياة ففي أسرع من رد الطرف نقل معاوية الملك من شكل الى شكل فبعد ان كان هذا الملك مصبوغاً بصباغ بدوي صبغه بصباغ حضري ، كلنا نعلم رغبة امير المؤمنين عمر بن الخطاب في الخشونة سواء أكانت هذه الخشونة في الملابس ام في المآكل ام في المراكب ولكن معاوية لما كان عاملاً لعمر على الشام تلوّن بالوان البيئة اي بيئة الشام فما لبث ان فخّم ملكه على نحو تفخيم الروم حتى ان عمر بن الخطاب لما قدم الشام قدم على حمار ومعه عبد الرحمن بن عوف على حمار فتلقاهما في موكب ثقيل فجاوز عمر حتى أخبر فرجع اليه فلما قرب منه نزل اليه فأعرض عنه فجعل يمشي الى جنبه راجلاً فقال عبد الرحمن بن عوف : أتعبت الرجل ، فأقبل عليه عمر فقال : يامعاوية انت صاحب الموكب آنفاً مع مابلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك قال : نعم ياامير المؤمنين قال: ولمَ ذاك ، قال : لأنا في بلد لانمتنع فيه من جواسيس العدو ولابدّ لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان فان أمرتني بذلك أقمت عليه، وان نهيتني عنه انتهيت فقال : لئن كان الذي تقول حقاً فانه رأي أريب وان كان باطلاً فانها خدعة اديب

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الآدب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

وما آمرك به ولا انهاك عنه فقال عبد الرحمن بن عوف : لحسن ماصدر هذا الفتى عم أوردته فيه . فقال : لحسن موارده جشمناه ماجشمناه [1] » .

ففي زمن غير طويل رتب معاوية الملك في الاسلام وفي زمن غير طويل ادخلت طائفة من خلفاء بني العباس ميراثنا الادبي في باب لم يدخله من قبل حتى رفل ملك العرب وادبهم في برد قشيب في قرن او في قرنين وما هو قرن وبعض قرن في استيقاظ الام .

كان الادب قبل بني العباس لايحيط الا باخبار العرب وايامهم واشعارهم وخطبهم وملحهم ونوادرهم أوغرائبهم وما شاكل اضراب هذه الامور فكان فيه شيء من الشعور والعاطفة وانما كان يعوزه التبسط في مذاهب الفكر كالفلسفة والرياضيات والسياسة والتوحيد والطب واشباه ذلك فلما جاء ابوجعفر المنصور شرع يحيى بن البطريق وابن جبرائيل الطبيب وابن المقفع وابن ماسويه وسلام الابرش وباسيل المطران في الترجمة فنقلوا الى العربية بعض كتب المنطق والطب ولما جاء المأمون اندفق يوحنا بن البطريق والحجاج بن مطر وقسطا بن لوقا البعلبكي وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي وحنين بن اسحاق واسحاق بن حنين في نقل الآثار فترجموا كتب بقراط وجالينوس وارسطاطاليس وأفلاطون .

وقد كان الجاحظ يرقب كل حركة من حركات عصره فلم يغفل عن شيء مما كان يجري في ايامه فكأنه صورة ناطقة تفصح لنا عن أحوال عصره فقد أشار الى التجديد إشارة خفية فقال [2] :

وقد نقلت كتب الهند وترجمت حكم اليونانية وحولت آداب الفرس فبعضها ازداد حسناً وبعضها ماانتقص شيئاً ... وقد نقلت هذه الكتب من أمة الى أمة ومن قرن الى قرن ومن لسان الى لسان حتى انتهت الينا وكنا آخر من ورثها ونظر فيها » .

وكما انه لم يغفل عن التلميح الى النقل فكذلك لم يغفل عن التلميح الى الآثار المنقولة فأشار الى كتب إقليدس وجالينوس والمجسطي مما تولاه الحجاج وأشار الى مافي ايدي الناس من كتب الحساب والطب والمنطق والهندسة ومعرفة اللحون والفلاحة والتجارة

(١) العقد الفريد (الجزء الاول ص٧) .

(٢) الحيوان (الجزء الاول ص٣٨) .

وأبواب الاصباغ والعطر والاطعمة والآلات[1] وأشار الى كتاب الكون والفساد وكتاب العلوي لارسطاطاليس والى كتب ديمقراط وبقراط وافلاطون وفلان وفلان وهؤلاء ناس من أمة قد بادوا وبقيت آثار عقولهم وهم اليونانيون[2] .

ولقد كان يحذر كذب التراجمة وزيادتهم وجهل المترجم بنقل لغة الى لغة[3] فمن حذره هذا يتبين لنا وجه من وجوه الترجمة في عصره واليكم بعض ماجاء في بعض كتبه من هذا المعنى[4] .

« ثم قال بعض من ينصر الشعر ويحوطه ويحتج له : ان الترجمان لا يؤدي ابداً ماقال الحكيم على خصائص معانيه وحقائق مذاهبه ودقائق اختصاراته وخفيات حدوده ولا يقدر ان يوفيها حقوقها ويؤدي الامانة فيها ويقوم بمايلزم الوكيل ويجب على الجري وكيف يقدر على ادائها وتسليم معانيها والاخبار عنها على حقها وصدقها الا ان يكون في العلم بمعانيها واستعمال تصاريف الفاظها وتأويلات مخارجها مثل مؤلف الكتاب وواضعه فمتى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق وابن ناعمة وابوقرة[5] وابن فهر وابن وهيلي وابن المقفع مثل ارسطاطاليس ولا بد للترجمان من ان يكون بيانه في نفس الترجمة في وزن علمه في نفس المعرفة وينبغي ان يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول اليها حتى يكون فيها سواء عليه ومتى وجدناه ايضاً قد تكلم بلسانين علمنا انه قد أدخل الضيم عليهما لان كل واحدة من اللغتين تجذب الاخرى وتأخذ منها وتعترض عليها وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه كتمكنه اذا انفرد بالواحدة وانما له قوة واحدة فان تكلم بلغة واحدة استفرغت تلك القوة عليهما وكذلك ان تكلم باكثر من لغتين على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق والعلماء به اقل كان أشد على المترجم وأجدر ان يخطئ فيه ولن تجد البتة مترجماً يفي بواحد من هؤلاء العلماء هذا قولنا في كتب الهندسة

(١) الحيوان (الجزء الاول ص٤٠) .

(٢) رسائل الجاحظ على هامش الكامل (الجزء الثاني ص١٦٧) .

(٣) الحيوان (الجزء السادس ص٩٠) .

(٤) « « الاول ص٣٨ .

(٥) هكذا وردت ولعلها ابن قرة .

والتنجيم والحساب واللحون فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين ...»

هذا ما أبقاه لنا الجاحظ من آثار الاشارة الى الترجمة والى الكتب المترجمة والى التراجمة والى آداب الترجمة في عصره وان هذه الآثار على قلتها لنستطيع ان تصور لنا ناحية من نواحي الحياة التي عاشتها العربية في ذاك العصر فندرك ان العربية خرجت من شكل الى شكل بدخول عناصر فيها لم يكن لها عهد بامثالها من قبل .

لا شك في ان الكلام على النقل وعلى الكتب المنقولة في عصر الجاحظ يطول مداه فمن أراد التوسع في هذا فليرجع الى الفهرست لابن النديم والى طبقات الاطباء لابن ابي أصيبعة والى أخبار الحكماء للقفطي ولكن كيف كان الامر لا نجد لنا مندوحة عن الايجاز في الكلام على هذه الناحية الجديدة من نواحي ميراثنا الأدبي التي طبع بها هذا الميراث بطابع خاص ظهرت آثاره على الفكر العربي حتى مزجوا الادب والدين بالعلم فلبس الادب بهذا المزج لباساً لم يكن له في ماضيه .

وقبل الكلام على النقل من اليونانية وغيرها من اللغات لا بأس بالاشارة الى ان الجاحظ قد عاش في عصر تمّ فيه اختلاط العرب ببعض الأعاجم فقد اتصلت باهل هذا العصر أخبار فريق من الاعاجم كالصقالبة والترك والروم والهند وفارس والحبشان والنوبة وأصناف السودان وتناهت اليهم اخبار الاكاسرة وعرفوا كثيراً من صفات نساء الروم وفارس والهند واستجلبوا العبيد من السند واشتروا الغلمان للطبخ وربما سموا بعض سككهم باسماء الأعاجم فقالوا : سكة اصطفانوس وربما سمعنا اسماء غير عربية مثل طيانوا ومنويل وسموعين ونوفيل وميخائيل وغير ذلك وقد خالط بعض اليونانيين العرب في أمصارهم فعرف العرب طائفة من نوادرهم .

***

استفاضت الروح اليونانية في آفاق آسية بعد فتوح الاسكندر فأصبحت الاسكندرية زمناً غير قصير ملجأ يلجأ اليه اهل العلم والبحث وأشباه هذه الطبقات من الرجال الذين أبعد غاياتهم تثقيف عقولهم وترويض أذهانهم وعلى الرغم من العوارض التي عرضت لدور الكتب فأدخلت الضيم عليها بقيت طائفة من التصانيف مستفيضة في الناس تدل على ان فكر المتقدمين لا يزال حياً .

وقد كانت بلاد الشام والعراق داخلة في حضارة يونانية فكانوا في أديرة الرهبان السريانيين ينقلون من اليونانية الى السريانية في احقاب متطاولة كتب فلسفة اليونانيين وعلومهم ، اما تراجمة العرب فقد كانوا في عصر الترجمة يعمدون الى الكتب السريانية فينقلونها الى العربية .

وقد كان المجمع العلمي الذي أنشأه كسرى الاول سنة ٣٥٠ في جنديسابور ينشر في الشرق علوم اليونانيين ويثبّت رغبة القوم في ذوق الفلسفة والطب .

وبقيت مدينة حرّان في بلاد مابين النهرين وثنية فاجتمع آلهة اليونانيين وآلهة رومة الى آلهة الساميين القديمة وكانت حرّان ايضاً في القرون الوسطى ناحية حضارة يونانية فكان اهلها ينصرفون خاصة الى الرياضيات والى علم الفلك .

من هذا كله يتبين لكم ان الثقافة اليونانية هي التي فعلت فعلتها في ميراثنا الادبي وأريد بهذا ان العرب وجدوا في آفاقهم في اول يقظتهم مستودعاً لآثار عقول اليونانيين فاستخرجوا من هذا المستودع ماقدروا عليه .

لاريب في ان نقل هذه الآثار قد شرع فيه القوم على زمن المنصور وانما المأمون هو اول خليفة في الاسلام كانت له جلائل الآثار في استيقاظ العقول من رقدتها فقد أنشأ في بغداد بيت الحكمة وهو اشبه شيء بجامعات هذا العصر وجعل لها دار كتب ورصد فلك فنقلت على ايامه كتب من السريانية الى العربية كانت في الاصل منقولة عن اليونانية فزادت هذه الكتب في ادبنا النامي الاصول المختلف الأشكال .

نعم نهض المأمون بالمسلمين نهضة لم يقتصر فضلها على العرب وحدهم وانما انتقلت اصداؤها الى آفاق اوربة الراقدة فاستفاقت اوربة من نومها بفضل الاندلس وتلك الايام نداولها بين الناس .

واظن ان الخوض في ذكر مانقل من الكتب الى العربية يمتد بنا مداه كما قلت لكم وانما اجتزيء بالاشارة الى العلوم التي دخلت العربية حتى تعرفوا طبيعة الطابع الذي طبعت به ثقافتنا فقد نقل العرب كتب افلاطون وارسطاطاليس وبقراط وجالينوس واقليدس وارخميدس وبطلميوس وهي في موضوعات شتى في السياسة والتوحيد والمنطق والشعر والخطابة والأخلاق والطب والرياضيات والنجوم واضراب ذلك .

وكان منهم من يذهب الى بلاد الروم فيتعلم اليونانية كحنين بن اسحق وهو ابن صيدلاني نصراني من الحيرة فقد سافر الى آسية الوسطى وتعلم اليونانية وعاد الى بغداد فكان طبيباً للمتوكل وكتب في الطب والفلسفة .

انشأت قراءة كتب ارسطاطاليس رغبة في الفلسفة فكانت الفلسفة في المسلمين فاشية في طبقات قليلة من جمهرة المفكرين والعلماء اي لم تستفض في طبقات العامة الا ان رجال الفكر انصرفوا اليها بمجامعهم .

وقد طبقوا الفلسفة على السياسة فمن أقدم المؤلفات السياسية التي تشتمل على بعض نظرات فلسفية كتاب « سلوك المالك في تدبير المالك » لصاحبه شهاب الدين بن ابي ربيع وضعه على ايام المعتصم ومنه نسخة في باريز وقد طبع في مصر .

ومشت الرياضيات الى جنب الفلسفة فنقل العرب الهندسة الى لغتهم من كتب اليونانيين ولا سيما كتب اقليدس وربما اخذوا الحساب عن الهند .

اقدم العلماء الرياضيين من العرب انما هو الخوارزمي الذي كان على زمن المأمون فقد طلب اليه المأمون ان يؤلف خلاصة الكتاب الهندي « سدهاند » ونقلت كتبه في الجبر والحساب الى اللاتينية واستفاضت في اوربة ومن الخوارزمي اشتق الفرنجة كلمة (Algorithme) .

ثم وضعوا كتباً في النجوم ففي بدء القرن الثالث ظهر كتاب ابي يوسف يعقوب القارشي اما الطب فقد جاء المنصور بطبيبه بختيشوع من فارس الا ان الطب العربي عملت فيه عوامل هندية فكان للرشيد طبيب هندي وهو منكه .

ومن جندي سابور جاء ابوزخريا يحيى بن ماسويه فكان ينقل عن اليونانية كتباً كثيرة ووضع كتباً من عنده ككتاب نوادر الطب[1] .

وقد نقلوا ايضاً عن النبطية وعن العبرانية .

هذه خلاصة النقل في عصر الجاحظ فما اكثر الأفكار الحديثة التي دخلت في ميراثنا الفكري فاستلزمت صوراً حديثة تمثلها للعقول وتقربها من الأذهان فبعد ان كان العقل لاصقاً بصور المادة لا يحيط الا بما تعاينه الحواس انسلخ بعض الشيء عن هذه المادة وتعلق

(١) ادب العرب للاستاذ هوار (Huart) ص ٢٧٨ .

بالامور المجردة فتغلغل في باطنه ففكك اجزاء النفس وقواها وحسّها وتفكيرها واخلاقها وطمح الى مافوق البشر والى مافوق العالم فنظر في المبادىء والنتائج ونظر في العلل والقوانين ومن عكف على دراسة اللغة وأطوارها في هذا العصر الذي نقلت في خلاله آثار اليونانيين وآثار الهند وآثار فارس وغيرهم من الامم الى العربيــة لا يتمالك ان يدهش لبيان العرب وان يقول : ما أمرنّ هذا البيان ! وما اقدره على الحياة ! دخلته عناصر لا عهد له بهــا فقبلها ولم يعجز عن تمثيلها وتصويرها وهنا يظهر لنا سلطان العربية في أوضح مظاهره فما ضاقت العربية في يوم من ايامها عن تصوير نتائج القرائح وثمرات الخواطر .

والى جنب هذه العلوم التي استفاضت في الجمهور خرافات لا بأس بذكر طائفة منها نقتبسها عن كتب الجاحظ نفسه فكأن العلم لم يفش في الطبقات كلها . بذكر نبذ من هذه الخرافات نحيط بناحية من نواحي عصر الجاحظ فكأن الجاحظ لم يغادر لنا شيئاً من عصره تفوتنا معرفته ومن هذا يتبين لكم مقدار تدقيقه فهو الذي نبهنا على كل ناحية من نواحي عصره على حرية الفكر وعلى صلاح الايام وعلى فساد الدهر وعلى كثرة الزندقة وعلى شيوع العلم وعلى ذيوع الخرافات .

فمن هذه المعتقدات جلب الخنافس للرزق قال ابو عثمان[1] :

« سقط الى المقابيس ان الخنافس تجلب الرزق وان دنوها دليل على رزق حاضر من صلة او جائزة او ربح او هدية او حظ فصارت الخنافس ان دخلت في قمصهم ثم نفذت الى سراويلاتهم لم يقولوا لها قليلاً ولا كثيراً واكثر ماعندهم اليوم الدفع لها ببعض الرفق ويظن بعضهم انه اذا دافعها فعادت ثم دافعها فعادت ثم دافعهــا فعادت ان ذلك كلما كان اكثر كان حظه من المال الذي يؤمله عند مجيئها اكثر فانظر أية واقية دائمة حافظة واي حارس واي حصن انـ شاء الله تعالى لها بهذا القول واي حظ لها حين صدقوا هذا التصديق والطمع هو الذي أثار هذا الامر من مدافنه والفقر هو الذي سبّب هذا الطمع واجتلبه ولكن الويل لها ان ألحت على غني عالم وخاصة ان كان مع حدوثه وعلمه حديداً عجولاً وقد كانوا يقتلون الذباب الكبير الشديد البطش الملحّ في ذلك الجهير الصوت الذي تسميه العوام امير الذبان فكانوا يحتالون في صرفه وطرده اذا اكربهم بكثرة طنينه وزجله وهماهمه فانه

(١) الحيوان (الجزء الثالث ص١٠٦) .

لا يغير فلما سقط اليهم انه مبشر بقدوم غائب و برء سقيم صاروا اذا دخل المنزل واوسعهم شراً لم يجده أحد منهم واذا أراد الله عزّ وجلّ ان ينسي في اجل شيء من الحيوان هيأ لذلك سبباً كما انه اذا أراد ان يقصر عمره هيأ له سبباً فتعالى الله علواً كبيراً » .

ومن هذه المعتقدات طول العمر بطول الاذن قال الجاحظ[1] :

« قد سمعت من يذكر ان اذن الانسان دليل على طول عمره حتى زعموا ان شيخاً من الزنادقة لعنهم الله تعالى قدموه لتضرب عنقه فعدى اليه غلام سعدي كان له فقال : أليس قد زعمت يامولاي ان من طالت أذنه طال عمره . قال : بلى . قال : فهاهم يقتلونك . قال : انما قلت ان تركوه » .

وكانوا يعتقدون انه اذا كان في الدار ديك أبيض أفرق لم يدخلها الشيطان ويقولون من اكل لحم سنور اسود لم يضره سحر واذا دخنت الدار بالدخنة التي سموها بدخنة مريم او باللبان لم يكن عليها لعمّار الدار سبيل وان من نام بين البابين تخبطه العمار وخبلته الجن[2] .

والعامة تزعم ان لبس النعال السود يورث النسيان[3] .

وكأن أمثال هذه المعتقدات لم تختص بها العامة وانما لهج بها فريق من العلماء والمؤلفين حتى قال الجاحظ[4] :

« ومما لا اكتبه لك من الأجناس العجيبة التي لا يجسر عليها الا كل وقاح اخبار بعض العلماء وبعض من يؤلف الكتب يقرأها ويدارس اهل البصرة ويحفظها زعموا ان الضبع يكون عاماً ذكراً وعاماً أنثى وسمعت هذا من جماعة منهم من لا أستجيز تسميته . قال الفضل بن اسحق : انا رأيت العفص والبلوط في غصن واحد قال : ومن العفص مايكون مثل الاكر وقد خبرني بذلك غيره وهو يشبه تحول الانثى ذكراً والذكر أنثى وقد ذكرت العرب في أشعارها الضباع والذئاب والسبع والعسبار وجميع الوحوش والحشرات والاجناس وهم أخبر الخلق بشأن الضبع فكيف تركت ماهو أعجب وأظرف وقد ذكرت العلماء الضباع

(١) الحيوان (الجزء السادس ص ١١٧) .
(٢) « « الثاني ص ٧٥ .
(٣) « « الخامس ص ١١٥ .
(٤) « « السابع ص ٤٩ .

في مواضع من الفتيا لم نر احداً ذكر ذلك واولئك باعيانهم هم الذين يزعمون ان النمر تضع في مشيمة واحدة جرواً وفي عنقه أفعى قد تطوقت به واذا لم يأتنا في تحقيق الاخبار شعر شائع او خبر مستفيض لم نلتفت اليه » .

وتعرض الجاحظ لبعض المفسرين الذين قد يتصورون تصورات غريبة فقال [1] :

« وزعم بعض المفسرين ان السنور خلق من عطسة الاسد وان الخنزير خلق من عطسة الفيل لان اصحاب التفسير يزعمون ان اهل سفينة نوح لما تأذوا من كثرة الفار وشكوا سأل ربه الفرج فأمره ان يأمر الاسد فيعطس ولما عطس خرج من منخريه زوج سنانير من ذكر وأنثى خرج الذكر من المنخر الايمن والانثى من المنخر الايسر فكفاهم مؤنة الجرذان ولما تأذوا برائحة نجوهم شكوا ذلك الى نوح فشكا الى الله تبارك وتعالى فأمره ان يأمر الفيل فيسلح فسلح خنازير فكفوهم مؤنة رائحة ذلك النجو وهذا الحديث نافق عند العوام وعند بعض القصاص » .

واذا كانت اشباه هذه المعتقدات نافقة عند اهل الحضر فاستفاضتها في الاعراب اولى فالاعراب لا يصيدون يربوعاً ولا قنفذاً ولا ورلاً من اول الليل وكذلك كل شيء يكون عندهم من مطايا الجن كالنعام والظباء ... فان قتل الاعرابي قنفذاً او ورلاً من اول الليل او بعض هذه المراكب لم يأمن على فحل إبله ومتى اعتراه شيء حكم بانه عقوبة من قبلهم [2] .

وتزعم الاعراب ان الضفدع كان ذا ذنب وان الضب سلبه اياه [3] .

وتزعم المجوس ان سوسين الذي ينتظرون خروجه ويزعمون ان الملك يصير اليه يخرج على بقرة ذات قرون ومعه سبعون رجلاً عليهم جلود الفهود لا يقول : هراً وبراً حتى يأخذ جميع الدنيا [4] .

(١) الحيوان (الجزء الخامس ص ١٠٦) .
(٢) « « السادس ص ١٤ .
(٣) « « الخامس ص١٥٣ .
(٤) « « السادس ص ١٦٢ .

تحقيق الجاحظ

أفلا يجدر بنا بعد ان أتينا على ذكر عصر الجاحظ ووصفنا أفقاً عجيباً من آفاق ذلك العصر وأريد بذلك استفاضة العلم فأشرنا الى طائفة من الآثار التي اتصلت بميراثنا الفكري فطبعته بطوابع خاصة أفلا يجدر بنا بعد هذا كله ان ننظر في جهة من جهات ثقافة الجاحظ وهي جهة العلم ·

انكم لتذكرون ما أثبته لكم في كلامي على اول عهدي بالجاحظ من رأي (رنان) في المسلمين من حيث اهتمامهم بالبحث فقد وقع في خلده ان المسلمين يعتقدون ان البحث لا طائل فيه ولا شأن له ·

وقد قلت لكم في حينه ان الجاحظ قد يكون حجة يحتج بها من يريد ان يثبت ان في العرب علماء وانما عصرهم غير عصرنا فلنتفرغ في مجلسنا لتقليب النظر في هذه الحجة أهي قاطعة ام هي غير قاطعة ·

كنت أطالع من ايام غير بعيدة كتاب (مفكري الاسلام) لصاحبه البارون (كارا دي فو) Baron Carra de Vaux فانتهيت الى كلام المؤلف على الجاحظ فقد قال[1] :

« اكبر كتبه كتاب الحيوان وهو كتاب جليل أدمجت فيه فصول كثيرة لا متعلق لها بالحيوانات قد يجمع الجاحظ فيها مايوحيه اليه حيوان من فكرة ومن ذكرى أدبية ومن شعر ومن قصة فاذا شرع القارئ في قراءة هذا الكتاب وفي نيته ان يجد فيه بحثاً علمياً عن الحيوان فقد خادعته نفسه ولكنه اذا قرأ دون غرض من الاغراض منقاداً الى مشيئة المؤلف غير سائله خطة مرتبة فقد يجد فيه كثيراً من لذة البال ·

(١) الحيوان (الجزء الاول ص٢٩٦) ·

لا أظن اننا نستطيع ان نستنبط من الجاحظ فلسفة اومقاييس ولكننا قد نجد له روحاً فلسفية تنسبط في أعلى هضابها وذوقاً للحياة العقلية يذهب في ابعد مداه » .

يشتمل هذا الكلام على رأيين : رأي في الجاحظ من جهة العلم ورأي فيه من جهة الفلسفة فصاحب هذين الرأيين يجرّد احد كتب الجاحظ من قيمته العلمية تجريداً واضحاً فهو لا يجد في كتاب الحيوان بحثاً علمياً عن اصناف الحيوان وانما يقرّ له بقيمة فنه وهو ما افصح عنه في قوله : قد نجد في كتاب الحيوان كثيراً من لذة البال .

وكما جرّده من فضل العلم فقد جرّده من فضل الفلسفة فهو لا يستطيع ان يستنبط من الجاحظ فلسفة او مقاييس وانما يعترف له بروح فلسفية متسعة الافياء وبحياة عقلية بعيدة المدى .

فلننظر في هذا كله أصحيح ان الجاحظ ليس له اساليب فلسفية في كل مذهب من مذاهب تحقيقه وتدقيقه فهل يدقق ويحقق دون ان يبني على اصول مرتبة وقبل ان أقلب النظر في نفي العلم عن الجاحظ رأيت من الواجب عليّ ان أبين لكم : من هو العالم وما الفرق بين علم العامة وعلم الخاصة .

عقد الاستاذ (ريشه) احد اعضاء معهد باريز في كتابه (العالم) فصلاً عرّف فيه العالم تعريفاً بيناً ولمح الى ضروب العلماء والذي يستنتج من الفصل كله ان العالم انما هو الذي يتوخى البحث عن حقيقة مجهولة فهو الذي يرمي الى المعرفة(١) .

فالفرق بين علم العالم وبين علم العامي من الناس ان العامة تقتصر على معاينة الاشياء ولكن العلماء يحاولون ان يعرفوا اسباب هذه الاشياء اي ان يعرفوا مبادئها وقوانينها فقد قال ارسطاطاليس : يبتدئ العلم بالعجب و ينتهي بضده فالعامة لا تعجب من الاشياء التي تعاينها كل يوم وتقع عليها حواسّهم ولكن العلماء يعجبون منها ويجتهدون في البحث عن عللها فهم يريدون ان يعرفوا مثلاً لماذا لا يصعد الماء في جوف المضخة الاّ الى حدّ معلوم فاذا عرفوا علة هذا بطل عجبهم وصاروا يعجبون من ضد هذا الامر .

فالعالم في نظر الاستاذ (ريشه) انما هو الذي ينقب عن الحقيقة المجهولة ولكن لكل

(١) الاستاذ شارل ريشه (Charles Richet) كتاب العالم ص ٧ .

علم من العلوم اصولاً في التنقيب عن هذه الحقيقة فلنبحث في صدر الامر عن الاساليب التي يجري عليها الجاحظ في البلوغ الى حقائق العالم وكشف الغطاء عن غرائبه وطرائفه .

يقول ابوعثمان في مقدمة كتاب الحيوان(١) :

« وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الامم وتتشابه فيه العرب والعجم لانه وان كان عربياً إعرابياً واسلامياً جماعياً فقد اخذ من طرف الفلسفة وجمع معرفة السماع وعلم التجربة وأشرك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان الحاسة واحساس الغريزة » .

لخص لنا الجاحظ في هذه الاسطر أصوله التي يبني عليها في الوصول الى معرفة الحقائق فهو يستعين بالحواس وبالعقل على إدراك الحقائق .

اما الاستعانة بالحواس فقد أشار اليها في كثير من المواطن فقوله الذي سمعتموه من قبل : ليس يشفيني الا المعاينة داخل في الاستعانة بالحواس والمعاينة عنصر من عناصر التحقيق في علوم الطبيعة يضم اليه التجربة والفرض والمقابلة والتصنيف فكل قول في نظره يكذبه العيان فهو أفحش خطأ وأسخف مذهباً وأدل على معاندة شديدة او غفلة مفرطة(٢) .

ولم يقتصر الجاحظ على المعاينة وحدها وانما جمع بينها وبين التجربة في كثير من تحقيق الغرائب في هذا العالم وسأذكر لكم في مجلس آخر أنماطاً من تجربته على أصناف الحيوان ولقد وثق بهذه الطريقة الثقة كلها حتى أصبح لا يجد سبيلاً الى رد الخبر المعروف بمواترته ومرادفته الذي حققه العيان وضمت اليه التجربة(٣) .

فهو في هذا المعنى اي في الاستعانة بالحواس في التحقيق من اصحاب الفيلسوف (باكون) الذي ظهر من سنة ١٥٦١ الى سنة ١٦٢٦ فقد سعى هذا الفيلسوف في تجديد العقل فحاول ان يصلح مناحي الفكر البشري واساليبه في التحقيق فمن رأيه انه لا ينبغي لنا الاستناد الى المتقدمين لانهم لا يعاينون الامور عياناً كافياً فما ينبغي لنا ان نكون اصحاب أفكار مهيأة

(١) كتاب الحيوان (الجزء الاول ص ٥) .
(٢) « « « الثالث ص ١١٢ .
(٣) « « « الثاني ص ٤٧ .

نؤمن بها فان هذه الافكار انما هي بمنزلة الأصنام فلكل حزب اصنام ولكل مذهب أصنام ولكل عصر أصنام فما ينبغي لنا ان نرى في كل ناحية من نواحي الطبيعة منازع فاذا كانت الشمس تدفيء فما يلزمنا ان نعتقد انها خلقت لتدفيء واذا كانت الارض تغذي فما يلزمنا ان نعتقد انها خلقت لتغذي فما يلزمنا ان نرى العالم كله متوجهاً نحو الرجل مستعداً لخدمته ، يجب علينا ان نلجأ الى المعاينة والى التجربة ثم الى استنباط نتائج عامة من الامور التي نعاينها والامور التي نجربها فالاستنباط مداره الذهاب من الخاص الى العام ومن طائفة من الامور الى وضع القوانين ·

هذه فلسفة (باكون) وقوامها : التجربة والعيان ، ولئن لجأ (باكون) الى هذه الفلسفة من ثلاثة قرون فقد لجأ اليها الجاحظ من أحد عشر قرناً الا ان (باكون) توسع في أساليبه فجعل للعيان وللتجربة قواعد عامة فالتجربة في نظره ينبغي لها ان تكون متنوعة ممتدة مقلوبة ·

وكأن الجاحظ رأى ان هذه الطريقة وحدها لا تضمن له الافضاء الى الحقائق لان الحواس التي يعتمد عليها في التحقيق قد تخادع في بعض الاحيان فأحب ان يجمع الى معونة الحواس معونة العقل فقال [1] :

« فلا تذهب الى ماتريك العين واذهب الى مايريك العقل وللامور حكمان : حكم ظاهر للحواس وحكم باطن للعقول والعقل هو الحجة » ·

فكان لا يجعل الشيء الجائز كالشيء الذي تثبته الأدلة ويخرجه البرهان من باب الانكار [2] ·

فالأدلة والبراهين من أعمال العقل وهذه الطريقة انما هي طريقة (ديكارت) الذي ظهر من سنة ١٥٩٦ الى سنة ١٦٥٠ فان فلسفة (ديكارت) ملاكها العقل ومدار طريقته على هذه الكلمة : لاتصدق الا ما كان واضحاً ، صدّق ما كان واضحاً فالوضوح انما واصل الامر في اليقين فماينبغي لقوة من القوى الظاهرة ان يكون لها سلطان على حرية تفكيرنا وما القوى الظاهرة الا السلطة والاوهام والمصلحة والاحزاب ·

(١) كتاب الحيوان (الجزء الاول ص٩٧) ·
(٢) 〃 〃 〃 السابع ص٤١ ·

فما أشبه قول (ديكارت) لا تصدق الا ما كان واضحاً بقول الجاحظ : لا أجمل الشيء الجائز كالشيء الذي تثبته الأدلة ، ولكن (ديكارت) قد تبسط في هذه الطريقة فأنشأ لها قواعد منها تجزئة المصاعب ومنها الذهاب من المبسوط الى المركب وغير ذلك .

الا ان (ديكارت) يشك في كل شيء وقد تكون الحياة في نظره حلماً من الاحلام ولكن شكه هذا لا يشبه شك غيره من الفلاسفة فهو يشك في كل شيء فقد يزعم ان العالم لا حقيقة له على امل ان يصل الى حقائق يثبتها العقل فالشك في مذهبه سبيل الى اليقين .

واذا توسعنا بعض التوسع في التنقيب عن مذهب الجاحظ في التحقيق من جهة العقل تبين لنا انه قد يميل الى الشك على نحو ما مال اليه (ديكارت) في العصور الاخيرة وقد يجعل هذا الشك سبيلاً الى اليقين . من ذلك قوله[1] :

وزعم لي ان ابن ابي العجوز ان الدساس تلد وكذلك خبرني به محمد بن ايوب بن جعفر عن أبيه وخبرني به الفضل عن اسحاق بن سليمان فان كان خبرهما عن اسحاق فقد كان اسحاق في معادن العلم وقد زعموا بهذا الاسناد ان الاروية تضع مع كل ولد وضعته أفعى في مشيمة واحدة . وقال آخرون : الاروية لا تعرف بهذا المعنى ولكنه ليس في الارض نمرة الا وهي تضع ولدها وفي عنقها أفعي في مكان الطوق وذكروا انها تنهش وتمض ولا تقتل ولم اكتب هذه للتقوية ولكنها آية أحببت ان تسمعها ولا يعجبني الاقرار بهذا الخبر وكذلك لا يعجبني الانكار له ، ولكن ليكن قلبك الى انكاره أميل وبعد هذا فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلماً فلو لم يكن ذلك الا تعرف التوقف ثم التثبت لقد كان ذلك مما يحتاج اليه ، ثم اعلم ان الشك في طبقات عند جميعهم ولم يجمعوا على ان اليقين طبقات في القوة والضعف ولما قال ابو الجهم للمكي : انا لا أكاد أشك قال المكي : وانا لا اكاد اوقن ففخر عليه المكي بالشك في مواضع الشك كما فخر عليه ابن الجهم باليقين في مواضع اليقين » .

فقول الجاحظ : اعرف مواضع الشك والحالات الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له يشبه مذهب (ديكارت) في جعل الشك سبيلاً الى اليقين .

(١) كتاب الحيوان (الجزء السادس ص ١٠) .

هذا مذهب الجاحظ في التحقيق في كل امر من امور العلم والدين جمع فيه بين معونة المادة ومعونة العقل فكان هذا المذهب مقدمة الاصول التي بنى عليها (باكون) و(ديكارت) في العصور الأخيرة فالجاحظ صاحب طريقة في تحقيقه ، انكم لا تجهلون قيمة الطريقة في العلوم فقد قالوا فيها انها فن استكشاف الحقيقة فاذا أراد البشر ان يصلوا الى الحقائق لزمهم ان لا يخبطوا خبطاً وان ينهجوا منهجاً قد اختطوه لانفسهم قبل التفرغ للبحث فلا يمكننا الوصول الى الحقائق الا اذا مشينا على خطة معينة اي على طريقة وما يكفينا ان نلجأ الى طريقة ما في دراسة من الدراسات وانما يجب علينا ان نستعمل لكل صنف من الحقائق الطريقة الخاصة بهذا الصنف ففي صنف تحسن التجربة وفي صنف يحسن العقل وفي ناحية تحسن التجربة والعقل معاً فاذا تجرّد الفكر البشري من هذه القواعد ومشى دون ان يعرف مبدأ طريقه ومنتهاه او ان يعرف الطريق التي يسلكها أضاع قواه دون ان يصل الى الحقيقة .

والتاريخ يدلنا على ان الفلسفة والعلوم انما وصلت الى ما وصلت اليه بفضل الطريقة وبفضل عبقرية الذين استعملوا هذه الطريقة .

ان واضع الفلسفة وهو سقراط انما هو اول من عاين طبيعة الرجل العقلية وطبيعته الخلقية وطبق هذا العيان على درس النفس وعلى درس الخالق .

واذا تقدمت في عصرنا هذا علوم الطبيعة تقدماً عظيماً فالفضل في ذلك يرجع الى الطرائق التي وضعها (باكون) و (كلود برنار) و (باستور) واستعملها العلماء من بعدهم .

ولم يكتف الجاحظ بهذه الطريقة وحدها ولكنه احب ان يمزجها بشيء من روعة الفن فما ذكر غريبة من غرائب العالم وطريفة من طرائفه الا ومعها شاهد من كتاب منزل اوحديث مأثور او خبر مستفيض او شعر معروف او مثل مضروب او يكون ذلك مما يستشهد عليه الطبيب او من اكثر من قراءة الكتب او بعض من قد دارس الاسفار وركب البحار وسكن الصحاري واستذرى الهضاب ودخل في الغياض ومشى في بطون الاودية [1] .

نعم ، الجاحظ صاحب طريقة في التحقيق ، ومن هذه الطريقة المعاينة والتجربة ومن

---

(١) كتاب الحيوان (الجزء السادس ص٥) .

اكبر صفات المباين التطلع فان هذا التطلع يحملنا على الاهتمام بامور لا يكون لها في نظر العامة معنى من المعاني مثل مصباح (غليله) او مثل تفاحة (نوتون) واظن اني لا احتاج الا الى ذكر مثل اومثلين في هذا المعنى ، من ذكرهما تتبين لكم خصائص الجاحظ في حب التطلع والاستشراف فقد يقف على الامور وقوف معتبر و يتأملها تأمل مفكر فاذا اعترض لواحد منها فلا يهدأ باله الا اذا نفذ حقائقه وعرف علله وعلم بمقادير قواه وتصرف اعماله وتنقل حالاته . قال ابوعثمان في اثناء كلامه على الفيلة[1] :

« خرجت يوم عيد فلما صرت بفساذ واذا فيل مجلل بمقطوع ومقطعات واذا برجال جلوس عليهم الاسلحة فسألت بعض من شهد العيد فقلت : مابال هذه المسلحة في هذا المكان وقد اختلط الناس بذلك التل ، فقال : هذا الفيل ، فقصدت نحوه ومالي هم الا النظر الى أذنيه وما كانت لي في ذلك علة الا شغل قلبي بكل شيء هجمت عليه منه وكله كان شاغلاً عن أذنه التي اليها كان قصدي فذاكرت في ذلك سهل بن هارون فذكر لي انه ابتلي بمثلها وأنشد في ذلك بيتين من شعره وهما قوله :

اتيت الفيل محتسباً بقصدي لابصر أذنه و يطول فكري
فلم أر أذنه ورأيت خلقاً يقرب بين نسياني وذكري

فهذه القصة على حقارة شأنها تصوّر لنا مقدار ميل الجاحظ الى التطلع فاذا مر بمشهد من المشاهد سأل عنه وقصد نحوه ونظر اليه وشغل قلبه به .

واليكم المثل الثاني وهو ليس باقلّ دلالة من الاول على تطلع الجاحظ قال[2] :

« ولقد تنازع بالبصرة ناس وفيهم رجل ليس عندنا أطب منه فأطبقوا جميعاً على ان الجمل اذا نحر ومات فالتمست خصيته وشقشقته انهما لا توجدان فقال ذلك الطبيب فلعل مرارة الجمل ايضاً كذلك ولعله ان تكون له مرارة مادام حياً ثم تبطل عند الموت والنحر وانما صرنا نقول لا مرارة له لانا لانصل الى رؤية المرارة الا بعد ان تفارقه الحياة فلم اجد ذلك عمل في قلبي مع اجتماعهم على ذلك فبعثت الى شيخ من جزّاري باب المغيرة فسألته عن ذلك فقال : بلى لعمري انهما ليوجدان ان ارادهما مريد وانما سمعت العامة

(١) كتاب الحيوان (الجزء السابع ص ٦١) .
(٢) « « « السادس ص ١٤٩ .

كلمة وربما مزحنا بهـا فيقول خصية الجمل لا توجد عند منحره ، اجل والله ما توجد عند منحره وانما توجد في موضعها . وربما كان الجمل خياراً جيداً فتلحق خصيته بكليتيه فلا يوجدان لهذه العلة فبعثت اليه رسولاً ، انه ليس يشفيني الا المعاينة فبعث اليّ بعد ذلك بيوم او بيومين مع خادمي نفيس بشقشقة وخصية ، ومثل هذا كثير قد يغلط فيه من يشتد حرصه على حكاية الغرائب » .

فانظروا الى مقدار ولع الجاحظ بالتطلع ، يسمع كلام اهل الصناعة على امر من الامور ويجمعون على هذا الامر فلا يعمل الكلام في قلبه فيسأل شيخ الجزارين عنه فيعترف له بصحته ولكن الجاحظ ليس يشفيه الا المعاينة فهذا الافراط في حب التطلع انما هو من صفات العلماء ومن خصائصهم وهل الفرق بين معرفة العالم ومعرفة غير العالم الا في بحث العالم عن كل علة واقتصار غيره على العيان وحده دون الاهتمام بالعلل وبالقوانين .

يقول صاحب كتاب (مفكري الاسلام) لا يجد المرء في كتاب الحيوان بحثاً علمياً عن الحيوان .

فلنرجع الى كتاب الحيوان فهو الكتاب الذي صوّر لنا الجاحظ في صورة العالم على مصطلح هذا العصر ففي شواهد كثيرة على توخي الجاحظ الوصول الى الحقائق في مباحثه وفيه بيان لمختلف أساليبه في التحقيق وفيه أنماط من نقده العلمي ومن فلسفته العلمية فضلاً عن قيمته الفنية التي نرجئ الكلام عليها الى حينه وقد ألّف الجاحظ كتاب الحيوان وهو ابن سبعين بوجه التقريب اي بعد ان اختمر عقله واستوى فكره واتسعت تجاربه ومعايناته .

فلنستخرج من هذا الكتاب طائفةً من الأقوال ولنحكم على طبائع هذه الأقوال وعلى خصائصها .

من هذه الأقوال مايتعلق بخالق الطبيعة لكل صنف من الحيوان في تقويم يستعين به على مقادير حاجاته ، قال ابو عثمان[1] :

وليس شيءٌ من صنف الحيوان أردى حيلة عند معاينة العدو من الغنم لانها في الاصل موصولة بكفايات الناس فأسندت اليهم في كل امر يصيبها ولولا ذلك لأخرجت لها الحاجة ضروباً من الأبواب التي تعينها فاذا لم يكن لها سلاح ولا حيلة ولم يكن ممن يستطيع

(١) كتاب الحيوان (الجزء السادس ص ١٢٥) .

الانسياب الى جحر أو صدع صخرة اوفي ذروة جبل وكانت مثل الدجاجة فان اكثرما عندها من الحيلة اذا كانت على الارض ان ترتفع الى رف وربما كانت في الارض. فاذا دنا المغرب فزعت الى ذلك وربما كان عند الجنس من الآلات ضروب كنحو زبرة الاسد وليدنه فانه حمول للسلاح الا في مراق بطنه فانه من هناك ضعيف جداً وقال التغلبي :

ترى الناس منا جلد أسود سالخ وزبرة ضرغام من الأسد ضيغم

وله مع ذلك بعد الوثبة واللزوق بالارض وله الحبس باليد وله الطعن بالمخلب حتى ربما حبس البعير بيمينه وطعن بمخلب يساره في لبته وقد ألقاه على مؤخره فيتلقى دمه شاحياً فاه وكأنه ينصب من فوارة حتى اذا شربه واستفرغه صار الى شق بطنه وله العض بانياب صلاب حداد وفك شديد ومنخر واسع وله مع البرثن والشدة باظفاره دق الاعناق وحطم الأصلاب وله انه أسرع حضراً من كل شيء عمل الحضر في الهرب منه ، وله من الصبر على الجوع ومن قلة الحاجة الى الماء ماليس مع غيره وربما سار في طلب الماء ثمانين فرسخاً في يوم وليلة ولو لم يكن له سلاح الا زئيره وتوقد عينيه وما في صدور الناس له لكفاه وربما كان كالبعير الذي يعلم ان سلاحه في نابه وفي كركرته والانسان يستعمل في القتال كفيه في ضروب ومرفقيه ورجليه ومنكبيه وفمه ورأسه وصدره كل ذلك له سلاح ويعلم مكانه يستوي في ذلك العاقل والمجنون كما يستويان في الهداية في الطعام والشراب الى الفم والمرأة اذا ضعفت عن كل شيء فزعت الى الصراخ والولولة التماساً للرحمة واستجلاباً للغياث في حماتها وكفاتها او من اهل الحسبة في امرها » .

ومن هذه الأقوال ما يختص بتلون كل صنف من الحيوان بالوان بيئته حفظاً لحياته قال الجاحظ (١) :

حدثنا ابوجعفر المكفوف النحوي العنبري واخوه روح الكاتب ورجال بني العنبران عندهم في رمال العنبر حية تصيد العصافير وصغار الطير باعجب صيد زعموا انها اذا انتصف النهار واشتد الحر في رمال العنبر وامتنعت الارض على الحافي والمنتعل ورمض الجندب غمست هذه الحية ذنبها في الرمل ثم انتصبت كأنها رمح مركوز او عود ثابت فيجيء الطائر الصغير او الجرادة فاذا رأى عوداً قائماً وكره الوقوع على الرمل لشدة حره وقع على رأس

(١) كتاب الحيوان (الجزء الرابع ص ٣٨) .

الحية على انها عود فاذا وقع على رأسها قبضت عليه فان كان جرادة او جعلاً او بعض ما لا يشبعها مثله ابتلعته وبقيت على انتصابها وان كان الواقع على رأسها طائراً يشبعها مثله اكلته وانصرفت وان ذلك دأبها ما منع الرمل جانبه في الصيف والقيظ في انتصاف النهار والهاجرة وذلك ان الطائر لا يشك ان الحية عود وانه سيقوم له مقام الجذل للحرباء الى ان يسكن الحر ووهج الرمل .

وفي هذا الحديث من العجب ان تكون هذه الحية تهتدي لمثل هذه الحيلة وفيه جهل الطائر بفرق مابين الحيوان والعود وفيه قلة اكتراث الحية بالرمل الذي عاد كالجمر وصلح ان يكون ملة وموضعاً للخبزة ثم يشتمل ذلك الرمل على ثلث الحية ساعات من النهار والرمل على هذه الصفة فهذه أعجوبة من أعاجيب ما في الحيات » .

ومن هذا القبيل ما نقله عن صاحب المنطق من ان لكل طائر يعشش شكلاً يتخذ عشه منه فيختلف ذلك على قدر اختلاف المواضع وعلى اختلاف صور تلك القراميص والافاحيص(١) .

ومن هذه المباحث الكلام على تأثير البيئة وقد نقل قول صنف من الناس فقال(٢) :

وقال الصنف الآخر لا ننكر ان يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم فيعمل ذلك في طباعهم على الايام كما عمل ذلك في طباع الزنج وطباع بلاد الصقالبة وطباع بلاد يأجوج ومأجوج وقد رأينا العرب وكانوا أعراباً حين نزلوا خراسان كيف انسلخوا من جميع تلك المعاني وترى طباع بلاد الترك كيف تطبع الابل والدواب وجميع ماشيتهم من سبع وبهيمة على طبائعهم وترى جراد البقول والرياحين وديدانها خضرا وتراها في غير الخضرة على غير ذلك وترى القملة في رأس الشاب الاسود الشعر سوداء وتراها في رأس الشيخ الابيض الشعر بيضاء وتراها في رأس الأشمط شمطاء وفي لون الجمل الأورق ورقاء فاذا كانت في رأس الخضيب بالحمرة تراها حمراء فان نصل خضابه صار فيها شكله من بين بيض وحمر وقد نرى حرة بني سليم وما اشتملت عليه من انسان وسبع وبهيمة وطائر وحشرة فتراها كلها سوداء وقد خبرنا من لا يحصى من الناس

(١) كتاب الحيوان (الجزء الثالث ص ١٦١) .
(٢) « « « الرابع ص٢٤ .

انهم قد أدركوا رجالاً من نبط بيسان ولهم أذناب الا تكن كأذناب التماسيح والاسد والبقر والخيل والا كأذناب السلاحف والجرذان فقد كان لهم عجوب طوال كالأذناب وربما رأينا الملاّح النبطي في بعض الجعفريات على وجهه شبه القرد وربما رأينا الرجل من المغرب فلا نجد بينه وبين المسخ الا القليل وقد يجوز ان يصادف ذلك الهواء الفاسد والماء الخبيث والتربة الردية ناساً في صفة هؤلاء المشوهين والأنباط ويكونون جهالاً فلا يرتحلون ضنانة بمساكنهم وأوطانهم ولا ينتقلون فاذا طال ذلك عليهم زاد في تلك الشعور وفي تلك الأذناب وفي تلك الألوان الشقر وفي تلك الصور المناسبة للقرود .

وقال في التناحر على الحياة[1] :

ومن العجب في قسمة الأرزاق ان الذئب يصيد الثعلب فيأكله ويصيد الثعلب القنفذ فيأكله ويريغ القنفذ الأفعى فيأكلها وكذلك صنيعه في الحيات ما لم تعظم الحية والحية تصيد العصفور فتأكله والعصفور يصيد الجراد فيأكله والجراد يلتمس فراخ الزنابير وكل شيء يكون الخوصه على المشوى والزنبور يصيد النحلة فيأكلها والنحلة تصيد الذبابة فتأكلها والذبابة تصيد البعوضة فتأكلها .

واذا أردت الإفاضة في هذا الباب اتسعت مذاهب الكلام فأقتصر على ما ذكرت دون التعرض لما نبّه عليه الجاحظ في كتاب الحيوان او لما وصفه من غرائز أصناف الحيوان ومن إحساساتها وما شابه ذلك .

أظن أن اشباه هذه المباحث لا تخرج عن العلم وأظن ان الذي يخوض فيها لا يعبث انها لم تخل في تضاعيفها من امور جليلة تكاد تكون أجلّ ما اكتشفه علماء الطبيعة في العصور الأخيرة أمثال داروين ولامارك وسبنسر وأضرابهم ، من هذه الامور التناحر على الحياة والتلون بالوان البيئة وتأثير البيئة والارث وغير ذلك فكان الجاحظ يعترض لأعاجيب الطبيعة ويفكر فيها لان التفكر فيها على نحو ماقال مشحذة للأذهان ومنبهة لذوي الغفلة وتحليل لعقدة البلدة وسبب لاعتياد الروية وانفساح الصدور وعز في النفوس وحلاوة تقتاتها الروح وثمرة تغذي العقل[2] .

---

(١) الحيوان (الجزء السادس ص ١٠٣) .

(٢) « « الثاني ص ٣٩ .

ولكن لا ينبغي لنا ان ننسى ان الجاحظ ظهر من احد عشر قرناً وان العلم الحديث لايتجاوز عمره قرناً ونصف قرن فالجاحظ مشى على آثار ارسطاطاليس وغيره من العلماء اليونانيين في رومة والاسكندرية في تلخيص المعارف فلئن لم يكتشف في علم الحيوان مكتشفات علمية فقد لخص معارف عصره فكتب كتباً علمية في اشياء مختلفة ·

فقولنا لانجد في كتاب الحيوان مبحثاً علمياً لايخلو من شيء من المجازفة واذا نظرنا في مجلسنا الآتي في أساليب الجاحظ في التحقيق تبين لنا ان الجاحظ لا يلهو وانما يبحث وينقب ·

الحُطيئة

— «×» —

شاعرٌ مخضرمٌ أدرك الجاهلية والاسلام وعمّر بهما طويلاً ثم ادركتهُ الوفاة وقد بلغ الثمانين · اسمه جرول العبسيُّ وكنيته ابو مليكةَ والحطيئة لقب غلب عليه لقصره ودمامته · وهو احد فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم متصرف في كثير من فنون الشعر كالمديح والفخر والنسيب · يعدونه في الطبقة الثالثة بين متقدمي شعراء الجاهلية · وهو صاحب البيت المشهور وهو فيما قيل احكم بيتٍ روي عن العرب :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيَهُ لا يذهب العرفُ بين الله والناس

ولكنه مع ذلك كان هجّاءً خبيث اللسان دنيءَ الطبع كثير الإلحاف اشتهر بقبحه ورثة زيه وسوء نسبه وفساددينه لم يسلم احد من لؤمه وشرّه حتى أبويه واهله وذوي قرابته ومما قاله في هجاء أمه :

تنحي فاجلسي مني بعيداً أراح الله منك العالمينـا
اغربالاً اذا استودعت سراً وكانوناً على المتحدثينـا
حياتك ما علمتُ حياة سوء وموتكِ قد يسرُّ الصالحينا

وقال في زوجته :

أطوّف ما أُطوّف ثم آوي الى بيتٍ قعيدته لكاع

وقال في ابيه وأمه :

ولقد رأيتك في النساءِ فسئتني وابا بنيكِ فساءني في المجلس

وهو في كل ذلك فذٌّ لا شبيه له ولا مثيل الاَّ الهلاليّ شاعر حماة وهو من المعاصرين أدركته وعاشرته في مقتبل ايامي وسمعت منه قوله في هجاء أمه :

تالله لولا الخوف من دعواتها والخاطئات مجابة الدعوات
لهجوتها هجواً أخسَّ من الـ . . . لكن خشيتُ نجاسة الكلمات

وقوله في هجاء ابيه :

لو كان مثلك في زمان محمدٍ ماجاء في القرآن برُّ الوالدِ

وهو من امرِّ الهجاء وأسوأه كما لا يخفى .

(عود الى الحطيئة) ويستدلون على سوء نسبه انه كان سأل أمه الضراء وهي أمة لأوس بن مالك — عن ابيه فتلكأت وأجابته بقول غير سديد فغضب وخرج عنها لاحقاً باخوته بني الأفقم وفي ذلك يقول :

تقول لي الضــراء لست لواحدٍ ولا أثنين فانظر كيف شرك اولئكا
وانت امرؤٌ تبغي اباً قد ضللتــه هبلتِ الـمّا تستفق من ضلالكا

وهكذا عاش متدافع النسب . وكان قد أسلم في صدر الاسلام الاول على عهد النبي (ص) فلما كانت الردّة على عهد ابي بكر الصديق كان في طليعة المرتدين وفي ذلك يقول :

اطعنا رسول الله اذ كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر
أيورثها بكراً اذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

ثم أسلم بعد ذلك نفاقاً ومجاملةً وبقي على حالاته الجاهلية حتى مات . قيل التمس يوماً من يهجوه فلم يجد فقال :

ابت شفتاي اليوم الا تكلماً بسوء فلا أدري لمن انا قائله

وجعل يردّده حتى ورد غدير ماء صافٍ رأى فيه وجهه فقال يهجوه :

ارى ليَ وجهاً شوّه الله خلقه فقبّح من وجه وقبّح حامله

وهذا من أعجب حالاته .

وقيل مرّ رجلٌ يعرف بابن الحمامة بالحطيئة وهو جالس بفناء بيته فبادره بالسلام فقال له (قلتَ ما لا ينكر) قال اني خرجتُ من اهلي بغير زاد قال (ماضمنتُ لاهلك مزاك وراؤك اوهم لك) . قال افتأذن لي ان استظلّ ببيتك قال (دونك الجبل فهو

بظلك) . قال انا ابن الحمامة . قال (انصرف وكن ابن اي طائر شئت) وهذا لعمري غاية ماينتهي اليه البخل « وقد رويت هذه القصة مع زيادة قليلة عن ابي الاسود الدؤلي ايضاً » .

قال الأصمعي : لم ينزل ضيف بالحطيئة الا هجاه . وقال عمرو بن العلاء كان الحطيئة متين الشعر شرود القافية وما تشاء ان تطعن في شعر شاعر وجدت فيه مطعناً وما اقل ما تجد ذلك في شعر الحطيئة . وانما أخَّره عن اللحاق بكبار الشعراء واعاظمها سوء اخلاقه وضعة مكانته وقبح هيأته .

قيل أراد يوماً السفر فأتته امرأته براحلته وهي تقول :

اذكر تحنُّننا اليك وشوقنا　　　واذكر بناتك انهن صغار

فعدل عن رحلته وقال لا سافرتُ بعد اليوم ابداً .

وقيل نزل الحطيئة في سنة ضيقة ببني مقلد بن يربوع فمشي بعضهم الى بعض وقالوا هذا رجلٌ لا يسلم احد من بوادر لسانه تعالوا نسأله عما يحب فنفعله به وعما يكره فنتجنبه فأتوا اليه وسألوه فقال لا تكثروا زيارتي فتملوني ولا تقطعوها فتوحشوني ولا تجعلوا فناء بيتي مجلساً لكم ولا تسمعوا بناتي غناء شبابكم ففعلوا ما أراد واحتاطوا لذلك كل الاحتياط فلم يجد ما يؤاخذهم به فلما انقضت السنة رحل وهو يقول :

جاورتُ آل مقلدٍ فحمدتهم　　　اذ ليس كل اخي جوارٍ يُحمدُ

ايام من يردالصنيعة يصطنع　　　فينا ومن يرد الزهادة يزهد

وممن اشتهر بهجائه اياه الزبرقان[1] بن بدر وهو احد سادات العرب واعلامها كان النبيُّ ولاَّه عملاً وأقرَّه عليه ابوبكر في خلافته فقدم الى المدينة في سنة مجدبة يؤدي الى عمر صدقات قومه فلقيه الحطيئة ومعه أسرته في بعض الطريق فقال له الزبرقان وقد عرفه ولم يعرفه الحطيئة اين تريد ؟ قال العراق لعلّي أجد فيه رجلاً يكفيني مؤونة عيالي في هذه السنة وأصفيه مدحي ابداً . فقال الزبرقان : قد اصبتَ ذلك عندي فسأوسعك لبناً وتمراً وأجاورك اكرم جوار ثم عرَّفه بنفسه وبعث به الى زوجته فأكرمته عملاً بوصية زوجها . وكان بغيض بن عامر وعشيرته بنو أنف الناقة يفاخرون

(١) من اسماء القمر

الزبرقان وقومه فلما رأوا منها التقصير بحق الحطيئة بعد ان رأت من دميم خلقه وزري حاله ما رأت اغروه على التحول الى جوارهم كيداً بالزبرقان وحبًا بالتمداح فأبى وقال هذا شأن النساء ولست بعاتب على صاحب المنزل فانه براءٌ من ذنب المرأة . ثم تمادى جفاء المرأة له لبعض الاسباب وألحَّ عليه بنو أنف الناقة ان يأتيهم حتى ابرموه فتحول الى جوارهم فضربوا له قبةً وزينوها وأكثروا له من اللبن والتمر واعطوه كسوةً وإبلاً . فلما عاد الزبرقان أُخبر بقصته فجاء بني أنف الناقة يعاتبهم ويطلب ان يردوا عليه جاره فأبوا وقالوا انت اطرحته واضعته وهو الآن جارنا . ولما تمادى بين الفريقين اللجاج خيَّروا الحطيئة فيما يريد فاختار جوار بني انف الناقة وقال للزبرقان انني لم أترك جوارك عن سخط وذم فرضي منه وانصرف واخذ الحطيئة يمدح بني بغيض ومن جملة ماقال فيهم :

قومٌ همُ الانف والاذناب غيرهمُ ومن يساوي بانف الناقة الذنبا

وكان هذا اللقب عاراً عليهم فصار من يومئذ فخراً لهم . ثم لم يزالوا يغرون الحطيئة بهجاء الزبرقان ويكثرون له الهبات والوعود حتى هجاه ومن جملة هجائه البيت المشهور :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فانك انت الطاعم الكاسي

فاستعدى عليه الامام عمر فقال لا أراه هجاك في هذا القول وكان حسَّان بن ثابت حاضراً فقال له بل هجاه أشدَّ الهجاء فاستقدم عمر الحطيئة وحبسه في جب فقال يستعطفه :

ما ذا تقول لأفراخٍ بذي مرخٍ زُغب الحواصل لا ماءٌ ولا شجرُ
القيتَ كاسبهم في قعر مظلمةٍ فاغفر عليك سلام الله يا عمرُ
انت الامام الذي من بعد صاحبه القى اليك مقاليد النهى البشر
لم يؤثروك بها اذ قدَّموك لها لكن لانفسهم كانت بك الأثر

وهذه الأبيات غاية في السهولة والانسجام ظاهر على ديباجتها عدم التكلف .

فرقَّ له عمر وأفرج عنه وقيل بل سلّه الى الزبرقان فقاده بعمامته ليعاقبه فاستوهبته منه غطفان . وقيل ان عمر قال له لما أطلقه إياك وهجاء الناس قال اذاً يموت عيالي جوعاً هذا مكسبي ومنه معاشي . فاشترى عمر منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم .

ولما أدركته الوفاة قيل له اوص يا ابا مليكة فقال ويلٌ للشعر من رواة السوء ثم أنشد قول ضابي :

لكل جديد لذةٌ غير انني   رأيت جديد الموت غير لذيذ

ولما الحوا عليه بالوصاة وسألوه بما يقول في عبده. قال هو عبيد إن ما عاقب الليل النهار. قالوا فيم توصي للفقراء، قال أوصيهم بالالحاح في المسألة فانها تجارة لن تبور. قالوا فما تقول في مالك، قال للانثى ضعفا ما للذكر، قالوا ليس هكذا قضى الله، قال ولكني هكذا قضيت. ثم طلب بعد حديث لايجدر بنا ذكره ان يحملوه على اتان و يتركوه راكباً حتى يموت زاعماً ان الكريم لا يموت على فراشه، فحملوه على أتان وجعلوا يذهبون به ويجيئون حتى فاضت روحه وهو يقول :

لا أحدٌ ألأم من حطيّة   هجا بنيه وهجا المريّة

من لؤمه مات على فريّة (١)

وهذه الوصية ان صحت فهي دالةٌ على ان الرجل أدركه الخرف في أخريات ايامه حتى لم يعد يعقل ماذا يفعل، لان المجون لا سبيل اليه، وشبح الموت ماثلٌ لديه.

هذا جل مايؤثر عن الحطيئة أثبتناه في هذه الصفحات تفكهةً لقراء مجلة المجمع الذين قلما رأوا بين ثناياها غير الجد والعويص من المسائل، فما عليهم لو تملحوا منها الفينة بعد الفينة بامثال فكاهات الحطيئة ونوادره فانه على كل حال يمتُّ الينا بنسبة الادب واللغة والشعر فما هو عنا — وان كرّت العصور دونه — بغريب او بعيد.

عضو المجمع العلمي
سليم عنحوري

==((❦))==

(١) الفريّة الأتان اي أنثى الحمار.

آراء وافكار

—«»—

موءلفو الفنون الحديثة

«إزاء كلمات اللغة العربية»

قضيتُ حيناً من الزمن في تصحيح بعض المصنفات العربية الحديثة التي وضعت وضعاً او ترجمت من اللغات الاخرى · ولقد وجدتني وانا أُقلب النظر في عبارات المؤلفين إزاء ضربين من الكلم :

(الضرب الاول) كلمات او جمل خولف فيهما الفصيح المألوف من كلام العرب · فصححتها من دون تردد ولا توقف : وذلك مثل كلمات (مخابرة) فقلت مكانها (مراسلة) و (اختصاص) (إخصاء) و (مفاداة اوتضحية) — (بذل النفس) او (مغامرة) و (أشهر سيفه) (شَهَر سيفه) و (أعتادالحرب) (عُدَداً وأعتدة) و (هذا الامر يجلب نظر الدقة) فقلت مكانها (يستدعي الاهتمام اويستميل النظر) و (هذا الامر ذو أهمية) فقلت مكانها (ذو بال او ذو خطر او ذو شأن) الخ الخ ·

وتصرفتُ في بعض الكلمات تصرف تجديد في الوضع والاستعمال : فمثل قولهم (قلعه بند) اي السجن داخل أسوار القلعة · قلت مكانه (سجن مسوَّر) · وأشرت ان تستعمل كلمة (أعفاج) لأمعاء الانسان وسائر أكَلة اللحوم · و (مصارين) لأمعاء أكَلة النبات · بدلاً من ان تستعمل (أمعاء) في الجميع الى غير ذلك من الترميم والتجديد · على ان المعروف من مبدإي أنني احب التساهل في الكلمات المعربة والدخيلة · وأفضل استعمالها على إهمالها · وذلك تنميةً للغة وتوسيعاً لدائرة التخاطب بها ·

(الضرب الثاني) كلمات او تراكيب جرت لدى المؤلفين في الفنون الحديثة مجرى

الاصطلاح والمواضعة بحيث صاروا اذا استعملوها في مواضعها اللائقة بها فهمها الناس بسهولة . وتبادر الى أذهانهم معناها الخاص بها جليًا واضحًا . فلا يترددون فيه . ولا يستزيدون ايضاحًا منه .

هذه الكلمات الاصطلاحية كثيرة جداً ومتكررة في المؤلفات التي عانيت تصحيحها . وهي — وان كانت عربية المبنى والمادة — محوّلة او محرّفة عما يعرفه اهل اللسان من معناها .

وقد جرّبت ان استبدل بها كلمات أخرى أفصح منها . واكثر ملاءمة لأوزان العرب ومناهجهم . نزولاً مني عند رغبة المحافظين على الفصيح . المتشائمين بالدخيل — وجريتُ على هذه الطريقة منفرداً من دون ان أطلب موافقة المؤلفين . حتى اذا دروا بالأمر عارضوني . وابوا الا الاحتفاظ بكلماتهم . والابقاء على اصطلاحاتهم .

واذ ذاك حمي الوطيس واشتد الجدال بيني وبينهم . واحتجوا لأنفسهم بما يأتي :

(١) ان هذه الكلمات والتعابير الاصطلاحية من قبيل (الدخيل) . واللغة العربية كريمة النجر . واسعة الصدر . فهي ترحّب بالدخيل والمعرب متى أنست بهما الافهام . وعذب وقعهما في الآذان . وفي القرآن الكريم والسنة وكلام فصحاء العرب الشيء الكثير منهما .

(٢) ان هذه الكلمات والتراكيب قد اصطلحنا عليها معشر الكتّاب والمؤلفين في الفنون الحديثة وتواضعنا على استعمالها والتفاهم بها فيما بيننا : فهي من قبيل مصطلحات العلوم الاخرى المتداولة بين أربابها منذ صدر الاسلام الى اليوم : فالمحدثون والمتكلمون والفقهاء والنحاة والصوفية والمناطقة والفلاسفة وعلماء الهيأة والهندسة والكيمياء — كل هؤلاء اصطلحوا او وضعوا كلمات جديدة لمعان حديثة في فنونهم . بل ان الاسلام نفسه اصطلح على كلمات استحدث لها معاني جديدة كالصلاة والصيام وغيرهما . وما زالت هذه الاصطلاحات الى اليوم مقبولة عند المشتغلين بتلك الفنون . ولم يعبها عليهم عائب . حتى ان اكبر كاتب نقّاد في الاسلام (ابن خلدون) أشار الى هذه المصطلحات في مقدّمته وسلّمها لاهلها تسليماً . وهذا ابن ابي الحديد يقول في خاتمة شرحه لنهج البلاغة :

« وقد استعملت في كثير من فصوله فيما يتعلق بكلام المتكلمين والحكماء خاصة — ألفاظ القوم مع علمي بان العربية لا تجيزها نحو قولهم (المحسوسات) وقولهم (الكل والبعض) وقولهم (الصفات الذاتية) وقولهم (الجسمانيات) وقولهم (اما اولاً فالحال كذا) ونحو ذلك مما لا يخفى عمن له أدنى أنس بالأدب . ولكنا استهجنا تبديل ألفاظهم وتغيير عباراتهم . فمن كلم قوماً كلمهم باصطلاحهم » اه .

(٣) اننا اذا عدلنا عن هذه الكلمات الاصطلاحية الى غيرها وألزمنا بها الطلاب — أطاعونا قليلاً . ثم خالفونا كثيراً . ولا سيما حينما يحاولون الاخصاء والتوسع في هذه الفنون ويرجعون الى أمهات كتبها في التركية والافرنسية : فان هذه المصطلحات ترجمت عنها حرفياً . فيقعون من جراء تغييرها في حيرة وارتباك .

ثم قال المؤلفون : وبالجملة فان اصطلاحاتنا لنا . لا نتعدى فيها مواضعها من فنوننا . واذا كتبنا في غيرها استعملنا التعابير والتراكيب التي يريدها المتشائمون . كما ان المناطقة مثلاً اذا كتبوا في فنهم قالوا (ماهية) و(هوية) . أما اذا كتبوا هم اوغيرهم في الاجتماع والسياسة والأخلاق استعملوا مكان (الماهية والهوية) كلمات (حقيقة . كنه . عين) وماشاء الله ان يستعملوا من الكلمات القاموسية .

فقلت لهم : اما انا فأبارك لكم في اصطلاحاتكم هذه . غير ان اخواننا المتشائمين يخشون على اللغة العربية أن تفسد على مدى الزمن بتزاحم هذه الاصطلاحات الكثيرة على أبوابها . وهم يقولون ان اصطلاحات الفنون الحديثة لم يضعها علماء عرب كالذين وضعوا اصطلاحات العلوم القديمة وانما وضعها الأتراك وقلدهم فيها أبناء العرب الذين لم يشتغلوا بحق في اللغة العربية وآدابها . فلا يصح قبول مصطلحاتكم الفنية ما لم يوافق عليها مجمع لغوي عربي .

فأجاب الاساتذة :

ولكن اصطلاحات الفنون القديمة لم يضعها (مجمع لغوي) ايضاً وانما وضعها العلماء الاخصائيون في تلك الفنون . فشاعت وألفتها النفوس . ونحن اليوم قد باشرنا طبع مصنفاتنا واحداً واحداً . ووزعناها على تلاميذنا : ملزمة ملزمة . فإرجاء العمل بهذه الاصطلاحات ريثما ينظر (المجمع اللغوي) فيها ويجيزها — من الصعوبة بمكان .

فقلت لهم : لنعرض الامر إذن على أعضاء مجمعنا العلمي . وعلى علماء اللغة في بلاد (الضاد) ولنضع تحت مواقع أنظارهم نموذجات من اصطلاحاتكم هذه . فلعلهم اذا رأوا كثرتها . وعذوبة ألفاظها . وسهولة انفهامها عند اربابها أجازوها لكم . ووافقوكم على رأيكم . ولا سيما اذا رأوا انفسهم تجاه امر واقع . ما له من دافع :

« الهيأة التشريعية » « هيأة المحكمة » « تشكيلات المحاكم » « تعقيبات قانونية » « تطبيق النظام » «التصديق او المصادقة على القرار » «مأمورية» « مسؤولية» «صلاحية» «تعليمات» «مقررات» «اقتراع» «تصويت» « أعمال ادارية » « حاكمية » « تابعية» «ميزانية» « تأمين المنافع الوطنية » « مناسبات دولية » « حكومة محلية » « مؤسسات خيرية » « تأسيس محل تجاري » « فتح اعتمادات مالية » « سد العجز » « المتعهد » «الملتزم» «التمتع» «الرسوم» « بدلات الأعشار » الخ الخ .

وكل هذه الكلمات عربية الاصل . وقد حولها المصطلحون عليها الى معان جديدة حدثت في فنونهم . قالوا : فاذا تكلفنا لهذه المعاني إيجاد الفاظ عربية غيرها اشد انطباقاً على اللغة ومناهجها فقلنا مثلاً :

(طائفة المحكمة او جماعة المحكمة) مكان (هيأة المحكمة)

(أوضاع المحاكم)	״	(تشكيلات المحاكم)
(حالة الحكومة الحاضرة)	״	(وضعية الحكومة الحاضرة)
(إلقاء التبعة)	״	(إلقاء المسؤولية)
(علاقات دولية)	״	(مناسبات دولية)
(معاهد اجنبية)	״	(مؤسسات اجنبية)

لو قلنا ذلك وحلا هذا الاستبدال والتغيير في بعض الأذواق فانه لا يحلو في كثير منها . ولا سيما عند الذين الفوا هذه الكلمات وانطبع حسهم اللغوي بطابعها الخاص . مثال ذلك ان فاضلاً من رجال المحاكم يضرب بسهم في اللغة العربية وآدابها وهو جد حريص على استعمال فصيحها . كما انه كثير التشاؤم بمعربها ودخيلها — صرح بان قولهم (عضو دائمي) — وهو ما اصطلح عليه رجال المحاكم — تفيد غير ما تفيده عبارة (عضو دائم)

التي ارادوا استبدالها به . وان كلمة (حقيقة) أو (كنه) لا تفيد نفس المعنى الذي تفيده كلمة (ماهية) . فهو بفضل البقاء على استعمال كلمتي (الدائمي) و(الماهية) الاصطلاحيتين .

على ان التعابير الاصطلاحية ليست سوى وسائط نقل : تنقل المعاني من نفس المتكلم الى نفوس المخاطبين . فكلما كثرت هذه الوسائط واسرعت في ايصالها ومرنت الجوارح على استعمالها — عمت الفائدة . وحسنت العائدة . «المغربي»

—«*—*»—

كتاب الفلاحة الاندلسية

« وملاحظات الامير مصطفى الشهابي »

اطلعت في « مجلة المجمع العلمي » على بحث ممتع للعالم الامير مصطفى الشهابي يتعلق بكتاب (الفلاحة الاندلسية) لابن العوام الاشبيلي وأنعمت النظر في ملاحظاته الدقيقة ومطالعاته الجليلة في وصفه لهذا الكتاب الذي هو من اجل ما كتب العرب في الزراعة فأحببت ان أضم الى هذا البحث الكلمات الآتية :

في شهر يونيو (حزيران) من السنة الماضية (١٩٣٠) كنت في مجريط (مدريد) حيث أقمت مدة اسبوعين في اول رحلتي الى الاندلس . وفي اثناء مقامي بتلك العاصمة ترددت الى المكاتب التي فيها ومن جملتها « مكتبة اكادمية التاريخ) واطلعت فيها على كتب قيمة وقيدت اسماءها ونقلت بعض فصول او بعض عبارات منها على قدر ما سمح لي الوقت .

فمن أعظم الكتب التي استجلبت نظري كتاب الفلاحة للشيخ ابي زكريا يحيى بن محمد ابن احمد بن العوام الاشبيلي الاندلسي رحمه الله . وكتب أخرى سأذكرها واذكر من بعضها بعد ان أنتهي من الكلام على هذا الكتاب .

ولم اطلع على النسخة المطبوعة من هذا الكتاب في مجريط وهي التي أشار اليها الامير مصطفى الشهابي ولا علمت حينئذ ان هذا الكتاب كان قد طبع . بل النسخة التي اطلعت

عليها مخطوط يقع في ٨٤١ صفحة و ينقسم الى جزءين · واوله : الحمد لله رب العالمين وصلى الله على النبي محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه الطيبين وسلم تسليماً · اما بعد فاني لما قرأت من كتب الفلاحة المسلمين الاندلسيين ومن كتب غيرهم من القدماء المقدمين في صنعة فلاحة الارضين المطمئنة كيفية العمل في الزراعة والغراسة ولواحق ذلك ومايتعلق به من كتبهم في فلاحة الحيوان ماوصل اليّ منها ووقفت على مانصّوه فيها نقلت من عيونها الى هذا التأليف ما ان نظر فيه وحفظ أبوابه وفصوله ومعانيه من يريد ان يتخذ هذا الفن صناعة يصل بها بحول الله الى معاشه و يستعين بها بحول الله على قوته وقوت عياله واطفاله وجد فيه حاجته وبلغ فيه ارادته واستعان بذلك على منافع دنياه ومصالح أخراه بتوفيق الله تعالى اياه اذ بالغراسات والزراعات تكثر بمشيئة الله الأقوات وقيل انه الى ذلك أشار النبي صلى الله عليه وسلم : اطلبوا الرزق في خبايا الارض ·

وروي عن النبي (ص) : من غرس غرساً او زرع زرعاً فأكل منه انسان او طائر او سبع كان له صدقة · وروي عنه : من غرس غرساً فأثمر أعطاه الله من الاجر بقدر ما يخرج من الثمر ·

روي عن ابن حزم الاندلسي : اعلموا ان الراحة واللذة والسلامة والعز والأجر في اصحاب فلاحة الارض اذا كانت عشرية فقط · وفلاحة الارض هي اهنى المكاسب جملة · انتهى ·

وصاحب هذا الكتاب ينقل كثيراً عن الفقيه الامام ابي عمر احمد بن محمد بن حجاج في كتابه المقنع وهو الذي الفه سنة ست وستين واربعمائة · و ينقل فيه عن الرازي وعن اسحاق بن سليمان وعن ثابت بن قرة وعن ابي حنيفة الدينوري · وقد اخذ ايضاً عن الفلاحة النبطية تأليف ثوتامي وهو مبني على أقوال جلة من الحكماء منهم آدم وصغريث و ينبوشاد واخنوخا وماسي ودونا وكامتري وغيرهم ·

واخذ ايضاً عن كتاب الشيخ ابي عبد الله محمد بن ابراهيم بن الفصّال الاندلسي وهو المبني على تجاربه وعن كتاب الحكيم الشيخ ابي الخير الاشبيلي وهو مبني على آراء جماعة من الحكماء والفلاحين وعلى تجاربه الخاصة وعن كتاب الحاج الغرناطي وكتاب ابن ابي الجواد وكتاب غريب بن سعد وعن حكماء اليونان ·

وقد قسم التأليف الى سفرين الاول في معرفة اختيار الارضين والزبول والمياه وصفة العمل في الغراسة والتركيب والثاني الزراعة وماإليها وفلاحة الحيوان ٠

والباب السادس عشر هو في صفة العمل في اختزان الحبوب والفواكه — الغضة واليابسة واختزان التين غضاً و يابساً واختزان التفاح والكمثري والسفرجل والأترج والرمان والإجاص والقراسيا والعناب والبلوط والقسطل والفستق والبرّ والشعير والعدس والفول والدقيق وزرايع الخضر والورد المبيس والورد المقطر وتحليل بعض الخضر واختزانها لتؤكل في غير إبانها ٠

والباب الخامس عشر هو في التطعيم وفيه صفات في دس الطيب والحلاوة والترياق الخ في الأشجار المطعّمة وفي القضبان والبقل المفترسة ليؤدي ثمرها طعم ذلك وفوحه وقوته وصفة عمل يصير به لون الورد أصفر ولازوردياً ايضاً ٠ وتدبير في الورد حتى يورّد في غير ايامه ٠ وتدبير في التفاح حتى يثمر في غير ايامه ٠ وكيف يُحيَّل في ثمر التفاح حتى يحدث فيه كتابة وتصوير ٠ وصفة عمل في ثمر السفرجل والكمثرى والتفاح والبطيخ والقثاء حتى تتشكل الحبة منها باي شكل احببت ٠ وصفات ايضاً في العنب يطول بها حبه و يصير عنقوده كأنه حبة واحدة و يكون عنقوده فيه حب ذو ألوان مختلفة ٠ وكيفية تدبير غرس العنب حتى يكون حبه دون نوى ٠ وتدبير في شجر التين حتى يكون في الغصن منه حبات تين مختلفة الألوان وحتى تكون التينة الواحدة فيها ألوان مختلفة وكيف ينبت في الخس والسلق أنواع من البقول تجتمع في اصل واحد الخ ٠

وفيه في قسم فلاحة الحيوان عن الحيوانات وتربيتها وأنواعها ما لم أره في كتاب آخر انتهى ٠

هذا كل ما وجدته في كناشي منقولاً عن كتاب الفلاحة الاندلسية للشيخ ابي زكريا يحيى ابن العوام الاشبيلي نسخت ذلك كما تقدم الكلام عليه ولم يتسع لي الوقت ان أنسخ اكثر من ذلك فيما كنت فيه مع ضيق الوقت من التفتيش في خزائن الكتب المختلفة كمكتبة الاسكوريال والمكتبة الملوكية ومكتبة اكادمية التاريخ ٠ وكان مرادي ان أنقل مافي كناشي هذا عن هذا الكتاب النفيس الذي لم أجد اوفى منه بعلم الزراعة عند العرب الى رحلتي الاندلسية التي انا مباشر تحريرها ٠

قال الامير مصطفى ان دوزي وغيره نقلوا عن هذا الكتاب وانه يعد اكبر معلمة زراعية في القرون الوسطى . ومن الغريب انه قد ذكر مثلي اسماء اكثر الذين اعتمد عليهم ابن العوام من علماء الزراعة الذين سبقوه وانه مثلي قد استغرب فقد هذه الكتب التي لم نجد لها اثراً في الفهارس . ولقد نقل الامير الشهابي بعض أقوال علماء الافرنجة عن كتاب ابن العوام هذا ثم أبدى بشأنه مع اعترافه بجلالة قدر الكتاب آراء سديدة فمما قاله ان ابن العوام وأمثاله ممن الفوا في الزراعة كانوا قليلي الحرص على سلامة لغة مصنفاتهم ثم انهم كانوا يستعملون في بعض الأحايين الفاظاً ومصطلحات لا تجيزها معاجم اللغة وقواعدها . قلت ومن هذه الالفاظ لفظة الفراسة بمعنى الزراعة فقد أجراها ابن العوام مجرى الزراعة والصناعة اي جعلها مصدراً ، والحقيقة انه لم يرد في كتب اللغة ذكر الفراسة بهذا المعنى وانما الفراسة هي الفسيلة التي تغرس كما ان الغراس هو ما يغرس و يأتي ايضاً بمعنى وقت الغرس . وانك لتجد في مثل هذه الكتب الفاظاً ومصطلحات عامية ربما حملهم عليها مراعاة فهم العامة الذين اكثرهم ليسوا بلغويين وهم أحوج الى المعنى منهم الى اللفظ . ثم ان الامير يقول ان طبعة مجريط من هذا الكتاب بالعربية والاسبانية مشحونة بالاغلاط المطبعية وهو ادرى بذلك لاني انا لم أطلع على النسخة المطبوعة وانما قرأت المخطوط ونقلت عنه ولكن بلغني ان من هذا الكتاب نسخة خطية في مكتبة لندن ونسخة أخرى خطية في المكتبة الوطنية في باريز ونسخة أخرى خطية في مكتبة الاسكوريال .

وسمعت ان من هذا الكتاب مخطوطاً رابعاً وهذا السماع عن الاستاذ المستشرق هس مدرس الألسن الشرقية في جامعة زوريخ واحد اعضاء مجمعنا العلمي . ولعل هذا المخطوط الرابع هو الذي اطلعت عليه انا في خزانة اكادمية التاريخ في مجريط . و يقول الاستاذ هس ان ترجمة هذا الكتاب الى الافرنسية مشحونة غلطاً لان المترجم كان ضعيفاً في العربية .

و يقول الأخ الأمير انه مما يلفت النظر ان بعض الذين نقل عنهم ابن العوام كأبي عبد الله ابن الفصال الاندلسي كانوا يستعملون اسماء الاشهر الافرنجية وهي ينـاير وفبراير الخ . قلت ان هذا الاستعمال كان عاماً في الاندلس والمغرب ولا يزال الى يوم الناس هذا لجميع إخواننا المغاربة من السوس الاقصى الى طرابلس يستعملون اسماء الاشهر الافرنجية

وكذلك إخواننا المصريون ، ولم يكن هذا اصطلاحاً جديداً نقلوه عن الاوربيين بل هو اصطلاح قديم عندهم باقٍ من القرون الوسطى وليس من يؤرخ بالاشهر السريانية غيرنا نحن الشاميين ومن الينا . وانا على رأي الاخ الشهابي في وجوب وضع اسماء الاشهر الافرنجية بجانب السريانية بين قوسين . ولقد أورد الاخ كثيراً من الالفاظ التي جاءت في كتاب ابن العوام وفسرها وقابلها بامثالها من مصطلحات اهل بلادنا في معناها ووضع بجانبها ترجمتها بالافرنسية وأورد ابحاثاً لغوية زراعية معاً دلت على ضلاعته في كل من الفنين اللغة والزراعة .

لوزان : شكيب أرسلان
عضو المجمع العلمي

حول الاكليل

استفهم العلامة الامير شكيب[1] عن تاريخ الاكليل العديم المثال بعدان بشرنا بان لديه منه جزءين . وقد علمت وانا بحضرموت سنة ١٣٤٦ هـ ان منه نسخة في خزانة السيد العلامة المرحوم الحبيب احمد بن حسن العطاس العلوي ، فكتبت لحفيده السيد محمد بن سالم بن احمد العطاس فأجابني بكتاب مؤرخ ١٥ رجب سنة ١٣٤٦ بانه لا يوجد في الخزانة غير جزء واحد . ومما اخبرني به هـذا السيد ايضاً انه يوجد بخزانة جده تاريخ يوسف بن احمد الازدي ، و يوسف هذا معاصر لسيدنا الامام المهاجر احمد بن عيسى . وكتاب مصباح الظلام فيمن بحضرموت من العرب وخالطهم من الاعجام للعاملي . وعجائب الزمن في اخبار حضرموت وصنعاء واليمن لابن مطروح الصنعاني . وتاريخ بن عقبة وديوانه . وتاريخ ملوك حمير . وهو غير التيجان المطبوع بالهند سنة ١٣٤٧ هـ . وقد اخبرني الوالد العلامة المحقق زعيم الرابطة العلوية السيد علوي بن طاهر الحداد انه يوجد

(١) كان استفهام الامير في مقال نشره في العدد ٢٨٧ من جريدة (حضرموت) .

في مكتبة الحبيب احمد بن حسن العطاس نسخة خطية من هذا الكتاب ، ومما يوجد فيها ايضاً تاريخ ابي حسان . وتاريخ عدن وتاريخ بامخرمه كاملاً .

وفي كتاب لي من سيدي العلامة المحقق الوالد محمد بن عقيل بن يحيي العلوي بتاريخ ٢٢ صفر سنة ١٣٤٩ من عدن ان في خزانته الخاصة يوجد الجزء الاول من الاكليل وتاريخ زبيد وذيله والشرجي والخزرجي ، وعنده نسخة من تاريخ ملوك حمير وحجمها تقريباً من نحو ٢٠ — ١٥ سنتيمتر ونقع في نحو ٤٠٠ صفحة ولكن الخط ضعيف ، وعنده نسخة من مقامات السيد باعبود وهي بحجم ملوك حمير . وقد تفضل عليَّ سيادة الوالد محمد بن عقيل بهذين الكتابين الاخيرين في ١٠ ذي الحجة سنة ١٣٤٥ عند عودتي الى الوطن ومروري بالمكلا لاطالعها غير انني لم اتمكن من المطالعة لمرض الم بي ولسفري الى الشحر وقد أجر سيدي الوالد محمد بن عقيل كاتباً لينقل تاريخ ملوك حمير للعلامة المرحوم احمد تيمور باشا .

و يوجد عند سيدي الاستاذ الوالد المحقق علوي بن طاهر الحداد جزء من كتاب الاكليل وعلى ما أتذكر انه الجزء السادس وقد استعاره منه الوزير المرحوم السيد حسين ابن حامد المحضار العلوي .

ثم انني أؤيد (حضرموت) فيما اقترحته على عطوفة الامير من نشر الجزءين من الاكليل والتعليق عليهما لتتضاعف حسنات هذا الأمير الجليل .

صولو (جاوه) : علي باعبود العلوي

الالفاظ التركية

« في لهجة الدماشقة العامية »

أتانا مع البريد كتاشة من المقالات المفيدة أصدرتها شعبة المستعربين في المعهد العلمي الفرنسي بدمشق عن سنة ١٩٢٩ فلفت نظري فيها مقالة للاستاذ سوسي E. Saussey عنوانها « الألفاظ التركية في لهجة الدماشقة العامية » أجاد فيها المؤلف كل الاجادة وغلط في بعض الألفاظ على ما أعتقد كما سها عن ذكر الفاظ تركية مهمة يستعملها الدماشقة اليوم .

فما غلط فيه :

اولاً الفاظ عربية اومعربة موجودة في الأمهات من المعاجم العربية مابرحت شائعة على الألسنة وفي بطون الكتب القديمة والحديثة ولايجوز الظن باننا اقتبسناها من الأتراك العثمانيين اونسيناها حتى أتوا فنبهونااليها مثل عرصة وبكرة والبيم والشمراء وبندق ودبوس وامضاء وفانوس وجورب ومعدن ومسرجم واميري وقرميد وقنبيط (وكذا قرنبيط) وقسط وصراحية وسروال وغيرها .

ثانيًا الفاظ أعجمية (وخاصة ايطالية) يرجح لأسباب شتى ان العرب (ومنهم الدمشقيون) اقتبسوها عن الفرنج مباشرة قديمًا او حديثًا وليس للترك فضل في تعريف العرب بها مثل : بالة ، بطاطا ، بيرا ، بوصلة ، برتقال ، بورصة ، دامة ، فاصوليا ، فانورة ، غارصون ، كستنا (وقسطل وشابلوط) غاز ، كديش ، مانيفاتورة، قبطان ، قرصان ، شوال (بجوالق) ، ليرا ، معكرونة الخ .

ثالثًا الفاظ لم نسمع بها ولايستعملها سكان الشام اليوم الا اذا تكلموا بالتركية مثل يبش وقونش (من قونشمق) . گل (من گلمك) ومرابعجي (لأنهم يقولون مرابع) وناكردي (لاقردي) .

رابعًا الفاظ غلط في تفسير معانيها مثل : « ديوثك بريسي » فمعناها ديوث ما لارأس الديوثين كما ذهب اليه (ديوثلرك اك بريسي) . والدماشقة يستعملون هذا اللفظ للمعني الاول دون غيره .

ومثل الفئة فهي من الفيء بمعنى الخراج والغنيمة او من الفئة بمعنى النوع لا كما ذهب اليه ·

خامساً الفاظ لم يستعملها الترك الا قبيل الحرب العامة مثل كاتب العدل للنوتير · فهي قد وردت في القرآن وكان الترك يسمون كاتب العدل محرر مقاولات ·

ومن الالفاظ التركية (اوالفارسية المقتبسة عن الاتراك) التي يستعملها الدماشقة ولم يذكرها صاحب المقالة · خوش بوش وطنبرجي ودِزِن (من درآن) ودزكين (ديزكين اي المقود) وهو يدوشن (من دوشمك) وجرمشتخن (من شش خانة) ودربين (منظار ومُدَنِيَة) وضاين (من ضايانمق) وآلش (من آلشمق) وبجايج (من بجايش) وبيشروش (من بيش رَوِش) ودا كش (من دكشمك) وشو باصي (تصحيف صو باشي) ·

والخلاصة انه ليس من الغريب ان يترك الاتراك هذا العدد من الالفاظ في اللغة العامية الدمشقية بعد ان حكموا الشام بضعة قرون ، على ان هذه الكلمات زال استعمال كثير منها بعد تقلص حكمهم عن هذه البلاد · والباقي على وشك الزوال · ومع هذا لو حسب الكاتب الفاضل في قائمته حساباً مضبوطاً لعدد الالفاظ العربية الاصل والالفاظ الاعجمية غير التركية لوجد ان الكلمات التركية الخالصة فيها عدد قليل لا كبير كما ذهب اليه · ولا أحد يجهل ان الترك لو جرّدوا لغتهم من الكلمات الفارسية والفرنجية وخاصة العربية فان ما يبقى لديهم من الالفاظ لا يعبر عن معان مهمة ·

مصطفى الشهابي

مطبوعات حديثة

—«»—

الاصول العربية لتاريخ سورية

« في عهد محمد علي باشا »

تولى جمعها وضبط قراءتها ووضع فهارسها الدكتور اسد رستم

المجلد الثاني ص ١٧٠

هذا هو الجزء الثاني من الوثائق التاريخيــة التي اخذ السيد رستم على نفسه نشرها · ويحتوي هذا الجزء على الاوراق السياسية لسنة ١٢٤٨ هـ ٣١ أيار سنة ١٨٣٢ — ٢١ أيار سنة ١٨٣٣ م نشرها بحروفهــا ولكنه هيأها بالطبع الجيد بحيث تروق مطالعتهــا المفيدة للباحث في تاريخ هذه الحقبة كما هي مفيدة في تصور أسلوب الكتابة العربية في ذاك العهد ·   م · ك

مختارات بعض زعماء البلاغة العربية العصرية

« الملحق الثاني تأليف السيد طاهر الخميري والاستاذ السيد كامپفماير الالماني »

« ص ٤١ ومثلها بالالمانية »

هذا مختصر فيه كلام على بعض رجال الادب في مصر كطه حسين ومنصور فهمي وعبــاس محمود العقاد ومحمد حسين هيكل وابراهيم عبد القادر المازني وماري زيادة · وعد المؤلف من جملة أدباء العصر الشاعر ايليا ابوماضي وجبران خليل جبران · نشرت نموذجات من ادب الموما اليهم بالعربية وجعلت التعليقات والفوائد بالالمانية · وقد قدم الناشر الاستاذ كامپفماير مقدمة لهذا الكتاب قال فيهــا : «فان مجد الشرق لن يقام في

المستقبل على الجديد او القديم وانما على اساس الجيد من الجديد مقترناً بالجيد من القديم وما من جيد الا ماانفع الامة وطابق الفطرة التي جبلت عليها . . . ليزداد الغرب علماً بحضارة الشرق تلك الحضارة التي ليست اقل من حضارة الغرب وان اختلفت عنها » .

م . ك

كتاب نظام الحكومة النبوية

« المسمى بالتراتيب الإدارية »

— جزؤه الثاني —

مؤلف هذا الكتاب (سيدي عبد الحي الكتاني) عضو مجمعنا العلمي من علماء المغرب الاقصى . وقد كان منذ ثلاث سنوات أصدر الجزء الاول من هذا الكتاب مسمىً باسم « التراتيب الإدارية . والعمالات والصناعات والمتاجر . والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدنية الاسلامية . في المدينة المنوّرة العلية » هكذا سمى المؤلف كتابه في الجزء الاول ثم بدا له فأضاف اليه في الجزء الثاني قوله : (نظام الحكومة النبوية) . ومن عنوانه عرف القارئ غرض المؤلف من تصنيفه : فهو يسوق لنا من نصوص السنة وأخبار السلف مايفيدنا في إصلاح الدنيا وإدارة الملك وسياسة الرعية وكل ما تقوم به الحضارة: من زراعة وصناعة وتجارة — كل ذلك وجد له المؤلف آثاراً في السنة النبوية وأعمال الصحابة . فموضوع الكتاب إذن مادة يستمد منها و يستند اليها العاملون في وضع النظم والقوانين اللازمة للبلاد الاسلامية .

وقد جعل المؤلف كتابه هذا متمماً لكتاب (ابي الحسن الخزاعي) التلمساني (المتوفى سنة ٧٨٩ هـ) فهو يذكر ماقاله الخزاعي مما جاء في السنة المحمدية من الموضوعات العمرانية ثم يقفّي عليه بما تناوله اطلاعه الجم . وأحاط به علمه الواسع . وقد كان بحث في الجزء الاول عن أعمال الحكومة : مابين إدارية وكتابية وحربية وجنائية — وجاء بكتابه الثاني

فضمنه مباحث الحرف والصناعات حتى الرقص والغناء والطبخ ولعب الصبيان بالطنبور الخ ثم ذكر النصوص التي لها علاقة بالعلم والتعليم . ووصف ما كان عليه الصحابة من استجماع الفضائل العلمية شارحاً اختصاص كل منهم بنوع العلم الذي امتاز به عن غيره . وهذا الجزء في ٤٨٠ صفحة من القطع الوسط . عدا نحو ٦٥ صفحة ملئت تقاريظ في مدح الكتاب وتماجيد في مناقب مؤلفه .

ومن مزايا هذا التأليف بل كل تأليف أشرق علينا من المغرب ان نعثر فيه على نقول تاريخية ودينية اقتبسها هؤلاء المؤلفون من مصنفات علماء بلادهم (المغرب والاندلس) مما لاعهد لنا بمثله في مصنفات علمائنا وأئمة مشرقنا .

اما المزية الخاصة بكتاب (التراتيب الادارية) فهو ان مؤلفه اذا خاض بحثاً من مختلف المباحث الاسلامية تراه يتقصّى المصادر والاسفار التي كتبت في هذا البحث : من قديم وحديث و ينفضها نفضاً فلا يدع شيئاً يضيع عليه من نثارتها .

غير اننا نأسف لما وقع في هذا الجزء من الاغلاط الكثيرة وكنا نتمنى لو تنزه عنها . ولاسيما ماوقع منها في النصوص الدينية كحديث أم زرع . وقد ألحق طابع الكتاب به جدولاً للخطإ والصواب بلغ تسع صفحات بخط دقيق . ولا اظنه استوعب جميع ما في الجزء من الاغلاط .

والمصنف يجيد ايما إجادة في لمّ متفرق الموضوع وسرد النقول المختلفة للاستشهاد له . وتقصّي آراء العلماء والموازنة بينها وتقديم مايراه احق بالتقديم منها .

ونسمعه احياناً يستشهد بكلام ابن خلدون في (المقدمة) لكنه قلما يسلّم له نظريته بل تراه يرجّح عليهـا آراء الحشو بين ممن ليسوا من هذه المباحث التي كتب فيها ابن خلدون ولا قلامة ظفر .

ومعظم ماقرأته في هذا الجزء نصوص وآثار للسلف الصالح يسردها المؤلف . واقوال واختلافات رُويت عنهم : فهو يلخصها او يرويها على علاّتها . وقد يعلّق عليها او يلحم بينها بعبارات موجزة من عنده يظهر عليها مسحة من ضعف الأسلوب الانشائي من ذلك قوله في ص ٣٦٣ .

« المقصد الثاني في ماحازه اصحابه عليه السلام من السبقيات . وما تميز به افرادهم

من علو المدارك والكيفيات . مما يعرفك ان المدينة المنورة كانت في الزمن الاول مجموعة مهولة بصنوف واختلاف الأعمال والأفكار والصفات . والأشغال الحيائية التي لا بد منها في كل بلد مصر . واتخذت عاصمة لمدنية عظمى سادت على العالم في اقرب وقت . وما وصل اليه ذلك العصر الزاهي . والمصر الطاهر . من الاختلاط والاختلاف في الأحوال . والاتفاق في الآمال . وانه من اندر ما حفظه التاريخ عن الاجيال والدهور » اه .

على ان ماتخلل هذا الجزء من كلام المؤلف قليل جداً كما قلنا آنفاً فيكون الكتاب بهذا الاعتبار فهرستاً عاماً لما ورد في السنة المطهرة من النصوص المتعلقة بموضوع الحضارة والاجتماع والسياسة والعلم والتعليم والصناعات الخ .

وقد لحنا ان إخواننا المغاربة ما زالوا على الشنشنة الشرقية القديمة من حيث التهويل في سرد الالقاب والاعتداد بالضخم الرنان منها يظهر ذلك من التقاريظ الكثيرة في آخر هذا الجزء ومما سطره ناشره على غلافه .

و ياليت إخواننا المغاربة يخففون من هذه اللهجة كما فعل إخوانهم المشارقة . وليدعوا الاعمال تشهد لفاعلها . والآثار تنطق بفضل قائلها .

ولعمري ان مطالعة هذا الجزء من كتاب (التراتيب الإدارية) تركت في نفسي أثر إكبار للفوائد التي تلتقط من جوانب كتابه – أمثل وأكمل من الاثر . الذي تركه لقب الشيخ الاكبر . والكبريت الاحمر .

« المغربي »

هدايا كتب

أهدي الينا كتاب (يوبيل لسان الحال) الذهبي وهو يتضمن ما قاله المحتفلون في بيروت بذكرى مرور خمسين سنة على جريدة (لسان الحال) التي هي من أقدم صحف بيروت السياسية ·

— ورواية (من عرابي الى زغلول) وهي رواية اجتماعية تضمنت أبلغ دروس في الوطنية من تصنيف السيد نقولا حداد احد صاحبي مجلة (السيدات والرجال) ·

— وكتاب (الحصاد الاول) وهو يتضمن احدى وثلاثين قصة عراقية وضعها السيد انور شاؤل من أدباء بغداد ·

— ورواية (اليهودي شيلوخ وأقاصيص أخرى) تعريب السيد سامي شمعة وقد افتتحت بمقدمة من قلم السيد كامل عياد · عنيت بنشرها مكتبة عرفة بدمشق ·

— وكتاب (مع الحقيقة) وهو يبحث في تطبيق الفروع والمظاهر على الاصل بقلم السيد نجيب شعيا · وقد طبع بالمطبعة التجارية بمصر · والكتاب مقدم الى (فرانسا) إقراراً بجميلها · «المغربي»



النقد التاريخي

« وعروبة آل معروف »

—*—

نقل المؤرخ الاستاذ فيليب حتي في كتابه عن الدروز جميع ماخلط الخالطون من افرنج وغيرهم في اصل هذه الفرقة وجرى هو نفسه مجرى بعض مؤرخي الافرنج ولم يرد تعليلاتهم الكثيرة التي لا تزيدها كثرتها الا فراغاً والتي سمتها الكبرى وعلامتها الفارقة ان يجتهد المؤرخ بكل قدرته في الإتيان برأي طريف لم يكن موجوداً والاطلال على عالم العلم بنظرية جديدة غير مسبوقة .

ولعمري حسن جداً ان يدقق المؤرخ في كل رأي يطلع عليه وان لا يقبله بالغاً ما بلغ من الشهرة الا بعد تمحيص تطمئن به نفسه وتحقيق يصل به الى برد اليقين . ولكن قبيح جداً ومضرّ بالعلم جداً ومغرّر بالمتعلمين ان تدور جميع اجتهادات الباحث حول نقطة الإتيان ببدع والسبق الى رأي لم يقل به احد او تقوية رأي ضعيف .

مخالف لشروط العلم على الإطلاق ان يتعمد الباحث المستطلع مخالفة الرأي المشهور لانه مشهور ومحاولة كسب الشهرة باحداث رأي جديد يقوم مقام القديم . قد تقع هذه الامور موقع القبول في الازياء والألبسة والمساكن والمطاعم والمشارب وغيرها من ضروب المعيشة وترتاح الانفس الى التغيير وتتلذذ بالمعاقبة والمداولة وتمل من الشكل الواحد بدون انقطاع وتسأم الذوق الواحد بلا تنوع ولا تصرف وكل هذا معقول ومقبول وطبيعي وبشري ولكنه لا يجوز في الحقائق العلمية . حقيقة من الحقائق التاريخية مثلاً تكون مقرّرة على وجه من الوجوه بعد استيفاء شرائط البحث فيها وانطباقها على المتواتر بين الناس والمنقول من الخلف عن السلف والمأثور في الكتب المعهود باصحابها الاطلاع وتأيدها بالقرائن القوية

كالسحَن والاخلاق والعادات والمذاهب والمشارب ونأتي فنتعمد نقضها تعمداً او نحاول ان ننقصها من أطرافها تحكماً لمجرد مللنا من تواتر القول بها وتبرمنا بتوالي الخلق على نقلها او لاجل الانصاف بسلامة الاختراع واحراز شهرة الابتداع. هذا خُلق لا يجوز في العلماء ولا يحسن ان يفشوَ في دوائر العلم. فالاختراع جميل في الطبيعيات والكيمياء والعلوم المادية. والتسابق في ميدان التغيير والتنويع والتنافس في الإتيان بالشيء الذي لم يمهده الناس من قبل كل هذا لذيذ ومفيد وقد يكون ضروريا لاجل المجتمع الانساني. ولكن اختراع الآراء التاريخية حبا بجدة الآراء والبحث عن خبر جديد نأتي به ولو لم يركب في عقل ولا نقل ونؤيده ولو كان متداعيا بمجرد التبجح كل هذا ولوعاً منا بالإطراف والإبداع هذا جناية على العلم.

ولست أقصد بهذا الوصف كتاب الاستاذ حتي الذي ليس له فيه شيء من هذه الآماد البعيدة في حب الطرافة. وانما اقصد بعض الشرقيين الذين أولعوا بهذا المشرب السقيم زاعمين انه منزع تحقيق سار عليه علماء الافرنج وانهم انما يقلدونهم فيه. وانا أحذر الدكتور حتي من ان يسلك هذا الشعب السحيق الذي يجلّ عن مثله. فمنزع التحقيق هو منزع التحقيق وافق الرأي القديم ام خالفه لا يبالي بما يجيء في طريقه. وانما الذي نحذر الناس من التهافت عليه هو منزع الإغراب حبا بالشهرة وتعمداً لمخالفة الجمهور وجعل «التحقيق» مرادفاً «للإغراب» والحال انه ليس التحقيق إغراباً ولا الإغراب تحقيقاً. فان الاغراب هو ان يأتي الانسان بامر غريب قد يكون صحيحا في نفسه وقد يكون خطأ اوكذباً. وان التحقيق هو ان ينصح الانسان جهد طاقته و ينتهي في البحث الى الغاية فإما ان يصل الى تأييد ما كان مقرراً سابقاً واما ان يصل الى نقضه واما ان لا تطمئن نفسه الى القديم ولكنه لا يجد من الأدلة ما يكفي لهدمه فيختار الوقوف. وليس الوقوف بعيب اذا لم تتوافر الأدلة ولم تُفد القطع وانما العيب هو القول بلا علم والجزم بدون جازم والهجوم بدون سلاح.

واما ان الافرنج إجمالاً يحبون هذا المشرب الشاذ فليس بصحيح. فالافرنج كالشرقيين فيهم المحقق المحص الذي اذا استوفى البحث شروط الصحة جديداً كان الحق ام قديماً اخذ به وعوّل عليه. وفيهم المولع بالإبداع والإطراف ولو كان إبداعه واهياً وإطرافه سخيفاً. ولقد اتسعت مدنيتهم وتشعبت ثقافتهم الى حد ان كثرت عندهم الغرائب وفشا

الشذوذ وملوا النظريات القديمة بصرف النظر عن صحتها وعدم صحتها . ولكن العلماء المحققين منهم لا يزالون يميزون بين الصحيح والفاسد من المباحث واذا جاء مؤلف او مؤلفون فكتبوا ماينفي وجود المسيح مثلاً لم يتلقوا أدلتهم بالتسليم لمجرد انهم أتوا بادلة وقرائن وامائر واشارات تحمل لهذا القول وجهاً ، بل وازنوا بينها وبين الأدلة والقرائن والنصوص الواردة على مجيء المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فوجدوا أدلة الايجاب أمتن جداً من أدلة النفي وحكموا بان مجيء المسيح حقيقة وعلموا انه اذا كان الحكم للمرجوح على الراجح بطل التاريخ وارتفع العلم من الارض .

فأما مايكثر فيه خلط الافرنج الى الحد الذي لا يتصوره العقل احياناً وما يبلغون منه الدرجة التي تضحك وقد تبكي وقد تثير الغضب ومن اي الجهات جاءها الانسان وجدها مصيبة من المصائب — فهو كلام الافرنج عن الشرقيين : ولا اقول اني قرأت كل ما كتب الاوربيون عن الشرق والشرقيين وأحطت بهذه المسألة علماً ولا احد يقدر ان يدعي هذه الإحاطة .

ولكني قرأت بدون شك في هذا الباب ماينذر ان يكون تيسر مثله لغيري وصار لي الحق في ان أدلي برأيي في هذه المسألة . فأقول ان خلط الغربيين في كلامهم عن الشرقيين زائد جداً و يكاد يكون عاماً لمؤلفيهم الى انه صار الاسترسال الى أقوالهم في احوال الشرق والشرقيين عبثاً . ولقائل ان يقول : اني أراك مبالغاً او جائراً في الحكم أفهؤلاء العلماء المنقبون الذين فتحوا مغلقات الألسن الشرقية القديمة وحلوا طلسمات الآثار العتيقة التي كان الشرقيون لا يعرفون منها شيئاً وأفاضوا أشعة تحقيقاتهم على التاريخ القديم سواء عن مصر او عن فلسطين او عن فينيقية او عن جزيرة العرب او عن بابل ونينوى الى غير ذلك حتى جلوا منه تلك الصفحات التي لم يكن شرقي يعرفها من قبلهم — تعدهم انت من الخلاطين الذين لا يؤخذ بكلامهم ولا يوثق بسبيل أقلامهم ! فأجيب على ذلك : حاشا ان أقصد ذلك فيما يتعلق بالتواريخ القديمة والخطوط الهيروغليفية والمسمارية والآثار الحفرية التي صارت فناً من الفنون اتقنه الافرنج وكشفوا به مخبآت عظيمة واضاءوا به ظلمات من التاريخ الشرقي لاشبهة فيها . ولكني أقصد ذلك فيما يتعلق بتواريخنا العصرية واحوالنا الاجتماعية ومانعرفه نحن جيداً ونقدر ان نميز به الصحيح من الفاسد وما هو واقع تحت

حواسنا او متواتر خبره عندنا · ففي هذه الامور نجد خلط المؤلفين الاوربيين بحراً عبابا وعجباً عجاباً ونجد المعصوم منهم أقلهم خلطاً وأندرهم خبطاً · ولعلهم يخبطون ايضاً في مباحثهم عن اللغات والخطوط الشرقية القديمة ويخطئون في نتائج تنقيباتهم عن الآثار الحفرية الاركيولوجية في كثير من الامور الا اننا في هذه قل من يقدر منا ان يجاذبهم الحبل و يقنعهم بخطإهم لانها علو قديمة عادية دهرية استوى أمامها الشرقي والغربي وصارت بعيدة عن الجميع لنأيها في ظلمات القدم فلم يزد الشرقي بها علماً كون تلك الآثار هي في بلاده اذ كانت نسبتها من آلاف من السنين قد انقطعت وعلاقتها بالحاضر كادت تكون معدومة · فصار الاوربيون اعرف بها من الشرقيين ولو كان هؤلاء جيرانها لان مدنيتهم صارت ارقى من مدنية الشرقيين · ولما كانت المدنية تقتضي البحث والاستطلاع كانوا هم اجدّ وانهض للبحث وارغب في التنقيب واملك لوسائله · فعلى كل حال اصبحنا لانقدر ان نجاريهم في هذا المضمار وان وجد منا من يعرف هذه العلوم فيكون قد اخذها عنهم وتخرج فيها عليهم ·

ولكن ليس الشأن كذلك في التاريخ الاسلامي مثلاً لاننا نملك من وسائل معرفته تواتراً ونقلاً وخطوطاً ونقوشاً وآثاراً مالا نحتاج فيه اليهم بل ما لا يملكونه هم ثم لاننا عائشون في لُجته مندمجون في ضمنه نقدر ان نفهم منه مالا يفهمه الغرباء عنا مهما اجتهدوا في تفهُّم تاريخنا · وليس الشأن كذلك في امورنا الاجتماعية وخططنا الجغرافية وأحوالنا الاحصائية التي نحن بها أدرى من الغريب لاننا نشاهدها كل يوم ونعرف منها مالا يعرفه الاوربي وان علا كعبه في العلم · فاذا ضلّ الاوربي في ظلمات تاريخ الشرق القديم فلا نحن ان نرده الى الصواب كما اذا ضلّ في تاريخ الحقب التي بعد الاسلام او اذا أخطأ في أوصاف الحالات التي نحن عليها الآن ·

ففي هذه نحن نملك من أسباب العلم ما يحصل لنا به برد اليقين ونقدر ان نبين الحق من الباطل ونفرق بين الحالي والعاطل · ومن جراء هذا نقضي العجب العجاب من شطط اكثر الاوربيين الذين يتكلمون عنا ومن تعسفهم الطرق ومن بنائهم على التخيلات والتخرصات ومن تعلقهم باسباب واهية يخرجون منها الى إطلاقات عجيبة غريبة ومن أخذهم بمقدمات غير ثابتة ومن افضائهم منها الى نتائج فظيعة · وقد ثبت لنا بهذا ان الراقي

في العلم لايمكنه ان يكون راقياً في كل علم وان الاعتقاد باحاطته ضرب من الجنون ·

ويجوز ان يكون الاوربي اليوم في ثقافته ارقى من الشرقي على وجه الإجمال لكن هذا لايستلزم ان يكون أعلم من الشرقي في كل شيءٍ ولا ان يكون اعلم من الشرقي بنفسه · ومن هنا جاء خطأ بعض الشرقيين الفظيع في تقديس معارف الغربي في كل شيءٍ وتلقي كل مايحكم به قضايا مسلمة حتى فيماهو نفسه لايدعي فيه العصمة وحتى فيما هو نفسه يدعو الناس الى ان يصححوا كلامه · فتجدهم يكابرون انفسهم فيما هو واقع تحت حواسهم نظراً لكون احد مؤلفي الافرنجة قال خلاف ذلك ·

وبعد هذه المقدمة أقول ان كثيرين من كتّاب الافرنج هم منشئون او ممن تسهل عليهم الكتابة في موضوع اجتماعي اوسياسي او في رحلة الى بلد من البلدان يصف بها الافرنجي مارآه ومالرتسم في مخيلته · ولكن ليس كل كاتب منهم عالماً ولا محققاً ولامتخصصاً في الفن الذي يكتب فيه · والحال اننا نحن الشرقيين قد تلقينا كل افرنجي تقريباً عالماً وصرنا نستشهد باقواله · ثم تلقينا كل عالم منهم متخصصاً حتى لو كان مقتصراً على مجرد المشاركة في الفن الذي استشهدنا فيه بكلامه · ثم تلقينا كل متخصص منهم معصوماً وقلنا لاسمه السجود · فهذا كله عبث وغير لائق بالعلم بل ضلال ·اضلال لا يغتفران· فالناس يجب ان ينظروا الى القول لا الى القائل ، وماذا يهمني القائل اذا كان افرنجياً وانا أرى خبصه بعيني وألمس خلطه بيدي ؟ أأجعل كل كاتب من الافرنج عالماً وكل عالم عبارة عن انسيكلوبيديا وسعت كل شيء علماً وكل انسيكلوبيديا معصومة من الخطإ تنزيلاً من حكيم حميد ؟ لقد قرأنا الانسيكلوبيديا الاسلامية — التي لم تتم — ووجدناها من أنفع الكتب وهي محررة باقلام نخبة من المستشرقين الذين هم أعرف الافرنج بامور الشرق والعالم الاسلامي لكننا عندما عرجنا فيها على الموضوعات التي نقدر ان نفرق فيهـا بين الحق والباطل رأينا فيها خطأً كثيراً ·

واذا جئنا نستشهد على خطإهم في الكلام علينا وعلى الشرق أجمع حفيت الأقلام وضاقت بالشواهد الأجلاد الضخام · ولا يسلم من هذا العثار في امور الشرق احد من مؤلفيهم ولو بلغ من العلم ارفع الدرجات · وقد يقال لي : أفترى الشرقيين في امور الشرق أسد منهم رأياً وأصح معلومات ؟ فأجاوب :

اولاً ان غلط الشرقي سهل تداركه لانك بمجرد ما تقول للشرقي القارئ ان فلاناً الشرقي المؤلف اخطأ في كذا تلقى كلامك بالقبول او بالميل الى القبول وذلك لانه متهافت بطبيعته على تصديق ما يعزى من الخطإ الى ابن وطنه او جلدته . فأما اذا قلت له ان المؤلف الافرنجي فلاناً اخطأ لم يمكنك ان تقنعه بسهولة . وان كان الافرنجي المؤلف مشهوراً لم تجرّ الشرقي الى التسليم بخطإ لا بجبال ولا برجال . وما هذا الا لما وقر في صدور الشرقيين من تقديس علم الافرنج والمبالغة في تنزيههم عن الخطإ حتى في الامور التي نحن أدرى منهم بها فعلاً . واقول ثانياً ان الشرقيين في تاريخ الشرق بعد الاسلام أدرى وازكن من الغربيين بلا نزاع .

كثير من المؤلفين الاوربيين اذا عثر على حادثة واحدة جرّد منهـا قاعدة ! فاذا اتسق له العثور على حادثتين او ثلاث ظن انه اختزن الحقائق كلها في جيبه . والحال ان الجزئيات لابد من ان تبلغ عدداً لا يكاد يحصى حتى تتجرد منها قاعدة كلية . فاذا تساوت الجزئيات في السلب والايجاب لم يمكن تجريد قاعدة كلية منها وتحتم الوقوف حتى تبرز الحقيقة بوجه من الوجوه اذ يكاد يكون من المستحيل خفاء الحقيقة الى الابد . وعلى كل حال الواقعة الواحدة والاثنتان والثلاث لا يبنى عليها حكم ولا يستنبط منهـا من العلم الا بقدرها . وهذا ما لا يريد الافرنجي ان يفهمه اذا خاض في معامع البحث عن الشرق . فهو كلما وقع على حدث حاول ان يستخرج وان يستنتج وسبح في بحر الخيال . وصل الى نتائج ما أنزل الله بها من سلطان .

وعند الاولاد لعبة يسمونها « الغمّيضاء » يعصبون عيني احدهم ويتخبأون كل واحد في زاوية ويدور هو والعصابة على عينيه فيبحث عنهم بيده ويتلمس من هنا ومن هنـاك حتى يعثر على احدهم . وكثيراً ما تقع يده على حجر او شجر او متـاع من الامتعة او حيوان مربوط فيظن انه امسك واحداً من رفاقه المختبئين ويهتف صائحاً : هوذا انا قد امسكتك ! ولا يكون امسك احداً . وهذا النفر من الافرنج يبحث عن قضية لا تجلى له فاذا لاحت له لائحة معها كانت ضعيفة ظن انه قبض على مفتاح السر فيها وهتف : قد انكشف لي المغلق . او كلما رأى شعباً من الشعاب اعتقد انه هو الطريق المؤدية الى المقصد وصاح : هذه هي المحجة !

وكم مؤلف منهم يبني تاريخاً طويلاً عريضاً على لفظة . وقد تكون محرفة او مصحفة او مصادفة . فهل يبني العاقل تاريخاً على مجرد كلمة ؟ يأتي افرنجي فيقول مثلاً ان الدروز هم من بقايا الصليبيين وان اسمهم مشتق من اسم الكونت «درو[1]» Dreux الذي كان من غزاة الصليبيين ونحن ننشر هذه السخافة ونرفع هذا الرأي الى درجة الآراء ولا نبالي باضاعة وقت الناس في افرائهم سخافات كهذه . . . و ياليت شعري ماذا وجد في الدروز مما يشبه الافرنج الصليبيين أسحنهم ام الوانهم ام تركيب رؤوسهم ام اخلاقهم ام عاداتهم ام لفظهم بالعربي الفصيح الذي لا يساويهم فيه احد من جميع سكان سورية ؟ وكيف امكن ان يتحولوا هذا التحول العظيم من افرنج صليبيين الى عرب اقحاح ؟ ومتى وقع هذا التحول واين وأنّى وهل كان الدروز موضوعين في علبة او في صندوق محكم الاقفال حتى تحولوا من افرنج الى عرب وهم بهذه السواحل الشامية وعرضة للتفتيش والبحث والنظر ولم يشعر بذلك احد من سكان هذه السواحل لا من مسلمين ولا من نصارى ولا من يهود . والدروز مع ذلك مختلطون بجميع هذه الطوائف ومساكنون لهم لا تقع عندهم صغيرة ولا كبيرة الا كان خبرها عند جيرانهم والمقيمين من هاتيك الطوائف بين اظهرهم . ومما لا مرية فيه ان تحول قوم من الاقوام عن جنسيتهم ولغتهم وعاداتهم واخلاقهم واندماجهم في أمة أخرى يقتضي اوقاتاً وآماداً متطاولة ولا يحصل في زمن قصير فكيف جرى هذا الحادث العجيب الذي لا يتم الا في القرون بدون ان يشير اليه مؤرخو الاسلام ولا مؤرخو الافرنج انفسهم ولا مؤرخو الموارنة الذين هم اكثر الطوائف اللبنانية اختلاطاً بالدروز . فلا ابن الاثير ولا ابن خلدون ولا ياقوت الحموي ولا ابو الفداء ولا ابن عساكر ولا الذهبي ولا ابو شامة صاحب الروضتين ولا ابن شداد ولا ابن العديم ولا ابن خلكان ولا ابن قاضي شهبة ولا العمري ولا شمس الدين ابن طولون ولا الصلاح الصفدي ولا النجم الغزي ولا شيخ الربوة ولا المحبي ولا احد ممن كتبوا عن سورية اشار الى حادث كهذا مع انهم نقبوا عما هو اصغر منها كثيراً . واغرب من هذا ان مؤرخي لبنان الذي فيه الدروز لم يشموا أدنى رائحة لامر كهذا فلا السمعاني ولا الحاقلاني ولا جبرائيل القلاعي ولا الدويهي ولا ابن اسباط ولا صالح بن يحيى ولا الصفدي مؤرخ الامير فخر الدين بن معن ولا طنوس الشدياق ولا بطرس البستاني ولا غيرهم ذكر ان الدروز هم من بقايا الصليبيين او انهم

منسوبون الى الكونت درو [(1)] .

فاذا كانت المشابهة في لفظة واحدة تجعلنا نقلب التاريخ رأساً على عقب ونضرب صفحاً عن جميع تلك الادلة المحسوسة فماذا أبقينا للعوام من الشرقيين والجهلاء من الحشوة الذين يقولون لك ان اسم حلب الشهباء اصله ان ابراهيم الخليل كانت له بقرة شهباء يحلبها ويجود بلبنها على الفقراء فيجتمعون عليه واذا حلبها قالوا : حلب الشهباء . فمن هنا جاء اسم حلب الشهباء ! او ان طبرية اصلها من ان ملكاً كان عنده ابنة اسمها « ريّا » وكانت عليلة فأرسلها تستحم في الماء السخن الذي على شاطئ بحيرة الجليل فنالت الشفاء فقالوا : طابت ريّا . ومن هنالك جاء اسم طبرية ! او ان حاصبيا اصلها من ان فتاة رأت اباها قد حار في امره فأخذت تعول وتقول : حاص أبيّا . فصارت حاصبيا وهلم جرّاً . ولم ينحصر هذا البناء على مجرد المشابهة في اللفظ في العوام وحدهم بل تجد منه عند الخواص ايضاً او عند من يصح ان يقال لهم « عوام الخواص » لان في الخواص عوام ايضاً .

ففي جبل لبنان يروون ان اسم « الشوف » مشتق من كلمة « شُفْ » فعل امر من « شاف » اي رأى بحسب لغة العامة . وذلك بزعمهم ان الجد الاعلى للامراء المعنيين

---

(١) من عادتي اني اذا عربت عن الافرنجية كلمة فيها eu كلفظة Dreux مثلاً أعربها بالواو وأضع فوق الواو الفاً صغيرة لانها بالافرنجية واو مائلة الى الفتح . واذا كانت لفظة فيها u كلفظة Rhur مثلاً او Ziurich أعربها بالواو وأضع فوق هذه الواو ياء صغيرة لانها واو مشوبة بياء كما يعرف ذلك من يعلم اللغات الاوربية . وان كانت لفظة فيها واو شديدة الضم اي هكذا ou كما لو قلت Atnfou او Toulon مثلاً أكتبها هكذا « طوُلون » مع واو صغيرة فوق الواو . واما الواو التي في مثل Rome و Lausanne مثلاً فأعربها بالواو المعتادة هكذا « رومة » و « لوزان » وهذا التفريق بين الواوات الافرنجية مهم لانها اربعة أشكال كل منها يلفظه الافرنج بشكل خاص فواو طولون الاولى غير واو رومة . وواو لوزان غير واو مونترو . وواو زوريخ غير واو مونترو وغير واو لوزان . وعليه لزم ان يجعل لها فوارق في العربي حتى تلفظ بالعربي كما تلفظ بالافرنجي .

عندما قدم الى جبل لبنان يريد ان يتخذ منه محلاً لنزوله كانت الجهات التي تسمى اليوم بالشوف الحيطي والشوف السويجاني — واصلها الشويزاني — خراباً فجاء الامير المعني الى عبيه من ناحية غرب لبنان نزيلاً على الامير التنوخي واستشاره في المكان الذي يوافق نزوله فيه فيقال ان الامير التنوخي صعد به الى الجبل الذي فوق عبيه الذي يقال له « المطيّر » والذي منه تظهر من الجهة الشرقية بعقلين ونواحيها يدلّه باصبعه قائلاً له « شُف » فصارت «شوف» .

وما أرى شيئاً من هذا وانما ارى اللفظة آرامية او فينقية معناها « الاجرد» لان جميع صرود لبنان يقال لها « الجُرد » بضم الجيم جمع أجرد . ويجوز ان تكون هكذا بالعربية ايضاً لان فعل «شاف» معناه بالعربي جلا وصقل و «الشَوْف» بفتح اوله هو الجلو والصقل وكله يتضمن معنى «الجَرْد» بفتح اوله . فالجَرد في العربي هو قشر العود اونزع الشعر ومكان جَرِد لانبات فيه . وكذلك المكان الجَرِد بفتح اوله وكسر ثانيه الذي لانبات فيه . وايضاً المكان الاجرد الذي لانبات فيه وجمعه «الجُرد» بضم اوله كما يتلفظ به اهل كسروان والمتن والغرب والشوف جميعاً . والجرّاد هوالذي يجلو آنية النحاس اي المعروف عند العامة « بالمبيّض » فأنت ترى ان الجرد والصقل والجلو كله بمعنى واحد ولذلك يكون «الشوف» بمعنى «الجرد» واذا رأى الانسان من بعيد رؤوس تلك الجبال وأسنادها وجدها جرداء صلعاء كأنها مجلوّة . وهذا هوالاقرب في اصل هذه اللفظة . وفي الافرنسية لفظة Chauve « شوف» هي بهذا المعنى ايضاً اي أصلع .

ومن هذا الضرب مايقولون في مدينة حماه عن محلة اسمها « الحاضر » فيها مساكن الاشراف بني الكيلاني . فيروون انه لما قدم جدهم من العراق مختاراً الإقامة بحماه أشار عليه ملك تلك البلدة بالنزول في المكان الذي يقال له « الحاضر » في الوقت الحاضر وقال له « هذا الحاضر » اي اسم فاعل من حضر ضد غاب . اي انزل بهذا المكان فهذا الذي يحضرنا الآن وفيما بعد نفكر . وهذا كلام عامي ، والاصح ان الحاضر كان من قديم الزمان محلة عامرة بحماة وهو اسم فاعل من الحضارة لا من الحضور . والحاضر في اللغة الحي العظيم . وقال الجوهري : هو جمع كما يقال سامر للسمّار وحاج للحجاج ومنه « كان ينام خارجاً عن حاضره وكان الحاضر اذا أتاهم الفزع صاحوا » .

وفي حلب حاضر ايضاً كما في حماه · ولكن حاضر حلب قد صار اليوم خراباً · واما حاضر حماه فقد قال فيه ياقوت الحموي : « وبظاهر السور حاضر كبير جداً فيه اسواق كثيرة وجامع مفرد مشرف على نهر العروف بالعاصي » الى ان يقول : « ويقال لهذا الحاضر السوق الاسفل لانه منحط عن المدينة ويسمون المسوَّر بالسوق الاعلى » ·

ومن هذا القبيل تأويل عامي رأيته في «صبح الاعشى» مع فضل صاحبه وسعة اطلاعه ولكن علماءنا في الأغلب لا يخرجون عن دائرة العربية فكل مغلق يفسرونه بها · وهذا التأويل الغريب في صبح الاعشى هو قوله ان لفظة «تركمان» اصلها « ترك ايمان » لان الترك تركوا دينهم القديم وأسلم منهم مائتا الف في يوم واحد · فجعل لفظة « ترك » من فعل «ترك» العربي وهو غريب جداً · وجعل لفظة «مان» محرفة عن «ايمان» وهو لا يقل عنه غرابة ولم يفكر في ان تلك الامة لها لغتها القديمة ولها الفاظها وان الفاظها لا تؤوَّل بالعربية وان معنى «مان» Mann باللغات الآرية هو رجل وان هذا الاسم «تركمان» اي رجل تركي قد يكون اطلق عليهم في فارس ولا يوجد مزلقة مدحاض في العلم اكثر من تشابه الالفاظ لانها تتشابه كثيراً بين لغات مختلفة وفي وسط اللغة الواحدة · فاذا أردنا ان نستخرج من تشابه كل لفظتين تاريخاً لم نعرف الى اية سخافة بعيدة يؤدي بنا ذلك ·
وقد سمعت ان اديباً تركياً نشر في الاستانة مقالة يزعم فيها ان التورانيين اي الاتراك كانوا من قديم الدهر في سورية وفي فينيقية واستدل على ذلك بلفظة «ارواد» اسم هذه الجزيرة التي هي قصد طرابلس · وقال : هذه محرفة عن «اروات» واروات محرفة عن « اورَت» او «عورَت» وهي « المرأة » بالتركي · ومن هنا تحقق ان هذه البلدان كانت تركية ! حقاً ان هذه من أعاجيب العصر · وهي لا تقل في الغرابة عن كون الدروز أصلهم من الافرنج الصليبيين بدليل انه وجد في الصليبيين من اسمه « درو » ·

ومن أهم واجبات العالم ان لا يتهافت على الاخذ باول دليل والحكم بموجبه فقد يضل ضلالاً بعيداً ويندم او يصبح سخرة ومضغة في الافواه · وهذا مما يقع فيه مؤلفو الافرنج كثيراً عندما يتكلمون عن العرب والشرقيين · وسترى انهم خلطوا بين تنوخ وتنوخ من جراء اتحاد الاسم · وتابعهم في ذلك الاستاذ حتي · وظنوا جميعاً ان الامراء التنوخيين أمراء الدروز في لبنان هم من تنوخ القبيلة المؤلفة من ثلاث قبائل التي يقال انها تحالفت

على المقام بمكان بالشام او على «التنخ» وهو الاقامة بالمكان فجاء من ذلك اسمها « تنوخ » وقد قيل فيها انها نزار وأسد وغطفان . وقيل بل هي الضجاعمة ودوس الذين تنّخوا بالبحرين . وذهب ابو الفداء الى انهم من جرم واسمه علاف بن زبان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة من العرب القحطانية . ونقل علي ظريف الاعظمي البغدادي في كتابه « تاريخ ملوك الحيرة » ان تنوخ فرع من قضاعة من القحطانيين هاجروا من اليمن مع من هاجر من اليمانيين بعد انفجار سد مأرب مما سموه سيل العرم وذلك في أوائل القرن الثاني للميلاد ونزلوا البحرين وزعيمهم يومئذ مالك بن فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة بن تغلب ابن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة . قال : ولما نزل بنو قضاعة بالبحرين نزل معهم الأزد مهاجرين ايضاً وزعيمهم مالك بن فهم بن غانم والتفّت حولهم القبائل اليمانية من بطون نمارة بن لخم وغيرهم من بني قحطان . ووافق خروج هذه القبائل اليمانية خروج قبائل من ولد اسماعيل فرقتهم الحروب فلجأوا الى البحرين وانضموا الى اليمانيين . ولما اجتمعوا بالبحرين اتفق الزعيمان زعيم قضاعة وزعيم الأزد على التعاضد والتناصر وتحالفوا على التنوخ اي المقام فسموا تنوخاً من ذلك الحين الى آخر ما قال .

والحاصل ان مؤرخينا اتفقوا على قصة «التنوخ» هذه مما يطول بنا استقصاء رواياته واتفقوا ايضاً على ان قضاعة من قبائل تنوخ هاجرت من البحرين الى العراق وذكروا ان مالك بن فهم زعيم قضاعة صار ملكاً على العراق وتسمت دولته بدولة آل تنوخ واستمرت نحو ١٣٠ سنة واستفحل شأنها كثيراً في زمن جذيمة بن مالك بن فهم الملقب بجذيمة الوضاح عدو الزباء ابنة عمرو بن الظرب بن حسان العمليقي ملك الجزيرة ومشارف الشام . وانه بعد ان غدرت الزباء بجذيمة وقتلته اخذاً بثأر ابيها انتقل ملك الحيرة من آل تنوخ الى آل لخم لان جذيمة لم يعقب ولداً فورثه في الملك ابن أخته عمرو بن عدي اللخمي وكانت لاعقابه دولة من أعظم دول العرب اسمها دولة المناذرة . وعظمت الحيرة في زمانهم كثيراً . وقد انقرضت هذه الدولة بظهور الاسلام وفتح خالد بن الوليد للحيرة . وجملة ملوك الحيرة ٢٤ ملكاً منهم ثلاثة من التنوخيين وستة عشر من اللخميين وخمسة من الدخلاء الذين كان يوليهم الاكاسرة من وقت الى آخر في اثناء غضبهم على اللخميين ومدة الجميع ٤٩٤ سنة .

وقد ثبت انه بعد زوال ملك المناذرة هاجرت أفخاذ من تنوخ ولخم الى الشام واوطنت

الجهات الشمالية من سورية كالمعرة وقنسرين واللاذقية وكان الغالب عليهم النصرانية . ثم اخذوا يدخلون في الاسلام . وجاء في «فتوح البلدان» للبلاذري وهو من أوثق ما ألف في فتوحات الاسلام يروي عن ثقات حدثي العهد بالفتح ان اباعبيدة بن الجراح بعد فراغه من ارض اليرموك سار الى حمص فاستقراها . ثم الى قنسرين وعلى مقدمته خالد بن الوليد فقاتله أهل مدينة قنسرين ثم لجأوا الى حصنهم وطلبوا الصلح فصالحهم ابوعبيدة على مثل صلح حمص وغلب المسلمون على ارضها وقراها وكان حاضر قنسرين (اي المدينة) لتنوخ منذ اول ما أنخوا بالشام نزلوه وهم في خيم الشعر ثم ابتنوا به المنازل . فدعاهم ابوعبيدة الى الاسلام فأسلم بعضهم وأقام على النصرانية بنو سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة . فحدثني بعض ولد يزيد بن حنين الطائي الانطاكي من أشياخهم ان جماعة من اهل ذلك الحاضر أسلموا في خلافة امير المؤمنين المهدي (خلافة المهدي من ١٥٨ الى ١٦٩) فكتب على أيديهم بالخضرة قنسرين » .

ثم ذكر البلاذري نقلاً عن هشام بن عمار الدمشقي عن يحيى بن حمزة عن ابي عبد العزيز عن عبادة بن نسي عن عبد الرحمن بن غنم ان هذا قال انهم رابطوا مدينة قنسرين مع السمط او قال شرحبيل بن السمط فلما فتحها أصاب فيها غنماً وبقراً فقسمها فيهم وجعل بقيتها في المغنم وكان حاضر طيء قديماً نزلوه بعد حرب الفساد التي كانت بينهم حين نزلوا الجبلين (أظنه يريد أجأ وسلمى جبلي طيء) من نزل منهم وتفرق بافوهم في البلاد فلما ورد ابوعبيدة عليهم أسلم بعضهم وصالح كثير منهم على الجزية . ثم اسلموا بعد ذلك بيسير الا من شذ عن جماعتهم . وكان بقرب مدينة حلب (وهذا الذي سبق لنا الكلام عليه) حاضر يدعى حاضر حلب تجمع اصنافاً من العرب من تنوخ وغيرهم فصالحهم ابوعبيدة على الجزية ثم انهم أسلموا بعد ذلك فكانوا مقيمين وأعقابهم به الى بعيد وفاة امير المؤمنين الرشيد (مات الرشيد في ثالث جمادى الآخرة سنة ١٩٣) ومن تنوخ هؤلاء ابوالعلاء المعري الضرير الفيلسوف الكبير والشاعر الشهير والمفكر المنقطع النظير وهو احمد بن عبدالله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن احمد بن سليمان بن داود بن المطهر بن زياد بن ربيعة بن الحارث بن ربيعة بن انور بن اسحم بن ارقم بن النعمان بن عدي بن غطفان بن عمرو بن بريح بن جذيمة بن تيم الله بن اسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة .

ومنهم أمراء اللاذقية ممدوحو ابي الطيب المتنبي . ومنهم سراة وأعيان وعلماء وفقهاء لا يأخذهم الاحصاء في المشرق والمغرب وليس هنا موضع هذا البحث .

واما الأمراء التنوخيون الذين كانوا في بيروت وغرب لبنان فليسوا منهم . وانما اتحاد اسم تنوخ هوالذي غبّى على الاستاذ حتي وعلى من اخذ عنهم من الافرنج حقيقة الامر . فالتنوخيون اللبنانيون ليس لهم نسب الى تنوخ قضاعة . وانما هم بحسب ماينسبهم الناس وماينسبون أنفسهم من لخم لامن تنوخ الذين كانوا نصارى وأسلمت منهم جماعات في عهد الخلفاء الراشدين ثم في عهد العباسيين . وصالح بن يحيي المؤرخ احدهم الذي عاش في أواسط القرن التاسع للهجرة يسميهم « أمراء بني الغرب » نسبة الى الغرب المقاطعة التي كانوا يسكنونها من لبنان وهي مقاطعة الارسلانيين ايضاً كانت مقسّمة بين الفريقين . وماقيل لهم تنوخ الا نسبة لاحد اجدادهم تنوخ بن قحطان بن عوف بن كندة بن جندب بن مذحج بن سعد بن لحي بن تميم بن نعمان بن المنذر بن ماء السماء . وهي ماوية بنت عمرو لقبت بماء السماء لجمالها . والمنذر بن ماء السماء المذكور هو ابن امرئ القيس بن النعمان الاعور بن امرئ القيس المحرق بن عمرو بن امرئ القيس الاول بن عمرو بن عدي بن ربيعة بن الحارث بن مالك بن غنم بن نمارة بن لخم بن عدي بن الحارث بن مرة بن ادد بن زيد ابن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . هكذا كما جاء في تاريخ صالح ابن يحيي ، نقله عنه ابن سباط العاليهي ونقل عن هذا الامير حيدر الشهابي والشيخ طنوس الشدياق وغيرهم . واذا كان الاستاذ حتي لا يسلم بهذه النسبة الواردة في تاريخ صالح بن يحيي وغيره من تواريخ لبنان ولا يجدها دليلاً كافياً فليس لدينا دليل آخر يثبت عكسها ولا حجة على ان الامراء التنوخيين اللبنانيين هم من تنوخ قضاعة . والتواريخ لاتبنى على الظنون ولا على الخرص والحدس . وغاية مايقال ان في تاريخ صالح بن يحيي أغلاطاً . وربما لم تكن هذه النسبة كلها ثابتة بالتسلسل الذي هي عليه فإن هذه السلاسل القديمة وان كانت متواترة فإنه قد تواتر الخلاف ايضاً في كثير من رجالها . حتى ان النبي عليه الصلاة والسلام لما وصلت سلسلة النسب العدناني الى درجة معينة وقف وقال : كذب النسابون .

وسنسوق الى القارئ نسبة ملوك المناذرة كما هي واردة في تاريخ ابي الفداء وفي تاريخ

جرجي زيدان وفي تاريخ علي ظريف الاعظمي وفي تاريخ صالح بن يحيى التنوخي وفي سجل نسبنا الأرسلاني ونقابل بينها لنظهر ما بينها من الفروق التي وجودها لا ينفي صحة النسب من حيث الجملة · فان الاختلاف في بعض التفاصيل مع الاتفاق من حيث المجموع يزيد الثقة بدلاً من ان ينقضها او ينقصها ·

كنت أرسلت الى الأخ المؤرخ المحقق سليمان بك ابي عز الدين المقابلة في سلسلة المناذرة بين سجل النسب الأرسلاني وتاريخ صالح بن يحيى التنوخي وتاريخ ملوك الحيرة لعلي ظريف الاعظمي البغدادي · فأرسل هو بالجدول الآتي · فوجدت مفيداً ان انقله :

« ملوك الحيرة اللخميين »

(ابو الفداء)	(جرجي زيدان)	(علي ظريف الاعظمي)
عمرو بن عدي	عمرو بن عدي	عمرو بن عدي
امرؤ القيس بن عمرو	امرؤ القيس بن عمرو	امرؤ القيس الاول بن عمرو
عمرو بن امريء القيس	عمرو بن امريء القيس	عمرو بن امريء القيس
اوس بن قلام العمليقي	اوس بن قلام	اوس بن قلام
ملك آخر من العماليق	لم يذكره زيدان	ولا الاعظمي
امرؤ القيس المحرق بن عمرو	امرؤ القيس المحرق بن عمرو	امرؤ القيس المحرق بن عمرو
النعمان الاعور بن امريء القيس	النعمان الاعور بن امريء القيس	النعمان الاعور بن امريء القيس
المنذر بن النعمان	المنذر بن النعمان	المنذر بن النعمان
الاسود بن المنذر	الاسود بن المنذر	الاسود بن المنذر
المنذر بن المنذر	المنذر بن المنذر	المنذر بن المنذر
لم يذكر احداً	النعمان بن الاسود	النعمان بن الاسود
علقمة الذميلي (لخمي)	علقمة ابو يعفر	علقمة بن مالك الذميلي
امرؤ القيس بن النعمان	امرؤ القيس بن النعمان	امرؤ القيس بن النعمان
المنذر بن امريء القيس	المنذر بن امريء القيس	المنذر بن امريء القيس

(ابو الفداء)	(جرجي زيدان)	(علي ظريف الاعظمي)
الحارث بن عمرو بن حجر الكندي	الحارث بن عمرو بن حجر الكندي	الحارث بن عمرو بن حجر الكندي
عمرو بن هند	عمرو بن هند	عمرو بن هند
قابوس بن المنذر	قابوس بن المنذر	قابوس بن المنذر
لم يذكر	فيشهرت او زيد	فيشهرت او زيد
المنذر بن المنذر	المنذر بن المنذر	المنذر بن المنذر
النعمان بن المنذر	النعمان بن المنذر	النعمان بن المنذر
اياس بن قبيصة الطائي	اياس بن قبيصة الطائي	اياس بن قبيصة الطائي
زادويه بن ماهان الهمذاني	زادويه بن ماهان الهمذاني	زاديه او زاودويه بن ماهان الهمذاني
المنذر بن النعمان بن المنذر المغرور	المنذر بن النعمان المغرور	المنذر بن النعمان

هذه سلسلة الملوك اللخميين مع ذكر الذين تولوا خلال بعض فترات بامر الاكاسرة من غير ابناء البيت المالك · اما نسب الملوك اللخميين بحسب الاب والجد فينبغي ان يكون هكذا :

المنذر المغرور وهو المنذر الخامس	من سنة	٦٢٨	الى سنة	٦٣٢
بن النعمان ابي قابوس وهو النعمان الثالث	من سنة	٥٨٥	الى سنة	٦١٣
بن المنذر الرابع	«	٥٨٢	«	٥٨٥
بن المنذر الثالث الذي أمه ماء السماء	«	٥١٤	«	٥٦٣
بن امرئ القيس الثالث	«	٥٠٧	«	٥١٤
بن النعمان الثاني	«	٥٠٠	«	٥٠٤
بن الاسود (واما المنذر الثاني فهو اخوه)	«	٤٧٣	«	٤٩٣
بن المنذر الاول	«	٤٣١	«	٤٧٣
بن النعمان الاول الاعور	«	٤٠٣	«	٤٣١
بن امرئ القيس الثاني	«	٣٨٢	«	٤٠٣

بن عمرو الثاني	من سنة ٣٢٨ الى سنة ٣٧٧
بن امريء القيس الاول المحرق	« ٢٨٨ « ٣٢٨
بن عمرو الاول بن عدي اللخمي	« ٢٦٨ « ٢٨٨

فاذا نظرنا الى تاريخ صالح بن يحيى التنوخي نجده يذكر نسبهم الذي تقدم لنا سرده على ان جدهم تنوخ هو ابن قحطان بن عوف بن كندة بن جندب بن مذحج بن سعد بن لحي بن تميم ·

بن النعمان
بن المنذر الذي أمه ماء السماء
بن امريء القيس
بن النعمان الاعور
بن امريء القيس المحرق
بن عمرو
بن امريء القيس الاول
بن عمرو بن عدي اللخمي

فهكذا يكون نقص من السلسلة المنذر الرابع الذي يأتي قبل المنذر الثالث الذي أمه ماء السماء · ويكون النعمان الأعور هو النعمان الثاني ابن امريء القيس مع انه بحسب التواريخ الاخرى هو النعمان الاول · ويكون نقص امرؤ القيس الثاني وعمرو الثاني · ويكون نقص ايضاً الاسود بن المنذر الاول · اي اربعة أجداد ·

واما في سجل النسب الارسلاني فالترتيب هو هكذا : ارسلان بن مالك بن بركات ابن المنذر بن مسعود بن عون ·

بن المنذر المغرور (هو هنا الثالث لا الخامس)
بن النعمان ابي قابوس (هو الثالث)
بن المنذر (هو هنا الثاني)
بن المنذر الذي أمه ماء السماء (هو هنا الاول)
بن امريء القيس (الثالث)

ابن النعمان الاعور (الثاني)
بن امرئ القيس (الثاني)
بن النعمان (الاول)
بن عمرو (الثاني)
بن امرئ القيس (الاول)
بن عمرو بن عدي اللخمي (الاول)

وهذه السلسلة تنقص اثنين عن سلسلة الاعظمي ليس فيها الاسود بن المنذر الاول ولا المنذر الاول ولكنها تجعل النعمان الاعور هو الثاني لا الاول كما هو في سلسلة الاعظمي . فهي من هذه الجهة متفقة مع سلسلة صالح بن يحيى . ولكنها تختلف عنها في ان سلسلة صالح بن يحيى ليس فيها الا منذر واحد وهو خطأ فظيع اذ لو لم يكونوا اكثر من واحد واثنين ما قيل لهم «المناذرة» . واما في سلسلة الاعظمي فالمناذرة خمسة منهم المنذر الثاني اخ للاسود بن المنذر الاول فيكون المناذرة الذين على عمود النسب اربعة . واما في سلسلة السجل الارسلاني فالمناذرة الذين على عمود النسب هم ثلاثة فقط . اما المنذر بن مسعود بن عون فهو ليس من ملوك الحيرة بل من أعقابهم الذين كانوا في الشام . وفي سلسلة صالح بن يحيى لا يوجد الا اثنان ممن اسمه النعمان احدهما ابو قابوس والآخر الاعور . واما في السجل الارسلاني فهم ثلاثة ابو قابوس فالنعمان الثاني الاعور فالنعمان الثالث وهذا كما في سلسلة الاعظمي والسلاسل الاخرى . وفي نسب عائلتنا ان النعمان الاعور تزهد وترك الملك وهو كما في تاريخ ابي الفدا وتاريخ الاعظمي . وفي سلسلة صالح بن يحيى ثلاثة اسمهم امرؤ القيس . وفي سجل نسبنا كذلك . وفي تاريخ ابي الفدا وتاريخ الاعظمي كذلك . وفي الجميع اثنان اسمهما عمرو . وهناك اختلاف في نسب ماء السماء أم المنذر الثالث التي لقبت بذلك لحسنها وجمالها واسمها الاصلي ماوية . ففي تاريخ ابي الفداء انها بنت عوف بن جشم . والاعظمي يقول انها بنت عوف بن جشم بن النمر بن قاسط . وصالح ابن يحيى يقول : « لقبت بذلك لجمالها واسمها ماوية بنت عمرو » ولا يرفع اكثر من ذلك وفي سجل نسبنا : « ماء السماء ماوية بنت ربيعة التغلبي اخت كليب والمهلهل لقبت بذلك لصفاء نسبها او لنقاء لونها » فهنا ايضاً اختلافات في الرواية لكنها لا تبطل النسبة من حيث

العموم وانت لا تكاد تقرأ سلسلة آباء واجداد خصوصاً قبل الاسلام الا وجدت الروايات فيها متباينة اما بكثير واما بقليل . و يظهر من كلام صالح بن يحيى الذي ينقله عن شيوخ اهله انهم اي الامراء التنوخيون ينتسبون الى تميم بن النعمان ابي قابوس بن المنذر . ولكنه لا يذكر شيئاً عن كيفية مجيئهم من الحيرة الى غرب لبنان ولا شيئاً من خبر تميم هذا ابن النعمان . ولم نجد في الكتب المشهورة ذكراً لولد من اولاد النعمان ابي قابوس اسمه تميم غير ان هذا لا يمنع صحة الخبر لان الكتب المشهورة من كتب التاريخ لا تذكر كل شيء وكثيراً ما أُغفل اسماء اولاد ملوك كانوا في زمانهم اعظم من النعمان بن المنذر . وقرأت في سجل نسبنا انه مرّ بسواحل الشام محمد بن احمد بن ابي يعقوب بن هارون الرشيد العباسي . وانه نزل عند احد اجدادنا الامير النعمان بن الامير عامر بن الامير هاني الارسلاني وانه كان معه زوجه وبنوه . فأقام عنده زمناً غير قليل . وكان محدثاً عالماً فروى عنه جماعة من الامراء وغيرهم . ثم خطب منه النعمان ابنته السيدة كلثوم لولده الامير المنذر فأزوجه منها وأقامت معه زمناً طويلاً وهي أم ولده الامير تميم . وهذه الحادثة في سنة ثلاثمائة واثنتي عشرة . ولما لم يكن لي عهد بذكر احد من اولاد هارون الرشيد اسمه ابو يعقوب تحيرت مدة في هذه الرواية وما زلت متحيراً الى ان اطلعت على كتاب اسمه تاريخ الملوك يذكر اولاد هارون الرشيد كلهم ومن جملتهم ابو يعقوب . ثم رأيت ذلك في تاريخ ابي الفداء . اذاً عدم اطلاعنا على اسم احد اولاد الملوك في تاريخ ابن الاثير او ابن خلدون او الطبري او المسعودي لا ينفي انه وجد . بل قد يغفل كثير من المؤرخين الكبار عن حوادث من اهم الحوادث وكثير من مترجمي الرجال عن تراجم أُناس من أحرى الناس بالترجمة . افلا ترى كيف غفل ابن خلكان في وفيات الأعيان وهو رأس في هذا الفن عن ترجمة أُناس من اشهر الرجال الذين يستحقون الترجمة وذلك اما ذهولاً منه او لانه لم يقع لديه من الاخبار ما يعول عليه . فقام محمد بن شاكر الكتبي والف كتاباً في تراجم من غفل عنهم ابن خلكان وسماه « فوات الوفيات » .

على ان الاعظمي يقول — ولا أعلم مصدر نقله — انه « لما قتل النعمان الثالث — ابو قابوس قتله كسرى ابرويز او مات في حبسه — سار احد اولاده بجملة من قبائل العرب ونزل بهم في سفح جبل لبنان وسكنوه مدة وثبتت الامارة لاولاد النعمان وتوارثوه

منهم الامير ظهير الدين الذي ولاه السلطان نور الدين ملك مصر والشام على سفح الجبل المذكور سنة ٥٥٦ الموافقة لسنة ١١٦٠ وضم اليه القنيطرة وبرج صيدا والدامور ووضع عنده فرساناً ورتب لهم راتباً وجعلهم لقتال الافرنج ومنهم الامير بدر الدين محمد المتوفى سنة ٧٩٨ وكلهم من نسل النعمان الثالث » ·

وعليه يكون للنعمان الثالث ابي قابوس اولاد غير قابوس وغير المنذر المغرور · ولم يذكر المؤرخون منهم غير هذين لانهما اشتهرا في زمن النعمان فلما انقرضت دولة المناذرة بظهور الاسلام وذهب منهم ملك الحيرة لم يعن المؤرخون بذكر اولادهم · فكما ان التنوخيين ينتسبون الى تميم بن النعمان بن المنذر ينتسب الارسلانيون الى عون بن المنذر المغرور بن النعمان ابن المنذر · ومن هنا جاء التواتر الذي في جبل لبنان بان هذين الفخذين هما من اصل واحد ويزيد ذلك تأكيداً تجاور العائلتين في السكنى وتقاسمهما الاقطاعات من قرى ومزارع وارضين وكثيراً ما وقعت بينهما الفتن والعداوات بسبب المقاطعات · وقرأت في بعض مخطوطات لبنان القديمة ذكر الارسلانيين والتنوخيين وان منهما بيوتاً في عرمون وانهما «على السيف» واذا قرأت تاريخ صالح بن يحيى التنوخي تجد انه يطعن في الارسلانيين في مواضع كثيرة ويذكر مناصبتهم العداء للتنوخيين · واذا ذكر احداً منهم بخير يقول مثلاً : « وفي ذلك الوقت قتل عماد الدين موسى بن حسان بن رسلان — كل من اسمه ارسلان فالعامة تخففه وتقول رسلان وهذا في كل محل — وكان المذكور خيراً من سلفه واجود منهم في حق البيت » فمقياس الجودة عند صالح بن يحيى هو حب البيت التنوخي · ومنشأ هذه الاختلافات كلها هو الاقطاعات والمنافسات على الامارة واذا قرأت تاريخ صالح بن يحيى وجدت شدة التشابك والتداخل بين اقطاعات التنوخيين والارسلانيين · فكلام الاستاذ حتي صحيح من جهة ان الامارة على الدروز لعهد الصليبيين كانت في يدي هاتين العائلتين · ولقد كانت هذه الامارة في غرب لبنان وبيروت من قبل ذلك التاريخ بكثير ·

شكيب أرسلان

تحقيق الجاحظ [1]

— ٢ —

« التجربة والعيان »

—«»—

بقي من بعد هذا كله أن ننظر في الاصول التي كان يبني عليها الجاحظ في التحقيق فنذكر أنماطاً من تجربته وعيانه ، ونشير الى بعض الخصائص في هذه التجربة وهذا العيان ونذكر معرفة سماعه ، واذا فرغنا من الكلام على استعانته بالحواس تعرضنا للكلام على استعانته بالعقل ٠

فلنأت على ذكر نماذج من تجاربه فقد جرّب على أصناف شتى من الحيوان كالضب والحيّات والظليم والخنفساء والسمك والعقارب والجرذ والنمل وجرّب على النبات ، وكان في كل تجربة من تجاربه يذهب مذهباً خاصاً ففي بعضها كان يقطع طائفة من الاعضاء وفي بعضها كان يلقي على الحيوان ضرباً من السم ، وحيناً كان يرمي في تجربته الى معرفة بعض الحيوان واستقصاء صفاته ، وحيناً كان يعزم على ذبح الحيوان وتفتيش جوفه وقانصته ، ومرة كان يدفن الحيوان في بعض النبات ليعرف حركاته ، ومرة كان يذوق الحيوان وكان في أوقات يبعج بطن الحيوان ليعرف مقدار ولده ، وفي أوقات يجمع أضداد الحيوان في اناء من قوارير ليعرف تقاتلها ، وكان يلجأ في بعض الاحايين الى استعمال مادة من مواد الكيمياء ليعلم مبلغ تأثيرها في الحيوان ٠

من هذه التجارب قطعه طائفة من اعضاء الحيوان فقد عقد فصلاً في كتاب الحيوان

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الأدب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ ٠

بحث فيه عن نصيب الضباب من الأعاجيب والغرائب قال في مقدمة هذا الفصل[١] :

« اول ذلك طول الذماء وهو بقية النفس وشدة انعقاد الحياة والروح بعد الذبح وهشم الرأس والطعن الجائف النافذ حتى يكون في ذلك أعجب من الخنزير ومن الكلب ومن الخنفساء وهذه الاشياء التي قد تفردت بطول الذماء ثم شارك الضب الوزغة والحية فان الحية تقطع من ثلث جسمها فتعيش ان سلمت من الذر فجمع الضب الخصلتين جميعاً الامارأيت في دخال الاذن من هذه الخصلة الواحدة فاني كنت اقطعه بنصفين فيمضي احد نصفيه يمنة والآخر يسرة الا اني لاأعرف مقدار بقائهما بعد ان فاتا بصري » .

انكم لتدركون انه في خلال كلامه على صنف من الحيوان وفي اثناء تجربة من تجاربه قد يتعرض للمقابلة بين الحيوانات ففي هذه التجربة قد أشار الى مشاركة الضب للوزغة وللحية في بعض الخصائص والمقابلة ركن من أركان التحقيق في علم الحيوان .

ومن تجاربه القاؤه على الحيوان ضرباً من السم فقد قال[٢] :

« وقيل لي وقرأت في كتاب الحيوان ان ريح السذاب يشتد على الحيات فألقيت على الافاعي نور السذاب فما كان عندها الا كسائر البقل فلو قلت لهم في ذلك شيئاً لقالوا : الحيات غير الافاعي ، وهذا باطل ، الافاعي نوع من الحيات وكلهم قد عمّ ولم يخص» .

فانظروا كيف لا يصدّق ما يقال له ولا يصدّق ما يقرؤه في كتاب الحيوان حتى يقرن هذا كله بشيء من التجريب .

وقد كرر ذكر هذه التجربة في موطن آخر فوضّح الأعضاء التي جرّب عليها فقال[٣] :

« والأفاعي تكره ريح السذاب والشيح وتستريح الى نبات الحرمل واما انا فاني القيت على رأسها وانفها من السذاب ماغمرها فلم أر على ماقالوا دليلاً » .

ومن تجاربه محاولته معرفة بعض الحيوان واستقصاء صفاته فقد قال[٤] :

« وقد رأيت بعض الحيات وكسرتها لأعرف ما فيها فاذا هو بعض مستطيل اكدر

---

(١) كتاب الحيوان (الجزء السادس ص ١٦) .

(٢) « « الخامس ص ١١١ .

(٣) « « السادس ص ١٣٣ .

(٤) « « الرابع ص ٥٦ .

اللون أخضر ، وفي بعضه هش ولم فاذا داخله فلم أر قيحًا قط ولا صديداً خرج من جرح فاسد الا والذي في بطنها أسمج منه وأقذر » .

ومن تجاربه القبض على الحيوان ليعرف حركته كقوله (١) :

« وفي الافاعي من العجب انها تذبح حتى يفرى منها كل ودج فتبقى كذلك اياماً لا تموت فأمرت الحاوي فقبض على خرزة عنقها فقلت له اقبضها من الخرزة التي تليهـا قبضاً رفيقاً فما فتح بينها بقدر سم الابرة حتى بردت ميتة » .

وفي هذه التجربة تظهر لنـا صفة من محاسن صفات التجربة وهي التكرار فقد قبض الحاوي على خرزة عنق الحية فأمره الجاحظ ان يقبضها من الخرزة التي تليها .

ومن تجاربه محاولته ذبح الحيوان ليفتش جوفه وقانصته فقد كنت ذكرت هذه التجربة في كلامي على اول عهدي بالجاحظ وذلك ان بعضهم شهد من يلقي الحجر في النار فاذا عاد كالجمر قذف به قدام الظليم فاذا هو يبتلعه كما يبتلع الجمر وقد كان الجاحظ حاول ان يعرف أيستمري الظليم الحديد كما يستمري الحجارة فعزم على ذبح الظليم وتفتيش جوفه وقانصته فلعل الحديد يكون قد بقي هناك لا ذائباً ولا خارجاً فعمد بعضهم الى سكين فأحمى ثم القاه اليه فابتلعه فلم يجاوز أعلى حلقه حتى طلع طرف السكين من مذبحه ثم خر ميتاً فمنع الجاحظ بخرقه من استقصاء ما أراد .

ومن تجاربه دفنه الحيوان في بعض النبات ليعرف حركاته كقوله (٢) :

« وفي الذبان طبع كطبع الجعلان فهو طبع غريب عجيب ولولا ان العيان قهر اهله لكانوا خلقاء ان يدفعوا الخبر عنه ، فان الجعل اذا دفن في الورد مات في العين وفنيت حركاته كلها وعاد جامداً تارزاً ولم يفصل الناظر اليه بينه وبين الجعل الميت ما أقام على تأمله فاذا أعيد الى الروث عادت اليه حركة الحياة من ساعته وجربت انا ذلك في الخنفساء فوجدت الأمر فيها قريباً من صفة الجعل ولم يبلغ ذلك لقرابة بين الخنفساء والجعل » .

---

(١) كتاب الحيوان (الجزء الرابع ص٣٩) .

(٢) « « الثالث ص١٠٨ .

وقد كان لا يكتفي بان يجرب بنفسه وانما كان يعاين تجاريب غيره من هذا الشكل قوله [١] :

« ودخلت يوماً على ابن ابي كريمة واذا هو قد اخرج من اجّانة كان فيها ماء من غسالة اوساخ الثياب واذا ذبان كثيرة قد تساقطن فيه من الليل فمتن ، هكذا كان في رأي العين فغبرن كذلك عشيتهن وليلتهن والغد الى انتصاف النهار حتى انتفخن وعفّن واسترخين واذا ابن ابي كريمة قد أعد آجرّة جديدة وفتات آجر جديد واذا هو يأخذ الخمس منهن والست ثم يضعهن على ظهر الآجرة الجديدة و يذر عليهن من دقاق ذلك الآجر الجديد المدقوق بقدر ما يغمرها فلا تلبث ان يراها قد تحركت ثم مشت ثم طارت الا انه طيران ضعيف » .

ومرة كان يذوق الحيوان ، من هذا القبيل ما حكاه لنا قال [٢] :

« والشبوط حفظك الله جنس كثير الذكور قليل الاناث فلا يكون أناثه ابضاً يجمعن البيض واذا جمعن فلو جمعت بيض عشر منهن لما كان كشطر بيض بنيّة واحدة فقد رأيت بعض الشبوط وذقته للتعرف فوجدته غير طائل ولا معجب وكل صياد تسأله فهو ينبئك ان له بيضاً ولكنه اذا كان يكون ضئيلاً قليلاً لان الشبابيط في اصل العدد من أقل السمك وكذلك الجنس منه اذا كانت الانثى منه مذكاراً على انه رب نهر يكون اكثر سمكه الشبوط وذلك قليل كنهر رامهرمز الا في الأودية والانهار و يكره الماء الملح و يطلب الأعذب فالأعذب و يكون في الماء الجاري ولا يكون في الساكن » .

فما ذاق الجاحظ الشبوط الا على سبيل التعرّف .

ومرة كان يبعج بطن الحيوان ، من هذا النوع قوله [٣] :

« كنت بعجت بطن عقرب اذ كنت بمصر فوجدت فيه اكثر من سبعين عقارب صغار كل واحدة نحو أرزة » .

وحيناً كان يلجأ الى استعمال مادة من مواد الكيمياء ليعلم مبلغ تأثيرها في الحيوان

(١) كتاب الحيوان (الجزء الثالث ص ١٠٨) .
(٢) « « « «
(٣) « « الرابع ص ٥٦ .

كاستعماله الكبريت الأصفر والقطران فقد قال في كلامه على النمل[1] :

« ومن أسباب هلاك النمل نبات الاجنحة له وقد قال الشاعر :

واذا استوت للنمل أجنحة حتى يطير فقد دنا عطبه

واذا صار النمل كذلك أخصبت العصافير لانها تصطادها في حال طيرانها ونقتل بان يصب في أفواه بيوتها القطران والكبريت الأصفر و يدس في أفواهها الشعر وقد جربنا ذلك فوجدناه باطلاً » .

اما تجربه على النبات فقد ذكرت لك قصة في كلامي على حياته تتعلق باعتنائه بداره فقد أراد ان يغرس في داره أراكة فكان ينقل المشارات من مكان الى مكان فما أفلح حب الأراك .

وحيناً كان يجمع أضداد الحيوان في اناء من قوارير ليعرف تقاتلها كالجمع بين الجرذ والعقارب فقد قال[2] :

« ويزعمون انهم لم يروا قتالاً قط بين بهيمتين أشد من قتال يكون بين جرذين فاذا ربط احدهما بطرف خيط وشد رجل الآخر بالطرف الآخر فلهما عند ذلك من الجلب والجمش والعض والتشبث والفقاس مالا يوجد بين شيئين من ذوات العقار والهراش الا ان ذلك ماداما في الرباط فاذا انحلا وانقطع ولّى كل واحد منهما عن صاحبه في الارض وهرب كل واحد خلاف جهة الآخر ، وان جعلا في اناء من قوارير أعني الجرذ والعقرب وانما ذكرت القوارير لانها لا تستر عن أعين الناس صنيعهما ولا يستطيعان الخروج لملامسة الحيطان فالفارة عند ذلك تختل العقرب فان قبضت على ابرتها قرصتها وان ضربتها العقرب ضرباً كثيراً فاستنفدت منها ما كان من أسباب حتفها .

والى جنب هذه التجارب أعمال كان يعملها على سبيل الضحك كقوله[3] :

« واذا أردت ان ترى من الفيل ما يضحك وتراه في أسخف حالاته فألق اليه جوزة

(١) كتاب الحيوان (الجزء الرابع ص ١١) .
(٢) « « الخامس ص ٧٧ .
(٣) « « السابع ص ٥٤ .

فانه يأخذها بطرف خرطومه فاذا دنا منها تنفس فاذا تنفس طارت الجوزة من بين يديه ثم يدنو ثانية ليأخذها فيتنفس أخرى فتبعد فلا يزال ذلك دأبه » .

وهذا يدلنا على مبلغ ميله الى الهزل وعلى سر من أسرار روحه كما يتبين لنا ذلك في كلامنا على تهكمه .

هذه طائفة من تجارب الجاحظ على الحيوان ، قد نجد فيها صفة من صفات المجرب الحاذق وأريد بهذه الصفة التطلع العلمي فان هذا التطلع قد يحمل العالم على الاهتمام بامور لا يكون لها في نظر العامة معنى من المعاني وقد نجد فيها شيئاً من الصفات التي تستلزمها التجربة كالانتباه والتنزه عن كل غرض وانما ينقصها لوازم التجربة في عصرنا هذا فمن هذه اللوازم تنويع التجربة وبسط آفاقها ونقلها من شكل الى شكل وقلبها وماشابه ذلك فلئن كان الجاحظ يجرب فما رأيناه في بعض تجاربه يذهب مذاهب مختلفة وصولاً الى الحقائق فما كان ينوّع هذه التجارب او يبسطها او يخرج بها من صورة الى صورة او يقلبها من وجه الى وجه .

ولقد كان ينقصه شيء أعظم من هذا كله على ما أعتقد فما كان يذهب من التجريب على امور خاصة الى استنباط القوانين العامة وما كان يقابل بين أصناف الحيوان ويصنف ضروب هذا الحيوان والمقابلة والتصنيف ركنان من أركان التحقيق في علم الحيوان وما رأيناه من بعض مقابلاته قد لا يكون كثيراً .

على ان الجاحظ ظهر من احد عشر قرناً وليس من العدل ان نكلفه اموراً لم تهتد اليها الفلسفة والعلم الا من زمن غير بعيد .

وسواء أنقصت اصوله التي كان يبني عليها في التحقيق نواقص ام لم ينقصها شيء انه لم يخرج في تجربته من زمرة كبار العلماء . ومايقال في نماذج تجربته قد يقال في أنماط عيانه ولا بأس بأن أذكر طائفةً من هذه المعاينات فقد اخذ عيانه أصنافاً مختلفة من البشر ومن الحيوان ايضاً كالفيل والذباب والسنور والعقارب والفار والجمير .

اما بعض معاينته لامور البشر فقد كان يختص بما يعرض للخصيان من هذا النوع قوله [1] :

(١) كتاب الحيوان (الجزء الاول ص ٦٣) .

« ومن العجب انهم مع خروجهم من شطر طبائع الرجال الى طبائع النساء لا يعرض لهم التخنيث وقد رأيت غير واحد من الأعراب مخنثاً متفككاً ومؤنثاً يسيل سيلاً ورأيت عدة مجانين مخنثين ورأيت ذلك في الزنج الأقحاح وقد خبرني من رأى كردياً مخنثاً ولم أر خصيّاً قط مخنثاً ولا سمعت به ولا أدري كيف ذلك ولا أعرف المانع منه ولكن كان الامر في ذلك الى ظاهر الرأي ولقد كان ينبغي لهم ان يكون ذلك فيهم عاماً » .

ومنه قوله (١) :

« وقد توجد المرأة ذات لحية وقد رأيت ذلك واكثر ما رأيته في عجائز الدهاقين وكذلك الغبب والشارب وقد رأيت ذلك ايضاً وهي ليست في رأي العين بخنثى بل أنثى تامة الا ان تكون لم تضرب في ذلك بالسبب الذي يقوى حتى يظهر في غير ذلك المكان وليس يعرض ذلك للخصي » .

ففي هذه المعاينة شيء من المقابلة .

واما بعض معاينته لامور الحيوان فأذكر من هذا النوع كلامه على شيء من أعاجيب الذباب وفيه صورة العالم الطلعة الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، من هذا اقوله (٢) :

[وعندنا بالبصرة في الذباب أعجوبة لو كانت بالشامات او بمصر لأدخلوها في باب الطلسم وذلك ان التمر يكون مصبوباً في بيادر التمر في شق البساتين فلا ترى على شيء منها ذبابة لا في الليل ولا في النهار ولا في البرد ولا في أنصاف النهار نعم وتكون هناك المعاصر ولأصحاب المعاصر ظلال ومن شأن الذباب الفرار من الشمس الى الظل وانما تلك المعاصر بين تمرة رطبة ودبس ثم لاتكاد ترى في تلك الظلال والمعاصر في انتصاف النهار وفي وقت طلب الذباب الكنّ الا دون ما تراه في المنزل الموصوف بقلة الذباب وهذا الشيء يكون موجوداً في جميع الشق الذي فيه البساتين فان تحول شيء من تلك البادية الى جميع ما يقابلها في نواحي البصرة غشيه من الذباب ما عسى ان لا يكون بارض الهند اكثر منه وليس بين جزيرة نهر دبيس وبين موضع

(١) كتاب الحيوان (الجزء الاول ص٥٢) .
(٢) « « « الثالث ص١٢٥ .

الذبان الا فيض البصرة ولا بين مايكون من ذلك بنهر اذرب وبين موضع الذبان مما يقابله الا فرسخان وهو ذلك التمر وتلك المعصرة ولا تكون تلك المسافة الا مائة ذراع أو ازيد شيئاً او انقص شيئاً .

وأعجوبة أخرى وهي عندي أعجب من كل شيء صدّرنا به جملة القول في الذباب فمن العجب ان يكون بعض الحيوان لا ينام كالعصافير والننوط فانهما اذا كان الليل فان احدهما يتدلى من غصن الشجرة و يضم عليه رجليه و ينكس رأسه ثم لا يزال يصيح حتى يبرق النور والآخر لا يزال يتنقل في زوايا بيته ولا يأخذه القرار خوفاً على نفسه فلا يزال كذلك وقد نتف قبل ذلك مما على ظهور الأشجار مما يشتبه بالليف فنفشه ثم فتل منه حبلاً ثم عمل منه كهيئة القفة ثم جعله مدلاً بذلك الحبل وعقده بطرف غصن من تلك الأغصان الا ان ذلك بترصيع ونسج ومداخلة عجيبة ثم يتخذ عشه فيه و يأوي اليه مخافة على نفسه] .

ومن هذه المعاينات ماحكاه في بعض كلامه على غمس خراطيم الذباب في جوف لحوم الدواب وخرق جلودها الغلاظ قال[1] :

[وربما رأيت الحمار وكأنه منعر اومعصفر فانهم مع ذلك ليجللون حمرهم و يبرقعونها وما يدعون موضعاً الا ستروه بجهدهم فربما رأيت الحمير وعليها الرجال بايديهم المناخس والمذاب وقد ضربت بانفسها الارض واستسلمت للموت وربما رأيت صاحب الحمير اذا كان أجيراً يضربها بالعصا بكل جهده فلا تنبعث وليس لجلد البقرة والحمير والبعير عنده خطر ولقد رأيت ذباباً سقط على سالفة حمار كان تحتي فضرب باذنيه وحك رأسه بكل جهة انا أتأمله وما يقلع عنه فعمدت بالسوط لانحيه به فنزا عنه ورأيت مع نزوه عنه الدم وقد انفجر كأنه كان يشرب الدم وقد سد المخرج بفيه فلما نحاه طلع] .

ولقد كان يراقب السنانير في داره نفسها فيشهد تقاتلها والجراذين فقد قال[2] :

[وانا رأيت سنوراً عندنا ساور جرذاً في بيت الحطب فأفلت الجرذ منه وقد فقأ عين السنور] .

(١) كتاب الحيوان (الجزء الثالث ص ١١٠) .

(٢) « « « الخامس ص ٧٧ .

تحقيق الجاحظ

— ٣ —

« معرفة السماع »

—«×»—

والى جنب هذا المذهب الذي كان يذهبه في التحقيق اي مذهب الاستعانة بالعيان والتجربة مذهب آخر وهو معرفة السماع وقد أشار اليه في مقدمة كتاب الحيوان بالمقال : فقد أخذ ، اي كتاب الحيوان ، من طرف الفلسفة وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، وهذه الطريقة اي طريقة التحقيق بالسماع قد يلجأ اليها اكابر العلماء في عصرنا أمثال « سبنسر » فقد وجدت انه في كلامه على تأثير الحيوان في العمران كان يروي كلام احد التجار على النمل فقد كان الجاحظ يعتمد في تحقيقه في بعض الاحوال على ما يسمعه من أفواه بل متعلقها الحيوان فكان يسمع اخبار العطارين والجزارين والبحريين والسماكين والصيادين والملاحين والحوائين والأطباء والأكرة وغيرهم من اصدقائه واهل المعرفة والعلم ، وقد تدخل هذه الأخبار في أبواب شتى من أبواب الحيوان مثل تقطيع أصوات بعض الطير او اقتتال العقارب والفار او طعم العقارب او طعم الحيات او سم الأفاعي او أخلاق بعض الكلاب او بيوت الزنابير او ختل الاسد لفريسته او زواج الشفنين او تسافد الذئب والذئبة او بعض أخبار الفيل او اخبار السمك .

ولكن كيف كان الجاحظ ينظر في هذه الاخبار ، أفكان يلتقطها التقاطاً ليس فيه شيء من التمحيص ، أفكان يجمع هذه الاخبار دون ان يعرضها على تمييزه ، او يعمل فكرته فيها وهو المتوثق في تحقيقه المتثبت في تدقيقه ، الذي لا تشفيه الا المعاينة والذي لا يصدق الا ما تثبته الأدلة ويخرجه البرهان من باب الانكار .

ام كان الجاحظ يعمل الروية في الذي يتصل به من الأخبار فلا ينقل الا عن رجل لا يرتاب بخبره[١] او عن رجل قاطع الشهادة[٢] او عن أمثال هذه الطبقة من الرجال ممن يصدق اخبارهم[٣] . او عن أستاذ من الاساتيذ . او عن رجل يثق بعقله ويسكن الى خبره[٤] .

ام كان ينقل عن جماعة اذا خالجه الشك في أخبارهم نبّه على غرابة أقوالهم وغثاثة عباراتهم وسماجة مخارج هذه الأقوال والعبارات حتى يجعل القارئ على هدى من أمره . لقد وقفنا على نماذج مختلفة من الأخبار التي كان ينقلها .

فمرة كان يسمع من هذه الاخبار ما لا يهتدي الى الإحاطة باسراره فيسأل عن هذه الاسرار أهل المعرفة حتى ينكشف له الامر .

من هذا النوع ما حكاه لنا لما قال[٥] :

وقال ابن الكلبي : قال الشرقي بن القطامي ذات يوم : أرأيتم لو فكّر رجل منكم عمره الأطول في ان يعرف الشيء الذي تتخذ الزنابير بيوتها المحدقة بمثل المجالس المستوية في الأقدار المتحاجزة بالحيطان السخيفة في المنظر الخفيفة في المحمل المستديرة ، المضمر بعضها ببعض المتقاربة الاجزاء ، وهي البيوت التي نعلم انها بنيت من جوهر واحد وكأنها من ورق أطباق صغار الكاغد المزورة ، قولوا لي : كيف جمعته ومن اي شيء اخذته وهو لا يشبه البناء ولا النسج ولا الخياطة ولم يفسر ابن الكلبي والشرقي في ذلك شيئاً فلم يصر في ايدينا منها الا التعجب والتعجيب فسألت بعد ذلك مشايخ الأكرة فزعموا انها تلتقطه من زبد الممدود فلا يدري أمن نفس الزبد تأخذ ام من شيء يكون في الزبد والذي عرّف الزنابير مواضع تلك الأجزاء ودلها على ذلك الجوهر هو الذي علّم العنكبوت ذلك النسج » .

---

(١) كتاب الحيوان (الجزء الخامس ص ٢٥) .
(٢) 〃 〃 〃 〃 ص ٧٠ .
(٣) 〃 〃 〃 الثالث ص ١٦٢ .
(٤) 〃 〃 〃 السابع ص ٤٣ .
(٥) 〃 〃 〃 〃 ص ١٣ .

فلما رأى الجاحظ ان ابن الكلبي والشرقي لم يفسرا له كيف جمعت الزنابير بيوتها ومن اي شيء اخذتها لم يطمئن فكره ولم يهدأ باله ، فقصد الى مشايخ الاكرة وسألهم عن ذلك وهذه صفة من صفاته الغالبة فانه مجبول على محبة الوصول الى الحقائق يسأل عنها اياً كان ممن له اتصال بها .

ومن هذا النوع قوله في طعم الحيات وقد سأل عنه بعض الحوائين ، فقد قال[١] :

[وسألت بعض الحوائين ممن يأكل الافاعي حيّة ونيّة مما دونهـا فقلت : ما بال الحيات منتنة الجلود والجذوم ، قال : اما الافاعي فانها ليست منتنة لانها لا تأكل الفأرة فأما الحيات عامةً فانهـا تطلب الفأر طلباً شديداً وربما رأيت الحية وما يكون غلظها الا مثل الابهام الكبير ثم اجدها قد ابتلعت الجرذ اغلظ من الذراع ، وانكر نتن الحيات الا من هذا الوجه ، ولم ار الذي قال قولاً مثل قول اعرابي ودخل الامصار فلقي من الجرذان جهداً فوجد بها ودعا عليها فقال : الابيات .... »

ومرة كان يسمع الخبر فيثبته دون ابداء رأي فيه ، كقوله في سم الافاعي[٣] :

[ومن عجيب سم الافاعي ما اخبرني بعض من يخبر بشأن الافاعي قال : كنت بالبادية ورأيت ناقة وفصيلها يرتضع من اخلافها اذ نهشت الناقة على مشافرها أفعى فبقيت واقفة سادرة والفصيل يرتضع فبينـا هو يرتضع اذ خرّ ميتاً فكان موته قبل موت أمه من التعجيب وكان مرور السم في تلك الساعة القصيرة أعجب وكان ما صار من فضول سمها في لبن الضرع حتى قتل الفصيل قبل أمه عجباً آخر] .

او قوله في بعض أخبار الفيل[٢] :

« وحدثني صديق لي قال : رأيت الفيالين على ظهر فيل من هذه الفيلة فأقبل صبي يريد السندي الراكب فكلّم الفيل بالهندية فوقف ، ثم كلمه ، فمدّ يده رافعاً في الهواء حتى ركبها للغلام ثم رفع يده حتى مد السندي يده فأخذ بيد الصبي » .

---

(١) كتاب الحيوان (الجزء الخامس ص ٨٠) .
(٢) « « « « ص ١١١ .
(٣) « « « الرابع ص ٧٠ .

او قوله في اخبار تسافد الذئب والذئبة[١] :

وحدثني احمد بن المثنى قال : خرجت الى صحراء خوخ لجناية جنيتها وخفت الطلب وانا شاب اذ عرض لي ذئب فكنت كلما درت من شق استدار لي فاذا درت له دار من خلفي وانا وسط برية لا اجد معيناً الا بشيء أسند اليه ظهري واصابني الدُوار وايقنت بالهلكة فبينا انا كذلك وقد اصابني ما اصابني وذلك هو الذي اراده الذئب وقدره واذا بذئبة قد عرضت وكان من الصنع وتأخير الاجل ان ذلك كان في زمن اهتياجها وتسافدها فلما عاينها تركني وقصد نحوها فما تلعثم ان ركبها وقد كنت قرأت في بعض الكتب انها تلتحم فقومت سهمي وهما ينظران اليّ فلما لم ار عندهما نكيراً حقق ذلك عندي ما كان في الكتاب من تلاحمهما فشبت اليهما بسيفي حتى قتلتهما .

او قوله في بعض اخلاق الكلاب وعاداتها[٢] :

او قوله في السنانير[٣] :

وزعم بعض الاطباء ان السنور انما يدفن خرأه ثم يعود الى موضعه فيشمه فان كان يجد من ريحه بعدُ شيئاً زاد عليه من التراب لان الفأرة لطيفة الحس حيدة الشم فان وجدت تلك الريح عرفتها فأمعنت في الهرب فلذلك يصنع السنور ما يصنع » .

او قوله في طعم العقارب[٤] :

« وقد زعم ناس ممن يأكلون العقارب مشوية ونية انها كالفراخ السمان » .

وحيناً كان يسمع الأخبار فيرتاب بها ارتياباً شديداً وخاصة اخبار البحريين فما كان يغفل عن التنديد بهم في كل فرصة يصيبها .

من هذا النحو قوله في بعض كلامه على كلام السمك[٥] :

« ولم يجعل لما يسكن الملح والعذوبة والانهار والاودية والمناقع والمياه الجارية من

(١) كتاب الحيوان (الجزء الثاني ص٧٨) .
(٢) » » » ص ٤٥ .
(٣) » » » الخامس ص٧٨ .
(٤) » » » الرابع ص١٥ .
(٥) » » » السادس ص٦ .

السمك ومما يخالف السمك مما يعيش مع السمك باباً مجرّداً لاني لم اجد في اكثره شعراً يجمع الشاهد و يوثق منه يحسن الوصف وينشطه بما فيه من غير ذلك للقراءة ولم يكن الشاهد عليه الا اخبار البحريين وهم قوم لا يعدون القول في باب العمل و كلما كان الخبر أغرب كانوا به اشد عجباً ، مع عبارة غثة ومخارج سمجة ، وفيه عيب آخر وهو ان معه من الطول والكثرة ما لا تحتملونه ،لو غدا كم بجميعه مخارق وضرب عليه زلزل وزمر عليه برصوما فلذلك لم اتعرض له » .

او قوله في موطن آخر[1] :

« وقد روى لنا غير واحد من اصحاب الأخبار ان اياس بن معاوية زعم ان الشبّوط كالبغل وان أمها بربة واباها بجري وان من الدليل على ذلك ان الناس لم يجدوا في بطن شبوطة قط بيضاً وانا أخبرك اني قد وجدته فيه مراراً ولكني وجدتها اصغر جثة وابعد من الطيب ولم اجده عاماً كما اجده في بطون جميع السمك .

فهذا قول ابي وائلة اياس بن معاوية المزني الفقيه القاضي وصاحب الازكان وافوق من كور بن علقمة وداهية مضر في زمانه ومفخر من مفاخر العرب فكيف اسكن بعد هذا الى اخبار البحريين واحاديث المساكين والى ما في كتاب رجل لعله انلو وجد هذا المترجم ان يقيمه على المصطبة و يبرأ الى الناس من كذبه عليه ومن افساد معانيه بسوء ترجمته » .

واذا كانت اخبار البحريين مما يتقبله بعض الناس وهو لم يوقن به كل الايقان نبه عليه كقوله[2] :

وسمعت حديثاً من شيوخ لا حي الموصل وانا هائب له ، ورأيت الحديث يدور بينهم و يتقبله جميعهم وزعموا ان الاسد ربما جاء الى قلس السفينة فيتشبث به ليلاً والملاحون يمدون السفينة فلا يشكون ان القلس قد النف على صخرة او تعلق بجذم شجرة ومن عادتهم ان يبعثوا اول المدادين ليحله فاذا رجع اليه الملاح ليمده تمدد الاسد بالارض ولزق بها وغمض عينيه كيلا يبصر ويبصرها بالليل فاذا قرب منه وثب عليه فخطفه فلا يكون للملاحين هم الا القاء انفسهم في الماء وعبورهم اليه وربما اكله الا ما بقي منه وربما

(١) كتاب الحيوان (الجزء السادس ص ٦) .

(٢) « « « الثاني ص ٤٥ .

جرّ فريسته الى عرينه وعرينه والى أجرائه واشباله وان ذلك على اميال » .

او اذا كان البحري مقتصداً في القول سديد الرأي قليل الكلفة اخذ عنه الخبر واشار الى صفاته حتى ينفي الشبهة عنه كما قال في بعض المواطن [1] :

واخبرني رجل من البحريين لم ار فيهم اقصد ولا اسدّ ولا اقلّ تكلفاً منه ، قال : لم اجدهم يشكون ان فيالاً ضرب فيلاً فأوجعه فألحّ عليه ، وانهم عند ذلك نهوه وخوفوه وقالوا لا تنم حيث ينالك فانه من الحيوان الذي يحقد و يطالب ولما اراد السائس القائلة شدّه الى اصل شجرة واحكم وثاقه ثم تنحى عنه بمقدار ذراع ونام ولذلك السائس جمة فتناول الفيل بخرطومه غصناً كان مطروحاً فوطئ على طرفه حتى تشعث ثم اخذه بخرطومه فوضع ذلك الطرف على جمة الهندي ثم لواها بخرطومه فلما ظن انها تشبكت به وانعقدت جذب الهندي فاذا هو تحت رجليه فخبطه خبطة كانت فيها نفسه ، فان كان الحديث حقاً في اصل مخرجه فكفاك بالفيل معرفة ومكيدة وان كان باطلاً فانهم لم ينحلوا الفيل هذه النحلة دون غيره من الدواب الا وفيه عندهم مايحتمل عليه و يليق به » .

على انه كان ينقل عن فريق منهم من غير ان يتبين في كلامه الشك ، من هذا الشكل قوله [2] :

« ويزعم البحريون ان طائرين يكونان ببلاد الصقالبة ، احدهما يظهر قبل قدوم السفن اليهم وقبل ان يمكن البحر من نفسه لخروجهم ومتاجرهم فيقول الطائر : قرب أمد ، فيعلمون بذلك ان الوقت قد دنا وان الامكان قد قرب ، قالوا ويجيء به طائر آخر وشكل آخر فيقول : سماروا وذلك في وقت رجوع من قد غاب منهم فيسمون هذين الجنسين من الطير : قرب وسماروا ، كأنهم سموهما بقولها وتقطيع أصواتهما كما سمت العرب ضرباً من الطير القطا ، لان القطا كذلك تصيح وتقطع أصواتها : قطا ، كما سموا الببغا بتقطيع الصوت الذي ظهر منه ، فيزعم اهل البحر ان ذينك الطائرين لا يطير احدهما ابداً الا في اناث وان الآخر لا يطير ابداً الا في ذكورة » .

(١) كتاب الحيوان (الجزء السابع ص ٧١) .
(٢) « « الثالث ص ١٦٢ .

وربما نقل عن بعضهم كلاماً جعله حجة يحاج بها ارسطاطاليس في بعض رده عليه فانه لما قال [١] :

« وقد قلت لرجل من البحريين : زعم ارسطاطاليس ان السمكة لا تبتلع الطعم ابداً الا ومعه شيء من ماء مع سعة المدخل وشره النفس فكان من جوابه ان قال لي : ما يعلم هذا الا من كان سمكة او اخبرته به سمكة او حدثه بذلك الحواريون اصحاب عيسى ، فانهم كانوا صيادين وكانوا تلامذة المسيح ، وهذا البحري صاحب كلام وهو يتكلف معرفة العلل وهذا كله جوابه ولكني لم اقنع بذكر بعض ما وجدته في الاشعار والاخبار اذا كان مشهوراً عند من ينزل الاسياف وشطوط الاودية والانهار ويعرفه السماكون ويقر به الأطباء بقدر ما أمكن من القول » .

جعل قول البحري حجة له في رده على ارسطاطاليس [٢] :

« واما قول صاحب المنطق في ان الضفادع لا تنق حتى تدخل فكها الأسفل في الماء لان الصوت لا يجيئها حتى يكون في فيها ماء فقد قال ذلك ووافقه عليه ناس من العلماء وادعوا في ذلك العيان ، وانما زعمه بان السمكة لا تبتلع شيئاً من الطعم الا ببعض الماء فأي عيان دل على هذا وهذا عسير » .

والخلاصة كان ينقل عن ثقة وهذا الثقة قد يكون أستاذاً كما في قوله [٣] :

ودخلت انا مرة وحمدان الصباح على عبيد الشونيزي فاذا عنده برنية زجاج فيها عشرون عقرباً وعشرون فاراً فاذا هي تقتتل فخيل لي ان تلك الفأر قد اعترامها ورم من شدة وقع اللسع ورأيت العقارب قد كلت عنها وتاركتها ولم أر الا هذا المقدار الذي وصفت ، وحدثنا عنها عبيد باعاجيب ولو كان عبيد أستاذاً لخبرت عنه ولكن موضع البياض من هذا الكتاب خير من جميع ما كان لعبيد » .

هذه جملة القول في معرفة سماعه ومنها يتبين لكم ان الجاحظ لم يخل من التوثق في تسقط اخباره فاذا وجد مجال الشك ذا سعة عمد الى الشك لان الرجل الذي يقول في

(١) كتاب الحيوان (الجزء السادس ص٦) .
(٢) « « « الخامس ص١٥٦ .
(٣) « « « « « ص ٧٧ .

كلاه على الأخبار وعلى المولعين بها [١] :

« ان الناس موكلون بحكاية كل عجيب ومسخرون للاخبار عن كل عظيم ولبسوا للحسن احكى منهم للقبيح ولا لما ينفع أحكى منهم لما يضر وعلى قدر كبر الشيء تكون حكايتهم له واستماعهم » .

والذي يقول في موطن آخر [٢] :

« ان الخبر قد يكون اصله ضعيفاً ثم يعود قوياً و يكون اصله قوياً فيعود ضعيفاً للذي يعتريه من الاسباب ويحل به من الاعراض من لدن مخرجه وفصوله الى ان يبلغ موته ومنتهى اجله وغاية التدبير فيه والمصلحة عليه فلما كان هذا مخوفاً وغير مأمون على المتقادم منه وضع الله تعالى لنا على رأس كل فترة علامة وعلى غاية كل مدة امارة ليعيد قوة الخبر ويجدد مافقد منه بالدروس من أنباء المرسلين عليهم الصلاة والسلام اجمعين » .

ان الذي يقول هذا القول وأضرابه لعارف بما يدخل الأخبار عادة من نقص الناقصين او زيادة الزائدين على حسب الاهواء او على قدر متانة الحفظ وضعفه او على قياس الفتنة بالحقيقة والولع بالخيال فلهذا لم يجد الجاحظ له بدأ من التثبت في تصديق بعض الاخبار ومن الشك في طائفة منها .

دمشق : في ٢٨ آذار سنة ١٩٣١



(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل (الجزء الثاني ص ٦٢) .

(٢) « « « « « « « ص ٥٦ .

الشاعر الصنوبري

—«»—

قلما أنظر في كتاب موضوعه الشعر والادب العربي الا و يبرز لي في اثناء سطوره شيء من الشعر الرائع المنسوب الى الصنوبري اذ يقول مورده (قال الصنوبري) او (وللصنوبري) مقتصراً على هذه الكلمة غير مصرح باسمه ونسبه وشيء من سيرته . وقد لفت نظري كثرة ورود هذه الكلمة الى عظمة الصنوبري ونبهني الى علو كعبه بين شعراء عصره وصوره لي في مخيلتي شاعراً مفلقاً واديباً كبيراً جديراً باماطة الحجاب عن اسمه ووطنه وشيء من سيرته وعن العصر الذي وجد فيه وتاريخ وفاته خصوصاً وقد رأيت في عنوان بعض ما ينسب اليه من الاشعار كلمة (الحلبي) فقد ضاعفت هذه الكلمة شوقي الى الوقوف على حقيقته والإشراف على شيء من سيرته حرصاً على الفخر الذي يحرزه بلدي من هذه الناحية وتعصباً لرجل يهمل فيبقى شعره مبعثراً في شتى الكتب ومطاوي صحف التاريخ ، فجمعت نبذة من أخباره وبحثت عن هذه المقاصد وجلت في كتب الادب جولة تتم واستقصاء حتى تيسر لي شيءٌ مما قصدت واردت فجمعت من أشعاره زهاء اربعمائة بيت ولم ازل دائباً في البحث عنها واثبتُ في ترجمته مقدمة مختصرة وكان اول سفر عثرت فيه على كلمات في هذا الشاعر — مجموعاً قديماً مخطوطاً قال فيه صاحبه :

« احمد ابو بكر بن محمد بن الحسين الضبي الحلبي الشاعر المعروف بالصنوبري تكلم جده بين يدي المأمون فأعجبه شكله فقال انك لصنوبري الشكل فلزمه هذا اللقب ، وهو ممن يضرب بالمثل بروضياته توفي سنة ٣٣٤ » ثم قرأت في كتاب فوات الوفيات للكتبي ما صورته :

« احمد بن محمد الصبني الحلبي الصنو بري » ثم اورد نبذة من اشعاره مقتصراً على ذلك دون ان يتعرض لشيء من اخباره وتاريخ وفاته ، بعد هذا قرأت في كتاب معجم البلدان لياقوت عند الكلام على حلب ما نسخته : وقد اكثر الشعراء من ذكرها (حلب) ووصفها والحنين اليها وانا اقنع من ذلك بقصيدة لابي بكر محمد بن الحسن بن مروان الصنو بري وقد اجاد بها ووصف متنزهاتها وقراها القريبة منها ثم اورد القصيدة التي اولها :

احبس العيس أحبساها وسلا الدار سلاها

وهي قصيدة طويلة تعد ١٠٣ ابيات .

ثم رأيت في تاريخ الشام الكبير لابن عساكر ما نصه :

« احمد بن محمد بن الحسين بن مرار الضبي المعروف بالصنو بري الحلبي الشاعر المحسن اكثر اشعاره في وصف الرياض والأنوار قدم دمشق وله اشعار في وصفها ووصف متنزهاتها ، قال عبد الله الصقري سألت الصنو بري عن السبب الذي من اجله نسب جده الى الصنو بر حتى صار معروفاً به فقال لي كان جدي صاحب بيت حكمة من بيوت المأمون فجرت له بين يديه مناظرة فاستحسن كلامه وحدة مزاجه فقال له انك لصنو بري الشكل يريد بذلك الذكاء وحدة المزاج اهـ .

وقرأت في كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني ماخلاصته : ان الصنو بري كان يسمى حبيباً الاصغر لجودة شعره ، قال ولقيه المتنبي بالمصيصة او غيرها فقال له يهزأ به ، انت صاحب بغادين يريد قصيدته :

شربنا في بغادين[1] على تلك الميادين

لما فيها من المجون والخلاعة فقال له الصنو بري وانت صاحب الطوطبة يريد قصيدته :

(١) بغادين بغين معجمة ودال مهملة — غلط صوابه بعاذين بعين مهملة وذال معجمة — علم على ناحية من بساتين حلب وكانت قبلاً علماً على قرية في موضع هذه الناحية قال فيها ابو العباس الصفري من شعراء سيف الدولة :

يا لأيامنا بمرج بعاذين وقد اضحك الربا نواره
وكأن الشقيق والريح تنفي الطل عنه جمر يطير شراره
اذكرتني عناق من بان عني شخصه باعتناقها اشجاره

ماانصف القوم ضبه وامه الطرطبــة

لما فيها من اللين والركاكة اه ٠

وقرأت في كتاب يتيمة الدهر للثعالبي ماصورته :

« وحكى ابن جني قال حدثني ابو علي الحسين بن احمد الصنو بري قال خرجت من حلب أريد سيف الدولة فلما برزت من السور اذ انا بفارس ملثم قد اهوى نحوي برمح طويل الى صدري فكدت اطرح بنفسي عن دابتي فلما قرب مني ثنى السنان وحدقت به فاذا المتنبي وانشدني :

نثرنا[1] رؤوساً بالاحيدب منهم كما نثرت فوق العروس الدراهم

ثم قال كيف ترى هذا القول أحسن هو ؟ فقلت له : ويحك قد قتلتني ٠ قال الثعالبي : قال ابن جني فحكيت انا هذه الحكاية بمدينة السلام لابي الطيب فعرفها وضحك لها وذكر اباعلي من التقريظ والثناء بابقال في مثله ٠ قال وانشدت اباعلي ليلاً قصيدة ابي الطيب التي اولها :

« واحر قلباه ممن قلبه شبم » الخ فلما وصلت الى قوله :

وشر ما قنصته راحتي قنص شهب البزاة سواء فيه والرخم

اعجبه جداً ولم يزل يستعيده حتى حفظه اه ٠

الاختلاف في ترجمة الصنو بري — اذا امعنا النظر في ترجمة الصنوبري التي اتى بها كل واحد من صاحب المجموع المخطوط وفوات الوفيات ومعجم البلدان وابن عساكر وابن جني — فاننا لاول وهلة يظهر لنا اختلاف عظيم في اسم الصنوبري واسم ابيه وجده وجد ابيه ووصفه مرة بالصيني وأخرى بالضبي وتسمية ياقوت لجده بمروان وتسمية ابن عساكر لجد ابيه بمرار وتفرد ابن جني باسمه واسم ابيه دون جميع من ذكرناهم ممن ترجموا له :

(١) هذا البيت من جملة ابيات من قصيدة للمتنبي اولها :

« على قدر اهل العزم تأتي العزائم » الخ ٠

واصل هذا البيت في هذه القصيدة هكذا :

نثرتهم فوق الأحيدب كله كما نثرت فوق العروس الدراهم

اما انا فانيء باسمه واسم ابيه ونسبه — الاكثرية التي تتألف من صاحب المجموع المخطوط وصاحب الفوات وابن عساكر فأقول هو « احمد بن محمد الضبي الصنوبري الحلبي » وان كلمة الضبي الواردة فيما ترجم له ابن عساكر — محرفة عن الضبي ، اختار هذا في ترجمته واقتصر عليه واوكل تصحيح اسم جده وجدابيه الى رائدي لتحقيق والبحث عنهما في معاجم الادباء وكتب التاريخ .

تاريخ وفاته — اما تاريخ وفاته فلم أر من صرح به سوى صاحب المجموع فزعم انها كانت في سنة ٣٣٤ ، هذا بلا ريب تاريخ مغلوط اذا سلمنا بصحة الحكاية التي اوردها صاحب اليتيمة عن ابن جني فانها كادت تفيدنا صراحة ان الصنوبري كان في سنة ٣٤٦ حياً يرزق ، نستفيد هذا من قول ابن جني : وانشدت اباعلي ليلاً قصيدة ابي الطيب التي اولها : واحر قلباه الخ فان هذه القصيدة آخر مانظمه ابو الطيب في حلب اي انه نظمها حين فارق سيف الدولة وذلك في السنة المذكورة . وعلى كل حال فان تاريخ وفاة الصنوبري لايخلو من إبهام فهو يحتاج الى تدقيق عميق .

عدم التنويع في شعر الصنوبري — رأيي في الصنوبري من هذه الجهة انه كان عالي النفس ضنيناً بماء محياه عن ان يبذله في طلب جوائز ممدوح صائناً لسانه عن قول الهجر والبذاء في هجاء من ناوأه او عاداه ، يقول الشعر تأدبا لا تكسباً مقتصراً في اكثره على وصف الرياض والأزهار كعندليب يقيل في ظلالها ويتنقل في افيائها ويغرد في انوارها يشدو بذكر المحبوب ويلهو بلذيذ المشروب قانعاً من دنياه بعيش مقرون بالعز وشرف النفس معتمداً على قول القائل « من قر عيناً بعيشه نفعه » .

وهنا استحسن ايراد نبذة من اشعاره التي تسنى لي جمعها ليستدل الناظر فيهـا على منزلته في الشعر وعلو كعبه في البديع وتفننه بانواع التشبيه التي كاد يضاهي بها براعة ابن المعتز الذي انفرد بهذه الصناعة ، فأقول :

قال الصنوبري كان اول شعر قلته وارتضيته قولي :

ماحل بي منك وقت منصرفي ما كنت الا وديعة التلف
كم قال لي الشوق قف لتلثمه فقال خوف الرقيب لا تقف

فكان قلبي في زي منعطف وكان جسمي في زي منصرف

كان للصنوبري ابن مسترضع ففطم فدخل الصنوبري يوماً داره والصبي يبكي فقال مالابني ، قالوا : فطم فتقدم الى المهد وكتب عليه ارتجالاً :

منعوه احب شيء اليه من جميع الورى ومن والديه
منعوه غذاه وقد كان مباحاً له وبين يديه
عجباً منه ذا على صغر السن هدي فاهتدى الفراق اليه

وله :

نار راح ونار خد ونار لحشا الصب بينهن استعار
مابالي ما كان ذا الصيف عندي كيف كان الشتاء والامطار

وله :

ماقضى في الربيع حق المسرا ت مضيع زمانه في الخريف
نحن منه على تلقي شتاء يوجب القصف او وداع مصيف
في قميص من الزمان رقيق ورداء من الهواء خفيف
يرعد الماء منه خوفاً اذا ما لمسته يد النسيم الضعيف

وقال :

اني طربت الى زيتونة بطياس[1] بالصالحية بين الورد والآس
من ينس عهدهما يوماً فلست له وان تطاولت الايام بالناسي
ياموطناً كان من خير المواطن لي لما خلوت به ما بين جلاسي
وقائل لي أفق يوماً فقلت له من سكرة الحب ام من سكرة الكاس
لا اشرب الكأس الا من يدي رشإ مهفهف كقضيب البان مياس
مورد في الخد في قمص موردة له من الآس اكليل على الراس
قل للذي لام فيه هل ترى خلقاً يا املح الروض بل يا املح الناس

(١) بطياس قرية في باب حلب بين النيرب و بابلى وكانت قصراً لعلي بن عبد الملك ابن صالح امير حلب وقد خربت القرية والقصر وصار في موضعها بستان فستق يعرف الآن بكرم القصر .

وله :

سقى حلبًا سافك دمعه ... بطيء الرقوء اذا ما سفك
ميادينه بسطهن الرياض ... وساحاته بينهن البرك
ترى الريح تنسج من مائه ... دروعًا مضاعفة او شبك
كأن الزجاج عليها اذيب ... وماء اللجين بها قد سبك
هي الجو من رقة غيران ... مكان الطيور يطير السمك
وقد نظم الزهر نظم النجوم ... فمفترق النظم او مشتبك
كما درج الماء من الصبا ... ودبج وجه السماء الحبك
بساهين اعلام قمص القيا ... ن ونقش عصائبها والتكك

وقال في دمشق وبعض متنزهاتها :

أمر بدير مران (١) فأحيا ... فأجعل بيت لهوي بيت لهيا
وتبرد غلتي بردا فسقيا ... لأيامي على بردا وسقيا
تفيض جداول البلور فيها ... خلال حدائق ينبتن وشيا
مكللة فواكههن ابهى الـ ... ـمناظر في مناظرنا واهيا
فمن تفاحة لم تعد خداً ... ومن رمانة لم تعد ثديا
ونعم الدار داريا (٢) ففيها ... صفا لي العيش حتى صار ريا
ولي في باب جيرون ظباء ... أعاطيها الهوى ظبيا فظبيا
صفت دنيا دمشق لمصطفيها ... فلست أريد غير دمشق دنيا

وله يفضل فصل الربيع على بقية الفصول :

ان كان في الصيف ريحان وفاكهة ... فالارض مستوقد والجو تنور
وان يكن في الخريف النخل مخترفاً ... فالارض محسورة والجو مأسور

(١) دير مران كان بالقرب من دمشق فوق تل مشرف على مزارع الزعفران ورياض جنة وبناؤه بالجص واكثر فرشه بالبلاط الملون وكان ديراً كبيراً وفيه رهبان كثيرة وفي هيكله صورة عجيبة دقيقة المعاني والاشجار محيطة به اه معجم البلدان .

(٢) داريا من أمهات قرى غوطة دمشق ومنها يخرج العنب الزيني المنقطع النظير .

وان يكن في الشتاء الغيث متصلاً فالارض عريانة والجو مقرور
ما الدهر الا الربيع المستنير اذا جاء الربيع اتاك النور والنور
فالارض ياقوتة والجو لؤلؤة والنبت فيروزج والماء بلور
ما يعدم النبت كأساً من سحائبه فالنبت ضربان سكران ومخمور
فيه لنا الورد منضود مورده بين المجالس والمنثور منثور
ونرجس ساحر الابصار ليس لما كانت له من عمى الابصار مسحور
هذا البنفسج هذا الياسمين وذا النـ سرين مذ قربا فالحسن مشهور
تظل تنثر فيه السحب لؤلؤها فالروض ضاحكة والطير مسرور
حيث التفت فقمري وفاختة يغنيان وشفنين وزرزور
اذا الهزاران فيه صوتا فهما بحسن صوتهما عود وطنبور
تطيب فيه الصحاري للمقيم بها كما تطيب له في غيرها الدور
من شم ريح تحيات الربيع يقل لا المسك مسك ولا الكافور كافور

وله :

ولم انس[1] ما عاينته من جماله وقد زرت في بعض الليالي مصلاه
ويقرأ في المحراب والناس خلفه ولا تقتلوا النفس التي حرم الله
فقلت تأمل ما تقول فانه فعالك يا من تقتل الناس عيناه

وله في المواعيد الكاذبة :

قال لنا نخلة وقد طلعت نخلتنا فاصطبر لطلعتها
حتى اذا صار طلعها بلحاً قال توقع بلوغ بسرتها
حتى اذا بسرها غدا رطباً قال اصطبرنها لتمرتها
فمد عن نخلة كنخلة عرقو ب وعن قصة كقصتها

وله :

(١) هذه الابيات الثلاثة نسبها صاحب معاهد التنصيص الى ابي نواس وقد رأيتها في عدة كتب منسوبة الى الصنوبري .

ولقبوه (١) بحب الظرف ليتهم ضاءوا كما ضاع وصف ذلك اللقب

ولنكتف هنا بهذا القدر من اشعار الصنوبرى راجين من محيي الادب الحر بصين على إحياء ذكر هذا الشاعر ان يمدوا لنا يد المساعدة و يكتبوا الينا بما يظفرون به مما ينسب اليه لنضيفه الى ماجمعناه وما نجمعه بعد ونعده للطبع ، وهنا نذكر اسماء الكتب التي استقصيناها للبحث عن آثار الصنوبرى كيلا يتكبد غيري مشقة استقصاءها مرة ثانية فأقول هي : (العمدة لابن رشيق) (معاهد التنصيص) (التبيان شرح ديوان المتنبي) (الشريشي شرح مقامات الحريري) (خزانة الادب للحموي) (نفحات الازهار للنابلسي) (فوات الوفيات للكتبي) (معجم البلدان لياقوت) (تاريخ الشام الكبير لابن عساكر) (صبح الاعشى للقلقشندي) (نهاية الارب في فنون العرب) (زهر الآداب للقيرواني) (نزهة الانام في محاسن الشام) (مواسم الادب) انتهى

(حلب)



(١) حب الظرف عند اهل العراق هوالجرب . (المجمع) كذا جاءنا هذا البيت وهو غير مستقيم الوزن فلعل صوابه (ضاءوا كما ضاع منهم ذلك اللقب .

الغلاظة في اللغة

—*—

غلظ الشيء يغلُظ غلظة وغلاظاً وغلاظة : خلاف دقّ ورقّ وكذلك استغلج جلدُه وأعبل الشيء .

وعرد يعرد عرداً ، وشئز المكان يشأز شأزاً وشؤوزاً ، وشمزنت الارض شمزنة ، وجفا الثوب يجفو جفاءً ، واحزوزم المكان ، وعقد العسل والرب ونحوهما ، واستكثف الشيء ، وكثب الرحل يكثب كثوباً ، وضمزر عليه البلد او القبر ، وضمزر .

وشنصر الشيء : غلظ وصار شديداً ومثله اجبجر وتكلد البعير واكلندى ، وعرز الشيء يعرز عرزاً ، واستعلب اللحم وحدر الوتر حدورة ، وانعقد العسل والرب وتعقد ، وقد اعلوّد الشيء اي غلظ واشتد ورزن .

(اليد) — وشثلت اصابعه شثلاً : غلظت — ويده ورجله : غلظ لحمها وتراكب وكذلك شثلت شثولة ، وشثنت كفه تشثن شثناً وشثنت شثونة : غلظت وخشنت ومثله شذنت شذناً ، وعست يده عسواً : غلظت من العمل ، وكذا عظبت يده عظباً وعظوباً ، وكنبت كنباً ، وقد مجلت يده مجلاً ومجولاً : ومجلت مجلاً : نفطت من العمل فمرنت ومثله امجلت وثفنت ثفناً واذا غلظ ظهرها من برد الشتاء فتشقق قيل شرثت يده شرثاً وانشرثت .

(خشن) — وعبن جسمه يعبن عبناً : غلظ وخشن تقول في جسمه عبن اي غلظ وخشونة ، وكثّ الشيء يكث كثاً : غلظ وثخن ، وجشب الطعام : غلظ وخشن ومثله جشب جشباً ، وحثر الشيء : غلظ وخشن وضخم .

واستغلظ الشيء : صار غليظاً ومثله حزن المكان حزونة اي صار حزناً جيء به

على بناء ضده وهو قولهم مكان سهل وقد سهُل سُهولة ، وأحزن بنا المنزلُ .

وَضرُكَ الرجل ـ ضراكة : كان ضريكاً وضُراكاً والضُراك الرجل الغليظ الشديد عصب الخلق وَعَثِل الشيءُ عثَلاً : كان عَثِلاً اي غليظاً ضخماً ، وجزُل الحطبُ وغيره جزالة : عظم وغاظ فهو جَزْل ، وأَنَك الشيءُ ـ أُنْكاً : عظم وغاظ ، وتويَّت مفاصله : اعتدلت وغاظت ، وفخِم فخَماً : كان في شدقه غاظ ، وعجِبت الناقة عجَباً : غاظ عجب ذنبها ، وعطَن جسمه : غاظ جسمه ، وتلككَّدالرجل : غاظ لحمه ، ونبلخص زبد : غاظ لحمه وكثر . وَجبَل ـ : صار كالجبل في الغلاظة ، وَعكَت الابل تعكو عَكْواً : غاظت وسمنت ، وجفا القلم : غاظ قطه .

واكنب الشيءُ ، غاظ ومثله تاز تَوْزاً وتَيْزاً (واوي يائي) واستجبَّ السقاء ، وجبل الشيءُ ـ جبَلاً فهو جبْل وجَبِل . وجنَش ـ وخنزر الرجل وادلنظى وهبُلت المرأة . وقد ثخُن الشيءُ ـ ثخونة وثخانة وثخَناً اذا غاظ وصلب فهو ثخين ومثله ثخَن ـ وحدَر جلده ـ حدْراً وحدوراً ، غاظ وانتفخ وورم قال عمر بن ابي ربيعة :

لو دبَّ ذرّ فوق ضاحي جلدها لأبانَ من آثارهنَّ حدورا

وحدُر الغلام حدارة وحدَرت حدْراً كان حادراً اي سميناً غايظاً . وخثر اللبن ـ خثراً وخثُر ـ خثارة وخثُورة ، غاظ . وَشثِن البعيرُ ، غلظت مشافره من رعي الشوك وحثِرت عينه ، غلظت اجفانها من رمص او رمد . وأرثأ اللبن وارثثأ ، خثر ومثله أرضَّت الرثيئة وهي اللبن الحامض يخلط بالحلو .

(التغليظ) ـ وغلَّظ الشيءَ ، جعله غليظاً ومثله اثفن العمل يده . واعقدت العسل والرُبّ وعقَّدته اي اغلظته حتى غاظ . وأنبل قداحه ، جعلها جافية غليظة .

واستغلظ فلان الشيءَ ، رآه غليظاً ـ والثوب ترك شراءه لغلظه . واغلظ الثوبَ ، وجده غليظاً وقيل اشتراه كذلك ـ والمسافرُ ، نزل بالغلظ . وأعشَّ الرجل ، وقع في ارض عَشَّة اي غليظة . واستجفن الفراشَ وغيره ، عدَّه جافياً اي غليظاً او خشناً .

* * *

(الغلاَظ) ـ وهي الغَلْظة والغِلاظة والغِلاَظ . قال احمد شوقي :

ان الشجاعة في الرجال غلاظة ما لم يزنها رأفة وسخاء

وقال خليل مطران في عنترة العبسي :

ولينه في نصابه وغلاظته   في ملعب الموت بين السمر والخذم

وكذلك الخنزرة والشرز والشرص والشنزرة (الغلظ والخشونة) والشرنبث والشزونة (الغلظ من الارض) والعكوة والكبدة كقوله في وصف جمل :

ذا كبنة يملأ التصدير محزمه   كأنه حين يقفي رحله فدن

والجرز تقول انه لذو جرز . والوكاعة (الغلظ والشدة) والعنف ، الغلظ والصلابة . والجهن ، غلظ الوجه وفي التاج غلظ الوجه والجسم . والكشن ، غلظ في جلد اليد وتقبض . والحدر ، اجتماع الخلق مع الغلظ .

وتقول هذا رجل فيه غلاظة اي فظاظة وقساوة ، وفيه غلظة اي فظاظة . وفيه علكدة وجسارة في خلقه اي غلظ . وبه شبم اي غلظ في الساقين . وفي خلقه ضمرزه وضمارز اي سوء وغلظ . و كتال وكتل اي غلظ جسم . وكنب وهو غلظ يعلو الرجل والخف والحافر واليد او خاص بها اذا غلظت من العمل . وبلمثة اي غلظ جسم مع رخاوة . وانه لذو كندرة اي غلظ وضخامة . وكيح اي خشونة وغلظ . وتبغيل اي غلظ جسم وصلابة يقال بغل الجسم اذا غلظ وصلب . ويقال انه لشديد الكدنة وشديد الجبلة اذا كان غليظاً . وبه خنثمة اي قصر في انفه وغلظ وتفرطح . وجفاء اي غلظ في العشرة ومثل الجعذوة . وعنجهية اي جفوة في خشونة مطعمه واموره . وعجهرة أي جفاء وغلظ خلق . وجحش اي جفاء وغلظ ومثله العيدهة والعيدهية .

« للبحث صلة »

(النبك) :   سالم خليل رزق

—«*»—

آراء وافكار

عجز اللغات

وحين أضيف (العجز) للغات لا أستثني واحدة من جميع اللغى المعروفة في العالم ، نعم كلها عاجز ، وان كان هذا العجز يتفاوت بينهما بقدر كبير او صغير ، ولقد يخيل اليك وانت تطرح نظرك على ألوان المعاجم والموسوعات إن أكثر اللغات غني مسري لم يدع غرضاً الا احصاه ، ولا معنى الا اداه ، ولا جليلاً الا شكله ؛ ولا دقيقاً الا اصابه ، وخاصة لغة العرب ، فانك تجد فيهـا من البذخ وعظم الافضال ما يمتد الى شدة الافراط وغاية الاسراف ، فهي تطلق على كل من الجمل ، والغزال ، والسيف ، والخمر ، وغير هذه من الاسماء والنعوت مالا يعلم عدته الا الله . وهي في كل باب تفيض على المعنى الواحد من الالفاظ اشكالاً والواناً ، و بحسبك ان تقرأ للمعجبين من منقدمي اهل البيان من امثال الجاحظ ليهاجلك الانبهار من غنى هذه اللغة ومابلغت في ذلك العصر ، من اليسار ، الى حد ان الكاتب من هؤلاء يردد على المعنى الواناً كثيرة من التعبيرات والصيغ لاتدعو اليها حاجة في تقرير المعاني واساغتها لفهم القارئ ، وانما تدعو اليها موسيقى النظم من جهة ، ومكاثرة الكاتب بالوفر من اللغة من جهة اخرى .

ومع هذا كله فانني ما زلت ازعم ان اللغات المعروفة كلها ، وفيها العربية قاصرة من بعض النواحي واضحة القصور ، عاجزة شديدة العجز . ولست أريد بتلك الناحية ماسبق لي ان قررته في رسائل (ادبنا القومي) من عجز العربية عن أداء كثير من الاغراض الحديثة ، والمسميات الطريفة ، فان لغات الغرب تؤديها كلها احكم الاداء ، هذا الى ان للعربية عذرها في ذلك فلقد انقبضت دهراً طويلاً انبعث فيه العلم الحديث . واقبلت أذهان الغربيين على الاستنباط والاستكشاف والابتكار والاختراع ، حتى لم يكد ابناء

الشرق يفتحون عيونهم بعد طول هجمتهم الا وقد راعهم ان رأوا كل ما يحيط بهم غريباً عنهم جديداً عليهم ، بل الذي أعنيه واتهم اللغي جميعاً بالتقصير فيه هو شيء قديم جداً ، أقدم من العلم ، واقدم من الاختراع ، واقدم من اللغات نفسها ، وهو انفعالات الوجدان .

نعم ، لقد تهيأ للغات حقاً ان تؤدى حاجات العلم ، وان تفرغ الاسماء على كل ما يحيط بنا من الماديات ، وان تسبغ الصيغ على الاسباب الدائرة بين الناس ، وان تبسط الالفاظ للترجمة عن كل مايدور في رؤوسنا من الأفكار والآراء . وبهذا استطاع الناس ان يتطارحوا الافكار ويتبادلوا فنوناً كثيرة من المعاني . ومع هذا قد بقيت انفعالات الوجدان كل هذه الادهار ، بحجزة لا تؤديها اللغة الا بالجملة ولا تمسها ، ان مستها ، الا من بعيد .

ومن بديه القول ان الناس من يوم درجوا على هذه الارض يحبون ويبغضون ، ويفرحون ويحزنون ، و يبصرون ويسمعون ، ويذوقون ويشمون ، ولكل شيء من هذا اثر خاص في الحس لا يكون لغيره ولا يعدوه الى سواه ، وهذا يجده كل انسان ، بل لقد يجده كل حيوان فترى ماذا ارصدت اللغة للترجمة عن هذه الأحساس المشتركة بين الناس جميعاً ؟

لقد زعمت لك ان اللغة لا تصيب هذا الضرب من المعاني الا بالجملة ، ولا تمسه ، ان هي مسته ، الا من بعيد ، واني أضرب لك طائفة من الأمثلة يتضح بها هذا المقا .

هنا لك شيء تعرفه انت ويعرفه الناس جميعاً من عهد آدم وولده يدعى (الحب) . وان المرء ليحب أمه ، وانه ليحب اباه ، ويحب اخاه ، ويحب أخته ، ويحب ولده ، ويحب زوجه ، ويحب صحبه ، هو ، في الغاية ، يحب هؤلاء جميعاً وهو لا يستطيع ان يترجم لما يجده لكل منهم الا بكلمة (الحب) اذ الواقع انه انما يشعر لكل منهم بشعور خاص متميز لا يخالط غيره ، ولا يشبه في كثير من عناصر الحس سواه ، فاذا اقتضيتني الفروق بين هذه الالوان من (الحب) قررت لك انني عاجز عن بيانها بياناً واضحاً دقيقاً لان اللغة لم تبينها بياناً واضحاً دقيقاً وكل ما استطيع ان ابلغه من هذا ان اعين كل واحد منها باسبابه وملابساته لا بجوهره ومذاقه كأن اقول لك ان حب الام يمتاز بعرفان الجميل لما عانت في حمل الولد وولادته ، وإسهاد الجفن في إرضاعه وتعليله ، وتمحيضه اصدق الحب ، وإيثاره حتى على النفس ماتبغي من وراء

ذلك اجراً ولا شكراً ، وان حب الاب يمتاز فوق عرفان الجميل بما ربى وما انفق ، وما جهد في سبيل التربية والتأديب ، ويمتاز بالاعظام لانه سبب انحداره الى هذه الدنيا ، وبانه الاصل الذي ينتسب اليه ، ويتعرف الى الناس به . والتمس مثل هذه الاسباب لحب الأخ والولد والام والصحب وغيرهم .

اني أستطيع ان أفعل هذا ، ولكنني لا استطيع ان اقفبك على كل لون من ألوان هذا الحب بحيث تستحضره وتستشعره كما أستطيع ان اقفبك بفضل التعبير ، على مطالب العقل مثلاً ، فسرعان ماتدركها تامة وتتصورها كاملة . فان شئت ان تحسها وتستشعرها فليس هناك من سبيل الا ان تراجع فيها نفسك ، وتفتش عنها بين اضالعك ، فهناك تعرفها ابلغ المعرفة ، وتدركها اتم الادراك .

وان المرء ليحزن لان يغشى المكروه احداً من هؤلاء ، ولكن لكل حزن كذلك انفعالاً خاصاً لايخالط غيره ولا يشاركه في مذاقه سواه .

ثم انك تشم الورد فتنتعش بشذاه ، وتشم الياسمين فتزكو نفسك بطيب رياه ، وتشم القرنفل والفل والنرجس والمسك والند والعنبر والطيب وغيرها من كل ما يستريح اليه الانف ، وتزكو به النفس ، ولكن مما لاشك فيه ان لكل من هذه ريحاً خاصة ، تنفعل بها النفس انفعالاً خاصاً لايخالطه غيره ، ولا يشركه فيه سواه .

فقل لي بعيشك ، كيف كان سبيل اللغة الى التعبير عن كل منها تعبيراً يحضره نفسك ، ويصله بوجدانك ؟ اللهم ان كل مااتسعت له اللغة من نحو ما يأتي : هو نبات اوزهر طيب الريح ، له عرف ، له شذى ، له اريج يتضوع الخ الخ . وكل هذه نعوت تصلح للجميع . فاذا هي تزاحمت قليلاً للتمييز والتحديد لاتعدو ان تميز بين بعضها وبعضها بالخفة والشدة والضعف والسطوع ، وهذا مالا يغني في كثير .

ثم انك تطعم من الفاكهة التفاح والخوخ والمشمش والعنب والموز والرمان والكمثرى والسدر والتين والبلح بضروبه ، والكرز والمانجو والبطيخ والشمام والبرتقال واليوسفي ، والليمون الحلو ، وغيرها مما تخرج الارض من فاكهة وثمر ، أفترى في مذاقك واحداً منها مثل الآخر في اكثر مشابهه ؟ الواقع لا ! على ان كلها في تعبير اللغة ، حلو ! فاذا هي استشرفت للتمييز ، وشمرت للأداء لم تزد على حلو حامض ، او مز ، او نحو ذلك مما يسلكها

فصائل لا افراداً ! ومن تداعي المعاني أذكر في هذا المقام ان اميرالشعراء قد أبدع كل الابداع في قوله : (وكذلك كل مليحة بمذاق) ويقول الله تعالى في كتابه العزيز (والنخل والزرع مختلفاً أُكله) وليس بعد كلام الله تعالى كلام ٠

ثم انك لتفرح و يشيع فيك السرور : تفرح لانك اصبت ثروة ، وتفرح لان ابنك أبل من مرض ، وتفرح لانك ظهرت على عدو ، وتفرح لانك وافقت حبيباً في غفلة من الرقباء ، وتفرح لانك أصبحت ذا منصب وجاه ، وتفرح لانك هديت الى زوجة صالحة — انك لتفرح لكل هذا ولغيره وتسر به وتغتبط ، ولكن لكل فرح من هذه مذهباً ، ولكل منها وجداناً يميزه عن غيره ، و يستقل به عما عداه ٠ اذ اللغة لا تسعفك في هذا كله الا بالفاظ الفرح والسرور ، والاغتباط ونحو ذلك مما لا يجدي فيما نحن بسبيله فتيلا ٠

هذه طائفة من الامثال اوردتها عليك لتدرك بها مبلغ عجزاللغات في هذا الباب ٠ ولاشك بعدها في ان امرءاً لم يرزق الولد يستحيل ان تشعره حب الولد ، وان امرءاً لم يطعم الكمثرى يستحيل ان تقرب من نفسه مذاقها ٠ وان امرءاً لم يرتفع الى المنصب هيهات ان يستشعر لذة الجاه والسلطان ، وذلك ان اللغة التي واتت مطالب الانسان في كل شيء ، وافضلت عليه الافضال كله ، واذنت له في ان يسرف في الالفاظ ، ويتبذخ بفنون التعبيرات في كل جليل وحقير ، حتى لقد اسعفت خياله في الصعود الى جو السماء ، والغوص الى قرارة الدأماء ، واقامت له عند السماك مأربا ، وفسحت له في الأفلاك مطلباً ، ورحم الله ذلك الشاعر البارد يقول عن ممدوحه :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق !

هذه اللغة التي واتت بهذا كله ، واسعفت في ذلك اجمعه ، ما زالت تضن على الناس بالاسعاد فيما يجده كل امرئ منهم كل يوم وكل ساعة وكل لحظة : مما تختلج به احساسهم وتجيش به عواطفهم ، وتحرك له وجدانهم !

***

وبعد فثم مسألتان ان لم تدخلا في صميم هذا الموضوع فانهما متصلتان به اوثق الاتصال ، واحداهما جمال الخلق ، والثانية جمال الصوت ٠ وقبل كل شيء نقرر ان

ارادة اللغة على ان تتناول موضوعها بالتبسط والتفصيل لاتخلو من الارهاق والاعنات ٠ على انها اذا لم تكن مطالبة بالتفصيل فهي ولا شك مطالبة بالاجمال ٠

جمال الخلق في كل مكان من هذه الارض وفي كل زمان ٠ وان الناس ليتعشقون الجمال ويكلفون به ، وانه ليأخذ في نفوسهم كل اخذ ، حتى مايكاد يدع بعضهم يفكر او يتحدث الا فيه ، او يطلب من دنياه غير هواه ، ولقد تبلغ به الفتنة في هذا الى حد الصرع والى حد الجنون ٠ وكثيراً ماتجرد الشعراء والادباء في وصف فتاة مليحة فافتنوا في هذا وتطيرت فيه أخيلتهم كل مطير ، ولكنهم كسروا كل جهدهم على ان هذه المرأة او تلك الفتاة فتانة ، بارعة الحسن ، رائعة الجمال ، فاذا هم تدنوا الى التفصيل مازادوا على انها فارعة الفرع (هذا اذا كان شعرها مسرحاً) او انه (أثيث كقنو النخلة المتعثكل) اذا كان شعرها جعداً ، وانها واضحة الجبين ، وانها مقوسة الحاجبين ، حتى لكأنهما (نونان) وانها سابغة الهدب ، نجلاء العينين ، اسيلة الخدين حتى كأن الشمس تجول فيهما ، وان لها أنفاً كحد السيف ، وان لها شفتين قدتا من العقيق ٠ وثنايا صيغت من الدر اوالتوم ٠

وثناياك انها اغريض ولآل توم و برق وميض
واقاح منور في بطاح هزه في الصباح روض اريض

الى آخر مايسبغ على الغانيات ، من فنون النعوت والصفات ٠

وانك لتخرج بعد هذا ، وذهنك لا يتصور كل جميلات النساء في عشرة قرون الا مطبوعات على غرار واحد ، بارزات للعالم في صورة واحدة ، بحيث لايقع بين خلقهن اي اختلاف اللهم الا في الاسماء والالقاب ٠ فهذه هند ، وهذه دعد ، وهذه تماضر ، وهذه بثينة ، وهذه ليلى العامرية ، وهذه ليلى الاخيلية الخ ٠ ولعمري ، لست أدري كيف كان كل شاعر متعشق من شعراء العربية يميز معشوقته ويهتدي الى هواه بين سائر الجميلات من النساء ؟ وما يحدث به عن الجمال ، في هذا ، حدث به ، عن القبح سواء بسواء ٠

الواقع انه من العنت والارهاق ان تريد اللغة على ان تصف لك خلق انسان حتى كأنك تراه او ترى له تمثالاً محكماً او صورة من نقش صناع ٠ وانه مهما جد المرء ودق وصدق في وصف انسان بتناول كل اعضائه وتصوير جميع اجزائه ٠ فانك حين تراه

تراه على صورة مغايرة للصورة التي تمثلت في ذهنك تمام المغايرة · ولكن المشاهد المحسوس ان الناس مهما تفرقوا في خلقهم بالحسن والقبح · ومهما اختلف الخلق بين كل من هؤلاء وكل من هؤلاء ، فانه ما من انسان الا ينتسب في كيفية تكوينه ونظام خلقه الى فصيلة معينة تحس بها انت في نفسك ، و يشعر بها غيرك في نفسه ؛ سواء أكانت دارسة المعالم ام واضحة الحدود ·

وهنالك اصوات المغنين مثلاً · تسمع منها العشرات او المئات فترى لكل واحد منها لوناً ، وتجد له مذاقاً خاصاً ، فاذا أردت ان تصف احداها ان لم تسمعه فلست تعدو ان تقول انه جميل ، او حلو ، فاذا طلبت (الفن) ليعينك و يسعدك في وصفك ، قلت انه رفيع او عريض ، وانه اذا ارتفع تسلخ او ظل على استمساكه ، وانه اذا تدلى الى (القرار) تقلص اودوى وتفخم الخ على انك لا تخرج من هـذا بجليل ، اللهم الا ان يقول لك ان هـذا الصوت من (بدنية) صوت فلان ولست خارجاً بشيء اذا لم تكن سمعت صوت فلان هذا ·

والواقع ايضاً انه ما من صوت كريم او غير كريم الا ينتسب ، في الاصوات ، الى فصيلة معينة تحسها انت و يحسها غيرك ، سواء أكانت هي الاخرى دارسة المعالم ام واضحة الحدود ·

والحاصل ان اللغات لم تعن العناية الكافية بتعيين هذه الفصائل فلم تحرر لها من الالفاظ والصيغ مايجليها تمام التجلية على النفس · ويصلها تمام الصلة بالشعور ·

نعم ، لقد عنيت لغات الغرب بشيء من هذا ولكن الامر مابرح يتطلع منها الى مزيد · اما العربية فما احسبها عنيت منه بجليل ولا صغير ·

* * *

وبعدُ فلو انه قدر للغات ان تندس الى مطاوي الوجدان فتحدث عن كل ما يشيع فيه من شعور ، ويترقرق من حس ، ثم لو انها استطاعت ان تمثل للنفس ، ولو على جهة التقريب ، صورة مما تقع عليه العين وتسمعه الاذن — لتم للادب كماله ، وتهيأ للنفس ان تنفض كل مافيها واضحاً جلياً في غير مطاولة ولا كبير عناء · ثم لقام قلم الشاعر او الكاتب

مقام ريشة المصور او (اسطوانة الفونغراف) وذلك المثل الاعلى للادب الصحيح . فهل ترانا بالغيه في يوم من الايام ؟ .

وربما كان من الخير ان نعاود هذا الموضوع نزلة أخرى فانه اجل واضفى من ان يستوفي الكلام فيه مقال .

« باحث »

—«*»—

مقتطفات

« من كتاب الحيوان للجاحظ »

كنت منذ سنين قرأت كتاب الحيوان للجاحظ وعدت الى قراءته فاقتبست منه عدداً من المصطلحات والملحوظات أذكر منها طائفة فيما يلي :

أوردتُ في الصفحة ١٩٥ من المجلد الحادي عشر من هذه المجلة ان ابن العوام استعمل لفظة «الصنف» بمعنى Variété وقد اتخذ الجاحظ ايضاً تلك اللفظة لذلك المعنى . قال في ج ٣ ص٧٩ و ٨٠ « ومن اصناف الكلاب مايحمل ربع السنة » .

واستعمل حرفي القسمة والتصنيف بمعنى Classification فقال (ج ٤ ص ٩٠) « وقد وضع الكلام على قسمة أجناس الحيوان وعلى تصنيف ضروب الخلق . . . » .

ولقد قلت مراراً ان كتّاب العرب الأقدمين كانوا يطلقون الفاظ جنس ونوع وصنف وضرب على مختلف حلقات التصنيف لأن وضع هذه الحلقات وتثبيتها مما عمل من أعمال البارحة فترى الجاحظ مثلاً يستعمل لفظة « الضرب » «لأنواع » Espèces من الطيور حيث يقول (ج٣ ص٤٥) « والقمري حمام والفاختة حمام والورشان حمام وكذلك اليمام وضروب أخرى » . اما في الصفحة ٦٦ من المجلد ٥ فتراه يستعمل لفظة «الضرب» المذكورة بمعنى Catégorie او Division وذلك في الجملة الآتية :

« والطير كله على ثلاثة أضرب فضرب من بهائم الطير وضرب كسباع الطير وضرب كالمشترك المركب منهما جميعاً » . وهو يطلق لفظة « الجنس» على ماسمي بالفرنسية Espèce اذ يقول (ج ٥ ص٦٧) « والأجناس التي تعايش الناس الكلب والسنور

والفرس والبعير » . اما لفظة النوع فهو يعبر بهـا عن الحلقات Genre و Espèce و Variété على السواء في مواضع شتى .

وقرأت في الصفحة ٨٣ من الجزء الثالث « واجعل حمام النساء المسرولات العظام الحسان . . . واجعل حمام الفراخ من غير ذوات الأعراق الكريمة » . فالأعراق هنا بمعنى Races لأن هذه الحلقة هي حلقة الأصناف التي رسخت صفاتها وتأصلت (انظر مجلة المجمع سنة ١٩٣٠ ص١٩٣) .

والخلاصة ان حسن حظ اللغة جعل علماء اليوم يتفقون على تخصيص Genre الاعجمية بلفظة جنس و Espèce بلفظة نوع حتى صار القول في هذا الباب شيئاً يكاد يكون من الفضول . اما تخصيص Variété بلفظة صنف فقد كان انكره عليَّ العالم الدكتور محمد شرف صاحب المعجم في العلوم الطبية والطبيعية مع ان ابن العوام والجاحظ لم ينكرا ذلك . وانكر ايضاً اطلاق العرق على Race مع أن ذلك له وجه كما ترى وكذا لفظة رس للعلامة الأب انستاس .

والقضية ليست سوى تواضع العلماء على تخصيص كل حلقة من سلسلة التصنيف بلفظة واحدة ولهذا لايجوز ان يفرض احد العلماء في هذا الصدد رأيه على سائر علماء العربية فرضاً . واذا كان المجمع العلمي العربي بدمشق يدرج في مجلته آراء اعضائه في هذه الألفاظ وفي كل المصطلحات العلمية الحديثة دون ان يقرها في جلسة رسمية فما ذلك الا لعلمه ان هنالك أقطاراً عربية أخرى غير الشام فيها علماء لهم آراء محترمة وانه لايجوز ان تقرَّ لفظة ما رسمياً الا في مجمع علمي مشترك ا برحنا نرقب تأسيسه . اما مجمعنا في دمشق يراعي هذه المسألة المهمة الى هذا الحد فأحر بالأفراد العلماء في مصر والعراق خاصةً ان يتئدوا ويتواضعوا قليلاً فلا يلزمونا بآرائهم كأنها قرآن منزل وليرقبوا مثلنا ظهور هذا المجمع المشترك حيث يرون المجال متسعاً لتحري أصلح الألفاظ للمعاني العلمية الحديثة .

وهنالك مؤلفون ربما اقتبسوا وانتحلوا الألفاظ التي وضعها أعضاء مجمعنا فحبذا لو عدل هؤلاء فلم يجعلوا حظنا منهم كحظ العلامة الدكتور امين باشا المعلوف من الاستاذ المحقق الدكتور شرف فان الثاني اقتبس في معجمه كثيراً من ألفاظ معجم الحيوان تأليف الاول دون ان يذكر معجم الحيوان في جملة المنابع التي استقى منها . ولا شك ان ذلك

سهو وقع فيه الاستاذ شرف (جل من لا عيب فيه) لكنه لا يجوز ان يسهو علماؤنا عن مثل هذا .

ولنعد بعد هذا الاستطراد الى ذكر بعض الألفاظ التي لفتت نظرنا في كتاب الحيوان . قال الجاحظ في (ج٣ص٨٣) : « جميع الفراسة لا تخرج من اربعة أوجه اولها التقطيع والثاني الجسة والثالث الشمائل والرابع الحركة ... فالتقطيع انتصاب العنق ... واتساع المنخرين ... وقصر المنقار » الخ . وهنا يلحظ انه استعمل لفظة التقطيع بمعنى Morphologie تماماً قال : « هذه أعلام الفراسة في التقطيع » . قلت اي في المورفولوجيا .

اما الجسة فاستعملها بمعنى Maniement وكنت ذكرتها لهذا الغرض . واما الشمائل فبمعنى Caractères .

وجاء في (ج٧ص٤٨) « وقد يكون في الخلق المشترك وغير المشترك ... فالمشترك مثل الانسان الذي يأكل الحيوان والنبات » . فترى ان لفظة المشترك في هذا الباب تصلح للتعبير عن كلمة Omnivore الفرنسية .

وأورد في (ج٣ص٨٣) الجملة الآتية في تدجين بعض الحيوانات « ولا بد لجميعها من الصرامة ومن التعليم اولاً والتوطين آخراً » فلفظة التوطين أطلقها على Acclimatation وهي كأبلاف الإقليم التي ذكرتها في مقال سابق .

ولفت نظري في (ج ٢ ص ٧٩ و ٨٠) تعبيرات يفيدان الغاية اي بمعنى Au maximum وهما « اطول مايكون » و « في الفرط » في الجملتين الآتيتين :

« والكلبة الانثى تحمل واحداً وستين يوماً أطول مايكون » .

« واكثر ماتضع الكلبة اثنا عشر جرواً وذلك في الفرط » .

ورأيت في (ج ٢ ص١١٥) الجملة الآتية : « ويكون مثله من الناس الزنج فانهم شرار الناس وأردأ الخلق تركيباً ومزاجاً . ورأيت فيها ايضاً عن الغراب « فيكون اختلاف تركيبه وتضاد أعضائه ... » . فالذي يلفت النظر في هاتين الجملتين لفظة التركيب فالجاحظ ساقها بمعني Composition على حين ان بعض الكتاب يترجم هذه

اللفظة الأجنبية بحرف « بنـاء» . وأظن ان هذا الحرف الأخير كان استعمله العلامة النقيد يعقوب صروف ثم عدل عنه للفظة التركيب وهي لا غبار عليها وتفيد المعنى المذكور.

وقرأت في (ج٤ص١٠٣) « غرائز أخر وخاصيات أخر » . وفي (ج٢ص٨٢) « ولم ينبهوني على هذه الخاصة التي فيه » . قلت ان لفظة الخاصة بمعنى Propriété موجودة في الأمهات لكنك لا تجد فيها لفظة الخاصية بالياء . ومع ذلك عثرت على اللفظة الاخيرة في مادة «سنبل» من القاموس مع ان الفيروزابادي لم يذكرها في مادتها . والخاصية من المولدات كالفاعلية وأشباهها .

وتمثل الجاحظ في (ج٢ص١٠٨) بالبيت الآتي :

يا ليلة لي في حوران ساهرة حتى تكلم في الصبح العصافير

وأورد ذلك البيت في (ج ص ٧٢) هكذا :

يا ليلة لي بحوارين ساهرة حتى تكلم في الصبح العصافير

قلت سواء أكانت ليلة الشاعر في حوران ام في حوّارين (قرية في عمل القريتين الى شرقي حمص الجنوبي) فان الذي يلفت النظر قوله ليلة ساهرة وهو تعبير نصت عليه المعاجم . وهنا يرد على البال السؤال الآتي وهو الا يجوز ان نقول على هذا القياس ليلة راقصة وليلة عازفة بمعنى Soirée dansante و S.musicale من البديهي ان الليلة لا ترقص ولا تعزف . لكنها لا تسهر ايضاً . فكما جاز استعمال اسم الفاعل من « سهر » كذلك يجوز استعماله من الفعلين المذكورين ولو مع التجوز . وأمثال ذلك كثير .

وأدخل الجاحظ في (ج٦ص١٥٩) ال التعريف على (غير) في الجملة الآتية : « وخبرني بعضهم انه رأى من يبكي باحدى عينيه و بأنتي يقترحها عليه الغير » . وهذا الوجه جائز لدى بعض اللغويين .

وكان بعضهم انكر استعمال حرفي جر متعاقبين مع انهم نصوا على جوازه . وقرأت في (ج٥ص١٢٠) « فكنت والله ارى البعوضة تطير من على ظهر الثور » .

وأدخل التاء على لفظة العنز وهو غريب قال في (ج٥ص١٤٧) « اني اتخذت عنزة رجوت رِسْلها ونسلها » . وجاءت ايضاً كذلك قبل بضعة أسطر .

واستعمل لفظة القوصرة بمعنى الأصيص « شقفة زريعة » . قال في (ج٥ص١٢٥)

فقالوا لي ان الأراك انما ينبت من الأراك يغرس في جوف طين في قواصر و يسقى الماء اياماً ...» .

وفي الصفحة ١١٠ من الجزء ٣ وجدت لفظة القبو (ج الأقباء) بمعنى (ave وبودروم) اي بالمعنى الذي نعرفه في ايامنا هذه . قال « والباقلاء اذا عتق شيئاً في الأقباء استحال كله ذباباً فربما أغفلوه في تلك الأقباء ...» .

وقسم الطيور الى قواطع وأوابد . و يقابلها بالفرنسية Oixaux migrateurs و O.indigènes قال في (ج٢ص٦٥) والخطاف من القواطع غير الأوابد اذا قطع الى الأنس لم يبن بيته الا في أبعد المواضع » .

وجاء في (ج٢ص١٠٤) « وقد قالوا رجل ورحلة وشيخ وشيخة » .

واستعمل في (ج٣ص٩٩) لفظة القائلة بمعنى Sieste كما وردت في المعاجم . وكان استعماله اياها على أوجه شتى قال « كنت أريد القائلة فأمرت باخراج الذباب ... فكنت أدخل الى القائلة فيأكلني البعوض ... فأتيت ذات يوم المنزل في وقت القائلة ...» .

وفي (ج٣ص٤٥) ذكر الماعزة والضانية بمعنى العنز والنعجة .

ومن التعبيرات الشيقة التي لفتت نظري « عبد عين » في الجملة الآتية الواردة في (ج٣ ص٢٦) وهي :

« ويقال للمرائي ولمن اذا رأى صاحبه تحرك له وأراه الخدمة والسرعة في طاعته واذا غاب عنه وعن عينه خالف ذلك انما هو عبد عين » .

ومنها « النفخ والتزيد » الواردة في (ج٧ص٥٦) حيث قال « واعلم ان هذه الأحاديث من أحاديث الفرس وهم اهل نفخ وتزيد ولا سيما في كل شيء مما في باب العصبية » .

ومنها الوصف الآتي للرجل المجد في (ج٣ص٢) « إلف تفكير وتنقير ودراسة كتب وحلف تبيين » .

ومنها في وصف الكتب القديمة ووصف حظها التعس من المترجمين والخطاط (ج١ص٤٠) « كتاب متقادم الميلاد دهري الصنعة .. فما ظنكم بكتاب يتعاقبه

المترجمون بالإفساد وتثماوره الخطاط بشر من ذلك » .

ومنها تعبيرات مابرحت شائعة على الألسنة كضرّاب اللبن في الجملة الآتية التي تجدها في (ج٤ ص١٣٩) « ولم أر سقاء قط بلغ حال اليسار والثروة وكذلك ضرّاب اللبن والطيان والحراث ... » . وكعلّقوا على دوابهم في الجملة الآتية الواردة في الصفحة ١٣٥ من الجزء نفسه « .. حين نزلوا وبهم كلال السير وحين علّقوا على دوابهم ... » .

هذه طائفة مما اقتبسته من ذلك السفر الثمين فلعل فيها فائدة للكتاب والمترجمين .

مصطفى الشهابي

مطبوعات حديثة

النثر العربي في القرن الرابع للهجرة

— بقلم —

الدكتور زكي مبارك

- * -

رسالة أنشأها الدكتور زكي مبارك باللغة الفرنسية وقدّمها الى جامعة باريز .

بحث فيها عن خصائص النثر في القرن الرابع للهجرة فأشار الى محاسن هذا النثر والى معايبه وحاول ان ينسلخ في مباحثه من تأثير علماء المشرقيات .

القرن الرابع في نظر الدكتور انما هو من اعظم القرون شأناً فان للغة فيه خصائص لم تكن لها في العصور السالفة ، من هذه الخصائص اجتهاد الكتّاب في تنميق كتاباتهم بمحاسن الشعر فان قدماء الكتّاب لم يخطر ببالهم ان يقلّدوا الشعراء ، اما كتّاب العصر الرابع فقد قلّدوهم مقتصدين في تقليدهم دون شيء من الاسراف وانما الاسراف وقع من قبل خلفائهم في العصور اللاحقة .

ومن خصائص النثر في القرن الرابع التقفية والسجع وفي هذا العصر ظهرت المقامات وان لم تكن المقامات من وضع العصر الرابع وانما كانت من اقتباسه .

وقد ذكر الدكتور في رسالته انه نبّه على أضاليل في تاريخ ادب العرب من جملتها وضع البديع والبيان وانشاء المقامات واصل الصناعة اللفظية وما شابه هذه الامور ·

تتضمن الرسالة مقدمة وخمسة وعشرين فصلاً وخلاصة ·

اما الفصول فقد بحث فيها صاحبها عن النثر قبل الاسلام وبعد الاسلام وفي القرن الرابع للهجرة وعن البلاغة في ذاك القرن وعن مصادر الصناعة اللفظية او التكلف في الكتابة وعن الحياة العقلية وعن المقامات وعن أحاديث ابن دريد وعن روايات الأغاني وعن الإخبار بين والقُصّاص وعن تراجم ابن العميد والصاحب بن عبّاد وبديع الزمان والخوارزمي والتوحيدي وابن نباتة والخطيب والصابيء وابي حسن الجرجاني وابن فارس والثعالبي وابي هلال العسكري وابن شهيد الاندلسي واحمد بن يوسف المصري والتنوخي ·

أبرز صفات هذه الرسالة بناء صاحبهـا على اصول برونتير (Brunetiêre) في مباحثه ، فمذهب (برونتير) في الأدب انما هو مذهب (التطور) فان (برونتير) لا يؤمن بمذهب التولد الذاتي في الأدب فالطريقة الغنائية في القرن التاسع عشر لم تظهر فجأة وانما هيئت من القرن الثامن عشر ·

وعلى هذه الأساليب جرى الدكتور زكي مبارك في مباحثه فالنثر العربي لم يخلق فجأة وانما العرب كان لهم قبل الاسلام نثر يفصح عن شرف نفوسهم وعن طبيعة احساسهم وانما آثار هذا النثر قد فقدت فقد كان قبل الاسلام أدب وفلسفة وفن فلا يتصور العقل ان ينفجر فجأة في جاهلية جهلاء لا يفكر احد منها في بلاغة او في عروض او في نقد أثر كالقرآن رائع الحسن ، فالدكتور زكي مبارك من هذه الناحية يخالف الدكتور طه حسين ويصرّح بهذه المخالفة ·

وكذلك المقـامات لم تخلق فجأة وانما اقتبسها الحريري عن الهمذاني والهمذاني عن ابن دريد صاحب الأحاديث وعلى هذه الصورة انتقلت أحاديث ابن دريد على الأيام من طور الى طور حتى طبعها الهمذاني والحريري من بعده بطابع خاص ·

* * *

لا شك في ان أدب العرب في أمثال هذه المباحث يدخل في طور خاص فلا يأتي عليه حين من الدهر الآ وأوائله مرتبطة باواخره بحيث يصبح سلسلة محكمة الحلقات .

على اننا اذا أردنا ان نصل الى هذه الخواتيم المحمودة لزمنا ان نوازن بين الآثار فاذا ذكرنا مثلاً ان اصل المقامات مقتبس عن احاديث ابن دريد وجب علينا ان ننبه على مواطن الاقتباس حتى يتبين لنا كيف انتقل هذا النوع الأدبي من حال الى حال او من طور الى طور على الأيام ولئن تعذّر علينا ان نقايس بين آثار اللغة الجاهلية واللغة الاسلامية لفقدان المصادر الجاهلية فما يتعذر علينا ان نقايس بين الآثار التي جاءت بعد الاسلام حتى ندرك مختلف أطوارها وانما الرأي المجرّد غير المبني على امثال هذه الموازنات والمقايسات لا يفعل فعله في العقول . « شفيق جبري »



أشعة رونتجن

« الجزء الاول في تشخيص الامراض الباطنة لمؤلفه الدكتور محمد فريد »
« خريج جامعة برلين والاختصاصي في الامراض الباطنة والأشعة »

هو كتاب يقع في ٦٥ صفحة قسمه مؤلفه قسمين بحث في الاول منهما عن فحص المعدة باشعة رونتجن وتشخيص امراضها فبين مكانة فحص المعدة بالاشعة فطريقة الفحص فشكل المعدة السليمة واشكال المعدة المصابة بالقرحة او السرطان فصورة الاثني عشري المصاب بالقرحة .

وجاء في الرسالة الثانية على فحص الامعاء وتشخيص أمراضها وكيفية فحص المعى الدقيق ووظيفته ، وكيفية فحص المعي الغليظ وتأثير العقاقير فيه وتكلم عن انسداد الامعاء وضيقها وأورامها وديدانها وسلّها وعن التهاب الزائدة وركود الصائم وتقصيره وغير ذلك مما يعتري الانبوب المضمي من التبدلات والامراض .

والكتاب اذا نظرنا اليه نظرة علمية حسن التبويب غزير المادة فيه احدث ما جاء به

علم الاشعة ، مزين بمائة رسم وشكل ، متقن الطبع . فليس لنا والحالة هذه الا ان نشكر لمؤلفه ذلك العناء الكبير الذي قاساه في نقل مستحدثات هذا العلم الى لغتنا العزيزة .

غير انا كنا نودّ ان تكون لغة الكتاب نقية خالية من الخطيئات اللغوية والنحوية والصرفية وان تكون مصطلحاته الطبية صحيحة منطبقة على ما وضعه الناهضون بلغتنا العزيزة في هذه الحقبة الأخيرة من الزمن . ولا يخفى ان لغة المؤلفات لاتقلّ مكانتها عن العلم نفسه لانها الثوب الذي يظهر به ذلك العلم فاذا ما كان جميلاً أكسب العلم نفسه رونقاً وجمالاً واذا ما كان ركيكاً أثر في مظهر العلم اذا لم يؤثر في جوهره .

ليست غايتي ان أبين جميع ما في هذا الكتاب من الخطيئات اللغوية فانك لا تكاد تقرأ سطراً حتى تقع على خطإ او اكثر بل غايتي ان أورد مثالاً للقراء الكرام .

فمن الخطيئات قوله :

كان ينقص لغة الناطقين بالضاد كثيراً ...
بادرت بتأليف ...
ما لهم من ايادي بيضاء ...
فقد نشاهد إسراع في طرد ...
فان الرئتين مملوءتين ...
بل ونستطيع ...
ثم جعلوه اجوفاً
لم يستطاع
لا يؤثر عليها
ثم استعيض تحت كاربونات البزموت عن
تحت ازوتاته
٤٠٠ جراماً
اذا كان بين الجدران فراغاً
اما نحن نرى

تصادف تلك المعدة عند الرجال أقوياء
البنية عريضي التركيب
نعتبر الصور الثلاثة
ان الثلاثة أصناف
او الثانية عشر الصدرية
للعامود الفقاري
تراكد محتويات المعدة
أورام الكبد وتضخماته
مع ما حولها من الأنسجة
حتى يقدمون
وقد يقع بين شكلي معدة الرجل والمرأة
اختلافاً
اربعة ساعات
جدولاً آخراً
حواف الاخير

وترى المعدة والحجاب الحاجز مندفعان
والا اذا استمرينا
مستوى الضلع التاسع أو العاشر
الاعتقاد بندورة
وغير ذلك من مئات الخطيئات ، وصحيحها :

كان ينقص لغة الناطقين بالضاد كثير	تعتبر الصور الثلاث
بادرت الى تأليف	ان الأصناف الثلاثة
مالم من اباد بيضاء	او الثانية عشرة الظهرية (وليست الصدرية)
فقد نشاهد إمراعاً في طرد	للعمود للفقاري
فان الرئتين مملوءتان	ركود محتويات المعدة
بل نستطيع	اورام الكبد وضخاماتها
ثم جملوه أجوف	مع ما حولها من النسج
لم يستطع	حتى يقدموا
لا يؤثر فيها	وقد يقع بين شكلي معدتي الرجل والمرأة اختلاف
ثم استميض بنحت لحات البزموت عن نحت	اربع ساعات (وهذه الخطيئة مكررة كثيراً)
ازوتاته	جدولاً آخر
٤٠٠ غرام	حافات الاخير
اذا كان بين الجدران فراغ	وترى المعدة والحجاب الحاجز مندفعين
اما نحن فنرى	والاّ اذا استمررنا
وتصادف تلك المعدة في الرجال الأقوياء	مستوى الضلع التاسعة او العاشرة
البنية العريضي التركيب	الاعتقاد بندارة

وفي الكتاب كثير من الأوضاع المغلوطة نرغب في تنبيه المؤلف الفاضل اليها منها :
(الهيكل العظمي) ص ب سطر ٧ والاصح الصقل كما ارتأى العلامة الاب انستاس الكرملي لان كلة (squelette) باليونانية (skeletos) معناها الضامر الضعيف

اليابس او المنهضم الخاصرتين ثم توسعوا في معناها فأطلقوها على هيكل عظام الانسان فاذا جردت الكلمة اليونانية من (etos) وهي علامة الاعراب بقي (skel) المقابلة لصقل لفظاً ومعنىً ·

(الكشف الاكلينيكي) ص ج سطر ١ لا يزال زملاؤنا المصريون متعلقين تعلقاً لاانفكاك منه بهذا اللفظ الأجنبي الثقيل مع ان معنى (clinique) « دروس تلقى على سرير المرضى » فنحن إذن نسبتها الى السرير · فيقال الكشف السريري والدرس السريري ونح ··

(التشريح المرضي) (autopsie) بعد الوفاة ص ج سطر ١٣ وقد اشتهرت ترجمة (autopsie) بفتح الميت اما التشريح المرضي فمعناه (anatomie pathologique)

(الليكيمي) (leukémie) ص د سطر ١٣ ومعنى هذه الكلمة ابيضاض الدم وترجمتها خير من تعريبها على ماأرى ·

(الجوتز الجحوظي) ص د سطر ١٤ وهي الجُدَرَة ج أجدار اوالجَدَرَة ج جَدَر وجُدَر ·

(البروستاتا) ص د سطر ١٥ وقد ترجمها العلامة الكرملي بالموثة ولا غبار على هذه الترجمة لان الكلمة أخف لفظاً واسهل نسبةً من الكلمة الأعجمية ·

(فتح البطن للتجربة) ص٥ س١٥ والأصح قولنا « فتح البطن الاستقصائي » ·

(القفص الصدري) ص٦ س١٣ وهو القُوْس على رأي العلامة الكرملي ·

(المجس) (bougie) ص٨ س١١ والصحيح « الشمعة » ·

(aneuorysm) ص٨ س ١٤ وترجمتها ام الدم ·

(الجلاتين) ص٩ س٤ وهو الهُلام ·

(بالون) (ballon) ص١٢ س١٣ وهو الحوجلة ·

(افقية) (transversale) ص١٣ س٦ والصحيح معترضة لان افقية ترجمة (horizontale) ·

(الأجواف) (Antrum) ص١٣ س١٧ والصحيح الجيب لان أجوف قد اطلقت على ترجمة (cave) ·

(سيفون) (siphon) ص١٤ س٩ وهي السحارة ·
(العظم العاني) (symphyse) ص١٦ س٦ وهو الوصل العاني وليس العظم نفسه ·
(العاصر للاجوف) (sphincter antrum) ص٢٠ س١٧ وهي مصرة الجيب ·
(عدم كفاءة) والأفضل اقصير ·
(سل النخاع الشوكي) (tabès dorsalis) وهو السهام حسب تسمية الأب الكرملي والكلمة من اصل لاتيني ·
(سرطان قسم البواب) ص٣٣ والاصح ترجمة (région) برجا لما بين الكلمتين من التقارب اللفظي ·
(القولون الهابط) ص٤٣ س١٦ و يعني به (colon descendant) وهو النازل وليس الهابط لان هذه الكلمة تعني (ptosé) ·
(askaris) ص ٥٠ ويجب ترجمتها بخراطين المعى ·

* * *

هذا نذر مما وقع عليه بصرنا حين تصفح هذه الرسالة وقد كنا نود ان تكون منزهة عن هذه الشوائب لتزف الى اللغة العربية نقية صافية · فعسى ان يتدارك مؤلفها الفاضل هذه الخطيئات الكثيرة في الطبعة المقبلة ويهذب لغتها فترتدي الحلة العربية الفصحى ·

الدكتور
مرشد خاطر

المجلد الحادي عشر الجزء ٩ و ١٠

مجلة المجمع العلمي العربي

أنشئ سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م

تنشر في دمشق مرة في الشهر

ايلول — تشرين الاول

١٩٣١

دمشق :

المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي | في سورية ولبنان ٢٥٠ قرشاً سورياً
الدفع مقدماً | وفي جميع الاقطار ٦٠ فرنكاً

مجاميع المجلة عن السنين الماضية

في الداخل	٥٠٠	من السنة الاولى الى الرابعة	كل سنة منها
»	٣٠٠	» الخامسة الى العاشرة	» »
في الخارج	٦٠٠	» الاولى الى الرابعة	» »
»	٣٥٠	» الخامسة الى العاشرة	» »

ابن زيدون

—*—

هو الكاتب الشاعر الأديب ذو الوزارتين ابوالوليد احمد بن عبدالله بن احمد بن غالب بن زيدون المخزوميّ الاندلسي القرطبي ٠

وبنو مخزوم الذين يمتّ اليهم بالنسب بطن من قريش ، وهم عشيرة خالد بن الوليد الفاتح العظيم ٠ جلا أجداده الى الاندلس مع من جلا اليها من عرب المشرق ، ولم تعرف بالضبط سابقتهم فيها هم وسلالتهم ، غير انه اشتهر من أعقابهم ثلاثة تسمّوا بابن زيدون : المترجَم ، وابوه ، وابنه ٠ ويظهر ان بيتهم نشأ في قرطبة مقر الخلافة الأموية في المغرب ٠ وكان اول المعروفين منهم ابوالمترجَم ، ذكروا انه كان فقيهاً متأدباً وجيهاً عند اهل عصره مثنىً عليه بالجميل ، وكان يكنى بابي بكر ، توفي بمدينة ألبيرة سنة خمس واربعمائة ، ونقلت جنازته الى قرطبة ، فدفن بها ، ورثاه بعضهم بقوله :

أيُّ ركن من الرياسة هيضا | وجموم من المكارم غيضا
حملوه من بلدة نحو أخرى | ليوافوا به ثراه الأريضا
مثل ماء السحاب ماءً صبيباً | ليداوي به مكاناً مريضا

وللمترجَم ابن يكنى ابا بكر بن زيدون ، تولى وزارة المعتمد بن عباد بعد ابيه ، وقتل يوم اخذ يوسف بن تاشفين قرطبة من ابن عباد لما استولى على مملكته سنة اربع وثمانين واربعمائة ٠

الحالة السياسية والاجتماعية والادبية في عصر ابن زيدون — نشأ ابن زيدون في عصر انفرط فيه نظامُ حكم العرب بالاندلس ، وتقوّضت فيه اركان الدولة الأموية ، وذهبت ريح من زاحمهم من بني حمود من سلائل العلوية الادريسية ، وتفرقت رجالات

هذه الدولة العظيمة طوائف وشيعاً ينضوي كل منهم الى كنف رئيس من قضاة الدولة او قوادها او ولاة نواحيها ، ينشئ بهم دويلة لعلها لا تزيد على مدينة وأرباضها ، واذا أتيح لمملكة من ممالك هذه الطوائف بسطة سلطان واتساع رقعة شملت عمالة قديمة او عمالتين ، ولكنها لا تقوى الا على مصاولة جاراتها والكيد لها ، واغراء العدو من ملوك الاسبان بها بل مناصرته عليها ، فاستطار شرر هؤلاء الملوك الاسبان ، وتدخلوا في شؤون هذه الدويلات بالقوة والسياسة ، وانتهى الامر باكثر هذه الدويلات ان اتخذوا أمام هذا العدو القاهر ، ودفعوا له الجزية عن يد وهم صاغرون ، وهم على ذلك الذل يتنافسون في الالقاب وشارات الملك ، وتشييد القصور والمصانع وتنسيق المنازه والملاعب ، واقتناء الجواري والقيان واجتلاب فاره الدواب والغلمان ، وسهل عليهم تأسيس ممالكهم وتأثيل نعمتهم تلك المغانم العظيمة والثروة الجزيلة التي أفعمت بها البلاد فتوح المنصور ابن ابي عامر قبيل ذلك العهد ، فتسمى كل زعيم منهم بامير المؤمنين وتلقب بالرشيد والمأمون والمتوكل والناصر والمنصور والمعتضد والمعتمد كما يقول في ذلك ابن شرف القيرواني .

مما يزهدني في ارض اندلس   اسماء معتضد فيها ومعتمد
القاب مملكة في غير موضعها   كالهر يحكي انتفاخاً صولة الاسد

واتخذ له بطانة من خيرة الادباء والكتاب والشعراء والمؤلفين ، يحرص جد الحرص على الا يكون عند غيره من ملوك الطوائف مثلها ، بحيث اذا اشتهر من بين رجال هذه الدويلات نابه في قيادة حرب او تدبير ملك او نجاح في شعر او كتابة او تأليف ، خطب كل منهم وده ، فنفق ذلك سوق العلم والادب من جهة ، وولد من جهة أخرى في نفوس وزرائهم وأعوانهم دالة عليهم طرقت الى الشك في إخلاصهم ومؤامرة أعدائهم عليهم فعاجلوهم بالنكبات ، وباغتوهم بالحبس والمصادرات ، وربما افلت بعضهم ، فألقى بنفسه في أحضان مملكة مجاورة يؤلبها على دولته الاولى ، ويبدي لها وجوه ضعفها ، وما استتر من عوارها ، فتطمع في الاستيلاء عليها او انتقاصها من أطرافها ، فاما ان تفوز بإربتها ، واما ان تكون باحثة عن حتفها بظلفها . كل هذا والعدو من الاسبان يقتطع منهم بلداً بعد بلد ومملكة بعد مملكة ، وهم لاهون غارون في بذخهم وصلفهم وتحاسدهم وتطاحنهم ، فلم يفيقوا حتى ضيق عليهم خناقهم من الشرق والغرب والشمال ، وحتى تهددهم بالاجلاء

عن ارض الاندلس جملة ، ففزعوا الى امير المسلمين يوسف بن تاشفين ملك البربر من المرابطين يستصرخونه على عدوهم ، وينشدونه بلسان حالهم :

فان كنت مأكولاً فكن خير آكل والا فأدركني ، ولما أمزّق

فجاءهم ابن تاشفين بجيوش البربر الجرارة فدحر الاسبان في موقعة الزلاقة الشهيرة ، وردهم الى أسوار طليطلة ، ورجع الى بلاده ، فرجع ملوك الطوائف الى ما كانوا عليه ، فكر يوسف عليهم وأخرجهم من ديارهم وأدخل ما بقي للمسلمين من ارض الاندلس في سلطانه ، ونقل كبار العلماء والكتاب وكل من يحسن صناعة الى مراكش حاضرة ملكه ، وولى عليها الولاة المسمّين بالسادة من ذوي قرابته . فخمل شأن الاندلس بالتدريج في العلم والادب ، وزالت منه أبهة الملك ، فقلت الرغبة من ولاة البربر في الاستكثار بالعلماء والادباء واستبطان ارباب الإجادة ، فتقاصرت الهمم عن التحصيل والدرس والاعتزاز بالعلم والادب ، بين الذين آثروا الاقامة بالاندلس لضعفهم عن الرحلة اولفضل تراث بقي في ايديهم عن آبائهم ، فربما جاشت نفوس هؤلاء بالشعر فأجادوه تكملاً او تطرّبا وتلهياً لاتكسباً وتثميراً كابن خفاجة وأضرابه .

ولما كان عهد ملوك الطوائف قصير الأمد كان أوائل رؤسائه وجلة علمائه وأدبائه ممن درجوا من مهد الدولة الأموية ، وربما أدرك بعضهم عصر تجدّد الدولة و بسطة سلطانها على اديم الجزيرة زمن المنصور ابن ابي عامر المعافري حيث العلوم مديدة الرواق ، والآداب وارفة الظلال ، والامن والعافية وخصب العيش وطيدة الدعائم ، فلم يؤثر تفرق الكلمة وتشتت الجماعة بادي بدء في الثقافة العامة ، فوجد كل مؤسس دولة من ملوك الطوائف من يشد أزره و يسد عوزه من أرباب السيف والقلم الذين خدموا الدولة العامرية او بني حمود العلويين وممن تزينهم ملكه من الشعراء والندمان وارباب الفنون والصناعات الجميلة . فكان للملك منهم عدة وزراء نابهي الشأن في السياسة والعلم والكتابة والشعر . وكان له من المهندسين والبنائين والمزوقين من قاموا بتشييد تلك القصور البديعة ذوات الفرش الوثيرة والبساتين النضيرة التي خلبت لب ابن تاشفين على غرارته وعنجهيته ، وجعلته ينفس عليهم عيشهم ، ويستكثر عليهم ملكهم .

لذلك نعتبر عصر ملوك الطوائف من تتمة عصر نهضة اللغة وآدابها في الاندلس .

ولهذا ايضاً كان كثير من أدباء هذا العصر في عداد رجال الذخيرة لابن بسام والقلائد للفتح بن خاقان على الرغم من فوضى حكامه واختلال نظامه . ولكن لما فني القرن الاولون وخلفهم القرن الآخرون فتّت تلك الفوضى السياسية في عضد الثقافة العامة ، وهاضت من جناح النبوغ في العلم والأدب وتدبير الملك والصناعات الجميلة ، وأخلّت بالرخاء ورغد العيش . فلما اكتسح ابن تاشفين بسيط الجزيرة نقل عتاد ملك الاندلس وثقافته الى بلاده كما نقل ملوكه ولله عاقبة الامور .

ولا حاجة بنا في ترجمة ادبينا ان نسرد كل مملكة من ممالك الطوائف ، وما دخل في حوزتها من البلاد ، وانما نشير بايجاز الى نشأة كل من مملكة آل جهور وآل عباد وعاقبة امرهما لارتباط سيرة مترجمنا بهما .

آل جهور بقرطبة — يرجع نسبهم الى بني كلب احدى قبائل قضاعة . دخل ابو عبيدة اولهم الاندلس ، ونسل بها بنيه ، وسكنوا قرطبة ، ووزروا للناصر والمستنصر والمنصور ابن ابي عامر ، وكان منهم الوزير ابو الحزم جهور بن محمد بن جهور عين أعيان قرطبة ورئيس الجماعة بها زمن الفتنة عند انقضاض الخلافة الأموية ، فانه استقدم المعتمد آخر من بويع من بني أمية بالخلافة الى قرطبة ، وبايعه ، وحمل اهلها على بيعته الا ان الجند خلعوه ، ففر الى لاردة سنة ٤٣٠ هـ ثم هلك وانقرض به ملك بني أمية ، فقام جهور بضبط امور قرطبة والحكم بين الناس بها ملازماً بيته متباعداً عن قصر الخلافة ريثما يتفق الناس على إقامة خليفة فلم يتم لهم ذلك ، واستبد هو بامر الملك على زهادة وصلاح الى ان مات ودفن بداره سنة ٤٣٥ هـ وولي ابنه ابو الوليد محمد بن جهور وكان عالماً اديباً قارئاً ثم خلفه ابنه وكان سيء السيرة ، فحاصره ابن ذي النون بقرطبة وتظاهر المعتمد بن عباد بنصرته فأرسل جيشاً الى قرطبة فاستولى عليها ، وداخلوا اهل قرطبة ، فخلعوا ابن جهور وبايعوا المعتمد بن عباد ملك اشبيلية فولى عليها احد ابنائه .

آل عباد باشبيلية — اما آل عباد فأصلهم من لخم من جند حمص الشام دخل اولهم عطاف قرية بشرق اشبيلية ونسل بها بنيه ، وكان اول مستبد منهم بالملك القاضي ابو القاسم محمد بن ذي الوزارتين اسماعيل بن عبّاد ، تولى القضاء باشبيلية واشترك في بيعة

القاسم المأمون بن حمود العلوي على اشبيلية ، ثم ثار عليه اهلها ، وولوا القاضي ابن عبّاد اميراً في صورة القاضي حتى هلك . وتولى بعده ابنه عباد مجاهراً بالملك ، وتلقب بالمعتضد وكان حازماً شديد الدهاء والجبروت ، فاتسع ملكه حتى عم غرب الاندلس ، ومات . وخلفه ابنه محمد المعتمد وامتد ملكه الى قرطبة ، فأخذها من آل جهور وذاع صيته وخدمه كثير من فضلاء الوزراء والادباء . وكانت اشبيلية في عصره مقصد الشعراء وقبلة كل محسن لصناعة ، الى ان نكبه الدهر واستولى على ملكه ابن تاشفين ونقله الى أغمات الى ان مات سنة ٤٨٤ هـ .

نشأة ابن زيدون — عاش ابن زيدون عيشتين : الاولى عيشته في قرطبة ، وهي عيشة تحصيل وكدّ ، ومزج هزل بجد ، والثانية عيشته بعد الفرار من السجن ، وهي عيشة غلب عليه فيها الجد والوقار والعظة والاعتبار .

حياته في قرطبة — ولد ابن زيدون بقرطبة سنة ٣٩٤ هـ في ايام الدولة العامرية بعد موت الحاجب المنصور بن ابي عامر بسنة واحدة ، وفي اول عهد ابنه المظفر الذي كانت ايام حكمه كلها أعياداً رخاءَ عيشٍ وأمانَ سِربٍ ، وحكم قرطبة يومئذ يمتد باسبانيا من مدينة شنت يعقوب شمالاً الى أقصى بلاد السوس من المغرب الاقصى جنوباً ، واهل قرطبة مغمورون في الثروة التي اغدقها عليهم الناصر والمستنصر والمنصور بن ابي عامر وابنه المظفر مدة قرن من الزمان ، من المغانم الكثيرة والسبايا اللائي امتلأت بهن البلاد وجعل بخس اثمانهن شبان الاندلس يزهدون في زواج الحرائر . ففي ربوع هذه الغبطة وفي ظلال ذينك الأمن والعافية نشأ ابن زيدون في حجر أسرة نبيهة الشأن من رجالات الدولة وأعيان فقهائها . فولّد ذلك فيه حب التمتع باللذائذ والطيبات والاغتباط بمشاهد الانس والجمال ، كما ولّد فيه كرم نجاره علوّ الهمة وتطلب ذرائع الشرف والرياسة في زمانه وبيئته : مثل وعي اللغة وحكمها وأمثالها ، والإحاطة بعلوم لسانها وحفظ القرآن الكريم ورواية الكثير من الخبر ومأثور النظم والنثر وحوادث التاريخ والقصص والنوادر فتهيأ له من ذلك فوق ذكائه الفطري مادة اكسبته النبوغ في قرض الشعر وإجادة الترسل ولطف المحاضرة ، كما انتهت عادة بامثاله من أدباء الاندلس الى تسنم مرتبة الوزارة .

وقد كاد موت ابيه وهو بعدُ يافع لم يناهز الحادية عشرة من سنّه يكون عائقاً عن استكمال ثقافته وصارفاً له عن معاناة الكد ومضض التحصيل ، شأن كثير ممن حرمهم الزمان رعي عائلهم ، غير ان النشئة اذا كانت وطيدة الاسس نبيلة القصد شب الناشئ على ماعوّده ابوه ، ولم يعوزه في استتمام سعيه غير مراقبة هيّنة من ذوي قرابته ، وذلك مانظنه مكفولاً في مثل بيت ابن زيدون ، وخاصة اذا اجتمع له في البيئة التي شبّ فيها كل مايرغب من صنوف العلوم والآداب ، وكثر بها عديد الفحول من العلماء والادباء ، لما كانت عليه قرطبة في ذلك العهد وهي يومئذ حاضرة الاندلس في كل شيء من علم وأدب ، وشارة ملك ، وجمال صناعة ، ونعمة عيش .

قضى ابن زيدون في هذه الحال بعد موت ابيه نحو ست عشرة سنة لانعرف بالتفصيل كيف قضاها ، ولكننا نستظهر انه كان في أُخرياتها معدوداً من شبان قرطبة البارعين في العلم والادب المشاركين بآرائهم ومساعيهم في شبوب نيران الثورة الكبرى في قرطبة تلك الثورة التي ابتدأت بزعزعة اركان الدولة الأُموية ومنازعة دولة بني حمود العلويين لهم في الاختصاص بالملك ، وانتهت بانقراض الدولتين وتقسيم البلاد بين ملوك الطوائف - وقديماً وحديثاً كانت الثورات منبتاً خصباً لعظماء الرجال وارباب المزايا كما قد تكون مورداً لحتوفهم ، ولكلٍ ماقدر له ان سعادة اوشقاء فنرى ابن زيدون يظهر في فتنة قرطبة من كبار اهل الرأي والمشايعين لآل جهور في اختصاصهم بامارة قرطبة ، بل سماه الفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان « زعيم الفتنة القرطبية ، ونشأة الدولة الجهورية » وآل سعيه وسعي من على شاكلته الى انتخاب الوزير ابي الحزم جهور بن محمد ابن جهور حاكماً على اهل قرطبة ضابطاً لامورها حتى يتفق الناس على اقامة خليفة من الامويين ، ولكنه بدهائه ومظاهرة أمثال ابن زيدون أثّل ملكه وثبّت قدمه في الإمارة وان لم يتّسم بها ، واختصّ من أنصاره بطانةً في هيأة الوزراء والمشيرين ، وعلى رأسهم مترجمنا .

قامت دولة ابي الحزم جهور سالكة طريق الحزم والعدالة ، والتظاهر بالتمسك بآداب الدين ، والرجوع بالناس الى آداب السلف والصالحين : قال ابن خلدون في ذلك « ولم يتحول عن داره الى قصر الخلافة ، وكان على سنن اهل الفضل يعود المرضى ويشهد الجنائز

ويؤذن عند مسجدهم بالربض الشرقي ، ويصلي التراويح ولا يحتجب عن الناس » وقال التيمي صاحب المعجب في تلخيص أخبار المغرب « وكان ابو الحزم هذا يشهد الجنائز ويعود المرضى جارياً على طريقة الصالحين ، وهو مع ذلك يدبر الامور تدبير الملوك المتغلبين ، وكان آمناً وادعاً ، وقرطبة في عصره حرمٌ يأمن فيه كل خائف . واستمر امره على ذلك الى ان مات في غرة صفر سنة ٤٣٥ هـ فكانت مدة تدبيره منذ استولى الى ان مات اربع عشرة سنة وأشهراً ثم ولي ما كان يتولى من امر « قرطبة بعده ابنه ابو الوليد محمد بن جهور فجرى في السياسة وحسن التدبير على سنن ابيه غير مخل بشيء من ذلك الى ان مات في سلخ شوال من سنة ٤٤٣ هـ .

فدولة هذا شأنها من ملازمة الجد وايثار الضبط وبث الامن والتصون عن مواطن الريب والخلاعة لا تطيق العبث بملكها وفرط الدالة عليها حتى من الداعين اليها والحاطبين في حبلها ، اذ سيئاتهم محسوبة من مثالبها . ولم يكتف ابن زيدون وهو بعدُ شاب لم يبلغ الثلاثين باستغلال مسعاه في انشاء هذه الدولة بارتقاء منصب الوزارة والسفارة ، والانابة عن ابن جهور في مهمات الامور ، حتى سولت له دالته على مولاه ان يستغله ايضاً في مقارفة اللذات وغشيان مجالس الشراب ومخادنة الحسان ، فوجد اعداؤه في قناته مغمزاً في رأي جهور ، فأوغروا عليه صدره ، وروَّج كيدهم له استهتاره بامرين يستدعيان الحذر .

الاول : انه أعلن التهتك والاستهتار بحب الاديبة الطائرة الصيت في ذلك العهد بالادب والجمال وحسن المحاضرة «ولادة» بنت المستكفي الخليفة الأُموي ، وكانت لها بقرطبة مجالس أُدب ومحاضرة يحتشد فيه أُدباء قرطبة وشعراؤها وابناء الوزراء السابقين والاعيان المتقدمين ، تطارحهم الادب والاخبار ، وتبادلهم في الملح والاشعار ، وكلهم معجب بادبها وجمالها جاهد في نيل الحظوة عندها والتقرب منها ، فاستبق الجميع الى قلبها وعليهم اديبنا ابن زيدون ، وهو يومئذ وزير الدولة الجهورية . فيظهر ان جهوراً أوجس خيفةً من حشد يجتمع في بيت من بيوت الخلافة الاموية ان يصير امره الى كيد لدولته وألب على سلطانه ، وخاصة اذا كان أقربهم الى الوقوع في الشرك وزير دولته وأقدرُهم على افساد القلوب عليه . ورأى مزاحموه في حب «ولادة» وحاسدوه على مكانه من وزارة جهور ان الفرصة في ابن زيدون ممكنة فسعوا به اليه ، وجعلوا ظنه يقيناً .

وصادف ذلك دالة من ابن زيدون عليه لقديم بلائه عنده ، وسعيه في قيام دولته فعاجله بالحبس ، وتغدى بابن زيدون قبل ان يتعشى هو به .

او أن جهوراً انكر من ابن زيدون لهوه وخلاعته وانقطاعه الى ما يكون تغاضيه عنه قادحاً في دولته جالباً على سمعة المعرة وسوء القالة ، فحسم الداء قبل استشرائه .

الثاني : ان جهوراً كان يسفره الى ملوك الطوائف ، وزعماء الموالي العامريين من البربر والسودان ، المنتزين على أملاك الخلافة في كثير من المشكلات السياسية ، فيكلل مسعاه بالنجاح ، وتقع بلاغته في رسائله اليهم من نفوسهم موقعاً ، فحسدوا جهوراً عليه ورغب كل في استمالته اليه ، وشد أزر دولته به ، كما رأينا ذلك في كل دولة عظيمة اقتسمت رقعتها ملوك طوائف وزعماء شيع ، فكانت كل دولة منها تجهد ان تجتذب الى دعوتها فحول الرجال ، وتبذل النفيس في اصطناع العلماء والشعراء والكتاب ، تجعلهم عتاداً لها وزينة لملكها : كالدول التي تألفت من تشتت شمل الدولة العباسية : من الدول البويهية والسامانية والحمدانيــة والإخشيدية والفواطم ، وكالدول التي انعقدت من انحلال دولة السلجوقيين ، ودولة صلاح الدين الايوبي ، ودولة الموحدين بالمغرب ، وفي كل ذلك نرى العلماء والشعراء وكل ذي مزية يُدل على سلطانه بنفاق سوقه ، ويهدده بالانضواء الى غيره ، وفي حياة المتنبي والبديع والخوارزمي والشريف الرضي وابن نباتة السعدي وابن سينا والفارابي والرازي وابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب وغيرهم شاهد صدق لذلك .

فيظهر ان ابن زيدون كان يدل على مولاه بسابقته عنده ، ومكانه من ناموس ملوك الطوائف كما أشار بل صرح بذلك في كثير من شعره ونثره ، حتى في رسائله التي استشفع بها وان اجتماع كلتا الحسنيين في خادم دولة كاف لإيغار صدر المتفرد بها بمجد الملك والعظمة ، فهو لا يطيق من مؤسس مملكته دالته عليه ، ويغار على سلطته معه من مزاحمته فيها ، فيتعجل نكبته : كما فعل عبد الملك بن مروان بعمرو بن سعيد ، والمنصور العباسي بابي مسلم الخراساني وعبد الرحمن الداخل بمولاه بدر ، وعبيد الله الفاطمي بابي عبد الله الشيعي الداعية ، وغير هؤلاء كثيرون ممن لا يحصون عدداً .

نكب جهور وزيره ابن زيدون وسجنه سجن اعتقال مرفهاً عليه في العيش ومكاتبة الناس

ثم حرد عليه لسبب ما وجعله في سجن اللصوص والمجرمين . ولعل ذلك كان بسبب الرسائل التي كتب بها الى الناس والى مخدومه يعدد بها أعماله في توطيد امر جهور ويمتن بذلك عليه .

لبث ابن زيدون في السجن بضع سنين ، ولكن كم كانت مدتها ؟ ومتى كان مبدؤها ؟ اما الاول فيجيبنا هو عليه بقوله من قصيدته الطائية البليغة :

سنون من الايام خمس قطعتها اسيراً وان لم يبد شد ولا ربط

واما الثاني فيجيبنا هو ايضاً عليه بقوله من قصيدته الرائية التي كتب بها من السجن الى ابي الحزم جهور :

لم يطو برد شبابي كبرة وأرى برق المشيب اعتلى في عارض الشعر

قبل الثلاثين اذ عهد الصبا كثب وللشبيبة غصن غير مهتصر

ونحن نعلم ان انقطاع دعوة بني أمية من قرطبة كان سنة اثنتين وعشرين واربعمائة ، ونعلم ان مولد ابن زيدون كان سنة اربع وتسعين وثلاثمائة ، فإذن كان بدء خدمته في دولة آل جهور وهو في الثامنة والعشرين من عمره .

واذا قدرنا انه بعث بهذه القصيدة في مبدإ اعتقاله كما هو الظاهر اذ قد صرح فيها بانه لم يبلغ الثلاثين كانت مدة خدمته لآل جهور لا تزيد على سنتين ، وكان بدء اعتقاله في نهاية سنة اربع وعشرين واربعمائة ، او اول خمس وعشرين واربعمائة .

لبث ابن زيدون في السجن خمس سنين استعطف فيها اباالحزم جهوراً واستشفع عنده بابنه ابي الوليد محمد بن جهور ، وكان اليفه وصديقه من قبل ، وبغيره من الرؤساء ووجوه قرطبة ، وبث اليه واليهم شكواه بمدة قصائد أبدعها ، ورسائل استنفد فيها جهده ، ومن ذلك رسالته الجدية الشهيرة ، فما ألانت منه قلباً ولا ثنت له عطفاً .

فأعمل الحيلة في الفرار من سجنه فتم له ذلك ، وتوارى مدة في قرطبة والزهراء حتى سكن غضب جهور عليه بشفاعة ابنه ابي الوليد محمد بن جهور وكثير من الفضلاء ، وأذن له في الظهور ، ولكنه لم يجد له مساغاً من نفوس آل جهور ومن نفسه ان يستعيد عندهم حظوته الاولى ومنصبه القديم ، فرغب في عرض ادبه وكفايته على ملوك الطوائف ، وتنقلت به الاحوال من دولة الى أخرى حتى القى العصا في مملكة آل عباد سنة ٤٤٤ .

وهنا تبتدئ حياته الثانية بعد فراره من السجن وخدمته غير آل جهور . وقبل ان نذكر شيئاً عن حياته الثانية نرى انه من المناسب ذكر شيء من اخباره مع ولادة .

اما ولادة هذه فأميرة أديبة أموية . ومع بعد صيتها جاءنا اسم ابيها مختلفاً فيه فقد كُتب في قلائد العقيان غير مرة انها بنت المهدي من الخلفاء المتخلفين الذين ولوا أزماناً قصيرة زمن الفتنة البربرية . وكذلك كُتب في تاريخ المعجب للتميمي ، وكُتب في نفح الطيب نقلاً عن ابن بشكوال انها بنت المستكفي من اولئك الخلفاء . غير انا نرجح الأخير ، ونظن ان ذكر المهدي سهو من الفتح او تحريف من نساخ قلائده وان كان تحريف المستكفي الى المهدي غريب لتباعدهما في الرسم فان الاوصاف التي ذكرها ابن بشكوال وغيره في ابيها تنطبق على المستكفي اكثر من انطباقها على المهدي ويضيق بنا المقام عن ذكر النصوص الدالة على هذا الترجيح .

وفيها يقول ابن بشكوال في الصلة :

« كانت أديبة شاعرة جزلة القول حسنة الشعر ، وكانت تناضل الشعراء وتساجل الادباء وتفوق البرعاء ، وعمرت طويلاً ولم تتزوج قط ، وماتت لليلتين خلتا من صفر سنة ثمانين واربعمائة ، وقيل اربع وثمانين رحمها الله تعالى . وكان ابوها المستكفي بايعه اهل قرطبة لما خلعوا المستظهر .... وكان خاملاً ساقطاً . وخرجت هي في نهاية من الادب والظرف ، حضور شاهد ، وحرارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر . وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يعشو اهل الادب الى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها وعلى سهولة حجابها وكثرة منتابها . تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم انساب ، وطهارة أثواب ، على انها اوجدت للقول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها اهـ » .

وفيها يقول صاحب المغرب :

« انها بالمغرب كعلية بالمشرق الا ان هذه تزيد بمزية الحسن الفائق . واما الأدب والشعر النادر وخفة الروح فلم تكن تقصر عنها ، وكان لها صنعة في الغناء . وكان لها مجلس يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها، فيمر فيه من النادر وانشاد الشعر كثير لما اقتضاه عصرها من مثل ذلك اهـ » .

أحب ابن زيدون هذه الاديبة حباً مفرطاً جرعليه وعليها سوء القالة على عفافها وصيانتها . وكانا يتهاجران ويتهاجيان حتى بلغ بها الهجو حد الاقذاع ، ومع ذلك صرح غير مرة في شعره بانها لا تنال ، وان وصالها في منزلة المحال . وفيها يخاطب الوزير اباعامر ابن عبدوس مزاحمه في حبها في نوبة هجر منها لابن زيدون وصفو لابن عبدوس :

وغرك من عهد ولادة سراب تراءى وبرق ومض
هي الما يعز على قابض ويمنع زبدته من مخض

وابن عبدوس هذا هو الذي كتب اليه ابن زيدون رسالته الشهيرة الهزلية على لسان ولادة جواباً لرسالة بعث بها اليها مع عجوز يستريث وصلها ، ويستعطف قلبها ، وسنصفها بعد .

وتتبع اخبار ولادة وشعرها في الغزل والهجو والتماجن يخرجنا عما قصدنا اليه . وكل ماينبغي ان نشير اليه هنا هو تأثير حبها في ابن زيدون : شعره وخلقه . اما في شعره فذلك الغزل الرقيق ، لا يصدر الاعن حب عميق ، واما في خلقه فقد خلع فيها العذار ، وجانب الوقار ، وعادى الأحرار ، وقامر بمنصبه وجاهه جد قمار ، واستعقب الحبس والاسار . وسنأتي بعد على طرف من غزله فيها وتشوقه اليها .

واذا قدرنا انه فر من السجن سنة تسع وعشرين واربعمائة فعلى اي حال قضى هذه الاثنتي عشرة سنة ، وما الدول التي اتصل بها ؟ هذا السؤال يجيبنا عليه الفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان بجواب مجمل ولفظ مبهم فيقول :

« ولم تزل الايام تدنيه وتبعده ، وتسوؤه وتسعده ، وتقذف به الى كل نازح ، وتطرف أمله بعين اللاعب المازح ، حتى أحلته بلنسية وهلال ذمائه كما أقمر ، وغصن نباهته يانع قد أثمر ، وبنو عبدالعزيز غرر ملكها ، ودرر سلكها ، يفيضون بحور الندى ، ويومضون في كل منتدى ، فحل منهم محل الحيا في الكؤوس ، ووقع منهم مواقع البشائر في النفوس . وأقام بين مبرة تواصله ، ومسرة تغازله ، ومكارمة تغاديه . ومجاملة كرائح القطر وغاديه . فلما انفصل ، وحصل فيما حصل ، تذكر بعد برهة ذلك العيش ونوره قد صوح ، وغصن سنه قد دوح . فلم يجد الا له طيبا ، ولم يبصر غير فننه غصناً رطيباً ، فكتب الى ابن عبد العزيز :

راحت فصح بها السقيم ريح معطرة النسيم
مقبولة هبت قبو لا فهي تعبق في الشميم
أفضيض مسك ام بلنـ ـسية لرياها نميم
بلد حبيب أفقه لفتى يحل به كريم
إيه ابا عبد الالـ ـه نداء مغلوب العزيم
ان غيل صبري من فرا قك فالعذاب به اليم
او انبعثك حنينها نفسي فانت لها قسيم
ذكرى لعهدك كالسها د مسرى فبرح بالسليم
معها ذممت فما زما ني في زمامك بالذميم
زمن كمألوف الرضا ع يشوق ذكراه الفطيم
أيام أعقد ناظري بذلك المرأى الوسيم
فأرى الفتوة غضة في ثوب أواه حليم
الله يعلم انـ ـك من فؤادي في الصميم
ولئن تحمل عنك في جسم فعن قلب مقيم
ثم السلام تبلغنـ ـه بقلب مهديه السليم

وفي ايام مقامه ببلنسية وتشوقه الى بلاده قال :

غريب بارض الشرق يشكر للصبا تحملها منه السلام الى الغرب
وما ضر انفاس الصبا في احتمالها سلام فتى يهديه جسم الى قلب »

وبنو عبدالعزيز الذين يذكرهم صاحب القلائد هم من أحفاد المنصور بن ابي عامر اقام مواليهم من البربر دولة لهم في شرقي الاندلس وهي المعروفة بدولة العامريين ومواليهم من البربر ، وكان للمنصور عبدالعزيز بن عبدالرحمن الناصر بن المنصور بن ابي عامر منهم دولة عتيدة دامت نحو ٤٠ سنة زمن الثورة وبعدها .

ولم نعلم المدة التي خدمهم فيها ابن زيدون وانما نفهم من سرد هذه النبذة انه غادر بلنسية لا عن موجدة عليه من ملوكها ، وانما هو الشوق الى وطنه غربي الاندلس جره الى ان خدم ملك الغرب المعتضد بن عباد .

« حياته الثانية »

خدمته آل عباد — لم يطب لابن زيدون عيش في خدمة العامريين بشرقي الاندلس لبعدها عن وطنه ولأنه رأى ان لا أمل في رجوعه الى قرطبة الا اذا انتزعها منهم ملك يعيش في كنفه من ملوك الطوائف . فلم يصدق ظنه الا على ابن عباد ملك اشبيلية . وكان أشدهم شكيمة وأوسعهم رقعة ملك . فأخذ يرتاد امور إشبيلية ويتعرف إمكان الرحلة اليها بمكاتبة عظمائها وامتداح ملكها . ولما وجد الفرصة موانية رحل اليها . وبالغ المعتضد في الاحتفاء به . فاتخذه وزيراً وسميراً وسفيراً على شدة بطشه وجبريته وفتكه بكل عظيم يرتاب فيه من عظماء دولته حتى بولده الاكبر وولي عهده . فعجب الناس من ابن زيدون كيف اهتدي الى مداراة هذا الجبار واستدامة مودة له . وكيف عجز عن استصلاح حاله مع ابن جهور على صلاحه وعدله . وكأنهم غفلوا عن ان الدهر نعم المؤدب .

ولم يزل عند المعتضد اثير المنزلة . موفور الغبطة . مقبول المشورة في الخير والشر . فأكثر عنده من الكيد لمنافسيه في الدولة والوقيعة بهم ليخلو له وجهه . ويخلص له وده . وفتك المعتضد بتدبير ابن زيدون بكثير من أعيان الدولة . وبقي مخشي الجانب حتى مات المعتضد وخلفه ابنه المعتمد فرعى فيه ثقة ابيه وأخلص له ابن زيدون نيته ونصيحته . ومازال يغريه بملك قرطبة ويراسل أعيانها ليستميل جانبهم الى المعتمد حتى نجح سعيه . وساق المعتمد جيشه الى قرطبة . فانتزعها من آل جهور وضمها المعتمد الى مملكته وولى عليها ابنه سراج الدولة اسماعيل ففاجأه ثائر بها يدعى ابن عكاشة فقتله . فكر المعتمد عليها واستعادها .

وعاش ابن زيدون في دولة المعتمد محفوفاً برضاه منظوراً بعين ثقته . وكاد له بقية خصومه ومنافسيه عند المعتمد مراراً فلم يسمع لقولهم وأمعن في تحقيرهم وهجوهم . ويقال ان إلحافهم في الوشاية وقع بآخرة من نفس المعتمد . ولكن منية ابن زيدون عاجلته باشبيلية سنة ٤٦٣ هـ . وخلفه ابنه ابو بكر في وزارته للمعتمد كما ذكرنا من قبل . ومن الغريب ان الصفدي وهو مؤرخ كبير بعد اذ ذكر ان وفاته كانت سنة ٤٦٣ هـ وانه دفن باشبيلية ناقلاً ذلك عن شيخه الذهبي العلامة المؤرخ الثقة عاد ونقل خطأ عن ابن بشكوال انه مات سنة ٤٠٥ هـ

في مدينة ألبيرة ونقل الى قرطبة ودفن بها ومولده سنة ٣٥٤ هـ . ثم لم يكتف بهذا الخطأ حتى عقب عليه بقوله « قلت ولعل الذي قاله ابن بشكوال الصواب على ان ابن بسام قال في الذخيرة توفي سنة ٤٦٣ وكان يخضب بالسواد » . مع انه لو راجع نفسه قليلاً لوجد انه في سنة ٤٠٥ لم تكن دولة بني أمية ولا دولة بني حمود قد زالتا من الوجود . فكيف كانت توجد دولة بني جهور وزراء العامريين ودولة بني عباد وزراء الحموديين وهما الدولتان اللتان خدمهما ابن زيدون . وأغرب من هذا ان بعض من كتب في حياة ابن زيدون من العصريين جعل هذا خلافاً في موته ومكان دفنه مع انه نفسه نقل في اول ترجمة ابن زيدون ان الذي مات سنة ٤٠٥ بالبيرة ونقل الى قرطبة ودفن فيها هو والد ابن زيدون . والذي جر الى هذا الخلط بين كليهما ان ابن خلكان بعد ان ذكر وفاة ابن زيدون على صحيحها قال : « وذكر ابن بشكوال في كتاب الصلة اباه وأثنى عليه وقال : كان يكنى ابابكر وتوفي بالبيرة سنة خمس واربعمائة ونقل الى قرطبة فدفن بها . وكانت ولادته سنة اربع وخمسين وثلاثمائة وكان يخضب بالسواد » .

فيظهر ان الصفدي صحف فقرأ لفظ (أباه) بالموحدة (اياه) بالمثناة ولم يفطن لوقائع التاريخ وجاراه معاصرنا فنقل هذا الخلاف الموهوم ولله في خلقه شؤون .

اخلاق ابن زيدون — شب ابن زيدون على سعة علمه وغزارة ادبه وكرم محتده مولعاً بالطرب مشغوفاً بمبادرة اللذات ومعاقرة الشراب ومخادنة القيان ومؤانسة الحسان كبير الأثرة بالتفرد من ذلك بكل مرغوب . فجرّ ذلك عليه حب ولادة ومنافسة دهاة الادباء في الاختصاص بها وعرض نفسه للهلاك مراراً من جرائها .

ولكثرة ثقته بنفسه لما يفطن لكيد خصومه عند ابن جهور حتى وقع في شرك نكبته . فخرج من السجن ناقماً على النظراء والمنافسين متحيناً الفرصة لتعجيل النكاية بهم قبل ان يعاجلوه . وكانت نكبة جهور درساً بليغ الاثر في نفسه استفاد منه بقية حياته فعلمته حسن المداراة وتملق الرئيس فنجا من يد ذلك السفاح عباد المعتضد بل جعله سيفاً ماضياً يقطع به أعناق خصومه . وكان ابن زيدون مع نزقه واستهتاره في شبابه وغدره باصحابه

عالي الهمة . لا يقنع من دولة ملك الا باقتراع منصب وزارته . والاخذ بناصية منادمته ومشاورته .

علمه وأدبه وبديهته — نشأ ابن زيدون في عصر اختل فيه نظام ملك بني أمية فجأة بثورة البربر المشؤومة . وقامت هذه الثورة وآثار الحضارة في كل شيء من علم وادب وفنون ضاربة بجرانها في قرطبة . فكانت غاصة بالعلماء والفقهاء واللغويين والشعراء والمحسنين في كل صناعة ممن نبتوا في عصر المنصور المنيء . فصادف ابن زيدون من نهل من علمهم وكرع من أدبهم . وكان ابوه وعشيرته من اهل الفقه والادب فلم يكن اقباله على ما اخذ به أهلوه انفسهم بدعاً من نفسه . وانما جرى في مضمارهم فبذهم علماً وادباً . وبعد صيت وعلو همة .

« للبحث صلة »

مصر (القاهرة) : احمد الاسكندري
عضو المجمع العلمي العربي

كتب الادب القديمة والحديثة

—«×»—

خزانة اللغة العربية مكتظة بكتب الادب القديمة حتى يخيل الى المنقب والباحث انها ليست في نوع من العلوم أغنى منها في هذا النوع لان المتقدمين كتبوا كثيراً في هذا الفن وافتنوا فيه افتناناً يدل على جلالة هذا العلم عندهم وشدة اهتمامهم به ورسوخهم فيه ·

ولكن أسلوبهم في هذا التراث العظيم الذي خلفوه لاعقابهم بالامس غير ما يتطلبه أعقابهم اليوم من حل (تحليل) لنفسية الاديب كاتباً كان ام شاعراً ام خطيباً · ودرس لأسلوبه واستنباط لخصائصه المختلفة من بيئة ووراثة وتجية وتحميص لاغراضه وأخيلته وبيان ماجوّد فيه ومالم يجوّد الى غير ذلك مما أودعه آثاره التي تركها ذخيرة لمن بعده ·

ان طالب الأدب على هذا النمط الحديث اذا حاول درس شيءٍ ما تقدم وأراد الرجوع الى كتاب من كتب الأدب القديمة لينقب فيه عن ضالته التي ينشدها اعترضه في طريقه مالم يكن في حسابه من العقبات التي تجعل غايته بعيدة المنال ·

فهو اما ان يرى أمامه بحراً يعب عبابه · من سرد الروايات واختلاف طرقها وتعدد وجوهها وتمحيصها فلا يكاد يصل الى اقتناص ما يحاوله الا بشق الأنفس ناهيك ما يمر به في طريقه من اسهاب فيما لاعلاقة له بالموضوع الذي يبتغيه · وربما نسي ما يعنيه اثناء اجتيازه مالا يعنيه ·

واما ان يسقط به الجد على كتاب سلك سبيلاً من الايجاز لا يتمكن معه من الإلمام بشيءٍ ما يلتمسه الا كحسوة الطائر ·

واما ان يصطدم بعقبات صعبة المرتقى من الكلمات الغريبة والعبائر العويصة بحيث لايقطع واحدة منهن حتى يستقبل اوعر منها سبيلاً واصعب مسلكاً ·

فلا يعتم بعد قليل من الزمن ان تملك عليه السآمة سبيله او ينبخ عليه الاعياء باعبائه وتضمحل رغبته فيهيم في مجهل لا يدري مخارجه من موالجه .

وهو بعد هذا كله اذا ظفر بشيء مما يبتغيه فانما يظفر به شعاعاً في مطاوي الصحائف وتضاعيف السطور كما يجد المحصل قطع الفضة في المعدن ولا يعلم الا الله ما يكابده في تنقيتها وتصفيتها ثم جمعها وسبكها ثم افراغها في القالب الذي يود افراغه فيه ثم عرضها بعد ذلك على أذواق تختلف في استحسانها واستهجانها .

وقد كنا نود ان نطيل القول في علل هذه المآخذ وما يؤخذ به ونضيف الى ذلك ما نراه من الأدوية الناجعة لها .

لولا اننا رأينا هذه الكتب على علاتها خيراً مما تخرجه لنا قرائح الادباء في هذا العصر وتخطه أقلامهم فان الباحث الممعن في الكتب القديمة يجد من تحقيق في المسائل وتثبت في الرواية والنقل وروية في الحكم وتمحيص في المباحث فالأدلة ووثوق باللغة وصحة في الضبط ما لا يجد معشاره في خير ما أخرجه العصر الحاضر للناس من كتب هذا الفن .

وان الباحث في الكتب الحديثة ليرى من جمال الوضع ورقة الأسلوب وصفاء الديباجة والقرب ما يتطلبه المتأدب في هذا العصر ، ما يصبي القلوب ويخلب الالباب ويروع المسامع ولكنه لا يلبث ان يجد تحت هذا الطلاء المزيف الخلاب . من التهاون بالضبط والتثبت . وقلة العناية بالتمحيص والتحقيق أضعاف ما وجده من روعة التعبير وجمال الأسلوب .

ومن انكر النكر ان ترى كتب المتقدمين يتولى طبعها ونشرها فريق من المتأخرين فيصدّرها بمقدمات طافحة بتقريظ نفسه والثناء على ما استنفده من المجهود وكابده من المشاق في تنقيحها وتهذيبها وشرحها وتصحيحها وو الخ . حتى يخيل اليك ان هذا الكتاب براء من كل شائنة وشائبة ثم لا تكاد تقرأ بضعة عشر سطراً حتى تجد من شواهد الإهمال وأدلة التهاون ، والهفوات الفاضحة والخطيئات الواضحة ، ما لا يسعك معه تصديق شيء مما شحنت به تلك المقدمات الطويلة ولا الوثوق بشيء من ذلك الكتاب .

ولعل القارئ يكبر ما نقول او يعده ضرباً من المبالغة والتهويل أو نوعاً من التحامل بغير حق ولكننا نورد له مثالين يتبين منهما ان التأليف والطبع اصبحا في هذا العصر

الحديث ضرباً من الاتجار وان الكتب أصبحت كالسلع يحرص فيهـا على اكتساب المال اكثر مما يحرص على خدمة العلم ·

المثال الاول : كتاب تاريخ الادب العربي للاستاذ الكاتب المجيد الطائر الصيت السيد احمد حسن الزيات فانه والحق يقال أبدع ماخطته انامل كاتب في هذا الفن للمتأدبين في هذا العصر ·

فقد يروعك منه جمال أسلوبه وعذوبة ألفاظه وحسن تأنقه ولا تكاد تجد فيه مغمزاً لغامز الا ان الاستاذ مؤلفه على جلالة فضله وغزارة ادبه بخسه حقه من التصحيح والتثبت في اختيار النماذج فجاءت فيه هنات كالبثرة في وجه الحسناء والكلف في صفحة البدر ·

المثال الثاني : كتاب زهر الآداب للحصري قام بطبعـه ونشره وتنقيحه وتصحيحه وشرحه وو ··· الدكتور زكي مبارك · وهذا الكتاب تغني شهرته في عالم الأدب عن الإطناب في التعريف به · وقد جاء بعد الطبع والتنقيح والتصحيح غاصاً بالخطإ المشين مكتظاً بالغلط المزري به · وقلما تمر بالقارئ صفحة لا يرى في خلالها خللاً اولوثة تجعل بينه وبين المعنى المراد سداً منيعاً · ورب شرح قلب المعنى من حسن الى قبيح وكان كالجرح الممد في صفحة الوجه الصبيح وستأتي أدلة ذلك وشواهده ·

وقد آثرنا البداءة بالكلام في كتاب « تاريخ الادب » السابق ذكره وجعلنـا القول فيما رأيناه فيه على نوعين :

الاول في النماذج التي أوردها لشعراء عصر واصحابهـا من رجال عصر آخر و يندمج في هذا النوع بعض الخطأ التاريخي ·

والثاني في بيان ماجاء من الكلم مضبوطاً بشكل مخالف لما عليه أئمة اللغة واعلامها و يندرج فيه بعض الابيات التي نسبها الى شخص وهي لغيره ·

النوع الاول وقد رتبنا الكلام فيه على ترتيب العصور في الكتاب ليسهل الرجوع اليه ·

« العصر الجاهلي »

١ — قال عند كلامه في الشعر عند العرب انه ديوان علومهم وحكمهم وسجل وقائعهم وسيرهم ·· وكانوا كلهم يروونه وجلهم يقرضونه عفو البديهة وفيض الخاطر الخ · وذكر في الذيل ان من الشعراء من كانوا يروون وينقحون فسموهم عبيد الشعر لذلك كزهير

وعدي بن الرقاع ثم اورد بيتاً لسويد بن كراع . ومن البين ان سياق القول في الشعر عند العرب الجاهليين بدليل قوله عقب ذلك حتى روى عنهم من الشعر الوجداني في قرن ونصف مالم يرو عن أمة الخ . وعدي بن الرقاع شاعر أموي كان مقدماً عند الوليد بن عبدالملك . وكان ينزل الشام وقد عده ابن سلام في الطبقة السابعة من شعراء الاسلام . وقال ابن قتيبة في الشعر والشعراء انه من احسن من وصف ظبية وولدها وهو القائل يصفها :

تزجي اغن كأن ابرة روقه فلم أصاب من الدواة مدادها

وترجمته في الاغاني وشواهد المغني للسيوطي . وذكر صاحب الاغاني ان جريراً دخل على الوليد وعنده عدي بن الرقاع الى آخر القصة .

٢ — وذكر في نماذج الشعر الجاهلي من قول المرقش الاكبر :

ان تبتدر غاية يوماً لمكرمة تلق السوابق منا والمصلينا

وقد نسبها ابن قتيبة في الشعر والشعراء الى نهشل بن حري وصدّرها بقوله :

انا بني نهشل لا ندعي لاب عنه ولا هو بالابناء يشرينا

ونسبها في شرح الحماسة الى بشامة بن حزن النهشلي وكذلك المبرد في الكامل وصاحب لسان العرب . وقد عد ابن سلاّم نهشلاً في الطبقة الرابعة من الشعراء الاسلاميين والبيت الاول يشهد انها ليست للمرقش .

٣ — وذكر في نماذج هذا العصر ايضاً ابياتاً وهي :

اطل حمل الشناءة لي وبغضي وعش ما شئت فانظر ما تضير الخ

ونسبها الى عنترة الاخرس من طيء .

وفي الاغاني انها لعبد الله بن الحشرج على الاصح وقد كانت وفاته نحو سنة ٩٠ .

٤ — وذكر في نماذج هذا العصر قصيدة للصمة بن عبد الله بن طفيل مطلعها :

حننت الى ريّا ونفسك باعدت مزارك من ريّا وشعبا كما معا

والصمة هذا شاعر اسلامي من شعراء العصر الأموي كما ذكر ذلك صاحب الاغاني والبغدادي في الخزانة وصاحب معاهد التنصيص .

٥ — وذكر ابياتاً وهي :

سلي البانة الفيناء بالاجرع الذي به البان هل حييت اطلال دارك الخ

ولم يسم قائلها وهي لعبيد الله بن الدمينة .
ثم أردفها بقصيدة لابن الدمينة المذكور مطلعها :

الا يا صبا نجد متى هجت من نجد   لقد زادني مسراك وجداً على وجد الخ

وابن الدمينة شاعر اسلامي كما في شرح شواهد المغني للسيوطي وغيره .
٦ — وذكر في نماذج هذا العصر ابياتاً وهي :

هواي مع الركب اليمانين مصعد   جنيب وجثماني بمكة موثق الخ

ونسبها الى جعفر بن حلبة الحارثي . والصواب ابن علبة وهذا الشاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية كما صرح بذلك صاحب الاغاني والسيوطي وغيرهما .
٧ — وذكر ايضاً في نماذج العصر الجاهلي بيتين للمؤمل الحاربي اولها :

وكم من لئيم ود اني شتمته   وان كان شتمي فيه صاب وعلقم

والمؤمل المحاربي من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية وكانت شهرته في العباسية اكثر لانه كان من الجند كما ذكر ذلك صاحب الاغاني . وقال في نكت الهميان ان المؤمل توفي في حدود التسعين والمائة وهو القائل في مسجد الكوفة يوم توفي المهدي (مات الخليفة ايها الثقلان) فقال جماعة هذا أشعر الناس . ثم قال (فكأنني أفطرت في رمضان). فضحك الناس به .
٨ — وذكر في نماذج هذا العصر ابياتاً لشبيب المري اولها :

واني لترّاك الضغينة قد بدا   ثراها من المولى فلا استثيرها الخ

وشبيب هذا شاعر اسلامي من شعراء الدولة الأموية كما صرح بذلك صاحب الاغاني . وقد عده ابن سلام الجمحي في الطبقة الثامنة من الشعراء الاسلاميين .
٩ — وذكر في نماذج هذا العصر بيتين عزاهما الى سالم بن وابصة الاسدي اولها :

اذا ما أتت من صاحب لك زلة   فكن انت محتالاً لزلته عذرا

وسالم هذا من شعراء الدولة الأموية قدم دمشق وسكنها وولي الرقة مدة طويلة . ومات في آخر خلافة هشام كما ذكر ذلك ابن عساكر في تاريخه .

« العصر الأموي »

١٠ — وذكر في نماذج العصر الأموي أبياتاً لعمرو بن الاطنابة اولها :

أبت لي همتي وأبى بلائي　　وأخذي الحمد بالثمن الربيح　الخ

وعمرو بن الاطنابة جاهلي كما صرح بذلك صاحب الاغاني والسيوطي · وكان ملك الحجاز ·

« العصر العباسي »

١١ — وذكر في نماذج العصر العباسي لسان الدين بن الخطيب وقد كانت ولادته سنة ٧١٣ والعصر العباسي ينتهي سنة ٦٥٦ فالصواب ذكره في العصر الذي يليه ·

١٢ — وفي صفحة ٢٧٥ ذكر ان ابن بابشاذ توفي سنة ٤٩٩ وقد ذكر ابن خلكان ان وفاته سنة ٤٦٩ ·

١٣ — وذكر في ص٣٠٦ ان البخاري خرج الى مكة سنة ٤١٠ في حين انه توفي سنة ٢٥٦ فالصواب انه خرج سنة ٢١٠ ·

١٤ — وذكر في ص٣٢٥ ان الفرنج ابتلعوا دويلات الاندلس لقمة سائغة سنة ٨٩٨ﻫ ثم قال بعدها : ودالت دولة الفاطميين والمصريين في مصر والشام فوقعتا في يد الأمويين ثم صارتا الى المماليك وظلتا تحت سلطانهم حتى دخلتا في حكم الأتراك العثمانيين سنة ٩٢٣ · ولعل الأمويين محرفة عن الايوبيين ·

وذكر في ص ٢٩٣ ابن مالك النحوي في نحاة العصر العباسي وقد كانت وفاته سنة ٦٧٢ ·

وذكر في ص٣٠٤ في الكلام على التاريخ ابا الفداء وابن الطقطقي وابن خلدون وابن العبري · وكلهم ممن توفي بعد انقضاء العصر العباسي فالاول توفي سنة ٧٣٦ والثاني سنة ٧٠٢ والثالث سنة (···) والرابع سنة ٦٨٥ ·

النوع الثاني :

١٥ — ذكر في ص ١٨ · عذيرُك مَن خليلُك من مُراد · ضبط كلاً من عذير وخليل بضم الراء واللام ومن بفتح الميم وقد ذكر هذا الشطر صاحب اللسان · وقال بعده : يقال عذيرَك من فلان بالنصب اي هات من يعذرك فعيل بمعنى فاعل يقال عذيري من فلان اي من يعذرني ونصبه على اضمار هلم معذرتك اياي ·

١٦ — وفي ص٤٣ · قال نشأ زهير بن ابي سلمى بن ربيعة بن رَباح · ضبطها بفتح

الراء والباء الموحدة . والصواب انه بكسر الراء ثم بالياء المثناة التحتية كما ضبطه السيوطي في شرح شواهد المغني والبغدادي في الخزانة والنووي في التهذيب .

١٧ — وفي ص ٤٤ قال : سعى ساعياً غيض بن مرة . والصواب غيظ بن مرة كما في اللسان والاعلم الشنتمري والتبريزي .

١٨ — وفي ص ٧٠ . قال مفصل الآيات مزدوَج الكلمات . ضبط مزدوج بفتح الواو والصواب الكسر لان اسم المفعول لا يبنى من اللازم .

١٩ — وفي ص ٧٤ في الأمثلة التي اوردها من القرآن الكريم . قال وان يُخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده . ضبط يخذلكم بضم الياء والصواب بفتحها .

٢٠ — وفي ص ٧٣ اتأمرون الناس بالبر وتثسون أنفسكم . ورسم تثسون بالتاء المثناة والثاء المثلثة . والصواب وتنسون انفسكم

٢١ — وفي ص ٧٤ . من يعمل سوءاً يجز به ولا يجدُ له من دون الله وليّاً ولا نصيرا . ضبط يجد بالضم . والصواب بالجزم .

٢٢ — وفي الصفحة نفسها . ومن اوفى بما عاهد عليهِ الله . ضبط هاء عليه بالكسر وهاء الله بالضم . والصواب ضم الاولى وفتح الثانية .

٢٣ — وفي ص ٨٥ . قال وقطري بن الفجاءة . ضبط قطري بضم القاف والصواب بفتحها .

٢٤ — وفي ص ٩١ . وهو يعلم ان ضلعها معها . ضبطها بكسر الضاد وفتح اللام . والصواب فتح الضاد وسكون اللام كما في اللسان .

٢٥ — وفي ص ٩٣ . للحارث بن كلدة ضبطها بفتح الكاف وسكون اللام والصواب بفتحهما كما في اللسان وتهذيب الاسماء للنووي . وفي المصباح الكلدة القطعة الغليظة من الارض والجمع كلد مثل قصبة وقصب وبالمفرد سمي . ومنه الحرث بن كلدة الطبيب .

٢٦ — وفي ص ١٠٢ . فذخرت بحور المدح والفخر بالذال والصواب فزخرت بالزاي .

٢٧ — وفي ص ١٠٦ . سبقوا هوِيّ واعنقوا لهواهم . ضبط هوي بكسر الواو والصواب بفتحها كما في لسان العرب بقلب الالف ياء مع ياء المتكلم كما هي لغة هذيل . يقولون هوَيّ وعصَيّ وقفَيّ .

٢٨ — وفي الصفحة نفسها ·

فالعين بعدهم كأن حداقها كحلت بشوك فهي عورا تدمع

ورواية البيت : سملت بشوك فهي عُورٌ تدمع · قال في اللسان فاما قول ابي ذؤيب فالعين الخ · فعلى انه جعل كل جزء من الحدقة اعور او كل قطعة منها عوراء · وهذه ضرورة وانما آثر ابو ذؤيب هذا لانه لو قال (فهي عورا) لقصر الممدود · فرأى ما عمله اسهل عليه وأخف · وابو ذؤيب قائل هذا الشعر مخضرم ·

٢٩ — وفي ص ١٠٧ · وقال الطرماخ بالخاء وصوابه الطرماح بالحاء المهملة ·

٣٠ — وفي ص ١٠٨ · على نضوج فر بجته ولم اجد في اللسان والقاموس والتاج والصحاح والمصباح كلمة النضوج وانما المذكور النضج مصدر نضج واعادها في ص ١٤١ وغيرها ·

٣١ — وفي ص ١٢٢ · حتى ضج الغيورون والزهاد · وغيور يستوي فيه المذكر والمؤنث كصبور وانما يجمع على غُيُر كما نص على ذلك اللسان والتاج والمصباح ·

٣٢ — وفي ص ١٢٣ · لشعر ابن ابي ربيعة (توطة في القلب) بالتاء والصواب نوطة بالنون · وفي الصفحة نفسها (وانما هو تبع نُساء) بضم النون والصواب كسرها ·

٣٣ و٣٤ — وفي ص ١٢٤ · فيُضحِي واما بالعشي فيخصر والصواب فيضحي بفتح الياء والحاء · وفي الصفحة المذكورة واطفئت مصابيح شبت للعشاء وأنور · والصواب شبت بالعشاء · وفيها ايضاً (ونفضت عني النوم اقبلت مشية الحبَاب) ضبطها بفتح الحاء · والحباب بالفتح نفاخات الماء و بالضم الحية ولعله هنا اوفق · وفيها اريتُك ان هذا عليك بضم التاء · وفسرها في الذيل بمعنى خبرني · وهي بهذا المعنى بفتح التاء كما نص عليها صاحب اللسان ·

٣٥ — وفي ص ١٢٧ ·

بئس الصحاب وبئس الشرب شربهم اذا جرى فيهم المزاء والسُكُرُ

ضبطها بضم السين والكاف · وفي اللسان بئس الصحاة ··· المزاء والسَكَر بفتح السين والكاف وهو الخمر او النبيذ او شراب من التمر ··

٣٦ — وفي ص ١٣٣ · لقد ولدت ام الفرزدق مقرَفا · ضبطها بفتح الراء والصواب بكسرها ·

٣٧ — وفي ص١٥٤ . في خطبة داود بن علي . لا ورب هذه البِنْيَة . وأومأ بيده الى الكعبة . ضبط البنية بكسر الباء وسكون النون . والصواب البنية بفتح الباء وكسر النون وتشديد الياء كغنية وهي الكعبة .

٣٨ — وفي ص١٨٨ . يتظنى من الكآبة أن يبدو الخ والاولى أن يبد .
وفي الصفحة بتطليق عُرس . ضبطها بضم العين والصواب الكسر .
وفي الصفحة غلائل برس ضبطها بفتح الباء والصواب الكسر او الضم .
٣٩ — وفي ص١٨٩ . وقالت احدى شواعر الاندلس تصف وادي آش ثم ذكر الابيات :

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم الخ

وفي معجم البلدان لياقوت ووفيات الاعيان ان هذه الابيات للوزير ابي نصر المنازي .

٤٠ — وفي ص١٩٢ . واذاعوا في الناس الرنذقة والصواب الزندقة .
٤١ — وفي ص١٩٣ . في ترجمة بشار ولقبه المرعث لانه كان في أذنيه رعاث والرعثة القرط والمعروف انه كان في أذنه رعثة . لا في أذنيه رعاث جمع رعثة .

٤٢ — وفي ص٢٠٠ . عنك من سالي والصواب سال .
٤٣ — وفي ص٢٠١ . شغوفاً بالاشمار . ولم اجد شغوفاً .
٤٤ — وفي ص٢٠٦ . أعقب المرجان والصواب المهرجان .
٤٥ — وفي ص٢٠٨ . يدحو الرفاقة والصواب الرقاقة .
٤٦ — وفي ص٢١٢ . وقضت غياً مرة ورشد . ولا يستقيم وزن البيت . ولعل اصله وقضيت .
٤٧ — وفي ص٢١٣ . انكروا شكوا مما أحبه والصواب شكواي .
٤٨ — وفيها محمد بن الحسن الموسوي والصواب ابن الحسين .
٤٩ — وفي ص٢١٥ . ابو اسماعيل ابن الحسين والصواب الحسين باسقاط كلمة ابن .
٥٠ — وفي ص٢١٨ . وسنقنصر والصواب وسنقتصر .
٥١ — وفي ص٢٢٧ . ذهاباً بنفسه إعجاباً بشعره والصواب وإعجاباً .

٥٢ — وفي ص٢٢٨ . لو لم يكن منك الوري الذ منك هو . وصواب البيت . (لو لم تكن من ذا الورى الّذ منك هو) .

٥٣ — وفي ص٢٣٠ . هو ابو الحارث والصواب الحارث .

٥٤ — وفي ص٢٣١ . او يزيل مصون شعره والصواب او يذيل .

٥٥ — وفي ص٢٣٤ . بغليط القطن والصواب بغليظ .

٥٦ — وفي ص٢٣٥ . في الكلام على ابي العلاء المعري . وقف على قبره زهاء ثمانين ومائة شاعر والمشهور ثمانون شاعراً .

٥٧ — وفيها في الذيل . فبينما يقول شلا . ولا معنى للشل ولعلها شكا .

٥٨ — وفيها في الذيل . ويهود حادت والصواب حارت .

٥٩ — وفي ص٢٢٦ . حتى تكول كتاباً والصواب حتى تكون .

٦٠ — وفي ص٢٣٧ . فما النَّوْر نوّار والصواب فما النُّور بضم النون .

٦١ — وفي ص٢٤٠ . ولكي تمام الشيْ والصواب ولكن تمام الشيْ .

٦٢ — وفي ص٢٤٥ . بصبري من والصواب منها .

٦٣ — وفي ص٢٥٦ . شلو ظعينهم والصواب طعينهم .

٦٤ — وفيها هُضب ضبطها بضم الهاء والصواب فتحها .

٦٥ — وفي ص٢٦٩ . يمشي الهوينا . والصواب الهوينى . وهي تصغير هونى مؤنث أهون .

٦٦ — وفي ص٢٧٢ . لم يدع في مهجتي الاذماء ضبطها بكسر الذال . وكذلك ضبط الذماء في ص٣٢٧ والصواب فتح الذال .

٦٧ — وفي ص٢٧٩ . سحر عينيه جآزره بالزاي والصواب جآذره بالذال .

٦٨ — وفي ص ٢٨٠ . بعنبر طيبه والصواب طينه لان حرف الروي النون .

٦٩ — وفي ص٢٨٢ . ١٠٣ بيت والصواب أبيات .

٧٠ — وفي ص٢٩٥ . يرنبو به ضبطها بكسر الواو وقد ضبطها ابن خلكان بفتحها .

٧١ — وفي ص٢٩٧ . آمالي في النحو والصواب امالي بغير مد .

٧٢ — وفي ص ٣٣٩ . ذكر . لفظ . سوريا بالالف بعد الياء وقد ذكرها غير مرة وقد ضبطها في القاموس بالياء المخففة والتاء .

٧٣ — وفي ص ٣٥٥ . سواد اللمة . ضبط اللمة بضم اللام والصواب كسرها .

٧٤ — وفي ص ٣٦٠ . وان تقضى حاجاتهم اذا سألوا والصواب تقضي .

٧٥ — وفي ص ٣٦٤ . فالقت اليه بصرة فيها المال ضبط صرة بفتح الصاد . والصواب ضمها كما في المصباح والقاموس .

٧٦ — وفي ص ٣٦٥ . وكان بعيد الخَوْر . والصواب بعيد الحور يقال رجل بعيد الحور اي عاقل والحور العمق .

٧٧ — وفي ص ٣٧٤ : من المبتديان الى التجهيزية . ولا يظهر صحة هذا اللفظ .

٧٨ — وفي ص ٣٧٧ .

لا تحييني روحي الفداء لما جبيك غداً من صحيفة المقدور

والوزن والمعنى يقضيان ان يكون الصواب . لما حيك .

سليم الجندي

عضو المجمع العلمي

قاعدة توهم الاصالة

— أو —

انجذاب الطبع

كتبتُ تحت هذا العنوان مقالين احدهما في (المجلد ٥ ص ٢٠٥) والثاني في (المجلد ١٠ ص ١٢٩) فجاءني من الاستاذ سليمان ضاهر عضو مجمعنا العلمي كتاب أثنى فيه على المقالين وعد موضوعهما من الموضوعات المبتكرة فرجوت منه ان يساعدني في تقصي أشباه تلك الكلمات التي جمعتها فيكون لنا منها رسالة مستقلة في موضوع الكلمات الشاذة الصيغة بناء على التوهم ٠

ولا حاجة الى تلخيص ما قلته في المقالين وانما انا أذكّر القارئ الكريم بهما بذكر مثال منهما :

(ريح) اصل يائها واو ولذا تجمع على (أرواح) لكن اهل اللسان توهموا ان الياء في ريح اصلية لا منقلبة عن واو ولذا جمعوها على (أرياح) ايضاً ٠ وقد سردت في المقالين أشباهاً ونظائر لكلمة (ريح) بلغت (٤٤) كلمة خولف فيها القياس بناء على التوهم ٠ وقد أتيت في المقالين على ذكر كلمات غير قاموسية مما نستعمله اليوم وعدّه بعضهم من (عثرات الأقلام) الواجب تجنبها لكنني انا بنيت تجويز استعمالها على (قاعدة توهم الحرف الزائد اصلياً) وذلك كقولهم (أشّر على الكتاب يؤشر تأشيراً) فقلت ان هذا جائز بناء على توهم ان همزة (إشارة) أصلية لا زائدة ٠

ومازلت من يومئذ أدأب في جمع أمثال تلك الكلمات فعثرت على طائفة أخرى منها أحببت ان أودعها مقالي هذا زيادة في خدمة هذا البحث وايضاح موضوعه ٠

(رقم ٤٥) : فعل (يتسنّه) في قوله تعالى (فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنّه) مرّ معنا في المقالين (مجلد ٥ ص ٢١٠) و (مجلد ١٠ ص ١٣١) أن كلمة (سنة) بمعنى العام

أصلها سنو حذفت الواو وعوض عنها (تاء) فهذه التاء تارة توهموا أصالتهـا فاشتقوا من (سنة) بناء على هذا التوهم فعل (أسنت) القوم بمعنى قحطوا – وتارة كانوا يتوهمون تلك التاء (هاء) ومن ثم جمعوها على (سنهات) واشتقوا منهـا فعل فقالوا (سانهه) هذا ملخص ماقلناه هناك وهنالك . اما مانقوله هنا فهو في تحقيق فعل (يتسنه) بالنون المشددة والهاء الساكنة . فنري اولاً ماذكره المفسر الكبير (الطبري) ثم نذكر ما عن لنا في امر تطبيقه على (قاعدة التوهم) :

رجّح الطبري في تفسيره (جزء٣ صفحة ٢٥) ان هاء (يتسنه) أصلية وليست بزائدة للوقف وان ماضيه (تسنّه) (من التفعل) اي أتت عليه السنون فتغير كما يقال ايضاً (أسنه) فلان عندنا اذا أقام سنة .

إذن المادة الأصلية التي اشتق منهـا كل من فعل (تسنّه) و (أسنه) — هي كلمة (سنة) بمعنى العام باعتبار ان أصلهـا (سنه) بالهاء لا (سنو) بالواو . وهو قول لبعضهم ولم يرض الطبري ان يكون اصل (يتسنّه) = (يتسنّن) وان تكون هاؤه للوقف كما في آية (فبهداهمو اقتده) . وقال ان هاء (اقتده) لاوجه لها الا ان تكون للوقف . بخلاف هاء (يتسنّه) فلا يحسن ان نجعلها زائدة للوقف مادام يمكننا جعلها أصلية من مادة (سنة) بمعنى العام . وجعلها أصلية لازائدة هواللائق بكتاب الله . قال واذا جعلنـا هاء (يتسنّه) زائدة للوقف كان أصله (يتسنّنُ) بثلاث نونات (على وزن يتكلم) فقلبت الثالثة ألفاً كما قلبت في فعلي (يتظنّن) و (ينقضض البازي) فقيل (يتظنّى) و (ينقضّى) وفعل (يتسنّن) قيل فيه (يتسنّى) ثم دخله الجازم في الآية فقيل (لم يتسنّ) ودخلته هاء الوقف فقيل (لم يتسنّه) ففعل (تسنّن) لاعلاقة له بالسنة بمعنى العام وانما علاقته بمادة (سن) مشددة النون . ومعناه يتغير وينتن . ومنه قوله تعالى (من حمإ مسنون) اي منتن متغير .

هذا محصل ماقاله الطبري . بقي علينا ان نبحث في ما اذا كانت مادة (سنّ) تفيد معنى الانتان والتغير . هذا القاموس وشرحه ومستدركه سردوا عدة معان للسن ولم يذكروا معنى التغير والنتن فيها . اللهم الا الشارح (التاج) فقد قال : « قال : ابو الهيثم سنّ الماء فهو مسنون اي تغير » وقول الطبري في تفسير قوله تعالى (حمإ مسنون) (جزء١٤ صفحة٢٠) مانصه « وكان بعض أهل الكوفة يقول (المسنون) هو المتغير قال :

كأنه أخذ من سننتُ الحجر على الحجر وذلك ان يحك احدهما بالآخر ويقال للذي يخرج من بينهما سنين ؟ ويكون ذلك منتنا اهـ » ٠

فمادة (سنّ) إذن تدل على معنى التغير والنتن كما فهم من قول (ابي الهيثم) و (بعض اهل الكوفة) وعلى أساس قوليهما بنى بعض المفسرين واللغويين حكمه في ان الهاء في (يتسنه) زائدة للوقف وان اصل (يتسنى) (يتسنن) كما ان اصل (يتظنى) (يتظنن) ٠

ومن هنا ننتقل الى قاعدة (توهم الأصالة) وتطبيقها على (تسنن) بمعنى تغير وأنتن : ان المفسرين واللغويين الذين يفسرون (التسنن) بالانتان والتغير يقولون هكذا : (يتسنن يتغير لمرور السنين عليه) فكلمة (السنين) مأخوذة في تعريف كلمة (التسنن) وداخلة في مفهومها وملاحظة في تحليل معناها ٠ والسنون جمع (سنة) و (سنة) ليس في مادتها الا نون واحدة ٠ أما جمعها (سنون وسنين) ففيها نونان إحداهما أصليـة والاخرى زائدة لإفادة الجمع ٠ والكلمتان تذكران كلما أريد وصف الشيء بالقدم فيقال (قديم مرت عليه السنون) (قديم لم تغيره السنون) (قديم مرّ عليه كذا من السنين) فمن ثم علق بالطبع وتوهمت النفس ان نون الجمع أصلية في (سنين وسنون) لازائدة وان توهم أصالتها هذا جذب طبع العرب الى ان يشتقوا من سنين مشتقات مضاعفات النون فاشتقوا (حمأ مسنون) اي مرت عليه سنون ويلزم من مرور السنين عليه تغيره ونتنه فالتغير والنتن لازم لمعنى (السنّ) وليس هو المعنى نفسه٠ واشتقوا ايضاً من مادة (سنين) فعل (يتسنن) من باب (يتكلم) بمعنى مرت عليه سنون طويلة حتى تغير وأنتن ٠ ومنه قوله تعالى (لم يتسنه) اي لم يتغير ولم يفسد بمرور السنين عليه ٠

هذا مارأيته في تحليل كلمتي (مسنون) و (يتسنه) وتطبيقهما على قاعدة توهم أصالة الحرف الزائد وهو نون الجمع في سنين٠ والذي جعلني أذهب الى هذا قلة ما رأيت أرباب المعاجم يفسرون مادة (سنّ) بمعنى التغير والنتن٠ اللهم الا ماروي عن (ابي الهيثم) و(بعض أهل الكوفة ؟) وقد رأيت قولهما غامضاً ولم يؤيدهما فيه احد بل ربما كان تفسيرهما السن بالتغير من باب التفسير باللازم كما مرت الإشارة اليه آنفاً ٠

(٤٦) : (ميثاق ــ مياثيق ومياثق) يقال في هذا الجمع ماقلناه في (مياسم جمع ميسم) وقد مر في (مجلد ١٠ صفحة ١٣١) فان (ميثاق) بمعنى العهد مشتق من(وثق) الواوي

واصله (موثاق) فاذا أُريد جمعه قيل (مواثيق) وهو القياس. لكنهم لما رأوا الياء وسمعوها تتكرر في (ميثاق) المفرد (واخذ الله ميثاق النبيين) توهموها أصلية فجمعوها ايضاً على (مياثيق) بياء قبل القاف وانما أثبتوا هذه الياء لوجود الألف في المفرد أعني (ميثاق) وجاء فيه (مياثق) من دون ياء أنشد الفرا :

(حتى لا يُحَلّ الدهرَ الا باذننا ولا نسأل الأقوام عقد المياثق)

وحذف (الياء) من (مياثق) وأمثاله ضرورة اوقياس؟ خلاف. وقدمشى الزبيدي في التاج على انه قياس بدليل قوله (واما ابن جني فقد لزم البدل في مياثق كما لزم في عيد وأعياد). وقوله (البدل) اي ابدال الواو ياءً . فيقال (ميـاثق) لا (مواثق) كما قالوا (أعياد) لا (أعواد) راجع ماقلناه في (عيد أعياد) (مجلد ٥ صفحة ٢٠٦) .

نقول : لما ذالم يجعلوا (مياثق) من دون ياء قبل القاف جمعاً لموثق كما هو القيـاس لا لميثاق ؟

والجواب انهم انما لم يجعلوها جمعاً لموثق لعدم إمكان تطبيق (قاعدة التوهم) عليها . وذلك ان (موثق) فيها واو فتجمع على (مواثق) بالواو ولا يقال في موثق (ميثق) بالياء حتى يجمعوها على (مياثق) بالياء وتراهم قد صرحوا ان (مياثق) مفردها (ميثاق) التي فيها ياء . وهذا يؤيد قاعدتنا التي أصّلناها في التوهم .

(٤٧) : (شيءٌ أصابته الريح : فهو مروح ومَريح) : مما جاء على قاعدة توهم أصالة الحرف قولهم (شيءٌ مريح) اذا أصـابته الريح وهو اسم مفعول من (الريح) وياء الريح أصلها واو لكنها قلبت ياءً لانكسار ماقبلها وقد مر هذا في تحليل جمع (ارياح) (مجلد ٥ ص ٢٠٥) وانه كان الواجب ان يقال (ارواح) .

واذ كانت (الريح) مشتقة من (الروح) الواوي كان الأصل ان يقال في اسم مفعوله (مروح) بالواو كما قالوا (مقول) من القول و (مصوغ) من الصوغ لكنهم قالوا ايضاً (مريح) بالياء كأنما هو يأتي الاصل على حدّ (مكيل) المشتق من الكيل .

ولما ذا فعلوا ذلك ؟

لانهم رأوا الياء في (ريح) لازمة فتوهموها أصلية لامنقلبـة وانجذب طبعهم الى جعل اسم مفعولها (مريح) مثل (مروح) القياسي . اونقول ان قولهم (مريح) بناءً على توهمهم

أصالة الياء في فعل (ريحَ الغديرُ) ونحوه اذا أصابته الريح هكذا يفهم من (التاج) اي ان لزوم الياء في (مريح) ناتج عن توهم أصالة ياء (ريح) اعني الفعل المجهول لا ياء (الريح) التي هي اسم ·

قال ابو حية النميري :

(كعيناك يوم البين أسرع واكفا من الفنن الممطور وهو مروح)

والفنن هو الغصن و (الممطور) هو الذي أصابه المطر و (المروح) الذي أصابته الريح هذا شاهد (مروح) الذي هو القياس اما شاهد (مريح) الشاذ فقد ذكره ابو زيد الانصاري في نوادره (صفحة ٢٣٦) من ارجوزة في صفة دروس الدار وهو قوله :

(ودرستْ غير رمادٍ مكفور مكتئب اللون مريحٍ ممطور)

اي ان الدار اندرس اثرها ولم يبق فيها غير رماد قد كُفِر اي ستر وأصابته الرياح والامطار · وروى صاحب التاج هذا الرجز لمنظور بن مرثد الاسدي واوله :

(هل تعرف الدار باعلى ذي القُور) و (القور) جمع قارة وهي الجبيلة · على ان (التاج) روى في الرجز المذكور (مروح) مكان (مريح) ثم عاد فقال : (ومريح ايضاً) بالياء : مثل (مشوب) و (مَشيب) بُني على (شِيب) · وغصن مريح ومروح أصابته الريح وقال يصف الدمع :

(كأنه غصن مريح ممطور)

وكذلك مكان مَروح ومريح وشجرة مروحة ومريحة صفقتها الريح فألقت ورقها اه ·

(٤٨) : (لبن مشوب ومَشيب) مر في الكلام على (مريح) الإشارة الى ان صاحب التاج مثّل لمريح بكلمة (مشيب) من حيث مخالفة كل منهما للقياس وان (مريح) بالياء ان كانت بُنيت على (ريح الغدير) فان (مشيب) اسم مفعول بمعنى (مشوب) بنيت على (شِيبَ) وعبارة التاج موجزة جداً · لكنه عاد فأوضحها في مادة (شوب) فقال (والشوب ماشبته من ماء او لبن فهو مشوب ومشيب) ثم زادها ايضاحاً بقوله « وقول السليك ابن السلكة :

(سيكفيك ضربَ القوم لحمٌ مغرضٌ وماء قدور في القصاع مشيبُ)

انما بناه على (شِيب) الذي لم يسم فاعله » ثم فسّر البيت فقال و (الضرب) اللبن

الحامض ؛ (اللحم المفرّض) الغريض الطري · وقوله ماء قدور مشيب اي مخلوط بالتوابل فصح لنا من قول التاج شاهد على قاعدتنا في توهم أصالة الحرف وهو كلمة (مشيب) فان قياسها (مشوب) لكن العرب من كثرة مااستعملوا فعل « شِيب الماء » و « شيب الخمر » و « شيب اللبن » ·

(تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعـادا بعدُ ابوالا)

— توهموا ان الياء في فعل (شيب) أصلية فبنوا صيغة اسم مفعوله على صيغته فقالوا (مشيب) استناداً الى هذا التوهم · اما كلمة (مشيب) بمعني الشيب فصيغتها وإعلالها الصرفي جار يان على نمط آخر ·

(هَنَة — هنيّة هُنَيْهة) : (الهِنْوُ) بكسر هائه معنـاه الوقت يقال : (مضى هنو من الليل) واذا فتحت هاءه كان معنـاه الشيْ · لكنهم اذ ذاك لا يبقونه على حاله بل يتصرفون فيه على ضروب : فاذا حذفوا واوه ولم يعوضوا عنهـا حرفاً مكانها وقالوا (هن) كان كناية عن السوأة وكل مستقبح ·

واذا عوضوا عن الواو تاء مربوطة فقالوا (هنة) كما قالوا في (سنو) (سنة) — كنوا بها عن الشيْ القليل او الحقير واذا قالوا (فلان صاحب هنات) أرادوا بها خصال الشر ·

واذا عوضوا عن واو (هنو) تاء مبسوطة وقالوا (هَنْت) كنوا بهـا عن المرأة و يشترط حينئذ استعمالها في النداء فيقولون (ياهَنْتاه) لكنه نداء لا يشرّف صاحبته اذ ان فيه معنى التحقير او التجهيل ولذا فسر بعضهم (ياهنتاه) في حديث الافك بيا بلهـاء · ومنه قول (دُغَة) لضرتها (ياهنتاه هل يغفر الجَعْرفاه) مع ان (دغة) هي الجديرة بالتهكم والتجهيل · راجع حكايتها في شرح قول العرب في المثل (أحمق من دغة) ·

نرجع الى (هنة) بالتاء المربوطة ويكنى بها عن الشيْ القليل ·

(هنة) هذه تصغر فيقال فيها (هنيّة) وأصلها (هنيوه) بالواو في آخرها لان التصغير يرد الاشياء الى اصولها · و يريدون (بهنيّة) المصغرة ماأرادوه (بهنة) المكبرة أعني انها تشمل كناية عن الشيْ اليسير او الحقير ·

لكننا أحياناً كثيرة نسمعهم يقولون في تصغير (هنة) (هنيهة) بالهاء بعد ياء التصغير ويريدون بها الحصة القليلة من الزمان .

فمن أين جاءت هذه الهاء مع ان (هنيهة) تصغير (هنة) واصل (هنة) (هنو) ؟

جاءت من توهمهم في تاء (هنة) المربوطة انها هاء أصلية لكثرة مايقفون على تاء (هنة) بالهاء فيقولون (هنه هنه) . وهذا كما مر في سنة (مجلد ٥ صفحة ٢١٠) اذ هم جمعوها على (سنوات) كاهو الاصل — و (سنهات) بناء على توهمهم اصالة الهاء في (سنه) .

(٤٩) : (اختار من القوم زيداً — واختار القومَ زيداً) ويمكن ان نعدّ من (قاعدة التوهم) قولهم في فصيح الكلام اختار القوم زيداً بنصب (القوم) بمعنى اختار من القوم زيداً ومنه الآية الكريمة (واختار موسى قومه سبعين رجلاً) اي (من قومه) لان فعل (اختار) ينصب مفعولاً واحداً ويتعدى الى مفعوله الثاني بحرف الجر (من) وقد تحذف (من) من مفعوله كما في الآية وغيرها من فصيح كلام العرب .

فلماذا حذفت من ؟

علماء النحو يختصرون الجواب للطالب ويقولون انها حذفت بناء على نزع الخافض فتقدير الآية (واختار موسى من قومه سبعين رجلاً) . ولكن علماء اللغة سلكوا في تعليل الحذف طريقاً آخر : فقال ابو العباس (ثعلب) انما جاز حذف من لأن فعل (اختار) يدل على التبعيض ولذلك حذفت (من) . يعني للاستغناء عنها وعدم إطالة الكلام بوجودها . اما صاحب التاج فعلل حذف (من) بعد فعل (اختار) بقوله « انه مأخوذ من قولك هؤلاء خير القوم وخير من القوم فلما جازت الإضافة مكان (من) ولم يتغير المعنى استجازوا ان يقولوا اخترتكم رجلاً واخترت منكم رجلاً اه . أليس في عبارته هذه مايشعر بمراعاة قاعدة التوهم ؟

فكلمة (خير) أصلها (أخير) أفعل تفضيل وهي تارة تذكر بعدها من التفضيلية فيقال زيد خير من القوم وتارة بل كثيراً ماتحذف (من) ويقال (زيد خير القوم) (زيد خير الرجال) (زيد خير بني أبيه) الخ . وان حذف (من) بعد (خير) جعل العرب يتوهمون لزوم حذفها حتى بعد الفعل الذي اشتق من (خير) وهو (اختار) فجعلوا يقولون اخترت زيداً الرجال ومن الرجال واخترت قومي رجلين ومن قومي رجلين وجعل الفرزدق يقول :

(ومنا الذي اختير الرجالَ سماحة وجوداً اذا هب الرياح الزعازع)

اي (من الرجال)· فحذفُ (من) يقع في فصيح الكلام · ولا أدل على فصاحته من طبع الآية القرآنية على غراره ·

(٥٠) : (سيّد · سَيْد · أسياد) الكلمات السابقة صرح اللغويون او أشاروا الى انها خالفت القياس بناءً على قاعدة التوهم · ولديّ كلمة أريد ان أعرضها على القراء ثم أطبقها على قاعدتي في التوهم · وهي كلمة جارية في لغة تخاطبنا كثيراً أعني كلمة (أسياد) جمع (سيّد) وانما المعروف والمشهور ان (سيّد) بتشديد الياء تجمع على سادة وسادات وسيايد أما (أسياد) فقد انكرها العلامة اليازجي ولم يذكرها الا صاحب أقرب الموارد · وقد اشتبهوا بهذا الجمع واكثروا من التساؤل عن صحته حتى عدّوه من (عثرات الاقلام) بل من عثرات (أقرب الموارد) وانا أرى جوازه بناءً على توهم أصالة الحرف · وبيانه ان الوصف من ساد يسود (سيّد) بتشديد الياء وأصله (سيود) على وزن (فيعل) بزيادة ياء قبل عين الفعل ثم أعلّ · فهو كميّت المشددة ولا يخفى انه يقال في (ميّت) (ميْت) بالتخفيف فكذلك يقال في (سيّد) المشددة (سيْد) بالتخفيف · جاء في المزهر (جزء ٢ صفحة ١٧٣) نقلاً عن الصحاح يقال في سيّد سيْد بالتخفيف كما يقال في هيّن هيْن ولين لين وميّت ميْت الخ · وهنا يقال : أية اليائين التي حذفت من (سيّد) ؟ الياء الاولى الزائدة اما الياء الثانية المنقلبة عن الواو التي هي من بنية الكلمة ؟ والجواب ان المحذوف هو الياء الزائدة لأن الحذف بها أليق و ينبغي ان يكون اليها أسبق : بدليل انهم جمعوا (ميت) المخفف على (أموات) بالواو والجمع يرد الاشياء الى اصولها فهو هنا ردّ الياء الى واو لأنها عين الكلمة فقيل (أموات) لا (أميات) · .

حسن !! ولكن لماذا لم يجمعوا (سَيْد) المخففة على أسواد بالواو كما جمعوا ميت على أموات ؟ وكلاهما واوي العين · والجواب ان كلمة (سَيْد) المخففة كثر استعمالها وتداولها على افواهنا حتى اضطررنا ان نخففها تخفيفاً ثانياً بكسر سينها فنقول (سِيْدي) مكان (سَيْدي) لاسيما إخواننا المغاربة الذين يكثرون من قول سيدي عبد الكبير سيدي بن زرّوق سيدي جنون الخ الخ — كل هذا جعلنا نتوهم ان الياء في (سَيْد) اصلية لا منقلبة عن واو ومن ثمَّ قلنا في جمعها (اسياد) لا (اسواد) وهذا كما مرَّ في لفظ (قَيْل) الذي يطلق على أمراء اليمن واصله (قيول) بالواو فجمعوه على (أقيال) بالياء توهماً ان ياء (قيل) — المستعملة

كثيراً — اصلية . راجع ما قلناه عن (اقيال) في (مجلد ١٠ صفحة ١٣٣) والحاصل ان المعاجم وان لم تصرح بان (سيّد) تجمع على أسياد لكن ار بابها صرحوا بانها تخفّف . وهذا التخفيف يجعلها (كَميت) المخففة . و (ميت) المخففة تجمع على أموات فكان الظاهر ان تجمع (سَيْد) المخففة على (اسواد) مثلها . لكننا نحن المتأخرين من ابناء الضاد انجذبنا بتأثير من طبعنا الى جمعها على (اسياد) بالياء بناءً على توهم اصالتها في (سيد) المفرد .

(تتمة) نشر القس عبد المسيح زهر في مجلة المشرق (سنة ٢٦ صفحة ٦٧٢) مقالاً ضمنه كلمات لم تذكرها المعاجم مع انها وردت في فصيح كلام العرب من ذلك كلمة اسياد جمع سيْد فقال القس انها وردت في شعر النمر بن تولب :

(ابقى الحوادث والايام من نمر اسياد سيف كريم أثره بادي)

وعندي ان كلمة (اسياد) في هذا البيت محرفة لان قوله (من نمر) يريد نفسه فهو يقول ان حوادث الدهر لم تبق منه سوى (اسياد سيف كريم) فما معنى اسياد سيف اي أشراف سيف ؟ واری انها محرفة عن (اسباد) بالباء الموحدة بمعنى بقايا : فان (السبد) كَكَتف البقية من الكلاء و بارض بني فلان (اسباد) اي بقايا من النبت . ونقلُ اسباد من معنى بقايا النبت الى بقايا السيف له نظائر في كلامهم . او ان (اسياد) محرفة عن (اسيار) جمع (سير) بالراء وهو القدة من جلد و يكون اراد بالاسيار حمائل السيف . ومهما يكن فبيت نمر ليس بالشاهد القطعي الدلالة فيما أظن . «المغربي»

تحقيق الجاحظ(١)

— ٤ —

« الاستعانة بالعقل »

تجربة وعيان وسماع : هذه اصول الجاحظ في تحقيق الأخبار ، وأريد بالاخبار في هذا المقام أخبار العلم وخاصة علم الحيوان فقد استكمل الجاحظ كثيراً من صفات العالم : جرّب وعاين وسمع ولهذه الاصول شأن عظيم في علوم الطبيعة وبلغ من هذا الشأن أنهم عابوا بعض علماء الطبيعة بزهدهم في التجربة والعيان فعابوا مثلاً العالم (بوفون) ببعض كتبه في نشوء الارض وفي أدوار الطبيعة فقالوا فيه : وصف كثيراً وعاين قليلاً(٢) .

فالجاحظ لم يفته فضل العيان والتجربة وإن فاته في بعض الأحوال روح الترتيب في الذي عاينه أو جرّب عليه ، او فاته خيالُ العالم ، وأعني بهذا الخيال قدرة العالم على التعميم وعلى الحزر والحدس لاستنباط القوانين العامة ، او فاته التمكن من انشاء المقاييس العلمية فقد نجد كثيراً من معارفه مبعثرة لا يجمعها نظام واحد .

وكما جرّب وعاين فقد سمع وكان في معرفة السماع شديد التثبت والتوثق .

ولقد ضمّ الى هذه المذاهب كلها ، الى التجربة والعيان والسماع مذهباً آخر وهو العقل ، فقد جعل العقل دليله في مجامع اموره ، فما كان يصدّق الا ما تثبته الأدلة ويحققه الامتحان فالعقل في نظره انما هو الحجة في حكم الامور .

فلننظر في مجلسنا هذا في طائفة من خصائص عقله قد نهتدي اليها في أبواب كثيرة

---

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الأدب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

(٢) ادب القرن الثامن عشر (اميل فاكه ص ٤٣١) .

من أبواب الحيوان كالكلام على بعض عجائب الحيوان او على طول عمر البغل وأعمار ذكورة العصافير او على ابتلاع السمكة للطعم او على وضع النمرة ولدها وهو متطوق بأفعى او على القاح الثور او على الضفادع او على الخلق المركب او على الأفاعي او على ولد الكركدن او على خلق السنانير والخنازير او على تعاون الذر او على غير ذلك من الامور التي قد يطول استقصاؤها ٠

فاذا أردنا ان نعرف خصائص هذا العقل في التحقيق لزمنا ان ننظر الى بعض مواطن من المواطن التي يظهر فيها تصرف العقل ومقدار نفاذه ، وأظن اننا اذا بحثنا عن اشياء يسيرة من طبيعة نقده العلمي او من طبيعة شكه في بعض امور العلم او من طبيعة تنقيبه عن علة هذه الامور استطعنا أن نحيط بناحية من نواحي عقله ٠

اما طبيعة نقد الجاحظ في أبواب العلم فالذي يعنينا من أمرها انما هو الوقوف على الامور التي وطن نفسه على إبطالها وردّها اوالوقوف على الامور التي كان يعيب بها عالماً من العلماء ، فهل كان يقرع الحجة باشباهها ام كان يرد قولاً من الأقوال مقتصراً على مجرّد الرد وهل كان يجسر على نقد العلماء دون التقيد بشيء ومن هم العلماء الذين نقدهم ٠

واما طبيعة الشك فالذي يهمنا من شأنها ان نعرف أميل الجاحظ الى الشك ، أيشك في الامور وصولاً الى اليقين ام يشك فيها للشك وحده ، واذا شك في امر فهل يبين الأسباب التي من أجلها يبطل هذا الأمر في نظره ، ام انه يشك في هذا الأمر دون بيان شيء من هذه الاسباب ٠

واما طبيعة تنقيبه عن علة من العلل فالذي يشغلنا منها انما هو مقدار تصرف عقله في هذا التنقيب ومبلغ نفاذ هذا العقل ٠

فلنفرغ قبل كل شيء للكلام على نقده العلمي ، ما الذي كان يشغل بال الجاحظ في هذا النقد ، هل كان يجسر على التكذيب في كل حين ، من هم العلماء الذين نقدهم ٠

همُّ الجاحظ الأبعدُ عرض الامور على التصحيح والتمييز فقد كان مولعاً بالتنبيه على الخرافات سواء أكانت هذه الخرافات في أبواب العلم أم كانت في ابواب الدين فهو كثير التنديد بغث الامور وممتنعها فاذا أصاب فرصة في التحذير من توليد الكذابين ومن غرائب الاخبار حذّر بقدر ماأوتيه من حكمة وبيان ، فان الذي لايصدق الا ما تثبته الأدلة ويحققه

العيان والتجربة والسماع قد يصعب عليه ان يحمل محال الخرافات ذا سعة فمن قوله في هذا المعنى[١] :

« وقد ابتلينا بضربين من الناس ودعواهما كبيرة ، احدهما يبلغ من حبه للغريب ان يجعل سمعه هدفاً لتوليد الكذابين وقلبه قراراً لغرائب الزور والكلفه بالغريب وشغفه بالطرف لا يقف على التصحيح والتمييز فهو يدخل الغث في السمين والممكن في الممتنع ويتعلق بادنى سبب ثم يدفع عنه كل الدفع ، والصنف الآخر وهو ان بعضهم يرى ان ذلك لا يكون منه عند من يسمعه يتكلم الا من خاف التقذر من الكذب ...

فالجاحظ كما يتبين لكم من هذا الكلام يكره غرائب الاخبار مما لا يحققه العقل . ومن هذه الغرائب التي تجرد لردها والتحذير منها كلامهم على بعض الخلق المركب فقد قال[٢] :

« وقالوا في الخلق المركب ضروباً من الحق والباطل ومن الصدق والكذب .... وزعم حريث انه كان بأيذج فاذا سحابة ضحياء تكاد تمس الارض وتكاد تمس قمم رؤوسهم وانهم سمعوا فيها كأصوات المجانيق وكهدير الفحول في الأشوال ثم انها دفعت باشد مطر رؤي او سمع به حتى استسلموا للغرق ثم اندفعت بالضفادع العظام ثم اندفعت بالشبابيط السمان الخزال فطبخوا واشتووا وملحوا وادخروا » .

وقال في مقام آخر شبه هذا الكلام[٣] :

« وفيها اعجوبة أخرى وذلك انا نجد من كبارها وصغارها الذي لا يحصى في غب المطر اذا كان المطر ديمة ولم نجدها في المواضع التي ليس بقربها بحر ولا نهر ولا حوض ولا غدير ولا واد ولا بئر ونجدها في الصحاصح الأمالس وفوق ظهور مساجد الجماعة حتى زعم كثير من المتكلفين ومن اهل الجسارة وممن لا يحتفل بسوء الحال عند العلماء ولا يكترث للشك انها كانت في السحاب ولذلك طمع اكثر الكذابين ممن نكره اسمه فذكر ان اهل

(١) كتاب الحيوان (الجزء الرابع ص٥٨) .
(٢) « « « الاول ص ٦٨) .
(٣) « « « الخامس ص١٥٣ .

أيْدَج مطروا أكبر حبابيط في الارض وأسمنها وأعظمها وانما تلك الضفادع شيء يخلق في تلك الحال بمزاوجة الزمان وتلك المطرة وتلك الارض وذلك الهواء والضفادع من الخلق الذي لاعظام له و يزعم اصحاب الغرائب ان العلاجيم منها المذكورة السود و يقال أرشح من ضفدع وتزعم الاعراب ان الضفدع كان ذا ذنب وان الضب سلبه إياه وذلك في خرافة من خرافات الأعراب ولا يكون ذلك حتى يجمع بين الاروى والنعام وحتى يجمع بين الماء والنار وحتى يشيب الغراب وحتى تقع السماء على الارض » .

يستخرج مما تقدم ان الذي يشغل بال الجاحظ انما هو التنبيه على الكذابين وعلى غرائب الأخبار الا انه قد لا يكلف نفسه في بعض هذا التنبيه المجيء بالبرهان وكأنما رأى ان تكذيب هذه الأعاجيب انما هو معلوم في بدائه العقول فلا يحتاج الى شيء من البراهين .

وقد يظهر لنا ان حرية المقد كانت ضيقة المذاهب في بعض الاحايين فكان الجاحظ يشير الى الأجناس العجيبة من الأقوال دون ان يجسر في كتبه على تكذيب العلماء ودرّاس الكتب او على تسميتهم من هذا النحو قوله (١) :

« والعوام تضرب المثل في الشدة والقوة بالكركدن وتزعم انه ربما نطح الفيل فرفعه بقرنه الواحد الذي في وسط جبهته فلا يشعر بمكانه ولا يحس به حتى ينقطع على الأيام وهذا القول بالخرافة أشبه ، وأعجب من القول في ولد الكركدن مايخبرنا به ناس من اهل النظر والأدب وقراءة الكتب وذلك انهم يزعمون ان الثمرة لاتضع ولدها ابداً الا وهو منطوق بالأفعى وانها تعيش وتنهش الا انها لا تقتل ولو كنت اجسر في كتبي على تكذيب العلماء ودرّاس الكتب لبدأت بصاحب هذا الخبر وليس هذا عندي كزعمهم ان الأفعى تلد وتبيض لأن تأويل الأفعى ينفصل بيضها فاذا طرقت بالبيض تلون فحطمته في جوفها ثم ترمي بتلك القشور والحراشي اولاً فأولاً ولا بد لكل ذات حمل ان تلقي مشيمتها » .

او قوله في موطن آخر في خرافة من الخرافات وهو لم يسم صاحب هذه الخرافة (٢) :

« ومما لا اكتبه لك من الأجناس العجيبة التي لا يجسر عليها الا آكل وقاح أخبار بعض العلماء وبعض من يؤلف الكتب يقرأها و يدارس اهل البصرة ويحفظها زعموا ان

(١) كتاب الحيوان (الجزء السابع ص ٤٢) .

(٢) « « « ص ٤٩ .

الضبع يكون عاماً ذكراً وعاماً أنثى وسمعت هذا من جماعة منهم من لا استجيز تسميته ، قال الفضل بن اسحق : انا رأيت العفص والبلوط في غصن واحد ، قال : ومن العفص ما يكون مثل الاكر وقد خبرني بذلك غيره وهو يشبه تحول الانثى ذكراً والذكر أنثى وقد ذكرت العرب في اشعارها الضباع والذئاب والسبع والعسبار وجميع الوحوش والحشرات والاجناس وهم اخبر الخلق بشأن الضبع فكيف تركت ماهو اعجب واظرف وقد ذكرت العلماء الضباع في مواضع من الفتيا لم تر احداً ذكر ذلك واولئك باعيانهم هم الذين يزعمون ان النمر تضع في مشيمة واحدة جرواً وفي عنقه افعى قد تطوقت به واذا لم يأتنا في تحقيق الاخبار شعر شائع او خبر مستفيض لم نلتفت اليه » .

على انه قد تعرض لجماعة فسماهم وجسر على تكذيبهم فقد قال [1] :

« ورووا عن ابي وائلة انه زعم ان من الدليل على ان الشبوط كالبغل ان الناس لم يجدوا في طول ما اكلوا من الشبابيط بيضاً قط فان كان هذا الخبر عن هذا الرجل المذكور بشدة العقل ، المنعوت بثقوب الفراسة ودقة الفطنة صحيحاً فما اعظم المصيبة علينا فيه ، وما اخلق الخبر ان يكون صحيحاً وذلك اني سمعت له كلاماً كثيراً من تصنيف الحيوان واقسام الاجناس يدل على ان الرجل حين أحسن في اشياء وهمه العجب بنفسه انه لا يروم شيئاً فيمتنع عليه وغره من نفسه الذي غر الخليل بن احمد حين احسن في النحو والعروض فظن انه يحسن الكلام وتأليف اللحون فكتب فيهما كتابين لا يشير بهما ولا يدل عليهما الا المرة المحترقة ولا يؤدي الى مثل ذلك الا خذلان من الله تعالى فان الله عز وجل لا يعجزه شيء » .

الا ان الذي تعرض له كثيراً في كتابه انما هو ارسطاطاليس فقد عاب عليه اموراً كثيرة منها انه لم يبن في تحقيقه على الاصول التي بنى عليها الجاحظ نفسه ، اي لم يثبت اموره بالعيان او بمعرفة السماع ، من هذا النحو قوله [2] :

« وزعم صاحب المنطق في كتاب الحيوان فيما سلف من الدهر ان ثوراً سفد والقمح من ساعته بعد ان خصي .

فاذا افرط المادح في المديح وخرج من المقدار وافرط المتعجب في التعجب وخرج من

(١) كتاب الحيوان (الجزء الاول صفحة ٦٨) .
(٢) « « « الخامس « ٧٠ .

المقدار احتاج صاحبه الى ان يثبته بالعيان او بالخبر الذي لم يكذب مثله والا فقد تعرّض للتكذيب ولو جعلوا حركتهم خبراً وحكاية وتبرؤا عن عيبه ماضرهم ذلك فكان ذلك أصون لأقدارهم واتم لمروآت كتبهم » .

او قوله في موطن آخر[1] :

« وفي المثل : أغلم من تيس بني حمّان وحمّان تزعم انه قفط سبعين عنزاً وقد فريت أوداجه فهذا من الكذب الذي يدخل في باب الخرافة .

وقد ذكر صاحب المنطق انه قد ابصر ثوراً وثب بعد ان خصي فنزا على بقرة فأحبلها ولم نجد هذا من معاينة ، والصدور تضيق بالرد على اصحاب النظر وتضيق بتصديق هذا الشكل » .

او قوله[2] :

« واما قول صاحب المنطق في ان الضفادع لا تنق حتى تدخل فكها الاسفل في الماء لان الصوت لا يجيئها حتى يكون في فيها ماء فقد قال ذلك ووافقه عليه ناس من العلماء وادعوا في ذلك العيان وانما زعمه بان السمكة لا تبتلع شيئاً من الطعم الا ببعض الماء فأي عيان دل على هذا وهذا عسير » .

او قوله[3] :

« وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل وما يليق بمثله ان يخلّد على نفسه في الكتب شهادات لا يحققها الامتحان ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء وما عندنا في معرفة ما ادّعى الى هذا القول » .

ولم يقتصر الجاحظ على مؤاخذة ارسطاطاليس بانه لم يعتمد في تحقيقه على العيان والسماع والامتحان وانما عاب عليه في بعض الأحوال انه اذا تكلم على حيوان فانه لا يستوفي عجائب هذا الحيوان ، من هذا كلامه على الفيل[4] :

(١) كتاب الحيوان الجزء الخامس الصفحة ١٧٤ .
(٢) « « « « « ١٥٦ .
(٣) « « « الاول « ٨٧ .
(٤) « « « السابع « ٧٠ .

« وما أعجب ما قرأت لصاحب الحيوان في كتاب المنطق وجدته وقد ذكر قصر عنقه ولم يذكر انقلاب لسانه وذلك اعجب ما فيه ولم ينظر في كم يضع ولا مقدار مدة حمله وكيف يخرج من بطن أمه نابت الاسنان » .

وأحياناً كان يتعرض له فيقف في تعرضه موقفاً وسطاً دون دفع الخبر او قبوله كقوله (١) :

« وذكر صاحب المنطق ان الطير الكبير الذي يسمى باليونانية (اعتيوليس) يحكم عشه وتيقنه و يجعله مستديراً مداخلاً كأنه كرة ورووا انهم يزعمون ان هذا الطائر يجلب الدارصيني من موضعه فيفرش له عشه ولا يعشش الا في اعالي الشجر المرتفعة المواضع ، قال وربما عمد الناس الى سهام فيشدون بها رصاصاً ثم يرمون بها أعششها فيسقط عليهم الدارصيني فيلتقطونه و يأخذونه ...

ولست أدفع خبر صاحب المنطق عن خبر صاحب الدارصيني وان كنت لا اعرف الوجه في ان طائراً ينهض من وكره في الجبال او بفارس او باليمن فيؤم ويعمد نحو بلاد الدارصيني وهو لم يجاوز موضعه ولا قرب منه ، وليس يخلو هذا الطائر من ان يكون من الاوابد وان كان من القواطع فكيف يقطع الصحصحان الأملس وبطون الاودية وأعضاب الجبال بالتدويم في الاجواء و بالمضي على السمت لطلب ما لم يره ولم يذقه ، وأخرى فانه لا يجتلب منه بمنقاره ورجليه ما يصير فراشاً له ومهاداً الا بالاختلاف الطويل وليس بالوطيء الوثير ولا هو بطعام فأنا وان كنت لا أعرف العلة فلست انكر الامور من هذه الجهة » .

وقد تعرض لغير ارسطاطاليس فتعرض لابي زيد النحوي وحشره في جملة علماء السوء فعابهم بانهم لم يكونوا في تحقيقهم من حذاق المتكلمين كقوله (٢) :

« وأما الذين ذكروا في أشعارهم السبع والسبار فليس في ظاهر كلامهم دليل على ما ادعي عليهم الناس من هذا التركيب المختلف فأدينا الذي قالوا وامسكنا عن الشهادة اذ لم نجد عليها برهاناً .

---

(١) كتاب الحيوان الجزء الثالث الصفحة ١٦٣ .

(٢) « « « الاول « ٨٥ .

وللناس في هذا الضرب ضروب من الدعوى وعلماء السوء يظهرون تجويزها وتحقيقها ، كالذي يدعون من اولاد السعالى من الناس كما ذكروا عن عمرو بن يربوع وكما يروي ابوزيد النحوي عن السعلاة التي أقامت في بني تميم حتى ولدت فيهم فلما رأت برقاً يلمع من شق بلاد السعالى حنت وطارت اليهم فقال شاعرهم :

رأى برقا فأوضع فوق بكر فلا بأمًا أسال وما أغاما

وأنشدني أن الجن طرقوا بعضهم فقال :

أتوا ناري فقلت منون انتم فقالوا : الجن ، قلت عموا ظلاما

فقلت الى الطعام فقال منهم زعيم : نحسد الانس الطعاما

ولم أعب الرواية وانما عبت الايمان بها والتوكيد لمعانيها فما أكثر من يروي هذا الضرب على التعجب منه وعلى ان يجعل الرواية سبباً لتعريف الناس حق ذلك من باطله وابو زيد واشباهه مأمونون على الناس الا ان كل من لم يكن متكلماً حاذقاً وكان عند العلماء قدوة واماماً فما اقرب إفساده لهم من إفساد المتعمد لإفسادهم » .

وكان في بعض نقده يعيب طائفة من الناس بوضعهم الموجب من الامور موضع المقرّب منها ، وبانزال الدليل منزلة شبه الدليل كقوله (١) :

« والذين زعموا ان ذكورتها لا تعيش الا سنة يحتاجون الى ان يعرّفوا الناس ذلك وكيف يستطيعون تعريفهم ذلك وقد تكون القرى بقرب المزارع والميازب مملوءة عصافير ومملوءة من بيضها وفراخها وهم مع ذلك لم يروا عصفوراً قط ميتاً » .

والذين زعموا ان البغل انما طال عمره لقلة السفاد والعصفور انما قصر عمره لكثرة السفاد وغلمته لو قالوا بذلك على جهة الظن والتقريب لم يلمهم احد من العلماء والامور المقربة غير الامور الموجبة فينبغي ان يعرفوا فصل ما بين الواجب والمقرب وفرق مابين الدليل ومشبه الدليل ولعل طول عمر البغل يكون للذي قالوا ولشيء آخر وليس ينبغي ان نجزم على هذه العلة فقط » .

هذه جملة القول في نقده والذي يستخلص من هذا النقد ان الجاحظ لجأ اليه للتنبيه على مواطن الزور في ابواب العلم مما لا يحققه العقل فكأن الجاحظ يقول :

(١) كتاب الحيوان الجزء الخامس الصفحة ٧١ .

لا اصدّق من الامور الا ما كان واضحاً وهذه خطة (ديكارت) نفسه كما علمتم ذلك .

ولم ينقد الجاحظ للنقد وحده ، انه أجلّ من ذلك وانما نقد وصولاً الى الحقائق فكان مرة يدل على الخرافات ويحذّر منها ومرة يشير الى مزلات أقدام بعض العلماء كما أشار الى إعراض ارسطاطاليس عن استعمال التجربة والعيان والسماع في بعض مباحثه العلمية و كما عاب اباز يد النحوي بانه لم يكن من حذّاق المتكلمين .

وقد كان في بعض نقده يستغني عن الاتيان بالبرهان لان من الامور التي نبّه على بطلانها مايقبله العقل دون برهان .

فغاية الجاحظ في نقده العلمي الوصول الى الحقيقة والحقيقة ضالّة العالِم .

المحاضرة السادسة عشرة

تحقيق الجاحظ

— ٥ —

« الاستعانة بالعقل »

—«»—

ومن المواطن التي يظهر فيها مقدار دقة فطنته وثقوب عقله موطن الشك فما ننسى قوله في صدر كلامنا على تحقيقه :

« ولا يعجبني الاقرار بهذا الخبر وكذلك لا يعجبني الانكار له ولكن ليكن قلبك الى انكاره أميل وبعد هذا فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له » .

وهذا الشك قريب من شك (ديكارت) الذي كنت اشرت اليه فقد كنت ذكرت لكم ان (ديكارت) يشك في كل شيء وقد تكون الحياة في نظره حلماً من الاحلام ولكن شكه هذه لا يشبه شك غيره من الفلاسفة فهو يشك في كل شيء ، فقد يفرض ان العالم لا حقيقة له على أمل ان يصل الى حقائق يثبتها البرهان فالشك في مذهبه سبيل الى اليقين .

فاذا قابلنا بين هذين الرأيين : بين رأي الجاحظ وبين رأي (ديكارت) وجدنا فيهما بعض التقارب فالجاحظ يقول : اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له : معنى هذا كله : اعرف الشك لتعرف به اليقين فالشك في نظره سبيل الى اليقين فهو لا يشك في الامور من اجل الشك وحده وانما يشك فيها حتى يصل الى يقين قاهر وكذلك (ديكارت) فانه لا يشك في الامور من اجل الشك وحده وانما يشك فيها على امل ان يصل الى حقائق يثبتها البرهان .

وكيف يلجأ الجاحظ الى مجرد الشك وهو الذي يقول [١] :

« واعلم ان من عوّد قلبه التشكك اعتراه الضعف » .

فلننظر بعد هذا في أنماط من أقاويله التي ظهرت عليها آثار الشك كالكلام على رؤوس الحيات او كالكلام على لعاب الافاعي او كالكلام على سلامة الفراريج على الافاعي او كالكلام على تخلق الفار او كالكلام على اخراج الولد رأسه من بطن أمه .

فمرة كان يشك في الامر وينفيه لان العلم لا يحققه . ومرة كان يشك فيه ويبين السبب الذي من اجله استفاض هذا الامر . وحيناً كان يشك فيه من دون ان يحاول نفيه بالحجة او يوضح علة من علل شيوعه وحيناً كان يشك فيه فيحار في امره حيرة قد لا يجد لنفسه مخرجاً منها ثم يجد هذا المخرج فيرد الامر لانه لم يثبته ظاهر العيان او متظاهر الاخبار .

فمن المواضع التي ظهر شكه فيها قوله [٢] :

« وزعم بعض المفسرين ان السنور خلق من عطسة الاسد وان الخنزير خلق من عطسة الفيل لان اصحاب التفسير يزعمون ان اهل سفينة نوح لما تأذوا من كثرة الفار وشكوا سأل ربه الفرج فأمره ان يأمر الاسد فيعطس فلما عطس خرج من منخريه زوج سنانير من ذكر وأنثى فخرج الذكر من المنخر الأيمن والانثى من المنخر الايسر فكفاهم مؤنة الجرذان ، ولما تأذوا برائحة نجوهم شكوا ذلك الى نوح فشكى الى الله تبارك وتعالى فأمر ان يأمر الفيل فيسلح فسلح خنازير فكفوهم مؤنة رائحة ذلك النجو .

وهذا الحديث نافق عند العوام وعند بعض القصاص وقد انكرنا ان يكون الفار تخلق الا في ارحام أناثها من اصلاب ذكورها » .

فالجاحظ ينكر خلق الفار الا في ارحام أناثها من اصلاب ذكورها ويشك في ضد هذا الامر لان العلم لا يؤيده .

ومن هذه المواضع التي ظهرت فيها آثار الشك قوله [٣] :

(١) رسائل الجاحظ على هامش كامل المبرد (الجزء الثاني الصفحة ٨٤) .

(٢) كتاب الحيوان الجزء الخامس الصفحة ١٠٦ .

(٣) « « « الرابع « ٥٢ .

« وقد زعم صاحب المنطق انه قد ظهرت حية لها رأسان فسألت أعرابياً عن ذلك فزعم ان ذلك حق فقلت له : فمن اين جهة الرأسين تسعى ومن ايهما تأكل وتعض فقال : فأما السعي فلا تسعى ولكنها تسعى الى حاجتها بالتقلب كما يتقلب الصبيان على الرمل واما الاكل فانها تتعشى بفم وتتغدى بفم واما العض فانها تعض برأسيها معاً فاذا به اكذب البرية .

وهذه الاحاديث كلها مما يزيد في الرعب منها وفي تهو يل امرها ... » .

فبعد ان شك الجاحظ في ان يكون للحية رأسان أخذ يقلب النظر في استفاضة هذا الخبر فوجد ان العلة في ذلك الرعب والتهو يل .

ومن هذه المواضع قوله (١) :

« وزعم احمد بن غالب قال : باعني حواء ثلاثين افعى بدينار بن واهدى الي خمساً اصطادها من قبالة القلب في تلك الصحاري على شاطىء دجلة قال : واردتها للترياق فقال لي حين جاءني بها : قل لي من يعالجها ، فقلت فلان الصيدلاني ، فقال : ليس عن هذا سألتك قل لي : من يذبحها ويسلخها قال : قلت هذا الصيدلاني بعينه ، قال : اخاف ان يكون مغروراً من نفسه ، انه والله ان اخطأ موضع المفصل من قفاها وحركته اسرع من البرق فان كان لا يحسن ولا يدري كيف يتغفله فيقره نقرة لم يفلح بعدها ابداً ولكني سأتطوع لك بان اعمل ذلك بين يديه قال فبعثت اليه وكان رأسه الجونة فيغفل الواحدة فيقبض على قفاها باسرع من الطرف ثم يذبحها فاذا ذبحها سال من افواهها لعاب ابيض فيقول : هذا هو السم الذي يقتل ، قال : فجالت يده جولة وقطرت من ذلك اللعاب قطرة من طرف قميص الصيدلاني قال : فتفشى ذلك القاطر حتى صار في قدر الدرهم العظيم ثم ان الحواء امتحن ذلك الموضع فتهافت في يده وبقيت الافاعي مذبوحة في الطست يكد بعضها بعضاً حتى امسينا ، قال : وبكرت على ابي رجاء الى باب الجسر أحدثه بالحديث فقال لي : وددت اني رأيت موضع القطرة في قميص الصيدلاني ، قال : فوالله ما رمت حتى مر معي الى الصيد لاني فأريته موضعه . واصحابنا يزعمون ان لعاب

(١) كتاب الحيوان الجزء الرابع الصفحة ٣٩

الأفاعي لا يعمل في الدم الا ان احمد بن المثنى زعم ان من الافاعي جنساً لا يضر الفراريج من بين الاشياء ٠٠

ولا ادري اي الخبرين ابعد ، اخبر ابن غالب في تفسيخ الثوب او خبر ابن المثنى في سلامة الفروج على الافعى » ٠

فهنا يتبين لكم ان الجاحظ اكتفى بانكار الخبر دون ان يبين سبباً من الاسباب ٠

ومنها قوله [1] :

« وقد زعم صاحب المنطق ان ولد الفيل يخرج من بطن أمه نابت الاسنان لطول مكثه في بطنها وهذا جائز في ولد الفيل غير منكر لان جماعة نساء معروفة الآباء والابناء قد ولدن اولادهن ولهن اسنان نابتة كالذي رووا في شأن مالك بن انس ومحمد ابن عجلان وغيرهما وقد زعم ناس من اهل البصرة ان خاقان بن عبد الله بن الاهتم استوفى في بطن أمه ثلاثة عشر شهراً وقد مدح بذلك وهجي وليس ذلك بالمستنكر وان كنت لم ار قط قابلة تقر بشيء من هذا الباب وكذلك الاطباء وقد رووه كما علمت ٠

ولكن العجب كل العجب ماذكروا من اخراج ولد الكركدن رأسه واعتلافه ثم ادخالها بعد الشبع والبطنة ولابد اكرمك الله لما اكل من نجو فان كان بقي الولد يأكل ولا يروث فهذا عجب وان كان يروث في جوفها فهذا أعجب وانما جعلناه يروث حيث سموه حماراً وهذا مما ينبغي لنا ان نذكره في خصال الحمار اذا بلغ ذلك الباب ولا أقر ان الولد يخرج رأسه من بطن أمه حتى يأكل شبعه ثم يدخل رأسه ولست أراه محالاً ولا ممتنعاً في القدرة ولا في الطبيعة وارى جوازه مرهوباً غير مستحيل الا ان قلبي ليس يقبله وليس في كونه ظلم ولا عيب ولا خطأ ولا تقصير في شيء من الصفات المحدودة ولم نجد القرآن ينكره والاجماع يدفعه والله هو القادر دون خلقه ولست ابت بانكاره وان كان قلبي شديد الميل الى رده وهذا مما لا يعلمه الناس بالقياس ولا يعرف الا بالعيان الباهر والخبر المتظاهر » ٠

فالجاحظ في مثل هذا المقام يعمد الى رد الخبر لان العيان الباهر لم يثبته ٠ هذا ما يتعلق ببعض خصائص شكه فلنلجأ الى النظر في العلل التي يجدها لأمر من الامور ٠

(١) كتاب الحيوان الجزء السابع الصفحة ٤٠ ٠

في هذا النوع يتبين لنا مقدار تغلغل عقله في الأسرار ومبلغ توفيقه في الإحاطة بهذه الاسرار فلننتخب موضعاً اوموضعين من المواضع التي نستدل بها على نفوذ عقله .

مرة يشهد الامر فيدونه كما يدون عالم الطبيعة حادثة من حوادثها ثم يستنبط من هذا الأمر قانوناً عاماً يلجأ اليه كلما جد الكلام على الامر الذي دونه على نحو استنباط علماء الطبيعة القوانين العامة من الامور الصغيرة التي يجربونها ويعاينونها واليكم مثلاً لذلك[1] :

« وربما اكل الانسان الجراد او بعض مايشبه الجراد فتسقط من يده الواحدة اوصدر الواحدة وليس يرى بقربه ذرة ولا له بالذر عهد في ذلك المنزل فلا يلبث ان تقبل ذرة قاصدة الى تلك الجرادة فترومها وتحاول قلبها ونقلها وجرها فاذا أعجزتها بعد ان بلغت عذراً مضت الى جحرها راجعة فلا يلبث ذلك الانسان ان يراها قد اقبلت وخلفها كالخيط الاسود الممدود حتى يتعاون عليها فيحملنها فأول ذلك صدق الشم لما لا يشمه الانسان الجائع ثم بعد الهمة والجرأة على محاولة نقل شيء في وزن جسمها مائة مرة واكثر من مائة مرة وليس شيء من الحيوان يقوى على حمل مايكون ضعفه مراراً غيرها وعلى انها لا ترضى باضعاف الاضعاف الا بعد انقطاع الانفاس .

فان قلت وما علم الرجل ان التي حاولت نقل الجرادة فعجزت هي التي اخبرت صويحباتها من الذر وانها كانت على مقدمتهن ، قلنا : لطول التجربة ولانا لم نر ذرة قط حاولت نقل جرادة فعجزت عنها ثم رأيناها راجعة الا رأينا معها مثل ذلك وان كنا لا نفصل في العين بينها وبين اخواتها فانه ليس يقع في القلب غير الذي قلنا وعلى أننا لم نر ذرة قط حملت شيئاً او مضت الى جحرها فارغة فتلقاها ذرة الا واقفتها ساعة وخبرتها بشيء فدل ذلك على انها في رجوعها عن الجرادة انما كانت لأشباهها كالرائد لا يكذب اهله » .

ذرة تأخذ عينها جرادة فتحاول نقلها فاذا عجزت عنها ذهبت الى أخواتها فاستعانت بهن على حملها . هذا هو الامر الصغير الذي عاينه الجاحظ ، من هذا الامر الذي عاينه استخرج قانوناً عاماً وهذا هو القانون : كل ذرة حاولت نقل جرادة اوغيرها فعجزت عنها استدعت صويحباتها فتعاون على نقل هذه الجرادة .

وقد كنت بينت لكم ان الجاحظ لم يستنبط من تجربته وعيانه وسماعه قوانين عامة ولكنه

(١) كتاب الحيوان الجزء الرابع الصفحة ٣ .

في هذه المرة لم يقصر في استنباط القانون من الامر الصغير ولو فعل هذا الفعل في كل الامور التي جربها او عاينها لما نقص تجربته وعيانه شيء ولكان في هذه التجربة وهذا الميان شبه علماء هذا العصر .

ومرة يمن في الكشف عن غرائز الحيوان فلا يماين حركة من حركاته كالانقياد او كالعصيان مثلاً الا وضح اسرار هذه الحركة مصيباً في توضيحه شاكلة الصواب .

فمن كلامه على سلاح اصناف الحيوان[1] :

« وانما تتقرب الشاة بالمتابعة والانقياد للسبع ، تظن ان ذلك مما ينفعها فان الأسد اذا اخذ الشاة لم تتابعه ولم تعنه على نفسها فربما اضطر الاسد الى ان يجرها الى عرينه ، واذا اخذها الذئب عدت معه حتى لايكون عليه فيها مؤنة وهو انما يريد ان يحميها عن الراعي والكلب وان لم يكن في ذلك الوقت هناك كلب ولا راعٍ فيرى ان يجري على عادته ، وكذلك الدجاج اذا كنّ وقّعاً على اغصان الشجر او على الرفوف فلو مرّ تحتها كلب وسنور وكل ثعلب وكل شيء يطالبها فاذا مرّ ابن آوى بقربها لم يبق منها واحدة الا رمت بنفسها اليه لأن الذئب هو المقصود به الى طباع الشاة وكذلك شأن ابن آوى والدجاج يخيل اليها ان ذلك مما ينفع عنده والجبن تفعل كل ذلك ولمثل هذه العلة نزل المنهزم عن فرسه الجواد ليحضر ببدنه يظن اجتهاده انجى له وانه اذا كان على ظهر الفرس أقلّ كداً وان ذلك اقرب الى الهلاك ولمثل هذه العلة يتشبث الغريق بمن اراد انقاذه حتى يغرقه ويغرق نفسه وهما قبل ذلك قدمهما يحال الغريق والمنهزم وانهما انما هما في ذلك كالرجل المعافى الذي يتعجب ممن يشرب الدواء من بد أعلم الناس به فاذا اصابته شقيقة او لسعة عقرب او اشتكى خاصرته اواصابه حصر او أسر شرب الدواء من يد اجهل الخليقة او جمع بين دواءين متضادين » .

فما انقادت الشاة للسبع او للذئب ومارمت الدجاجة بنفسها الى ابن آوى الا للجبن فالجاحظ يظهر لنا في هذا المقام في صورة العالم الواقف على غرائز الحيوان .

او قوله[2] :

(١) كتاب الحيوان الجزء السادس الصفحة ١٢٥ .

(٢) « « « « « «

« وليس شيء من صنف الحيوان اردى حيلة عند معاينة العدو من الغنم لانها في الاصل موصولة بكفايات الناس فأسندت اليهم في كل امر يصيبها ولولا ذلك لأخرجت لها الحاجة ضروباً من الابواب التي تعينها ... » .

* * *

هذا ما عنّ لنا من الكلام على ناحية جليلة من نواحي الجاحظ واعني بها ناحية العلم وقد احببت قبل ان انتقل الى الكلام على نواحي دينه او تهكمه او ادبه ان اجمل القول في مذاهب تحقيقه حتى نبقي صورته من هذه الجهة ماثلة لأذهاننا قائمة في صدورنا .

ارادت طائفة ان لا تجد في الجاحظ الا ناحية واحدة وهي ناحية الفن فارأت في بعض كتبه وخاصة في كتاب الحيوان الا خصائص فنية وهذا الرأي ناشيء عن امرين : اما عن جهل بمذاهب التحقيق في العلم واما عن تهاون بدراسة الجاحظ من كل اطرافه فليس من المعدلة في شيء ان ننظر الى الجاحظ من ناحية واحدة وان نهمل ناحية اجل وهي ناحية العلم .

ان ما حاضرتكم به حتى اليوم من بعد التمهيد والتوطئة مما لا بدّ منه قد صوّر لكم الجاحظ في صورة العالم على مصطلح هذا العصر .

همُّ العالم التنقيب عن الحقيقة وقد يذهب في هذا التنقيب مذاهب مختلفة على حسب العلم الذي ينصرف اليه وقد اخرج الجاحظ مكنونه في التنقيب عن هذه الحقيقة وأظن ان تجربه على اصناف من الحيوان كالحيات والافاعي والخنافس والعقارب والجرذان لم يكن لمجرد اللهو والعبث واي لهو في عيان العقارب ام اي عبث في مشاهدة الافاعي فاذا قطع الجاحظ طائفة من اعضاء الحيوان او القى عليه ضرباً من السم او ذبحه وفتّش جوفه وقانصته او دفنه في بعض النبات او ذاقه او بعج بطنه او جمع أضداده في اناء من قوارير او القى عليه مادة من مواد الكيمياء فما كان يفعل هذا واشباهه عبثاً وانما كان يرمي الى غايات بعيدة ، انه كان يرمي الى إدراك الحقيقة من ارشد مسالكها .

فمرةً كان يستعين بحواسه على الوصول الى هذه الحقيقة فيستعين باللمس او بالذوق او بالرؤية او بالشم او بسؤال اهل المعرفة والعلم متوثقاً في كل خبر يسمعه متثبتاً في كل كلام يبلغ اليه حتى يكون على هدىً من امره وحتى يعرض هذه الحقيقة في اوضح معارضها

فلا يخامره شك فيها ، واي شك بعد العيان القاهر او الخبر المتظاهر .

ومرة كان يستعين عليها بآلة اكمل من كل آلة وهي آلة العقل .

ولقد أحكم استعمال عقله فرامى دون حياض الحقيقة حتى لا يفسدها شيءٌ من توليد كذّاب او من غرائب زور .

فحيناً كان يقف بالمرصاد لكل رجل تحدّثه نفسه بخرافة من الخرافات وحيناً كان يحذّر الناس من الأباطيل فيدلهم على عيوبها مقتصداً في دلالته لا شتم ولا بذاءة شأن العالم الجليل او يشككهم فيها ثم يخرجهم من ظلمة الشك الى ضياء اليقين .

وكان في بعض الأحوال يلجأ الى توضيح العلل في ابواب العلم فلا يخطئ مواطن الحق .

وفي كل مذهب من هذه المذاهب في تجربته وعيانه وسماعه ونقده وشكه وتوضيحه كان الجاحظ يطلع علينا في صورة العالم الذي يعمل عقله في البحث عن الحقيقة .

الغلاظة في اللغة

-٢-

« الغليظ »

وهو غليظ وغُلاظ وغالظ ج غَلَظَة وعُلابط وعُلَبِط وأعَمّ وعَلَنْدى وعَلَكَدٌ وعُلَكِدٌ وعُلَكِد وعُلاكد وغَليذ (على الابدال) وعَبَنْجَر وعَبَنّ وعَبَنّى وعُرابض وقَشْبَر وحُدُرٌ وأَزْعب وهي زَعباء ، ومسفوح ومُسَلْهَف وشثن يقال هو شَثْل الاصابع وشَثْنها ومنه قول الراجز :

اوعدني بالسجن والاداهم رجلي فرجلي شثنة المناسم

ويقال اسد شثن البراثن . وحُباجر وحِبَجْر وحِبَجْر وَدَخْشَم ودُخشُم ودَخْشَن (كأنه موخوذ من الدَخَش وهو الامتلاء من اللحم) وشُنابث وشِرْبدارة . ودُلَز ودُحامِس (غليظ سمين) ودُمامِس وطِبْطَر وكَدُوف وكِيح (للذكر والمؤنث ويقال اسنان كِيح اي غلاظ وتقول كِيح أكْيَح اي خشن غليظ كما يقال يوم ايوم) وَمَعْد ، ووَشَب (وهو مأخوذ من قول العرب تمرة وَشْبة اي غليظة اللحاء) وَجَرْعَب وَجَرْعَبِل وَجَشِم وجَشْن وجَشِم وشامِي (الجامي الغليظ) وجِنعِظ وجِنعاظ (الغليظ الجافي) وجِنعِيظ (غليظ أشم) وجاف يقال قلم جاف اذا كان غليظ القط ورجل جافي الخلقة وجافي الخلق اي كز غليظ المشرة خرِق في المعاملة متحامل عند الغضب والسورة على الجليس ج جُفاة ، وعُتُل وأُزْبَخ وجرعيب وأعَقَف تقول جاءني اعرابي اعقف .

وجأب : يقال كاهل جأب وخلق جأب ، وَجَبَل تقول فلان جبل الرأس والوجه اذا كان غليظهما قليل الحلاوة ، وَجَبِل « هذا شيء جَبِل اي غليظ جاف » وَصَمَكوك

وبَجِيل وحُنابِكل وأُخشبُ وزِبَعْرِي وشرَنْبَذ وجَحْنَش ومُصْمَوْمِد .

والعُنْجُهُ : الجافي من الرجال ومثله القُبارِب والقُحّ والعِتْوَلّ والعِلْب والإِزْب . ورجل غُضابُ ، غليظ الجلد . واعرابي محرَّم ، جافٍ فصيح لم يخالط الحضر . وغلام غُنْدُر وغُنْدَر اي سمين غليظ . ورجل ذو جِبْلة اي غليظ . ومُعَثَّر غليظ كثير اللحم . وصِيَمْم وصِيَّمْم ، غليظ شديد ضخم . وخُزْخُز وخُزَخِز ، غليظ العضل . وقُمْدود وقُباد وقُبادي وقُمُد وقُمُدّ وقُمُدّان وقُمُدّانيّ ، غليظ . وكَنْثَر ، غليظ عبل . وانه رجل ذو بُضْم اي غليظ ومثله الرجل البَكْباك . وذو جَواز ، غليظ صلب . وجَهْم الوجه ، غليظه . والجهم الوجه الغليظ المجتمع السمج . والفِلَزّ ، الرجل الغليظ الشديد . والفُمراك الغليظ الشديد عصب الخلق . والضِيَّاط ، الغليظ . والعِرَبْض والعِرْباض ، الشديد الغليظ . والعِرْنة ، الجافي الكزّ وقال ابو عمرو وهو الذي يخدم البيوت . والبَلْعَث ، الرجل الغليظ الجسم المسترخي . والأمّان ، العييّ الجلف الجافي القليل الكلام ومثله الأُميّ . والجَبْهَل ، الجافي . والجُنادِف ، الجافي الجسيم . والوَطْب ، الجافي . والعَشْلِيل ، الجافي الثقيل . والعُنْجُهِيّ ، الخشن الجافي . والجِبْز ، الغليظ الكز . والقُنابل والقُنْبُل ، الغليظ الشديد ومثله الكُلْدُمة . والبَلأز ، الغلام الغليظ . والجُوْشوش ، الرجل الغليظ .

وقالوا مكان صَلَب ، غليظ حجر ومثله ارض صُلْبة . وانف مُعْرَنْزِم ، غليظ مجتمع . وحمار كَدِم ، غليظ شديد . والبَلْخَص ، الغليظ الكثير اللحم . والحِزاق ، السوار الغليظ . والخُرْشب ، الضائط الجافي . والدِفِرَّة ، الحمار الغليظ . والعَدَبَّس الغليظ الضخم . والعِلْبُ ، المكان الغليظ الذي لو مُطر دهراً لم يُنْبِت . والجَباس ، الغليظ القدم . والجَبِيلُ ، الغليظ جلدة الراس والعظام ج جُبُل . والجَزْلُ ، ما غلظ وقصر من الشجر — ومن الشعر ، اشد سواداً واغلظُه . والجَشْب ، الغليظ من الطعام ومثله الجَشيب والجشاب والمجشوب . والجشيب ايضاً ، الثوب الغليظ - والسقاء الغليظ الخَلَق . والمُجَعَّد من الحيس ، الغليظ .

والعُرْدُمان ، الشديد الجافي ومثله الغَضَبر والغُضابر والعَجْرَد والعَفَنْك والعِرْباض والعُرَيض والعُفْر ج أعفار وعِفار . والشَخْزَب والشُخازِب

والإرْزَبُّ والصَّتْم والصَّيْصَبُ والصَّبْعاب والصُّباصب والكَدِم والمُكْلندد والمكلندي والجُرائِض والجُرَئِض والجِراض والقَعْوس الغليظ الشديد الظهر من كل شيء وقالوا ناقة عَجرد وعجرّدة اي غليظة شديدة وكذا قدم موقوعة وجمل بلذزي وجلذزيّ .

(الرقبة) والعُرْدُمان ايضاً ، الغليظ الرقبة ومثله الرَّقَبان والرقباني والأرقب ومنه سمي الاسد ارقب وذلك من الرقَب وهو غلظ الرقبة . والفُرانِس والفِرناس والحَبَرْكي والقِسْوَرّ (الغليظ الرقبة القوي) .

(الجنب) والأعكى ، الغليظ الجنبين وهي عكواء . والمُجْرَئِشُّ ، الغليظ الجنب الجافي .

(الانف) والأعبُّ ، الغليظ الانف .

(الجلد) والدبكل ، الغليظ الجلد السمج . والجبيل ، الغليظ الجلدة الراس والعظام .

(السمين) والدُّحْسان والدُّحْساني ، الرجل الشديد السمرة الغليظ السمين . والدُّحامِسُ ، الغليظ السمين . والحَمِرُ ، الرجل الغليظ السمين . وقد اغتال الغلام اغتيالاً اذا سمن وغلظ . واوكمت القدم ايكاماً ، سمنت وغلظت واشتدت . وحَدَرُ الغلام ، كان حادراً اي سميناً غليظا .

« للبحث صلة »

(النبك) سالم خليل رزق

—«×»—

آراء وافكار

تعرف اخبار الناس
« وحب الاطلاع عليها »

جاء في كتاب (التراتيب الادارية) ان النبي صلى الله عليه وسلم « كان يسأل الناس عما في الناس » وليس هذا من التجسس المنهي عنه في الشرع ، وانما الغرض منه معرفة الخير والاحسان فيُزداد منهما ومعرفة الشر والإساءة فيحترز منهما ويحتاط لهما . وكان بعض الصحابة يخبر النبي (ص) بلمز المنافقين فيقول : رحم الله موسى لقد أوذي باكثر من هذا فصبر . ولاريب انه يجوز بناء على هذا إخبار الامام بمايقال عنه . وهكذا كان لعمر عيون على الناس ينقلون اليه أخبارهم كما كان يفعل حذيفة بن اليمان في نقله أسرار المنافقين الى رسول الله (ص) . ومن اللطائف ماروي من ان (ابن غازي) احد علماء المغرب قد عين بعض أصحابه ان يكتب له كل ماجرى له في البلد وماقال وقيل من خميس الى خميس فيطالع ذلك . ويكون ذلك يوم الخميس الذي فيه تفرغ من التدريس . ورووا ان الحافظ اباالعباس المقري اتخذ — وهو مقيم في مصر — رجلاً بنفقته وكسوته ومايحتاج اليه على ان يذهب كل يوم صباحاً فيخترق البلد أسواقاً ومساجد ورحاباً وأزقة ، وكلما رأى امراً او سمع خبراً قصه على ابي العباس في الليل . وروى بعض تلاميذ ابي العباس (الدرعي) ان شيخه المذكور كان كثير السؤال والفحص عن أحوال الناس ووقائعهم في الأقطار والمدائن قال وكان يسألني عن ذلك كثيراً . فقلت في نفسي مرة : ماللشيخ وللاخبار ؟ لواشتغل بصلاته وصيامه وسبحته كان أحسن له . قال فلقيني بعد ذلك بقريب وقال لي : المؤمن يسأل عن إخوانه وعن أحوالهم فمن كان منهم في خير دعا له بالزيادة والهناء ومن كان في شر وفقر دعا له بخير ورحمة . ويقال ان الشيخ الشعراني كان في تعرف أحوال الناس على قدم الشيخ الدرعي

وفي طبقات ابن سعد عن موسى بن طلحة قال : رأيت عثمان بن عفان والمؤذن يؤذن (يعني يوم الجمعة) وهو يحدث الناس يسألهم ويستخبرهم عن الأسعار والأخبار . ومن طريق آخر انه يجلس على المنبر فيؤذن المؤذن وهو يتحدث يسأل الناس عن أسعارهم وعن قوامهم وعن مرضاهم ثم يقوم فيخطب . اه

هذا وفي نشوار المحاضرة (جزئه الثاني) الذي مازال مخطوطاً خبر عن بعض رجال الدولة العباسية يدل على مبلغ عنايتهم بالاخبار وتقصي أحوال الناس وسيرهم قال :

حدثني محمد بن احمد بن عثمان الزيات قال حدثني ابو بكر بن حوري : شيخ كان من أهل خامية ؟ من أعمال النهروان قد أقام ببغداد سنين وكان مشهوراً بصحبة ابي عبدالله ابن ابي عوف قال : كنت ألزم ابن ابي عوف سنين لجوار بيننا ومودة . لا أسأله حاجة : لانها لم تكن تعرض لي وكنت أتخفف بين يديه في حوائج ينفذني فيها . وكان رسمي في كل ليلة أجيئه بعد العتمة وقد صلى ودخل منزله . فحين يراني يمد رجله في حجري فاغمزها وأحادثه فيسألني عن الاخبار والحوادث ببغداد . وكنت أسأل عنها وأتطلبها من كل موضع واجيئه بها وأخبره بخبر من قدم البلد ومن سافر عنه ومن مات ومن وُلد ومن خاصم ومن ورث ومن يُرْجف به الناس وأخبار الجيران وبكل غث وسمين الى ان ينعس فاذا نعس قبض رجله فقمت الى بيتي وقد مضى ثلث الليل او بعضه او أقل . وجرى الامر على هذا سنين . فلما كان ذات يوم جاءني سقطي[1] كان يعاملني فقال قد دُفعتُ الى شيء ان تم عليّ افتقرت . فقلت ماهو ؟ فقال رجل كنت أعامله فاجتمع لي عليه الف دينار فطالبته فرهنني عقدَ جوهر قُوّم بالف دينار لى ان يفتكّه بعد شهور او أبيعه . وأذن

(١) بائع السقط وهو الرديء من متاع البيت نحو الابرة والفأس والقدر :

وما للمرء خير في حياة اذا ماعد من سقط المتاع

اولعل صوابه السفطي (بالفاء) نسبة الى السفط وهو مايعبّى فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء . ويكون المراد هنا بائع الطيوب وسائر الحاجات النسائية وهو المسمى في عصرنا بالافرنسية (nouveauté) وانما رجحنا ان يكون هذا هو المراد لان السفطي المذكور في هذا الخبر تجمّع له مع بعض عملائه الف دينار . والمتاجر بحاجات النساء وأدواتهن ووسائل تطريتهن — خليق بان يملك الألوف من الدنانير على العكس من بائع الابرة والفاس .

لي في ذلك فلما كان امس وجه (مؤنس الفحل صاحب الشرطة) من كَبَسَ دكاني وفتح صندوقي واخذ العقد وقد استتر الرجل . فقلت له لا تفكر في هذا فاني أخاطب (اباعبدالله بن ابي عوف) فيلزمه ردّه صاغراً . قال وانا مُدِلٌ بابن ابي عوف لمكاني منه . ومكننه من المعتضد (الخليفة) . فلما كان تلك الليلة جئته فمدّ رجله في حجري على الرسم . وحادثته وعرفته الأخبار وقلت له في جملتها أمر السقطي مع مؤنس (رئيس الشرطة) ثم قلت هذا الرجل جاري ومعاملي وأوجبُ الناس حقاً عليّ ولا بد والله من تفضلك ياسيدي واعتنائك في امره وإلزام مؤنس (رئيس الشرطة) رد العقد .

قال ما انا وهذا ؟ أعادي صاحب شرطة الخليفة ؟ وكيف استجرأتَ ان تعرّضني لمثل هذا وتسألني فيه ؟ وكأني بك وقد قلتَ ابن ابي عوف صديقي ألزمه رد هذا . ولم تُشفق على جاهي وكأنّ صلاح حال السقطي أحب اليك من صيانة جاهي . ما انا عافاك الله وهذا ولا اليه ؟ قال فورد عليّ من هذا أعظم مورد . وقلت في نفسي : هذا رجل قد خدمته كذا وكذا سنة هذه الخدمة التي لم تخدمها العبيد على اني ماسألته قط حاجةً ولا احتجت اليه في شيء ولا له عليّ رزق ولا إفضال بلقائي في حاجة قد سألته فيها بمثل هذا ؟ ! شهد الله لادخلت له داراً بعدها ابداً . وامسكتُ وجلست لا أتكلم . ثم قمت قبل الوقت الذي كنت أقوم فيه . وعدت الى منزلي منكسراً مغموماً . فلما كان من الغد بكرتُ[1] لئلا يجيئني الرجل (السقطي) بسبب حاجته فأفتضح عنده . ولم أدخل بيتي الى وقت المغرب . ثم جئتُ فصليت وطرحت نفسي على سرير وإعتقدت أني لا أمضي اليه . فلما صليت العتمة جاءني خادم لابن ابي عوف فقال الشيخ يقرأ عليك السلام و يقول لمَ تأخرت الليلة ؟ ان كنت معافيً فتعال وان كنت متشكياً جئناك فاستحييت وقلت أمضي الليلة ثم أنقطع . فحين دخلت اليه ورآني مدّ رجله في حجري . فأخذتها وغمزتها على الرسم فقال ايش[2] عندك من الأخبار ؟ فأقبلت أحدثه بحديث غثّ متكأف متصنّع . فلم يزل يصبر على

(١) بكرت اي نزلت من داري باكراً .

(٢) ايش منحوتة من اي شيءٍ وهي من كلمات عامتنا اليوم لكنها مع هذا كثيرة الاستعمال في كلام الفصحاء الاقدمين .

ذلك ساعة ثم قبض رجله فقمت فقال : ياابابكر[١] انظر ايش تحت المصلّى[٢] واذا برقعة في قرطاس فأخذتها وتقدمت الى الشمعة واذا فيها: «يامؤنس جسرت على قصد دكان رجل» « تاجر يعرف بفلان وفتحت صندوقه واخذت منه عقد جوهر قيمته الف دينار وانا في الدنيا؟ » « والله لولا انها أول غلطة غلطتها ماجرى في ذلك مناظرة[٣]. اركب بنفسك الى دكان» « الرجل (السقطي) حتى ترد العقد في الصندوق بيدك ظاهراً » .

فقلتُ لابي عبد الله ايش هذا ياسيدي ؟ فقال خط المعتضد (الخليفة) الى مؤنس (رئيس الشرطة) بما أردته : مثّلتُ بين وجدك وعتبك مع وزن بقاء الحال مع مؤنس رئيس الشرطة — كما هي — وبين رضاك وقضاء حقك وايحاش مؤنس فاخترتُك عليه فأخذتُ خط امير المؤمنين بما تراه . فامض وأوصله اليه فانه يفعل ما أمره به . فقبّلتُ رأسه وشكرته وانصرفت وانا من الفرح لا أعقل . وجئت الى السقطي واخذت بيده ومضينا الى مؤنس وسلّمت التوقيع اليه .

فحين قرأه اسودّ وجهه وارتعد حتى سقطت الرقعة من يده . ثم قال « يا هذا : الله بيني وبينك . هذا شيء ماعلمتُ به وتموّه عليّ فألاّ تظلمتم اليّ فان لم أنصفكم فالى الوزير . ماهذا ؟ بلّغتم الأمر الى امير المؤمنين من أول وهلة !! » قال وانتشطت[٤] فقلت « بعلمك جرى والعقد معك » قال : فأحضر العقد ، وقال : خذوا الالف دينار التي عليه الساعة واكتبوا على الرجل (السقطي) بطلان ماادعاه . فقلت لانفعل . فقال خذوا الف وخمسمائة دينار . فقلت والله لو أعطيتنا الف الف دينار ما رضينا او تركب بنفسك الى الدكان والعقدُ معك فترده الى الصندوق ولانكذّب انفسنا . اوترد التوقيع . فقال أسرجوا لي قال : فركب والله في موكبه حتى وقف على دكان (السقطي) ورد العقد بيده الى الصندوق . فجاءنا صاحبه من ذلك اليوم ودفع الالف دينار وارتجعه . « المغربي »

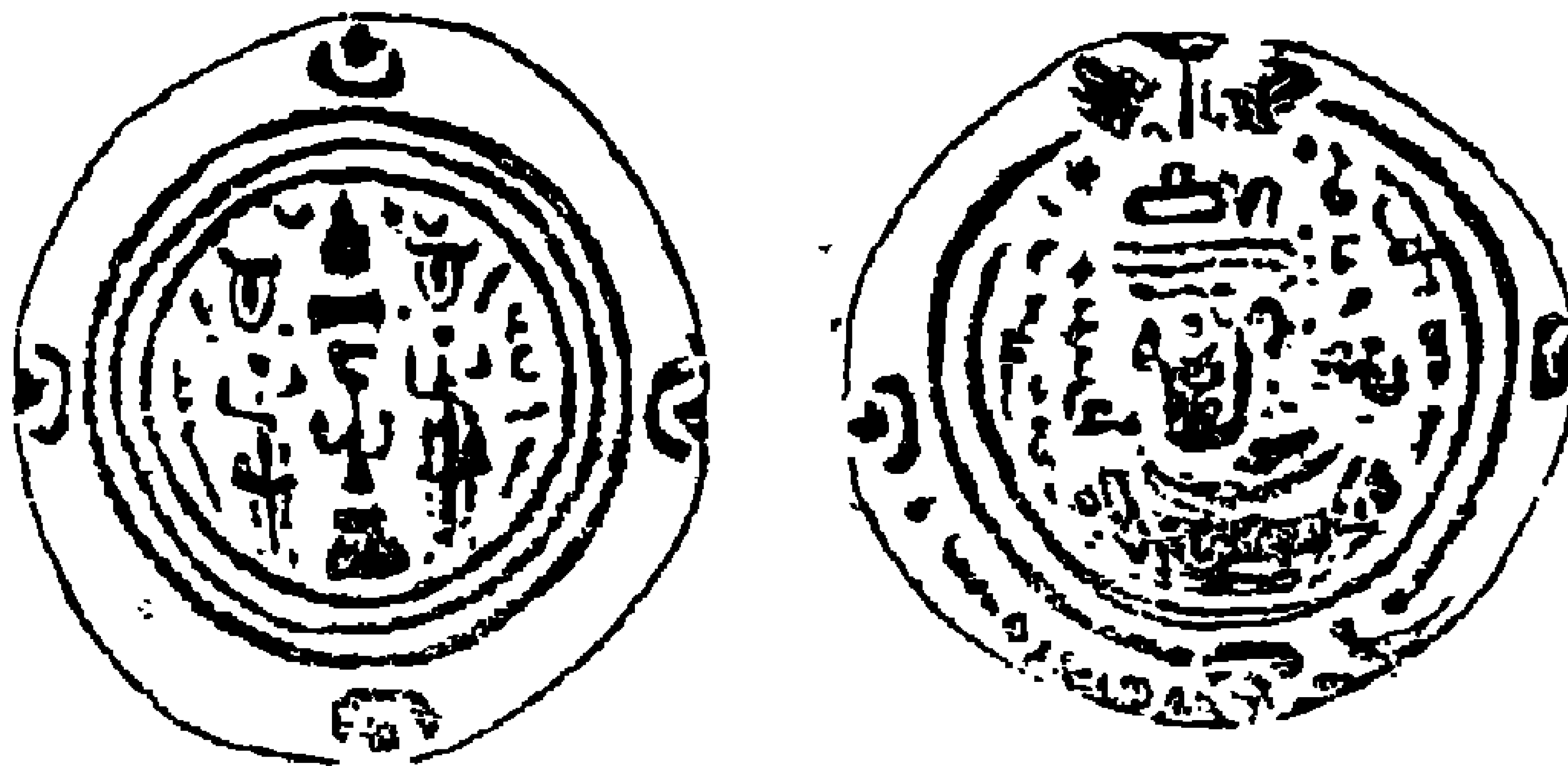
(١) قوله ياابابكر باسقاط همزة (أب) وكانوا قديماً يصنعون كذلك في همزة (اب) المنادى في لغتهم الدارجة وكذا اليوم في لغتنا . (٢) «المصلى» سجادة الصلاة حيث كان يصلي . (٣) ماجرى في ذلك مناظرة اي محاورة ومراجعة بل كنت أوقعت بك .

(٤) قوله فانتشطت (من الانشوطة) اي كأنني كنت موثقاً في أنشوطة حبل ثم حلّت عني واجترأت على الجواب .

زياد بن ابي سفيان

جاءنا من الاستاذ (ابيان) وصف درهم ساساني اسلامي تاريخه سنة ٢٤ هـ · فرغب ان يطلع عليه قراء مجلة المجمع العلمي العربي خدمة للتاريخ ·

وهذا وصف الدرهم المذكور :



شكل (١) شكل (٢)

(وجهه) شكل ١ صورة كسرى (اي رسم كسرى النصفي الاعلى) ·
على جهة اليمين كتابة فهلوية : (كد افزود) ·
على جهة اليسار كتابة فهلوية : (زياد بن ابي سفيان) ·
على حاشية الدرهم بخط كوفي : (بسم الله)

(ظهره) شكل ٢ شخصان بينهما مشعل
على جهة اليسار التاريخ بخط فهلوي : (١٣) الموافق لسنة ٢٤ هـ ·
على جهة اليمين محل الضرب بخط فهلوي : (شابران او شُبرقان) ·

قال البلخي في تاريخه (كتاب البدء والتاريخ جلد ٦ ص ٢) : « قالوا ان معاوية اول من ادعى الى غير ابيه فادعى زياداً اخاً له لما رأى من جلده ونفاذه · وزياد هو ابن عبد من ثقيف وأمه سمية » ·

يظهر ان هذه العبارة غير مستقاة من مصدر تاريخي واظنها غير صحيحة وعبارة الدرهم المذكور هي فصل الخطاب لانها تثبت ان معاوية وزياداً هما حقيقة أخوان لأب واحد ·

فان صح ان سنة (١٣) هي التاريخ اليزدجردي الموافق لسنة ٢٤ هـ . فيكون زياد قد سبق له الانتساب الى ابي سفيان قبل سبعة عشر سنة من خلافة معاوية وبتضح من هذه الوثيقة المعاصرة لذاك العهد ان زياداً كان يسمي زياد بن ابي سفيان قبل تولية معاوية اي في زمن خلافة عثمان .

وقال ابن الطقطقي في كتابه الفخري ص : ١٠٠ « فكتب (اي معاوية) اليه (اي زياد) كتاباً يتهدده و يعرض له بولادة ابي سفيان و يقول له انت اخي ».

وذكر (هويار) في الجزء الاول من تاريخ العرب ص ٢٦ ماترجمته :

« لم يتردد معاوية بالاعتراف بزياد انه ابن ابيه ابي سفيان والحقه بنسبه » .

فقول الطقطقي وهويار المتقدم ذكرهما هو الصواب واصح مما نقله البلخي . فعبارة الدرهم هي وثيقة تاريخية تثبت قولهما بان زياداً هو ابن ابي سفيان واخو معاوية .

ابان

مطبوعات حديثة

—*—

الاعلان بالتوبيخ
« لمن ذم التاريخ »

طبع بمطبعة الترقي بدمشق ص ١٧٠

الحافظ السخاوي شمس الدين محمد بن عبد الرحمن مؤلف هذا الكتاب (المتوفى سنة ٩٠٢ هـ) من اشهر رجال العلم والتصنيف في القرن التاسع · وهو صاحب التاريخ المسمى (الضوء اللامع في رجال القرن التاسع) الذي مازال مخطوطاً في خمسة أجلاد · ولعمري ان طبع هذا الكتاب هو أعظم عمل يخدم به التاريخ الاسلامي والتعريف برجاله الذين عاشوا في عصوره الوسطى · و يظهر ان العلامة السخاوي كان شديد العناية بفن التاريخ إذ أن معظم مصنفاته تحوم حول هذا الفن · وكأن أناساً من معاصريه لمزوه او لمزوا فن التاريخ وزعموا انه دون غيره من العلوم · فقام المؤلف ووضع كتابه هذا (الاعلان بالتوبيخ) وضمنه فضل التاريخ وفوائده والمصنفين فيه والمقارنة بين مصنفاتهم ونقدها وكل ما له علاقة بفن التاريخ · فصح فيه ما قاله الاستاذ احمد باشا تيمور (رحمه الله) : ان كتاب (الاعلان بالتوبيخ) هو تاريخ للتاريخ في الاسلام » ·

عمد الى طبع هذا الكتاب الأديب (السيد حسام الدين القدسي) وقد استخرج نسخته من نسختين ظفر بهما في خزانة كتب العلامة احمد باشا تيمور · وقد قدم لها مقدمة ضمنها ترجمة مؤلفها السخاوي · ولا يستغني عن مطالعة هذا الكتاب مؤرخ ولا محدث ولا كاتب في تاريخ الاسلام · وان المتصفح له يجد فيه فوائد قلما يظفر بها في غيره · ومما

لوحظ فيه ان المؤلف استعمل كلمة (اختيار) بمعنى المتقدم في السن (ص ٩) وكنا نحسب ان هذه الكلمة بهذا المعنى انما جاءتنا من الاتراك العثمانيين المتأخرين . وكأنهم يريدون بها ان هذا المسن الهرم أصبح مختاراً لرحمة الله وسكنى جنته . والشيخ المؤلف كان يعيش في مصر في زمن لم يكن الأتراك العثمانيون استولوا عليها بعد . فالكلمة اقدم مما نظن .

وفي صفحة (٣٤) ذكر السبب في وفاة ابن مالك صاحب الألفية نزيل دمشق فقال انه كان خطيباً في بعض قرى دمشق فعارضه بعض جهلتها وانتزع الخطابة منه فشق عليه الامر . ثم انه صلى الجمعة في المسجد وبعد ان نزل ذلك الخطيب عن المنبر سأله ابن مالك عن مخرج الألف يعني مخرجها من الفم وهو سؤال في علم التجويد لايحسن ان يجهله امام ولا خطيب . فتحير الخطيب وظن انه يكلمه بالأعجمية . فما كان منه الا ان شرع يسرد له حروف الهجاء : ألف باء تاء ثاء حتى استوفاها كلها فصاح أنصار الخطيب من العامة مسروراً قائلين : ها هو قد سئل عن مسألة فأجاب بتسع وعشرين . فالتفت ابن مالك يمنة و يسرة فلم يجد له ناصراً فمات بعد ايام يسيرة . « المغربي »

النواة في حقول الحياة

هذا الكتاب لمؤلفه الاستاذ السيد محمد حبيب العبيدي الموصلي في نيف ومائتي صفحة تضمنت زبدة ماينبغي ان يقال في الأخلاق الفاضلة من حيث انها دعامة للاجتماع الاسلامي خاصة والانساني عامة . وقد أراد بتسمية كتابه بالنواة في حقول الحياة ان مضامينه اذا قرأها الناشئون كانت نواة طيبة تثمر لهم من سعادة الحياة ما يفيدهم أفراداً ومجتمعين .

واذ كانت الاخلاق الفاضلة لا بد ان تقوم على الاعتقاد بالله قدّم المؤلف بحث الاعتقاد والنظر في الكائنات على الأبحاث الاربعة التي بنى عليها كتابه ثم قفّى على ذلك ببحث الأخلاق ونتائجها . ولايخفى ان الأخلاق انما تتكون او تستمد من البيئة التي يتقلب فيها الانسان فلم يدع المؤلف عاملاً من عوامل البيئة ومؤثراتها الا ذكره من مثل (العائلة) و (المدرسة) و (المعاشرين) و (المصنفات) و (الصحف) و (المجلات) وغير ذلك .

واكبر عوامل البيئة (الدين) و (الحكومة) ولذلك عقد المؤلف بحثين لهما . ولم يبحث

في البيئة بحثاً نظرياً محضاً بل بحث فيها من حيث شؤونها التجريبية التي ينبغي ان يعمل بها أبناء الأوطان ليكونوا وطنيين حقيقيين . وفي ذيل الصفحات تعليقات واضافات معظمها وقائع جرت للمؤلف فكان الاستشهاد بها عاملاً على زيادة الايضاح لمباحث الكتاب والأمتاع بفوائده فالشكر الجزيل للمؤلف الفاضل . «له»

الآداب العربية وتاريخها

« تأليف جرجس كنعان طبع في المطبعة الادبية في بيروت سنة ١٩٣١ »
« في ٦٢٠ صفحة »

مؤلف الكتاب هو أستاذ للآداب العربية في (كلية الشرق في طرطوس) من بلاد (العلويين) فهو اذا كتب انما يكتب عن علم يمده عمل ، وعمل يغذيه علم ، ولذا كان لكتابه قيمة وفائدة في نفوس الأدباء وقد رتبه مطابقاً لمنهاج البكالوريا الذي تقرر السير عليه في الجمهورية اللبنانية والدولة السورية . فقسم عصور الشعر والنثر والأدب عامة الى العصر الجاهلي فالأموي فالعباسي وقسّم العباسي الى أدوار حتى بلغ العصر الأخير ودعاه (عصر الانبعاث) وقد تتبع رجال كل عصر من هذه العصور فترجمهم — من الشنفرى في الأقدمين — الى نجيب حبيقة في المعاصرين . والكتاب جمع بين غزارة المادة وحسن التبويب وخلوص النية في خدمة الوطن العربي ، ومن آثار ذلك قوله في مقدمة الكتاب « ولا يعرف التاريخ أدباً عالمياً قوياً شديد التأثير كالأدب العربي ففيه صهر الأدب الآري مع الأدب السامي وأصبح عنوان رقي العالم مدة عشرة قرون الخ » .

وهنالك مواضع للانتقاد ليست بذات بال وهي مغتفرة في جنب الاتقان والعناية الملموسة في كل جانب من جوانب الكتاب فنلفت اليه طلاب الآداب العربية عامة والبكالوريا خاصة فان فيه شفاء وبلاغاً . «له»

ابن زيدون

- ٣ -

كتابة ابن زيدون

(أ) طريقته فيها — كانت طريقة كتابة الاندلسيين منذ عصر الناصر والمستنصر جارية على أسلوب ابن العميد وحلبته من أمثال الصاحب بن عباد والبديع والخوارزمي والصابي ومن تابعهم من أمثال الحريري والعماد والاصفهاني . وكان الكاتب الاندلسي الذي ينسج على منوالها وان حل المأثور من النظم وضمن بعض القرآن والحديث لا يغلب ذلك على قوله فتفقد فيه صورة نفسه وخاصة طبعه ، بل كانت تكون له التشبيهات الرائعة والتعليلات الحسنة ثم هو لا يخرج عن التزام السجع غالباً .

وابن زيدون راعى هذه الطريقة من بعض الوجوه وخالفها من بعض ، فاما ماراعاه في كتابته منها فهو :

١ — حل المنظوم من مشهور الابيات .

٢ — الاحتجاج والاستشهاد بكثير من هذه الابيات مستعملاً لها استعمال الأمثال فلا ينسبها الى قائلها .

٣ — الاقتباس من القرآن الكريم او الحديث بلفظها او تغيير بعض نظمها .

٤ — تضمين الحكم والأمثال بلفظ اصحابها او بتغيير في نظمها .

واما ماخالف فيه فهو :

١ — عدم التزام السجع .

٢ — الاستكثار من أمثال العرب القديمة استكثاراً كاد يعد قوله الخاص بجانبه ضائعاً وبخاصة الغريب من هذه الامثال .

٣ — الاستكثار جداً من ذكر اسماء رجال التاريخ المشهورين ٠

٤ — الاستكثار جداً من اسماء الوقائع الشهيرة في التاريخ ٠

٥ — الاستكثار من الجمل المترادفة المنسوجة على مثل واحد في المعنى الواحد حتى يتكون منها فصل طويل يشغل فراغاً كثيراً من الرسالة بحيث لو اقتصر على فقرة واحدة من الفقر المتكررة في المعنى الواحد لنزلت الرسالة الى خمسها او سدسها ٠

وهذه الطريقة غلبت على كتابته وهي على رسالتيه الجدية والهزلية أغلب ولا سيما الهزلية ٠

(ب) منزلته فيها — اشتهر ابن زيدون عند المغاربة والمشارقة بانه من بلغاء الكتاب والشعراء ، فاما الشعر فلاجدال في استحقاقه فيه منزلة عليا ، واما الكتابة فلاستحقاقه ذلك الصيت الذائع فيها تأويل وتعليل يخرجان عن حد بلاغة الكتابة في ذاتها الى امور خارجة عن جوهر الاجادة وذلك ان كتابته اشتهرت بين الناس لامرين :

اولاً — انها ليست على منوال كتابة الاندلسيين في عصره بل هي مخالفة لها في بعض الصور ٠ وصدورُ العمل المخالف لعمل الناس من رجل متوسط في الحال لافت بذاته للانظار ، باهر للنفوس ، فكيف به لو صدر عن ذي شأن نبيه بمنصب رفيع ونسب عريق وجاه عريض وصيت ذائع في السياسة والادب والشعر وحسن المحاضرة والمنادمة ٠

وثانياً — انها باهرة لانمعانيها وروعة أساليبها وشدة حوكها في نفس قارئها بل بما اشتملت عليه من وفرة التضمين والاستشهاد والوقائع واسماء الرجال ، مما يكبر من شأن كاتبها في الصدور ، ويشهد له بطول الباع وسعة الاطلاع ، ويكبر من شأنها هي ، اذ تكون بمثابة مجموعة أدبية حافلة بمأثور الاقوال ، مُعرِّفة بكثير من حوادث التاريخ واسماء الابطال ، بحيث اذا حفظ ناشئٌ منأدب رسالة منها أودعت صدره زبدة اطلاع كثير وبحث طويل ، فكأن شهرته آتية من طريق التثقيف والتعليم ، فتكون في الأدب أشبه بمتن من متون العلم كثير المسائل والأحكام وجيز العبارة ، وهذا السبب بعينه هو سبب شهرة مقامات الحريري ، وبعض القصائد المحتوية على كثير من أسماء الرجال وحوادث التاريخ والحكم والأمثال ، كمقصورة ابن دريد ورائية ابن عبدون في رثاء دولة بني الافطس ونونية الرندي ولامية ابن الوردي ونونية البستي ونحوها وكلها عظيمة الاثر في التعليم والتأديب

ذاتها وحسن تأثيرها في النفس حتى تستجيب النفس لداعيها ، وتقبل على قائلها . ولذلك تجد رسالة ابن زيدون الجدية التي استعطف بها جهوراً لم تؤد ما وضعت له .

ولا نعني بكلامنا هذا ان الرجل كان قليل الخاطر ، او ضعيف الارتجال ، فكل من تعرض لذكر اخباره يصفه بقوة العارضة وسرعة البديهة والارتجال ، وانه كان في مجلس ولادة يرتجل المقطعات الشعرية البليغة ويحاضر بالنكت النادرة والاجوبة المسكتة . ودفن بعض حرمه فوقف للناس يعزونه على اختلاف طبقاتهم فما أجاب احداً بما أجاب به غيره ، وتلك غاية لا تدرك .

وانما خلق الرجل شاعراً مطبوعاً واضطرته الوزارة الى الترسل والكتابة فكانت كتابته بالشعر اشبه منها بالنثر . واكثر المغاربة لا يتحدثون الا في شعره على عكس المشارقة .

* * *

رسالته الجدية

هذه الرسالة أشهر رسائله وابلغها ، واكثرها عائدة على المتعلمين الذين يحفظونها لتنوع فصولها وتعدد الاغراض التي رمت اليها ، والمعاني التي لوحت بها ، على ما أفاته من أمل كاتبها ، وما حُرمته من روعة التأثير في النفس .

وهذه الرسالة بعث بها من السجن الى جهور يستعطفه بها ولكنه مزج الاستعطاف بكثير من الزهو والامتنان ، واستفظاع العقاب على ذنب متوهم على طريقته الكتابية التي وصفناها آنفاً .

واذا حللنا هذه الرسالة الى عناصر الاغراض التي تألفت منها وجدنا انها لا تعدو عشرة أغراض تؤدي في عشرة أسطر الا ان كثرة الجمل المترادفة الاسلوب والصورة زادت في ذرعها طولاً .

وذلك انه ناداه بالفاظ السيادة اولاً ، ثم اعتذر له عن نكبته اياه بعدما احس الجماد بله الانسان بصدق خدمته له وثنائه عليه ، بان عمل الخير قد يعود على صاحبه بالشر ، واول هذه المقابلة بانها صادرة عن حسن نية وقصد تأديب ، ثم اخذ يستريث العفو ،

و يستفظع هذا العقاب الذي كان بعضه كافياً لردع الأبالسة ، وكبار الفتاك والخارجين على الأنبياء والأئمة والدين ، مع ان المسألة لا تخرج عن وشاية حساد سمع جوهر لم فنكي وليه الذي نوه بذكره . ثم اخذه الزهو فذكر انه كان في مكنته ان يستبدل بخدمته خدمة من يرحب به من الملوك ، غير انه عز عليه مفارقة وطنه ومولاه القديم ، ثم عوذ نفسه من يكون معه كالمستجير من الرمضاء بالنار ، وناشده العتبي حتى توقع الفكاك . ثم استملح نثر هذه الرسالة ورأى ان يستلحقها بقصيدة فكانت هذه في رأينا آنق لفظاً واعذب مورداً واطبع اتساقاً .

وهاك الرسالة :

الرسالة الجدية لابن زيدون

« كتبها لابن جهور »

يا مولاي وسيدي الذي ودادي له ، واعتمادي عليه ، واعتدادي به ، ومن ابقاه الله تعالى ماضي حد العزم ، واري زند الامل ، ثابت عهد النعمة ، ان سلبتني اعزك الله لباس انعامك ، وعطلتني من حلي اصطناعك ، واظمأتني الى برود اسعافك ، ونفضت بي كف حياطتك ، وغضضت عني طرف حمايتك ، بعد ان نظر الاعمى الى تأميلي لك . وسمع الاصم ثنائي عليك ، واحس الجماد باستنادي اليك . فلا غرو قد يغص بالماء شاربه و يقتل الدواء المستشفي به ، و يؤتى الحذر من مأمنه ، وتكون منية المتمني في أمنيته . والحين قد يسبق جهد الحريص .

كل المصائب قد تمر على الفتى وتهون غير شماتة الحساد

واني لأتجلد ، وأري الشامتين اني لريب الدهر لا أتضعضع «فأقول» هل أنا الا يد أدماها سوارها . وجبين عض به اكليله . ومشرفي الصقه بالارض صاقله . وسمهري عرضه على النار مثقفه . وعبد ذهب به سيده مذهب الذي يقول :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس احياناً على من يرحم

هذا العتب محمود عواقبه . وهذه النبوة غمرة ثم تنجلي . وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تقشع . ولن يريبني من سيدي ان ابطأ سيبه . او تأخر غير ضنين غناؤه . فأبطأ

الدلاء فيضاً املؤها · واثقل السحائب مشياً أحفلها · وانفع الحيا ما صادف جدبا · والذ الشراب ماأصاب غليلا · ومع اليوم غد ، ولكل اجل كتاب ، له الحمد على اهتباله · ولا عتب عليه في اغفاله :

فان يكن الفعل الذي ساء واحداً   فافعاله اللاتي سررن الوف

« واعود فأقول » ما هـذا الذنب الذي لم يسعه عفوك ، والجهل الذي لم يأت من ورائه حلمك ، والتطاول الذي لم يستغرقه تطولك ، والتحامل الذي لم يف به احتمالك ، ولا أخلو من ان اكون بريئاً فأين العدل ، او مسيئاً فأين الفضل ·

الا يكن ذنب فعدلك واسع   اوكان لي ذنب ففضلك اوسع

حنانيك قد بلغ السيل الزبى · ونالني ماحسبي به وكفى · وماأراني الا لو أمرت بالسجود لآدم فابيت واستكبرت · وقال لي نوح اركب معنا فقلت سآوي الى جبل يعصمني من الماء ، وأمرت ببناء الصرح لعلي اطلع الى آله موسى ، وعكفت على العجل ، واعتديت في السبت ، وتعاطيت فعقرت ، وشربت من النهر الذي ابتلي به جيوش طالوت ، وقدت الفيل لابرهة ، وعاهدت قريشاً على مافي الصحيفة ، وتأولت في بيعة العقبة ، ونفرت الى العير ببدر ، وانخذلت بثلث الناس يوم أحد ، وتخلفت عن صلاة العصر في بني قريظة ، وجئت بالإفك على عائشة الصديقة ، وأنفت من إمارة أسامة ، وزعمت ان بيعة ابي بكر كانت فلتة ، ورويت رمحي من كتيبة خالد ، ومزقت الاديم الذي باركت يدالله عليه ، وضحيت بالاشمط الذي عنوان السجود به ، وبذلت لقطام :

ثلاثة آلاف وعبداً وقينة   وضرب علي بالحسام المسمم

وكتبت الى عمرو بن سعد ان جعجع بالحسين ، وتمثلت عندما بلغني من وقعة الحرة :

ليت أشياخي ببدر علموا   جزع الخزرج من وقع الاسل

ورجمت الكعبة ، وصلبت العائذ على الثنية — لكان فيما جرى علي مايحتمل ان يسمى نكالاً ، ويدعى ولو على المجاز عقابا :

وحسبك من حادث بامرئ   ترى حاسديه له راحمينا

فكيف ولاذنب الا نميمة أهداها كاشح ، ونبأ جاء به فاسق ، وهم الهمازون المشاؤون

بتميم ، والواشون الذين لا يلبثون ان يصدعوا العصا ، والغواة الذين لا يتركون أديمًا صحيحا والسعاة الذين ذكرهم الاحنف بن قيس فقال ما ظنك بقوم الصدق محمود الا منهم :

حلفت فلم اترك لنفسك ريبة ۞ وليس وراء الله للمرء مذهب

والله ماغششتك بعد النصيحة ، ولاانحرفت عنك بعد الصاغية ، ولا نصبت لك بعد التشيع فيك ، ولاأزمعت يأسًا منك مع ضمان تكفلت به الثقة عنك ، وعهد أخذه حسن الظن عليك ، ففيم عبث الجفاء بأذمتي ، وعاث العقوق في مواتي ، وتمكن الضياع من وسائلي ، ولم ضاقت مذاهبي ، واكدت مطالبي ، وعلام رضيت من المركب بالتعليق بل من الغنيمة بالاياب ، وانى غلبني المغلب ، وفخر علي العاجز الضعيف ، ولطمني غير ذات سوار ، ومالك لم تمنع مني قبل ان أفترس ، وتدركني ولما أمزق ، ام كيف لا تنضرم جوانح الاكفاء حسدًا لي على الخصوص بك ، وتنقطع انفاس النظراء منافسة في الكرامة عليك وقد زانني زمم خدمتك ، وزهاني وسم نعمتك ، وأبليت البلاء الجميل في سماطك وقمت المقام المحمود على بساطك :

ألست الموالي فيك غر قصائد ۞ هي الانجم اقتادت مع الليل انجما

ثناء يظل الروض منه منورًا ۞ ضحى ويخال الوشي فيه منمنما

وهل لبس الصباح الا بردًا طرزته بفضائلك ، وتقلدت الجوزاء الا عقدًا فصلته بمآثرك ، واستملى الربيع الا ثناء ملأته بمحاسنك ، وبث المسك الا حديثًا اذعته في محامدك ، مايوم حليمة بسر ، وان كنت لم اكسك سليبًا ، ولاحليتك عطلا ، ولا وسمتك غفلا ، بل وجدت آجرًا وجصًا فبنيت ، ومكان القول ذا سعة فقلت ، حاش لك ان أعد من العاملة الناصبة ، واكون كالذبالة المنصوبة تضيء للناس وتحترق . فلك المثل الاعلى ، وهو بك وبي فيك اولى . ولعمري ان صريح الرأي ان اتحول اذ بلغتني الشمس ونبا بي المنزل واصفح عن المطامع التي تقطع اعناق الرجال ، فلا استوطن العجز ، ولا اطمأن الى الغرور . ومن الأمثال المضروبة ، خامري ام عامر ، واني مع المعرفة ان الجلاء سباء والنقلة مثلة :

ومن يغترب عن قومه لم يزل يرى ۞ مصارع مظلوم مجرًا ومسحبا

وتدفن منه الصالحات وان يسيء ۞ يكن ماأسا كالنار في رأس كبكبا

عارف ان الادب الوطن لا يخشى فراقه . والخليط لا يتوقع زياله . والنسيب لايجفى . والجمال لايخفى . ثم ما قران السعد للكواكب ابهى اثرا . ولا اسنى خطرا . من اقتران غني النفس به . وانتظامها نسقاً معه . فان الجائزلها . الضارب بسهم فيها . وقليل ماهم اينما توجه ورد منهل بر ، وحط في جناب قبول . وضوحك قبل انزال رحلة وأعطي حكم الصبي على اهله :

وقيل له اهلاً وسهلاً ومرحبا فهذا مبيت صالح ومقيل

غير ان الوطن محبوب . والمنشأ مألوف . واللبيب يحن الى وطنه . حنين النجيب الى عطنه . والكريم لايجفو ارضاً فيها قوابله . ولا ينسى بلداً فيها مراضعه . قال الاول :

احب بلاد الله ما بين منعج الي وسلمى ان يصوب سحابها
بلاد بها عق الشباب تمائمي واول ارض مس جلدي ترابها

هذا الى مغالاتي بعقد جوارك . ومنافستي بالحظة من قربك . واعتقادي ان الطمع في غيرك طبع . والغنى من سواك عنا . والبدل منك اعور . والعوض لغا :

واذا نظرت الى اميرزادني ضناً به نظري الى الامراء

وكل الصيد في جوف الفرا ، وفي كل شجرة نار واستمجد المرخ والعفار ، فما هذه البراءة ممن يتولاك ، والميل عمن لا يميل عنك ، وهلا كان هواك فيمن هواه فيك . ورضاك لمن رضاه لك :

يا من يعز علينا ان نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم

أعيذك ونفسي من ان اشيم خلباً ، واستمطر جهاماً ، واكدم غير مكدم ، واشكو شكوى الجريح الى العقبان والرخم ، فما ابسست لك الا لتدر ، وما حركت لك الحوار الا لتحن ، وما نبهتك الا لانام ، وما سريت اليك الا لاحمد السرى لديك ، وانك ان شئت عقد امر تيسر ، ومتى اعذرت في فك اسري لم يتعذر . وعلمك محيط بان المعروف ثمرة النعمة ، والشفاعة زكاة المروءة . وفضل الجاه يعود به صدقة .

واذا امرؤ اهدى اليك صنيعة من جاهه فكأنها من ماله

لعلي ان القي العصا بذراك ، و يستقر بي النوى في ظلك ، واستأنف التأدب بادبك والاحتمال على مذهبك ، فلا اوجد للحاسد مجال لحظة ، ولا ادع للقادح مساغ لفظه ،

والله مبشرك من أطلابي بهذه الطلبة ، واشكائي من هذه الشكوى بصنيعة تصيب منها مكان المصنع ، وتستودعها احفظ مستودع ، حسبما انت خليق له ، وانا منك حري به ، وذلك بيده وهين عليه ، ولما توالت غرر هذا النثر واتسقت درره ، فهز عطف غلوائه ، وجر ذيل خيلائه ، عارضه بالنظم مباهيًا ، بل كايده مداهيًا ، حين اشفق ان يستعطفك استعطافه وتميل بنفسك الطافه : فاستحسن العائدة منه ، واعتد بالفائدة له ، فما زال يستكد الذهن العليل ، والخاطر الكليل ، حتى زف اليك عروسًا مجلوة في اثوابها ، منصوصة بحليها وملابها وهي :

الهوى في طلوع تلك النجوم والمنى في هبوب ذاك النسيم
سرنا عيشنا الرقيق الحواشي لو يدوم السرور للمستديم
وطر ماانقضى الى ان تقضى زمن ما ذمامه بالذميم
اذ ختام الرضا المسوغ مسك ومزاج الوصال من تسنيم
وغريض الدلال غض جنى الصب ـوة نشوان من سلاف النعيم
طالما نافر الهوى منه غر لم يطل عهد جيده بالتميم
زار مستخفيًا وهيهات ان يخ في سنا البدر في الظلام البهيم
فوشي الحلي اذ مشي وهفا الطيـ ب الى حسن كاشح بالنسيم
ايها المؤذني بظلم الليالي ليس يومي بواحد من ظلوم
قمر الافق اذ تأملت والشمـ س هما يكسفان دون النجوم
وهو الدهر ليس ينفك ينحو بالمصاب العظيم نحو العظيم
بوأ الله جهوراً شرف السو دد في السر واللباب الصميم
واحد سلم الجميع له الامـ ـر فكان الخصوص وفق العموم
قلد العمر ذا التجارب فيه واكتفى جاهل بعلم العليم
خطر يقتضي الكمال بنوعي خلق بارع وخلق وسيم
اسوة الروض من بطيبك يحظى نظري ما اعتمدته وشميمي
أيهذا الوزير ها انا اشكو والعصا بدء قرعها للحليم
ما عسانا ان يأنف السابق المر بط في العتق منه والتطهيم

وثواء الحسام في الجفن يثني منه بعد المضاء والتصميم
أفصبر مئين خمس من الايا م ناهيك من عذاب أليم
ومعنى من الضني بهناة نكأت بالكلوم قرح الكلوم
سقم لا أعاد منه وفي العا أند انس بني ببرء السقيم
نار بغي سعى الى جنة الاء ن لظاها فاصبحت كالصريم
بابي انت ان تشأنك بردا وسلاما كنار ابراهيم
للشفيع الثناء والحمد في صو ب الحيا للرياح لا للغيوم
وزعيم بان يذلل لي الصع ب مثابي الى الهمام الزعيم
وثناء ارسلته سلوة الظا عن عن شوقه ولهو المقيم
ويداد يغير الدهر ما شا ء ويبقى بقاء عهد الكريم
فهو ريحانة الجليس ولا خمـ ـر وفيه مزاج كاس النديم
لم يزل مغضياً على هفوة الجا ني مصيخاً الى اعتذار المليم
ومتى تبدأ النصيحة يولعـ ـك تمام الخصال بالتتميم

هاكها اعزك الله يبسطها الامل ويقبضها الخجل ، لها ذنب التقصير وحرمة الاخلاص ، فهب ذنباً لحرمة واشفع نعمة بنعمة ، لتأتي الاحسان من جهاته وتسلك الفضل من طرقاته .

* * *

محاسن هذه الرسالة ومعايبها

لا ريب ان مكان هذه الرسالة من الادب العربي مكان المشهور المأثور المحفوظ في الصدور المخلد في السطور وذلك لامور :

الاول — انها جراب ادب حاوٍ لجملة نماذج مختلفة من عيون مواد الادب بما ضمنت من اقتباس القرآن والحديث والامثال والحكم والابيات المشهورة وحل نظم الكثير منهـا والاشارة الى ما فيها من وقائع التاريخ الشهيرة التي يجدر بالاديب معرفتهـا والاستشهاد بها .

الثاني — حسن ملاءمتها بين هذه الصنوف وجودة رصفها وجمع شتاتها في موضوع واحد مما يعسر على غير الحذاق التوفيق بين متباينه ، ويجعل نمطها غريباً ونسجها وحيداً .

الثالث — حصافة عبارتها وجزالة لفظها في كثير من مواضعها وخاصة ما استقل به كاتبها معنىً وانشاءً .

ولكننا اذا نظرنا اليها بعين الناقد وانعمنا البحث في بلاغتها اي مطابقتها في معانيها ومبانيها لمقتضى الغرض الذي وضعت له ، وهو الاستعطاف ، وجدنا انها تقصر دون بلوغه لجملة امور :

الاول — كثرة ما ردده كاتبها فيها من عبارات الامتنان على مولاه بطول ثنائه عليه وحسن سابقته عنده وعظيم بلائه في إقامة دولته مما يعده الرئيس عادةً تعييراً وتجبيهاً .

الثاني - تهديد مولاه بانه لولا حب الوطن لكان له ارفع مقام في خدمة غيره من الملوك الذين يتسارعون الى الترحيب به ، و يتنافسون في استخدام امثاله . .

الثالث — ان وضعها بهذه الصورة يجعلها غير كفيلة بانجاح الغرض الذي وضعت له (وهو تحريك عاطفة الرحمة والعفو) لانصراف نفس قارئها عن ان يتأثر ببلاغتها و يشغلها بتذكر الحوادث والقصص التي اتت عليها ، واسماء الناس ، ومضرب الامثال . فلا يفرغ القارئ من تعرف اسم رجل حتى يقع في مضرب مثل ، ولا يخلص من تفهم شاهد حتى يقحم في اوعر منه ، فينقسم فهمه ، و يتشتت تأثره ، وانما يأتي التأثر من انصباب غمرة من الانخداعات المتكررة ، بتكرر العبارات البليغة المؤثرة ، فتحدث بمجموعها اثراً كلياً في النفس ، فتجيش بالشفقة ، وتهش للعفو . وبمثل ذلك كان الانشاء المبرقش بكثير من أنواع البديع غير مؤثر ببلاغته ، لشغله الذهن عن التأثر ، وصرفه الى تفهم النكت البديعية .

ومن هذه الوجهة نرى ان رسالة ابن زيدون ليست مثالاً يحتذى للانشاء البليغ المؤثر في النفس .

الرابع — وقوع بعض هفوات له ذكرها الصفدي كاحتياج فقارها الى ذكر فقار بعد تتم معناها وتلتئم بها مع مابعدها (وهذه نضرب صفحاً عن ذكرها) وكبعض اخطاء

في المنى والوقائع (وهذه نشير الى بعضها ومن أراد مراجعة الجميع فعليه بشرح الصفدي) .

فمن هذه قوله (وتأولت في بيعة العقبة) وسياق كلامه في هذا الفصل يقتضي ذكر أسماء أناس منكرات يبرأ هو ان يكون مثلهم — ولم ينقل احد من اهل الاثر ان احداً ممن بايع فيها تأولها او نكثها .

ومنها قوله « وتخلفت عن الصلاة في بني قريظة » ولم يعلم ان رسول الله انكر على من تخلف عن صلاة العصر في بني قريظة وصلاها في الطريق بل اقرّ الجميع على عملها وعد ذلك من اجتهاد الصحابة .

ومنها قوله « وزعمت ان بيعة ابي بكر كانت فلتة » مع ان قائل هذه الكلمة عمر بن الخطاب ولم يقلها عن ارادة سوء فلا ينبغي ان يتمثل به في اعمال الجناة .

ومنها قوله « وكتبت الى عمر بن سعد ان جعجع بالحسين » مع ان المكتوب اليه الحر ابن يزيد التميمي لا عمر بن سعد .

وقد اتى الصفدي على عيوب آتيــة من تصحيف او سوء تأويل منه هو ، اعرضنا عنها خوف التطويل .

* * *

رسالته الهزلية

كان الوزير ابوعامر بن عبدوس ينافس ابن زيدون في حب ولادة ، فاتفق ان حدثت نبوة بينهما ، فأرسل ابن عبدوس اليها امرأة من صواحباته تستميلها اليه ، وتذكرها بفضله وادبه ، فردت ولادة المرأة بالخيبة . وكتب ابن زيدون الى ابن عبدوس عقب رجوع المرأة هذه الرسالة على لسان ولادة ، يرد عليه و يتهكم ويهجوه و يتوعده .

وفي ظننا ان ابن زيدون كتبها من نفسه تشفياً من ابن عبدوس لا عن رأي ولادة ورضاها عما الفحش فيها واقذع .

والرسالة كسابقتهــا في قلة اغراضها وتكرار اساليب فصولها . وذلك انه بدأها بوصف ابن عبدوس باوصاف الحمقى والجهلاء منكراً منه ارسال خليلته الى ولادة ، مثنية عليه ومرغبــة فيه ، واصفة له باوصاف اعيان الزمان من العلماء والادباء والاطباء

والفلاسفة والشجعان من فلان وفلان ، وان ولادة طردتها اشنع طردة . ثم اخذ يهجوه بأوصاف في الخلق والخلق ، وان ولادة لو ارادت الرجال لكان لها من الاكفاء من قومها واعيان زمانها من يفضله سناً وشرفاً وجمالاً الخ .

وهذا نص الرسالة

اما بعد أيها المصاب بعقله ، المورط بجهله ، البين سقطه ، الفاحش غلطه ، العاثر في ذيل اغتراره ، الاعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب ، فان العجب اكذب ، ومعرفة المرء نفسه اصوب ، وانك راسلتني مستهدياً من صلتي ماصفرت منه ايدي امثالك ، متصدياً من خلتي لما قرعت دونه انوف اشكالك ، مرسلاً خليلتك مرتادة ، مستعملاً عشيقتك قوادة ، كاذباً نفسك انك ستنزل عنها الي ، وتخلف بعدها علي :

ولست باول ذي همة دعته لما ليس بالنائل

ولا شك انها قلتك اذ لم تضن بك ، وملتك اذ لم تغر عليك ، فانها اعذرت في السفارة لك ، وماقصرت في النيابة عنك ، زاعمة ان المروءة لفظ انت معناه ، والانسانية اسم انت جسمه وهيولاه ، قاطعة انك انفردت بالجمال ، واستأثرت بالكمال ، واستعليت في مراتب الجلال ، واستوليت على محاسن الخلال ، حتى خيلت ان يوسف (عليه السلام) حاسنك فغضضت منه ، وان امرأة العزيز رأتك فسلت عنه ، وان قارون اصاب بعض ما كنزت ، والنطف عثر على فضل ما ركزت ، وكسرى حمل غاشيتك ، وقيصر رعى ماشيتك والاسكندر قتل دارا في طاعتك ، واردشير جاهد ملوك الطوائف بخروجهم عن جماعتك والضحاك استدعى مسالمتك ، وجذيمة الابرش تمنى منادمتك ، وشيرين قد نافست بوران فيك ، وبلقيس غايرت الزباء عليك ، وان مالك بن نويرة انما اردف لك ، وعروة بن جعفر انما رحل اليك ، وكليب بن ربيعة انما حمى المرعى بعزتك ، وجساساً انما قتله بانفتك ومهلهلاً انما طلب ثأره بهمتك ، والسموءل انما وفى عن عهدك ، والاحنف انما احتبى في بردتك . وحاتماً انما جاد بوفرك ، ولقي الاضياف ببشرك ، وزيد بن مهلهل انما ركب بفخذيك ، والسليك بن السلكة انما عدا على رجليك . وعامر بن مالك انما لاعب الأسنة

ببديلك . وقيس بن زهير انما استعان بدهائك . واياس بن معاوية انما استضاء بمصباح ذكائك . وسحبان انما تكلم بلسانك . وعمرو بن الاهتم انما سحر ببيانك . وان الصلح بين بكر وتغلب تم برسالتك . والحمالات بين عبس وذبيان أسندت الى كفالتك . وان احتيال هرم لعلقمة وعامر حتى رضيا كان ذاك عن اشارتك . وجوابه لعمر وقد سأله عن ايهما كان ينفر وقع عن ارادتك . وان الحجاج تقلد ولاية العراق بجدك . وقتيبة فتح ماوراء النهر بسعدك . والمهلب أوهن شوكة الازارقة بيدك . وفرق ذات بينهم بكيدك . وان هرمس اعطى بلينوس ماأخذ منك . وافلاطون اورد على ارسطاطاليس ما نقل عنك . وبطليموس سوى الاصطرلاب بتدبيرك . وصور الكرة على تقديرك . وبقراط علم العلل والامراض بلطف حسك . وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدقة حدسك . وكلاهما قلدك في العلاج . وسألك عن المزاج . واستوصفك تركيب الاعضاء واستشارك في الداء والدواء . وانك نهجت لابي معشر طريق القضاء . واظهرت جابر بن حيان على سر الكيمياء . واعطيت النظام اصلاً ادرك به الحقائق . وجعلت للكندي رسماً استخرج به الدقائق . وان صناعة الالحان اختراعك . وتأليف الاوتار والانقار توليدك وابتداعك . وان عبد الحميد بن يحيى باري اقلامك . وسهل بن هارون مدون كلامك . وعمرو بن بحر مستمليك . ومالك بن انس مستفتيك . وانك الذي اقام البراهين ووضع القوانين . وناظر في الجوهر والعرض . وميز الصحة من المرض . وفك المعمي وفصل بين الاسم والمسمي . وصرف وقسم . وعدل وقوّم . وصنف الاسماء و لافعال . وبوب الظرف والحال . وبنى واعرب . ونفى وتعجب . ووصل وقطع . وثنى وجمع . واظهر واضمر واستفهم واخبر . واهمل وقيد . وارسل واسند . وبحث ونظر . وتصفح الاديان . ورجح بين مذهبي ماني وغيلان . واشار بذبح الجعد . وقتل بشار بن برد . وانك لوشئت خرقت العادات . وخالفت المعهودات . فأحلت البحار عذبة . واعدت السلام رطبة . ونقلت غداً فصار امسا . وزدت في العناصر فكانت خمسا . وانك المقول فيه وكل الصيد في جوف الفرا .

وليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد

والمعنيّ بقول ابي تمام :

فلو صورت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع

والمراد بقول ابي الطيب :

ذكر الانام لنا فكان قصيدة كنت البديع الفرد من ابياتها

فكدمت في غير مكدم · واستسمنت ذا ورم · ونفخت في غير ضرم · ولم تجد لرمح مهزا · ولا لشفرة محزا · بل رضيت من الغنيمة بالاياب · وتمنيت الرجوع بخفي حنين · لاني قلت : (لقد هان من بالت عليه الثعالب) وانشدت :

على انها الايام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب

ونخرت و بسرت · وعبست فكفرت · وابدأت واعدت · وابرقت وارعدت · وهممت ولم افعل وكدت وليتني · ولولا ان للجوار ذمة · وللضيافة حرمة · لكان الجواب في قذال الدمستق · والنعل حاضرة انعادت العقرب · والعقوبة ممكنة ان اصر المذنب · وهبها لم تلاحظك بعين كليلة عن عيوبك · ملؤها حبيبها · حسن فيها من تود · وكانت انما حلتك بحلاك · ووسمتك بسيماك · ولم تعرك شهادة · ولا تكلفت لك زيادة · بل صدقت سن بكرها · فيما ذكرته عنك · ووضعت الهناء مواضع النقب · بما نسبته اليك · ولم تكن كاذبة فيما اثنت به عليك · فالمعيدي تسمع به خير من ان تراه · هجين القذال · ارعن السبال · طويل العنق والعلاوة · مفرط الحمق والغباوة · جافي الطبع · سيئ الجابة والسمع · بغيض الهيئة · سخيف الذهاب والجيئة · ظاهر الوسواس · منتن الانفاس · كثير المعايب · مشهور المثالب · كلامك تمتمة · وحديثك غمغمة · وبيانك فهفهة · وضحكك قهقهة · ومشيك هرولة · وغناك مسألة · ودينك زندقة · وعلمك مخرقة ·

مساو لو قسمن على الغواني لما أمهرن الا بالطلاق

حتى ان باقلا موصوف بالبلاغة اذا قرن بك · وهبنقة مستوجب لاسم العقل اذا أضيف اليك · وطويس مأثور عنه يمن الطائر اذا قيس عليك · فجودك عدم · والاغتباط بك ندم · والخيبة منك ظفر · والجنة معك سقر ·

كيف رأيت لؤمك لكرمي كفاء · وضعتك لشرفي وفاء · واني جهلت ان الاشياء انما تنجذب الى اشكالها · والطير انما تقع على آلافها · وهلا علمت ان الشرق والغرب لا يجتمعان · وشعرت ان المؤمن والكافر لا يتقاربان · وقلت الخبيث والطيب لا يستويان · وتمثلت :

ايها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يلتقيان

وذكرت اني علق لا يباع ممن زاد · وطائر لا يصيده من اراد · وغرض لا يصيبه الا من اجاد · ما احسبك الا كنت قد تهيأت للتهنئة · وترشحت للترفية · ولولا ان جرح العجماء جبار · للقيت من الكواعب ما لاقى يسار · فما هم الا ببعض مابه هممت · ولا تعرض الا لايسر ماله تعرضت ·

اين ادعاؤك رواية الاشعار · وتعاطيك حفظ السير والاخبار · اما ثاب اليك قول الشاعر :

بنو دارم اكفاؤهم آل مسمع وتنكح في اكفائها الحبطات

وهلا عشيت ولم تغتر · وما اشك انك تكون وافد البراجم او ترجع بصحيفة المتلمس · او افعل بك مافعله عقيل بن علفة بالجهني · اذ جاءه خاطباً فدهن استه بزيت وادناه من قرية النمل · ومتى كثر تلاقينا · واتصل ترائينا · فيدعوني اليك مادعا ابنة الخس الى عبدها من طول السواد · وقرب الوساد · وهلا فقدت الاراقم فأنكح في جنب · اوعضلني همام بن مرة فأقول (زوج من عود خير من قعود) · ولعمري لو بلغت هذا المبلغ لارتفعت عن هذه الخطة · ولا رضيت بهذه الخطة · فالنار · ولا العار · والمنية · ولا الدنية · والحرة تجوع ولا تأكل بثدييها ·

فكيف وفي ابناء قومي منكح وفتيان هزان الطوال الغرانقة

ما كنت لأتخطى المسك الى الرماد · ولا امتطي الثور بعد الجواد · فانما يتيمم من لم يجد ماء · ويرعى الهشيم · من عدم الجميم · ويركب الصعب من لا ذلول له · ولعلك انما غرك من علمت صبوتي اليه · وشهدت مساعفتي له · من أقمار العصر · وريحان المصر · الذين هم الكواكب علو همم · والرياض طيب شيم ·

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري

حن قدح ليس منها · ماانت وهم · وانى تقع منهم · وهل انت الا واو عمرو فيهم · وكالوشيظة في العظم بينهم · وان كنت انما بلغت قعر تابوتك · وتجافيت عن بعض قوتك · وعطرت اردانك · وجررت هميانك · واختلت في مشيتك · وحذفت فضول لحيتك · واصلحت شاربك · ومططت حاجبك ورققت خط عذارك · واستأنفت عقد ازارك ·

رجاء الاكتنان فيهم . وطمعاً في الاعتداد منهم . فظننت عجزاً . واخطأت استك الحفرة .

والله لو كساك محرق البردين . وحلتك مارية بالقرطين . وقلدك عمرو الصمصامة . وحملك الحارث على النعامة . ماشككت فيك ولا سترت اباك . ولا كنت الا ذاك . وهبك ساميتهم في ذروة المجد والحسب . وجاريتهم في غاية الظرف والادب . الست تأوي الى بيت قعيدته لكاع . اذ كلهم عزب خالي الذراع . واين من انفرد به ممن لاغاب الا على الاقل الاخس منه . وكم بين من يعتمدني بالقوة الظاهرة والشهوة الوافرة . والنفس المصروفة الي . واللذة الموقوفة علي . وبين آخر قد نضب غديره . ونزحت بيره . وذهب نشاطه . ولم يبق الا . . . وهل يجتمع لي فيك الا الحشف وسوء الكيلة . ويقترن علي بك الا الغدة والموت في بيت سلولية .

تعالى الله يا سلم بن عمرو اذل الحرص اعناق الرجال

ما كان اخلقك بان تقدر بذرعك . وتربع بذلك على ظلمك . ولا تكن براقش الدالة على اهلها . وعنز السوء المستثيرة لحتفها . فما أراك الا سقط بك العشاء على سرحان . وبك لا بظبي اعفر . اعذرت ان اغنيت شيا . واسمعت لوناديت حيا .

ان العصا قرعت لذي الحلم والشيء تحقره وقد ينمي

وان بادرت بالندامة . ورجعت على نفسك بالملامة . قد اشتريت العافية لك . بالعافية منك . وان قلت جعجعة ولا طحن . ورب صلف تحت الراعدة وانشدت :

لا يؤيسنك من مخدرة قول تغلظه وان جرحا

فعدت لمانهيت عنه . وراجعت ما استعفيت منه . بعثت من يزعجك الى الخضراء دفعا . ويستحثك نحوها وكزاً وصفعا . فاذا صرت اليها عبث اكاروها بك . وتسلط نواطيرها عليك . فمن قرعة معوجة تقوم في قفاك . ومن فجلة منتنة يرمى بها تحت . . . ذلك بما قدمت يداك . لتذوق وبال امرك . وترى ميزان قدرك .

فمن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

« للبحث بقية » احمد الاسكندري

بين العامي والفصيح

أضع بين ايدي القراء طائفة من الالفاظ الفصيحة افعالاً واسماء لمعان مختلفة بعد ذكر المعنى المقصود وكيف تعبر عنه العامة او بعض العامة في ناحيتي هذه من سورية اي اللاذقية وما يليها . ولم ار من الضروري ترتيب هذه الالفاظ حسب تلاؤمها في المعنى او حسب أوائل حروفها الهجائية فان من ينوي استيعابها يمكنه اختيار احد الترتيبين او ترتيباً آخر يعتمد عليه اذا شاء ذلك ووجده امهد سبيلاً :

« المعنى المقصود وكيف تعبر عنه العامة » « او بعضها »	« اللفظ الفصيح »
شابَ الزرع (اذا نضج وابيضّ)	اقطارَّ اي تهيأ لليبس ثم نصوّح ثم هاجت الارض هياجاً
كندور . وهو البطيخ الصغير قبل نضجه	حَدَجٌ فاذا زاد نموه فهو قَعْسَر ثم خَضْف
النصبة . وهي الغرسة الصغيرة قبل ان تثمر	الفسيلة والودِيَّة للنخلة الصغيرة . ويمكن ان تستعار لغيرها من الغراس
الكراويا . المركوش . (من النبات والزهر)	كَرَوِيَّا . مرزنجوش
الضمان . بيع الثمر مقدّماً	العَرِيَّة . ان تعطي الرجل نخلة فيكون له الثمر دون الاصل . وتنقل اللفظة الى غير النخل من الشجر .
عزّلَ الجب (نظفه من الوحل والأقذار)	نبث البئر اذا استخرج ترابها . واستنبط البئر اذا استخرج ماءها .
قشّ الزفرة (اي انزع ماظهر بالغليان على سطح القدر من فضلات المادة المطبوخة)	إطفح القدر . خذ طفاحتها وهي زبدها وما علا منها

حبس البول	حبس البول كما تقول العامة وصريه ـكُزْزين
البَلْطة (فأس عظيمة يقطع بها الشجر)	
النزّالة (الخرقة التي تنزل بها القِدْر)	الجُمال
بيت القِدْرة	الجَأوَة . الخرقة التي توضع فيها القدر اذا أُنزلت .
رجل أهْتَر (قليل العقل)	اللفظة العامية محرفة عن (مُهْتَر) بفتح التاء شذوذاً والاصل كسرها لانها مشتقة من أهتَرَ الرجلُ اذا خف عقله وتكلم بغير الصواب .
جب الماعورة (ويكون ممتازاً باتساعه وغزارة مائه)	العَيْلَم البئر الكبيرة وكذلك القَلْزَم . واما بحر القُلزُم فهو البحر الاحمر سمي باسم بلدة تجاوره وهي قُلْزُم واقعة بين مصر ومكة .
البِرْكة الصغيرة	الجُرْموز الحوض الصغير
البِرْكة الكبيرة	الجابية الحوض الكبير
طريق شوسة (اي ممهدة صالحة لسير المركبات عليها)	اللاحب الطريق الموطّأ
الغمّازة . حفرة تظهر في الخدّ عند الضحك	الغيثة . والحفرة في وسط الشفة العليا خِثْرِمة وفي وسط الذقن نونة .
الخمّارة .	اللفظة فصيحة وهي ايضاً الحانة والماخور
بازار الدواب (سوقها)	المِشْوار . المكان الذي تُشَوَّر فيه الدواب اي تعرض
الشاكوش (اداة للكسر تشبه القدوم)	الفِهْر الحجر قد يكسَّر به الجوز وما اشبهه ويسحق به المسك وما شاكله . ويمكن ان يسمى كذلك ما قام مقامه ولو صنع من حديد او معدن آخر .

المسوحة	النشفة الحجر الذي تدلك به الاقـدام · ويمكن ان يسمى كذلك ماصنع من قماش للغرض نفسه
الهاون والمدقة	المِدَقّ والمرضاض
الحديدة المركوزة لازالة وحل الاقدام	النُّبلة · الحجر لازالة الاقذار
الصابورة (الحجر الذي يثقل به الزورق او المركب)	المَوْجَل وهو ايضاً الانجر
العلامات المنصوبة في الارض	الإرام واحدها إرَميٌّ وإرَم
تعليقة الثياب	مِشْجَب
مدقة الجرن	المُنبُلة الخشبة التي يدق بها في المهراس
الدرباس	الأَزَز الخشبة يترس بها الباب
زنجير الحبل (لاجل الاستقاء)	الدرَك
تطويلة (ماتشد به الدابة فيمسك به صاحبها ويرسلها ترعى)	طِوَل
مرطبان او قلة او نحوهما	مِركَن
الجاط او الشختور	المِئكلة من اوعية الطعام تشبع الرجلين والثلاثة
شنتة كتب · بوليجة كتب	قِمطر
شنتة الصانع يضع فيها ادواته	كِنف
جراب الراعي	صُفْن وهو ايضاً وعاء من جلد يستقى به
الجزدان الكبير للمرأة	القَشْوة وعاء تضع فيه المرأة طيبها وغيرذلك
الوعاء الزجاجي لخردوات التاجر	الجُؤنة
جاغ (العِدْل الكبير)	غِرارة وهي الجوالق الكبير
نصف جاغ او عِدْل	عِكْم الجوالق الصغير
ترويقة (القليل من الطعام قبل تجهيز اطعمة المائدة)	سُلْفة او لُهْنة او عُجالة

كعك بسمن او كليجة	وليقة · طعام يتخذ من دقيق وسمن ولبن
اقراص بسيوه	ربيكة
تخذ بالفرن	لحم حنيذ · اذا شوي على حجارة محماة
تمصير اللحم المشوي بالخبز	الاجتمال · وهو اذا شويت لحماً فكلما وكفت إهالته اي دسمه استوكفته على خبز فاذا فعلت ذلك بالشحم فهو الاستيداف ·
فطيرة سمن	مُرَوَّلة · لان الترويل هو دلك الخبز بالسمن
العرَق (اوالعرقي وهو الشراب المسكر المعروف)	الطِّلاء · من الخمر ماقد طبخ حتى ذهب ثلثاه ·
مكيّف (لمن كان في اول سكره)	نَشْوان
الأنين (نوع من الريح)	الإعصار · او الريح اللولبة · هي التي تهب من الارض الى السماء كالعمود ·
مطر الصيف	الصيّف · فاذا هطل في اواسط او اواخر الصيف فهو الحميم ·
رشّة مطر	رشاش · طشّ · رَذاذ · غَبْيَة · جَفْشة ·
ماء عتَبيّ (ما كان قليل العذوبة)	ماء شريب · اذا كان فيه شيء من العذوبة وقد يشربه الناس ·
ماء بس (هو دون الماء العتبي جودةً)	ماء شروب ·
ثوب منمنم	ثوب مفلّس : اذا كانت فيه أُسَم كالفلوس ·
ثوب البيت	المِبْذَلة : الثوب يبتذله الرجل في منزله ·
منتَيان · ثوب يشبه الصُّدْرة	إتْب · او قَرْقَر · او قَرْقَل · وكذلك الصِدار والجَوْل والشَوْذَر · كلها قمصان متفاوتة في القِصَر واللطافة وعدم الاكمام تلبسها النساء تحت دروعهن اي قمصانهن وربما اقتصرن عليها في اوقات الخلوة ·

بساط ملوّن	زربيّة والجمع زرابيّ
الناموسية	الكِلّة الستر الرقيق . والقِرَام الستر وكذلك السَّجْف
مخدة الفرشة	المِصْدَغة . والمخدّ للرأس
مُخدَيدية المقعد	المِنْبَذة . هي التي تُنبَذ اي تطرح للزائر وغيره
مخدة المقعد	النُّمْرُقة . هي التي تصف . والمِسند الوسادة التي يُستند اليها
سكين بطقان (نوع من السكاكين الكبيرة)	مِشْمَل . سيف قصير يشتمل عليه الرجل فيغطيه بثوبه
المكّازة (العصا المعقوف اعلاها)	عكّاز او مِحجَن واطول منها هِراوة . فاذا غلظت فهي مَخزَنة ومِرزَبّة (وقيل هي حينئذ من حديد) .
شيش (عصا مجوفة داخلها نصل)	عَنَزة اذا زادت على الهراوة وفيها زُجّ . فاذا طالت شيئًا وفيها سنان رقيق فهي نَيْزَك ومِطرَد .
سهم الفرّان	المِسْطَح . خشبة الخباز
قصّ الشعر	تعبير صحيح ويقال ايضًا جَلَمه بالجلمين اي المقص او المقراض .
حصد الزرع	صحيح وكذلك نجله بالمنجل
قصّ وبر الابل	وكذلك جلّد الابل
التقطيع شُقَفًا (قطعًا)	الشرشرة : والخربقة
نشف درّ الدابة	جدّت الشاة . وشَمّت الناقة .
سدّة الابريق ونحوه	فِدام وجمعه فُدُم . والسِّداد بكسر السين

	عامٌ لكل مايسد به · والسَّداد بفتح يرادف الصواب فيقال سداد الرأي ·
القحاطة (مايبقى في اسفل القدر)	كُدادة · وكُدامة
عفارة الكرم (بقيته بعد قطفه)	العُشانة · والقُشانة
فدغَ الرأس	شجَّ الرأس · وفلَغه
قشّبت اليد (من تأثير البرد والهواء)	تزلّعت اليد · وتكلّعت الرجل ·
فقّس البيض	فقصَ البيض · ونقف الفرخ البيضة اذا كسرها ليخرج منها · وعلى هذا القياس يقال أُنقِفَ البيض على المجهول اي فقص ·
ابرة ملحنة (هي الغليظة قليلاً)	مِنصحة
قَيْوقة او مسلّة (نوع ابر متناهية غلظاً لخياطة العدول ونحوها)	شَفيزة
الثوب الرقيق كقماش الكاز ونحوه	ثوب شِفٌ ثم سِبٌ ارق منه · ثم سابريٌ ثم لَهْلَه ونهنه ·
قص وبر المعزى	حلق المعزى
مشية اشكين واسع	العَنَق ان يباعد الفرس بين خطاه ويتوسع في جريه
رَهْوَنة (من سير الخيل)	الهملجة ان يقارب الفرس بين خطاه مع الاسراع · ولعل «رهونة» محرفة عن رهو او هرولة ·
مشي البَوْف (من سير الخيل)	قريب من الخَبَب فهو ان يستقيم الفرس في جريه ويراوح بين يديه و يقبض رجليه · وقريب منه الطَّمْر فهو ان يثب فتقع رجلاه مجموعتين · والتقريب ان يرفع يديه و يضعهما معاً
اوقعه سطح (على قفاه)	سَلَقه

اوقعه بطح (على صدره)	بطحه
حدفه بالعصا ونحوها	حذفه
الشوشرة او الوشوشة	الهمس او الجرس .
المغمغة (صوت الكلام الذي لا يبين)	الغمغمة . والجمجمة .
التصهصن (شدة الاصوات واختلاطها عند الضحك)	العطعطة . حكاية صوت المجّان اذا قالوا عند الغلبة . عيط . عيط
الكركرة (صوت الآنية اذا ستخرج منها الشراب)	القرقرة . والبقبقة للماء ايضاً والعامة تعرفها
طقطقة الاصابع	التنقيع والفرقعة صوت الاصابع عند غمز المفاصل .
لمّة من الناس (اي جماعة)	لُمّه بضم اللام .
البقر العمّال (المستعمل لفلاحة الارض)	العوامل . ويغلب استعمالها على الثيران .
رجل أزعر	رجل زَعِر وعَزَوّر اي سيء الخلق
رجل مجلوع . نجعان (شره دني متطفل)	رجل مستجيع . شحذان . لَهْسَم
امرأة فاجرة (يريدون بها شرسة حادّة اللسان) .	امرأة سليطة . فاذا زادت سلاطتها فهي سلقانة وعزقانة . واما الفاجرة في الفصيح فمعناها ذات الفجور اي الفسق والزنا .
غبّ من الماء (اخذ منه الكثير بفيه)	لعله مأخوذ من عبّ الطائر اذا شرب
إحمرّت عين فلان (كناية عن التغيظ ونية الشر) .	إحرنفش . إزبأرّ .
لفلان خرطة في وجهه (هيئة غضب وعبوس)	إخرنطم فلان فقولهم خرطة محرف عن اخرنطام
شقرق وجه فلان (محرف عن اشرق وجهه)	إبرنشق للحديث اذا ارتاح اليه واهتزّ له
مخمضة (الفم بالماء ونحوه)	مضمضة . وغرغرة . وبعض العامة تقول رغرغة
تهدي لولدها (تغني له مع هز مهده)	الهدهدة تحريك الام ولدها لكي ينام

هز المكيال	الدغدغة تحريك المكيال وغيره فيزداد اتساعاً لما يجعل فيه
ملقط	المِسْعَر هو الذي تحرك به النار
التكتيف	الاعتضاد اذا جعل كفيه على عضديه . فاذا جعلها على المعصمين فهو الاعتصام .
السفّة	السَّفنة اذا جعل المرء ابهامه في اصول أصابعه من باطن .
النبر كُل سيف المشي (اذا هز الماشي اليته ومنكبيه) .	الحَيَكان .
رجل اكشر (شفتاه قاصرتان عن الانضمام)	رجل أجلع .
تقليش الأذن (استرخاؤها واقبالها على الوجه)	القذف . وهو في الكلاب الغطف والخطل .
بطة الرِّجل	حَماة
صابونة الرجل (عظمة الركبة)	داغصة
السيبان (صغار القمل)	الصؤاب . بيض القمل .
رخو العجين (اذا استرخى وكثر ماؤه) .	رَخف العجين
النخر الضرس	نَقِدَ الضرس او حَفِر اذا أتكل وتكسر .
ريح السدد (من امراض البطن)	القولنج اعتقال الطبيعة لانسداد المعى المسمى قولون بالرومية .
حب الحرارة	الحصَف بثور تثور من كثرة العرق .
اكزيما	السعفة في الرأس والوجه قروح ربما كانت يابسة وربما كانت رطبة يسيل منها صديد .
بلغمة	السّلعة زيادة تحدث في الجسد فقد تكون من مقدار حمصة الى بطيخة .
سخونة مع دور (الدور عندهم هو قشعريرة برد الحمى) .	النافض (بتقدير الحمى النافض) . البُرَداء .

سخونة منأّخة (اي مثلّثة)	حمّى الرِّبْع
بنّت الدابة اوغيرها (اكتسبت قليلاً من السِّمَن)	أنقت الدابة فاذا زاد سمنها قيل ملّحت ثم درم عظمها . ثم هي مُكدَّنة ثم متوعّبة ونهيّة .
نفّض فلان من المال (فرغ منه)	أنفض او أنزف .
الدوغ (اللبن المنزوع سمنه)	لبنٌ جهير او مخيض . واما الدوّ فهو الفلاة والقفر .
كتابة بسيطة . غير مشكلة . (خالية من الحركات والضوابط) .	خط غُفْلٌ .
رجل اعزب (غير متزوج)	رجل عَزَبٌ او مُكْتَمِع .
الكبّاية	الكوب كوز لا عروة له (اي لا مقبض) .
الجراية (محرفة عن مجرى)	المَدْلَج مابين البئر والحوض .
ابيض كالح	رجل أمهق اي ابيض غير نيّر كلون الجص .
الشحوار . (سواد الدخان اللاصق بالقدور)	سُخام .
الغرّة . (خصلة شعر في مقدم الرأس)	الطرّة . واما الغرّة فهي بياض في الجبهة ويغلب استعمالها على الخيل فيقولون فرس اغرّ .
شفّه بعينه . (حدّق فيه تحديق احتقار)	شَفَنَه شفناً وشفوناً . وقريب من ذلك قولهم المشهور نظر اليه شزراً . اي بمؤخر عينه .
الخُدَيدية	الحُسبانة . الوسادة الصغيرة .
الكرّاز . (نوع من الاباريق)	الشَّكْوة القربة الصغيرة .
اللكن	الكِفْت . القِدر الصغيرة .
منديل الوجه	الوصواص . البرقع الصغير .
الكيل للماء ونحوه	التِّبْن القدح الكبير
القبّان	الشاهين الميزان الكبير
الجاط او الشخنور	المِقري . الاناء العظيم . وقد مر معنا ان الجاط والشخنور عندنا يقار بان ايضاً مايسميه

العرب مشكلة فانها تشبع الرجلين والثلاثة ·

القَمرْف (محرّف ظرف يريدون به جلد جدي او تيس يخاط ويجعل وعاءً للسوائل)

السَّجْل · القربة العظيمة ·

الدبليز (نوع من الجرار يسع زنة ٢٠٠ الى ٣٠٠ درهم) ·

الغَرْب · الدلو العظيمة ·

طنجرة القوزي (القوزي الحروف بالتركية)

الوئيَّة · القدر العظيمة ·

الكرافة (اللفظ افرنجي الاصل · والمراد به نوع من الاباريق الزجاجية)

الرَفْد · القدح الضخم ·

المقانق · والبعض يقولون نقانق او سجق

الوشيق · اللحم اليابس ·

لبنٌ مُوَرْوَر (اي شديد الحموضة) ·

لبن طَخْف ·

اللاذقية : ادوار مرقص

المعتزلة (١)

— الجاحظية —

انتقل فجأة من الكلام على تحقيق الجاحظ في أبواب العلم الى الكلام على دينه ، ولعل هذا الانتقال لا يخلو من معنى من المعاني ، فقد تبين لكم ان للعقل في مذاهبه في التحقيق عملاً كبيراً ، فيكاد لا يؤمن الا بما تراه العين ، أو تسمعه الأذن ، او يذوقه الفم ، او يشمه الانف او تلمسه اليد ، هذا من جهة الحكم الظاهر للامور . واما من جهة الحكم الباطن لهذه الامور فانه لا يقر الا بما يقبله العقل ولا يرده ، ومن كان هذا مذهبه في آفاق العلم ، اي من كان مذهبه التصحيح والتمييز دون ان يجعل سمعه هدفاً لكل توليد وقلبه قراراً لكل زور فأخلق به ان يسير بهذه السيرة في كل عمل من اعماله ، فهل غلب العقل على الجاحظ في أبواب الدين غلبته عليه في أبواب العلم ، هل توثق الجاحظ في دينه توثقه في علمه ، فلم يخرج في شيء من التفسير والتأويل عما يمليه عليه عقله وان يكن في هذه الأمالي شذوذ عن بعض أهل التفسير والتأويل ، هذا ما نجتهد في إدراك حقائقه في الكلام على دين الجاحظ .

لما قال الجاحظ في مقدمة كتاب الحيوان : ان هذا الكتاب أشرك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان الحاسة واحساس الغريزة بسط لنا مذهبه في اصل الدين على نحو ما بسط لنا مذهبه في العلم لما قال في المقدمة نفسها : وجمع — أي كتاب الحيوان — معرفة السماع وعلم التجربة ، فالجاحظ لا يريد ان يخرج في تفسير الآيات وتأويل الأحاديث عن عمل الحواس وعمل العقل ، فهو يريد ان يدرك هذه الآيات وهذه الأحاديث من طريقين : من طريق الحواس ومن طريق العقل ، فهو من المعتزلة .

---

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الأدب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

ويسمي المعتزلة فريق من الافرنجة[1] : المفكرين الاحرار والصحيح ان حرية التفكير من خصائص الاعتزال . فالمعتزلة في نظرهم انما هم فلاسفة يخوضون في مسائل الدين على حسب ما يرتأون دون ان يجعلوا لسلطة من السلطات دخلاً في حل هذه المسائل ، فهم رجال العقل في الدين .

واذا أردنا ان نتبسط في بيان معتقدات المعتزلة ونوازن بينها وبين بعض المذاهب الفلسفية في عصرنا الاخير تراخى أمد الكلام ، وربما أدركنا أواخر السنة قبل استيفاء هذا الكلام فأرى إذن ان اكتفي بذكر بعض امور عن المعتزلة حتى يكون لنا رأي مجمل في الاعتزال .

فلننظر في مجلسنا هذا في اصل كلمة الاعتزال ، وفي الاحتجاج للاعتزال ، وفي القواعد التي أجمع عليها المعتزلة ، وفي طوائف المعتزلة ، وفي بعض طبقات المعتزلة ، وفي الطائفة التي تعنينا امرها وهي الجاحظية ، وفي رأي الجاحظ نفسه في المعتزلة .

فلنشرع في ذكر المصدر الذي من صدرت عنه كلمة الاعتزال[2] :

« دخل واحد على الحسن البصري فقال : يا إمام الدين ، لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة وهم وعيدية الخوارج وجماعة يرجئون اصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم لا تضر مع الايمان بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الايمان ولا يضر مع الايمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة الأمة فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً ؟ فتفكر الحسن في ذلك ، وقبل ان يجيب قال واصل بن عطاء أنا لا أقول ان صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ولا كافر مطلق ، بل هو في منزلة بين المنزلتين ، لا مؤمن ولا كافر ، ثم قام واعتزل الى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن فقال الحسن : اعتزل عنا واصل ، فسمي هو واصحابه معتزلة .

(١) مفكرو الاسلام Baron Garra de vaux الجزء الاول ص ٢٩٤

(٢) الملل والنحل للشهرستاني على هامش الملل والأهواء والنحل لابن حزم (الجزء الاول ص ٦٠) .

ووجه تقريره انه قال : انالايمان عبارة عن خصال خير اذا اجتمعت سمي المرء مؤمناً وهو اسم مدح ، والفاسق لم يستجمع خصال الخير ولااستحق اسم المدح ، فلايسمي مؤمناً ، وليس هو بكافر مطلق ايضاً لان الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه لا وجه لإنكارها ، لكنه اذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة فهو من اهل النار خالداً فيها اذ ليس فيالآخرة الا فريقان : فريق في الجنة وفريق في السعير ، لكنه يخفف عنه العذاب وتكون دركته فرق دركة الكفار وتابعه علىذلك عمرو بن عبيد بعد ان كان موافقاً له في القدر وإنكار الصفات » .

فمن هنا يتبين لنا انهم سموا بالمعتزلة منذ اعتزل واصل بن عطاء الحسن ، وتابعه على ذلك عمرو بن عبيد .

وقال المرتضى في سبب تسميتهم [1] :

« وقيل (أي وسموهم بالمعتزلة) لقول قتادة وكان من أصحاب الحسن : ما تصنع المعتزلة ، فكان يسميهم بهذا الاسم ، روي عن عثمان الطويل قال : لقيت قتادة فقال : ماحبسك عنا ، لعل هؤلاء المعتزلة حبستك عنا ، قلت نعم حديث رويته انت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما هو ، قال : رويت ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : ستفترق أمتي على فرق خيرها وأبرّها المعتزلة . وقيل : سموا بذلك لرجوع عمرو بن عبيد الى قول واصل فيالفاسق وخالف الحسن ، ذلك انه لما خالف واصل أقوال أهل زمانه في الفاسق واعتزلها كلها واقتصر علىالمجمع عليه وهو تسميته فاسقاً ورجع عمرو بن عبيد الى قوله بعد مناظرة وقعت بينهما سمي وأصحابه معتزلة لاعتزالهم كل الأقوال المحدثة ، والمجبرة تزعم ان المعتزلة لماخالفوا الاجماع في ذلك سموا معتزلة ، قلتُ : لم يخالفوا الاجماع بل عملوا بالمجمع عليه فيالصدر الأول ورفضوا المحدثات المبتدعة » .

ويسمون العدلية لقولهم بعدلالله وحكمته والموحدة لقولهم : لاقديم مع الله [2] .

ويسمون أصحاب العدل والتوحيد و يلقبون بالقدرية [3] .

اما احتجاج المعتزلة للاعتزال فقد ذكره المرتضى فقال [4] :

(١) ذكر المعتزلة ص٤ . (٢) ذكر المعتزلة للمرتضى ص٢ . (٣) الملل والنحل للشهرستاني (على الهامش ص٥٤) . (٤) ذكر المعتزلة ص٣ .

« ويحتجون للاعتزال أي لفضله بقوله تعالى : وأعتزلكم وما تدعون وهو قوله تعالى : واهجرهم هجراً جميلاً ، وليس الا بالاعتزال عنهم ·

واحتجوا من السنة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : من اعتزل من الشر سقط في الخير ·

واحتجوا ايضاً بالخبر الذي رواه سفيان الثوري عن ابن الزبير عن جابر بن عبدالله عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم : ستفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة ، أبرها واتقاها الفئة المعتزلة وهو تمام الخبر ، ثم قال سفيان لأصحابه تسموا بهذا الاسم لأنكم اعتزلتم الظلمة ، فقالوا : سبقك بهـا عمرو بن عبيد وأصحابه ، فكان سفيان بعد ذلك يروي واحدة ناجية » ·

واليكم القواعد التي أجمع عليها المعتزلة على نحو ما بينها الشهرستاني لما قال[1] :

« فالذي يعم طائفة المعتزلة من الاعتقاد القول بان الله تعالى قديم ، والقدم أخص وصف ذاته ، ونفوا الصفات القديمة اصلاً فقالوا : هو عالم بذاته ، قادر بذاته ، حي بذاته لا بعلم وقدرة وحياة ، هي صفات قديمة ومعان قائمة به لانه لو شاركته الصفات في القدم الذي هو أخص الوصف لشاركته في الإلهية ·

واتفقوا على ان كلامه محدث مخلوق في محل وهو حرف وصوت كتب امثاله في المصاحف حكايات عنه ، فانما وجد في المحل عرض فقد فني في الحال ·

واتفقوا على ان الارادة والسمع والبصر ليست معاني قائمة بذاته ، لكن اختلفوا في وجوه وجودها ومحامل معانيها كما سيأتي ·

واتفقوا على نفي رؤية الله تعالى بالأبصار في دار القرار ، ونفي التشبيه عنه من كل وجه : جهةً ومكاناً وصورةً وجسماً وتحيزاً وانتقالاً وزوالاً وتغيراً وتأثراً ·

وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها وسموا هذا النمط : توحيداً ·

واتفقوا على ان العبد قادر ، خالق لأفعاله خيرها وشرها ، مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة ، والرب تعالى منزه ان يضاف اليه شر وظلم وفعل هو كفر ومعصية لانه لو خلق الظلم كان ظالماً كما لو خلق العدل كان عادلا ·

(١) الملل والنحل للشهرستاني ص٥٥ ·

واتفقوا على ان الحكيم لا يفعل الا الصلاح والخير ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد ، واما الاصلح واللطف ففي وجوبه خلاف عندهم وسموا هذا النمط عدلا .

واتفقوا على ان المؤمن اذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض والتفضلُ معنى آخر وراء الثواب ، واذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار ، لكن يكون عقابه اخف من عقاب الكفار وسموا هذا النمط : وعداً ووعيداً .

واتفقوا على ان اصول المعرفة وشكر النعمة واجب قبل ورود السمع ، والحسن والقبيح يجب معرفتهما بالعقل واعتناق الحسن واجتناب القبيح واجب ، كذلك ورود التكاليف ألطاف للباري تعالى أرسلها الى العباد بتوسط الانبياء عليهم السلام امتحاناً واختباراً ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة .

واختلفوا في الامامة والقول فيها نصاً واختياراً .

وأشار المرتضى الى هذه القواعد فأوجز فقال[1] :

« واما ما أجمعوا عليه فقد أجمعت المعتزلة على ان للعالَم مُحدِثاً قديماً قادراً عالماً حياً لا لمعانٍ ليس بجسمٍ ولا عَرَضٍ ولا جوهرٍ عيناً واحداً لا يدرك بحاسة عدلاً حكيماً لا يفعل القبيح ولا يريده ، كلّف تعريضاً للثواب ، ومكّن من الفعل وأزاح العلة ولا بدّ من الجزاء وعلى وجوب البعثة حيث حسنت ولا بدّ للرسول صلى الله عليه وآله من شرع جديد او احياء مندرس او فائدة لم تحصل من غيره وان آخر الانبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن معجزة له وان الايمان قول ومعرفة وعمل ، وان المؤمن من اهل الجنة وعلى المنزلة بين المنزلتين وهو ان الفاسق لا يسمي مؤمناً ولا كافراً الا من يقول بالارجاء فانه يخالف في تفسير الايمان وفي المنزلة فيقول الفاسق يسمى مؤمناً ، وأجمعوا على ان فعل العبد غير مخلوق فيه وأجمعوا على تولي الصحابة واختلفوا في عثمان بعد الأحداث التي أحدثها فأكثرهم تولاّه وتأوّل له كما مرّ وكما سيأتي وأكثرهم على البراءة من معاوية وعمرو بن العاص وأجمعوا على وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي تعداد علمائهم مصنفات عدة كالمصابيح لابن يزداد وغيره » .

(١) ذكر المعتزلة ص٦ .

فالذي يستنتج من ذكر بعض معتقدات المعتزلة ان هذه المعتقدات تتعلق بعلم ما وراء الطبيعة و بالفلسفة نفسها ، فان البحث عن قدرة العبد وعن خلقه لأفعاله خيرها وشرها ، وعن الجوهر والعرض وماشابه هذه الامور من خصائص الفلسفة ومن خصائص علم ماوراء الطبيعة فلا نستطيع ان نفهم أقوال الجاحظية وسائر طوائف المعتزلة الا اذا كنا واقفين على العلوم التي تدخل فيها هذه الأقوال .

والمعتزلة طوائف شتى كالواصلية أصحاب ابي حذيفة واصل بن عطاء الغزّال تلميذ الحسن البصري ، وكالهذيلية أصحاب ابي الهذيل حمدان بن ابي الهذيل العلاّف شيخ المعتزلة ، وكالنظامية أصحاب ابراهيم بن سيّار بن هاني النظّام ، وكالحائطية أصحاب احمد بن حائط ، وكالحدثية أصحاب فضل بن الحدثي ، وكالبشرية أصحاب بشر بن المعتمر ، وكالمعمرية أصحاب معمر بن عباد السلمي ، وكالمزدارية أصحاب عيسى بن صبيح المكنى بابي موسى الملقب بالمزدار راهب المعتزلة ، وكالثمامية أصحاب ثمامة بن أشرس النميري ، وكالهشامية أصحاب هشام بن عمرو الفوطي ، وكالجاحظية وكالخياطية أصحاب ابي الحسين ابن ابي عمرو الخيّاط أستاذ ابي القاسم ابن محمد الكعبي ، وكالجبائية والبهشمية أصحاب ابي علي محمد بن عبدالوهاب الجبائي وابنه ابي هاشم عبد السلام .

ولكل طائفة من هذه الطوائف اعتزال يدور على قواعد معينة ذكرها الشهرستاني في الملل والنحل .

ومن طبقات المعتزلة :

محمد بن الحنفية وعنه اخذ واصل بن عطاء علم الكلام وأبو الاسود الدؤلي وعلقمة والاسود وشُريح والحسن البصري صاحب الرسالات في القضاء والقدر الى عبد الملك والى الحجاج وله مع الحجاج مناظرات وكان لا يرد عليه احد كما يرد عليه الحسن وغيلان ابن مسلم الدمشقي الذي كان يعيب هشام بن عبدالملك و يعيب آباءه فلما ولي هشام خرج غيلان وصاحبه الى ارمينية فأرسل هشام في طلبهما فجيء بهما فحبسهما اياماً ثم أخرجهما وقطع ايديهما وأرجلهما فمات صالح وصلّى عليه غيلان ثم اندفع في ذكر بني أمية بالسوء فقيل لهشام : قطعت يدي غيلان ورجليه واطلقت لسانه ، انه قد بكّى الناس ونبههم على ما كانوا عنه غافلين فأرسل اليه من قطع لسانه فمات .

ومنهم واصل بن عطاء الذي كان يلزم صديقه ابا عبد الله الغزّال ليعرف المتعففات من النساء فيجعل صدقته لهن ·

كان واصل ألثغ في الراء قبيح اللثغة فيها فكان يتملص كلامه من الراء ولا يفطن لذلك لاقتداره وسهولة الفاظه، وقد كان صديقاً لبشار مدحه بشار وذكر خطبته التي القى منها الراء فقال :

تكلف القول والاقوام قد حفلوا وحبّروا خطباً ناهيك من خطب
وقال مرتجلاً تغلي بداهته كمرجل القين لما حفّ باللهب
وجانب الراء لم يشعر به احد قبل التصفح والاغراق في الطلب

فلما قال بشار بالرجعة وتكفير جميع الامة تبرأ منه واصل فهجاه بشار وعابه بطول عنقه فقال :

مالي اشايع غزّالاً له عنق كنقنق الدوّ ان ولّى وان مثُلا
عنق الزرافة ما بالي و بالكم تكفرون رجالاً كفّروا رجلا

أنفذ واصل بن عطاء أصحابه الى الآفاق وبث دعاته في البلاد ، فبعث عبدالله بن الحارث الى المغرب فأجابه خلق كثير وبعث حفص بن سالم الى خراسان وبعث القاسم الى اليمن وبعث ايوب الى الجزيرة وبعث الحسن بن ذكوان الى الكوفة وبعث عثمان الطويل الى أرمينية · وكان عثمان أستاذ ابي الهذيل العلاّف ·

ومنهم عمرو بن عبيد وكان المنصور العباسي يبالغ في تعظيمه ·

ومنهم صالح الدمشقي صاحب غيلان الدمشقي ·

ومنهم ابو الهذيل العلاّف : اتاه رجل فقال له : أشكل عليّ أشياء من القرآن فقصدت هذا البلد فلم أجد عند احد ممن سألته شفاء لما أردته فلما خرجت في هذا الوقت قال لي قائل : ان بغيتك عند هذا الرجل ، فاتق الله وأفدني ، فقال ابو الهذيل ، فما ذا أشكل عليك ؟ قال : آيات من القرآن توهمني انها متناقضة وآيات توهمني انها ملحونة ، قال : فماذا أحب اليك ، أجيبك بالجملة او تسألني عن آية آية ؟ قال : بل تجيبني بالجملة ، قال ابو الهذيل : هل تعلم ان محمداً كان من أوسط العرب وغير مطعون عليه في لغته وانه كان عند قومه من أعقل العرب فلم يكن مطعوناً عليه فقال : اللهم نعم ، قال ابو الهذيل : فهل

تعلم ان العرب كانوا اهل جدل ؟ قال : اللهم نعم . قال : فهل اجتهدوا في تكذيبه ؟ قال : اللهم نعم . قال : فهل تعلم انهم عابوا عليه بالمناقضة او باللحن ؟ قال : اللهم لا . قال ابو الهذيل : فتدع قولهم مع علمهم باللغة وتأخذ بقول رجل من الاوساط ، قال : فأشهد ان لا إله الا الله وان محمداً رسول الله ، قد كفاني هذا وانصرف وتفقه في الدين .

وفي ابي الهذيل يقول المأمون : أطل ابو الهذيل على الكلام كاطلال الغمام على الانام .

ومنهم ابو اسحاق ابراهيم بن سيّار النظام أستاذ الجاحظ ، وقد قال الجاحظ : الاوائل يقولون في كل الف سنة رجل لا نظير له ، فان كان ذلك صحيحاً فهو ابو اسحاق النظام . وقال فيه ايضاً : مارأيت احداً أعلم بالكلام والفقه من النظّام .

ومنهم بشر بن المعتمر الهلالي رئيس معتزلة بغداد . ومنهم معمر بن عباد السلمي أستاذ بشر .

ومنهم ابو الحسين القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني والصاحب الكافي .

والجوهري صاحب الصحاح وابوبكر الرازي وغيرهم من الذين اتى على ذكرهم المرتضى في كتابه ذكر المعتزلة .

والذي يشغلنا من طوائف المعتزلة ومن طبقاتها في مثل هذا المقام الجاحظية وحدها فالجاحظ وافق اصحابه المعتزلة على امور وانفرد عنهم بمسائل تابعه عليها فريق من المعتزلية فسموا بالجاحظية ، وهذه هي المسائل التي انفرد بها [1] :

« منها : قوله ان المعارف كلها ضرورية طباع وليس شيء من ذلك من أفعال العباد وليس للعباد كسب سوى الارادة ويحصل أفعاله منه طباعاً كما قال ثمامة ونقل عنه ايضاً انه أنكر أصل الارادة وكونها جنساً من الأعراض فقال اذا انتهى السهو عن الفاعل وكان عالماً بما يفعله فهو المريد على التحقيق ، واما الارادة المتعلقة بفعل الخير فهو ميل النفس اليه وزاد على ذلك باثبات الطبائع للأجسام كما قال الطبيعيون من الفلاسفة وأثبت لها أفعالاً مخصوصة بها وقال باستحالة عدم الجواهر فالأعراض تتبدل والجوهر لا يجوز ان يفنى .

ومنها قوله في اهل النار انهم لا يخلدون فيها عذاباً بل يصيرون الى طبيعة النار وكان يقول النار تجذب أهلها الى نفسها دون أن يدخل احد فيها ومذهبه مذهب الفلاسفة في

(١) الملل والنحل للشهرستاني ص٩٤ .

نفي الصفات وفي إثبات القدر خيره وشره من العبد مذهب المعتزلة ·

وحكى الكعبي عنه في نفي الصفات انه قال : يوصف الباري تعالى بانه مريد بمعنى انه لا يصح عليه السهو في أفعاله ولا الجهل ولا يجوز ان يغلب ويقهر وقال : ان الخلق كلهم من العقلاء عالمون بان الله تعالى خالقهم وعارفون بانهم محتاجون الى النبي وهم محجوجون بمعرفتهم ، ثم هم صنفان : عالم بالتوحيد وجاهل به فالجاهل معذور والعالم محجوج ومن انتحل دين الاسلام فان اعتقد ان الله تعالى ليس بجسم ولا صورة ولا يُرى بالابصار وهو عدل لا يجور ولا يريد المعاصي وبعد الاعتقاد والتبيين أقر بذلك كله ثم جحده وانكره أو دان بالتشبيه والجبر فهو مشرك كافر حقاً وان لم ينظر في شيء من ذلك واعتقد ان الله ربه وان محمداً رسول الله فهو مؤمن لا لوم عليه ولا تكليف عليه غير ذلك ·

وحكى ابن الراوندي عنه ان القرآن جسد يجوز ان يقلب مرةً رجلاً ومرة حيواناً وهذا مثل ما يحكى عن ابي بكر الأصم انه زعم ان القرآن جسم مخلوق وانكر الأعراض اصلاً وانكر صفات الباري تعالى ومذهب الجاحظ هو بعينه مذهب الفلاسفة الاّ ان الميل منه ومن اصحابه الى الطبيعيين منهم اكثر منه الى الالٓهيين » ·

وقد تعرض ابن الراوندي للمعتزلة ، وفي جملتهم الجاحظ فردّ عليه الخياط في كتابه : الانتصار ، فقال في دفاعه عن الجاحظ [1] :

ثم قال : اي ابن الروندي ، وقد زعم الجاحظ مع ما حكيت عنه من إحالة فناء الاجسام وعدمها أن الله لا يخلد كافراً في النار ولا يدخله فيها وان النار تُدخل الكافر نفسها وتخلده فيها ، ثم قال : هرباً بزعمه من مسائل الملحدين في التخليد : قال : نقلت لبعض اصحابه وكيف صارت النار هي التي تخلد الكفار في عذابها وتصيّرهم اليها · قال ، فقال : من قبل انهم عملوا اعمالاً فصارت اجسادهم لا تمتنع النار اذا حاذتها في القيامة من اجتذابها اليها بطباعها ثم وصف كلاماً زعم دار بينه وبين هذا الرجل في هذا الباب ، وهذا كذب وزور وهذه كتب الجاحظ في أفعال الطبائع فانظر فيها فان وجدت فيها حرفاً واحداً مما حكاه عنه هذا الماجن فهو صادق والاّ فاعلم انه كاذب بهّات كذب عليه في الحكاية عنه انه يحيل فناء الاجسام ثم أردفه بكذب آخر والله المستعان ·

(١) كتاب الانتصار للخيّاط المعتزلي ص ٩١ ·

وللمعتزلة في نظر الجاحظ مقام رفيع فقد أشار اليهم في بعض مواطن ، منها قوله[1] :

« لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الامم ، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل ، فان لم أقل : ولولا اصحاب ابراهيم وابراهيم لهلكت العوام من المعتزلة فاني أقول انه قد أنهج لهم سبلاً وفتق لهم اموراً واختصر لهم ابواباً ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة .

ومنها قوله بعد كلام له على الجهمية ومن أنكر ايجاد الطبائع وعلى ناس اتبعوا ظاهر الحديث وظاهر الأشعار[2] :

« وليس هؤلاء ممن يفهم تأويل الأحاديث واي ضرب منها يكون مردوداً ، واي ضرب منها يكون متأولاً ، واي ضرب منها يقال ان ذلك انما هو حكاية عن بعض القبائل ولذلك اقول : لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام واختطفت واسترقت ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون » . دمشق : في ٢٥ نيسان سنة ١٩٣١



(١) الحيوان (الجزء الرابع ص ٦٩) .
(٢) 〃 〃 〃 〃 ٩٦

شعور الجاحظ الديني

— «×» —

ان مذهباً تبنى اصوله على العقل و يستفيض في عصر استفاضت فيه الخرافات وغرائب الزور فيتفرغ رجاله للتنبيه على الأضاليل والتحذير من الاكاذيب ، ان مذهباً هذا شأنه لايخلو في صدر أمره من تعرض المتعرضين ومعاندة المعاندين ، وقد نجد المعترضين في كل زمن من الازمان ثلاث فرق : فرقة من أصحاب الارتجاع قد جمدت أذهانهم وبلدت طبائعهم ، لا يريدون ان يفهموا ان الدنيا أزمان وان لكل زمان أطواراً ، وان الانتقال من طور الى طور من دلائل الحياة ، فرضوا بمسور حالهم دون ان يخطوا في كل فن من فنونهم خطوة ، فهم يصيحون في وجه كل مصلح ، ثم لا تلبث صيحاتهم ان تتلاشى كما يتلاشى الدخان في أجواز الفضاء .

وفرقة قد أقلق الحسد بالهم ونغّص عليهم لذة الحياة ، فهم يؤلمهم ان ينبغ في ظلال ديارهم نابغ او يبرع بارع ، فيخرجون مكنونهم في إطفاء كل نور يتلألأ وتسكين كل حركة تنقلب .

وفرقة قد جهلت قلوبهم وانحطت مداركهم فهم ضعاف يتساوون ، فصار يطاولون على امل ان يكون لهم في نظر الناس شيء من القوة او شيء من الطول .

ان كل مذهب سواء أكان في الدين أم في الأدب أم في الاجتماع أم في السياسة ، طبيعته إصلاح الفاسد او تجديد العتيق لا بدّ له من ان تتحرش به في مقدمة امره فرقة من هذه الفرق الثلاث : فرقة الارتجاع او فرقة الحسد او فرقة الجهل بيد ان المصلح الواثق بنفسه ، المعتمد على عزمه ، المندفع في سبيله يمضي لطيته دون ان يلوي على شيء لانه يعلم ان للباطل جولة ثم يضمحل .

والجاحظ لم يخل في حياته وبعد مماته من تعرض المتعرضين ، اماالذين نقدوه نقداً خالصاً فليس لنا كلام عليهم فسواء أذهبوا مذهبه في الاعتزال أو في الفلسفة أو في العلم أم خالفوا هذا المذهب ، انهم احرار ، فلكل رأيه ومعتقده ، ولكن بعض المعترضين لم يقفوا عند حد النقد ، فلم يخل الجاحظ في حياته من حسد الحساد ، انكم لتذكرون كيف كانوا يتعقبونه في أواخر ايامه اي في فالجه ، ملتمسين في كلامه لفظاً مضطرباً او تأليفاً سيئاً او نظاماً مقطعاً ، ومغضين على كل محمود من هذا الكلام ، وليس هذا من النقد في شيء وانما اصل الامر في النقد ان ننظر الى جهتي المحاسن والمساوئ فندل على هذه المحاسن حتى يزداد شعورنا بها ، وننبه على هذه المساوئ حتى نصلح أذواقنا فالاقتصار على ذكر المذموم من كلام المؤلف دون التفرغ لبيان المحمود من هذا الكلام لا يخلو من شيء نسميه الحسد ، والجاحظ كان محسوداً في حياته وقد أشار الى هذا الامر في مقدمة كتابه « المحاسن والاضداد » .

والحسد مستحكم في البشر سواء فيه العالم والجاهل ولا يقعن في خلد احد ان العلم يهون من خطبه ، قال الاستاذ (ريشه) في تصويره اخلاق العلماء[1] :

« العلماء حساد لانهم بشر فهم لا يستطيعون ان ينظروا بعين الرضا الى تكريم يكرمه زميل من زملائهم او الى لقب يحصل عليه او الى حظوة يحظى بها او الى غير ذلك من رتب تتساقط عليه تساقط الوابل وكلما كان العلم الذي ينصرف اليه هذا الزميل قريباً من علمهم كلما اشتد الحسد ، فالفلكي لا يحزنه الشرف الذي يتناهى الى النباتي ولكنه قد يجد ان الشرف الذي يحصل عليه فلكي آخر قد لا يستحقه » .

قلت : لم يقف المتعرضون للجاحظ عند حد النقد وانما أحبوا ان يثلموا من شعوره الديني فلم تجد طائفة منهم في كلامه الا الجهالات والا ضلالات ولقد ذهبوا في ذلك مذهباً أبعد فاستكثروا تسميته انساناً وعدوا هذه التسمية ذنباً لا يغفر والتمسوا له شبيهاً من أصناف الحيوان فلم يجدوا أصلح من الخنزير .

فقد تعرض له ابومنصور البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق فرد عليه في بعض آرائه في الفلسفة والتوحيد ثم نسبه الى الشعوبية والى السرقة مما لا نجد حاجة الى ذكره

(١) كتاب العالم (ص ٢١) .

في مثل هذا المقام وانما نشير الى هذه العبارة [١] :

« ولو عرفوا جهالاته في ضلالاته لاستغفروا الله تعالى من تسميتهم اياه انساناً ، فضلاً عن ان ينسبوا اليه احساناً » .

او الى العبارة الآتية [٢] :

« ومن الفخر بالجاحظ سلمناه اليه ، قول اهل السنة في الجاحظ كقول الشاعر فيه :

لو يمسخ الخنزير مسخاً ثانياً ما كان الا دون قبح الجاحظ
رجل ينوب عن الجحيم بنفسه وهو القذى في كل طرف لاحظ

ان مثل هذا الكلام يمرّ به مرّ الكرام ، فاذا لم يكن الجاحظ انساناً فمن الانسان ، والصحيح ان الجاحظ جاوز أفق البشرية وحلّق في جوّ قد لا يصل اليه كل واحد من الناس .

وكما تعرّض له البغدادي فقد تعرّض له ابن قتيبة فثلمه في دينه فقال [٣] :

« ويعمل كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين فاذا صار الى الرد عليهم تجوز في الحجة كأنه انما أراد تنبيههم على مالا يعرفون وتشكيك الضعفة من المسلمين وتجده يقصد في كتبه للمضاحيك والعبث يريد بذلك استمالة الأحداث وشرّاب النبيذ و يستهزئ من الحديث استهزاء لايخفى على اهل العلم كذكره كبد الحوت وقرن الشيطان وذكر الحجر الأسود وانه كان ابيض فسوّده المشتركون وقد كان يجب ان يبيضه المسلمون حين اسلموا وبذكر الصحيفة التي كان فيها المنزل في الرضاع تحت سرير عائشة فأكلتها الشاة واشياء من احاديث اهل الكتاب في تنادم الديك والغراب ودفن الهدهد أمه في رأسه وتسبيح الضفدع وطوق الحمامة واشباه هذا مما سنذكره فيما بعد ان شاء الله .

وهو مع هذا من اكذب الامة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لباطل » .

والغريب ان ابن قتيبة عاب الجاحظ بقصده للمضاحيك والعبث وهو نفسه من الذين قصدوا لهذه المضاحيك ولهذا العبث حتى قال في مقدمة كتابه عيون الاخبار :

(١) الفرق بين الفرق (ص١٦٠) .
(٢) « « (ص١٦٢) .
(٣) تأويل مختلف الحديث (ص٧٢) .

« ولم اخله (اي لم يخل كتابه) من نادرة طريفة وفطنة لطيفة وكلمة معجبة أخرى مضحكة لئلا يخرج عن الكتاب مذهب سلكه السالكون وعروض اخذ فيها القائلون . ولأروح بذلك من القارئ من كدّ الجد واتعاب الحق فان الاذن مجّاجة وللنفس حمضة » .

وقال في مقام آخر من هذه المقدمة :

« واذا مرّ بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة او فرج او وصف فاحشة فلا يحملنك الخشوع او التخاشع على ان تصعّر خدك وتعرض بوجهك فان اسماء الاعضاء لا تؤثم وانما المأثم في شتم الاعراض وقول الزور والكذب واكل لحوم الناس بالغيب » .

هذا ماقاله ابن قتيبة نفسه وايد قوله باحاديث الرسول وبكلام بعض الخلفاء الراشدين فلِمَ سلك هذا المسلك وعاب الجاحظ بسلوكه اياه واذا كان المأثم في شتم الأعراض وقول الزور والكذب واكل لحوم الناس بالغيب فالجاحظ قد عرضت عليكم انماطاً من نقده العلمي فأظن انه ما شتم عرض ارسطاطاليس لما تعرض له ، واظن انه كان يتقذر من قول الزور والكذب وقد رأيتم كيف كان يدل على توليد الكذابين وعلى غرائب الزور من دون ان يأكل لحومهم بالغيب .

* * *

وكان ابن ابي دواد يقول في الجاحظ (١) :

« انا اثق بظرفه ولا اثق بدينه » .

وكلام ابن ابي دواد في مثل هذا المقام فيه بعض النظر فان الجاحظ كان منحرفاً عنه ملازماً لعدوه ابن الزيات .

ومثل هذا قول ابن ابي دواد له لما جيء به مقيداً :

« قبحك الله ما علمتك الا كثير تزويق الكلام وقد جعلت ثيابك أمام قلبك ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر » .

وقال ابن ابي الدنيا المحدث (٢) :

« حضرت وليمة حضرها الجاحظ وحضرت صلاة الظهر فصلينا وما صلّى الجاحظ

(١) طبقات الادباء للانباري (ص ٢٥٨) .
(٢) تاريخ ابن عساكر .

وحضرت صلاة العصر فصلينا وما صلى الجاحظ فلما عزمنا على الانصراف قال الجاحظ لصاحب المنزل : اني صليت لمذهب او لسبب أخبرك به ، فقال له : (او قيل له) ما أظن ان لك مذهباً في الصلاة الا تركها » .

ثلوا الجاحظ في دينه وجردوه من الشعور الديني ، فلنجتهد في مجلسنا هذا في التنقيب عن بعض مواضع من كلام الجاحظ ظهر فيها هذا الشعور الذي سلخوه منه الظهور كله ولقد ظهر في مقام علمي لا متعلق للدين به ، ولو كتمه الجاحظ لما كان عليه مطعن من المطاعن فانه في باب علم لا في باب دين ولكن هذا الشعور أبى الا ان يفيض على جنبات كلامه ، واذا كان المرء مأخوذاً بظاهر عقيدته لا بباطنها فليس في ظاهر عقيدة الجاحظ مغمز من المغامز أما الباطن فما نحاول مكاشفته فلنا ظاهر الجاحظ ولله باطنه .

قال زياد لاهل العراق لما قدم والياً عليهم[1] :

اني لو علمت ان احدكم قد قتله السل من بغضي لم اكشف له قناعاً ولم أهتك له ستراً حتى يبدي صفحته لي !

وليس من المستسهل ان نعرف عقيدة الرجل على حقيقتها فقد يكتم المرء غير ما يظهر وقد يظهر غير ما يكتم .

مرة ينظر الى الحمام كيف يعدّ الذكر والانثى العش لولدهما وكيف ينقلان القضب ويشققان الخوص وينسجانه نسجاً مداخلاً وكيف يتخذان موضعاً للولد ويصطنعانه بقدر جثمان الحمامة وكيف يحفظان البيض ويمنعانه من التدحرج ، وكيف يتعاوران الاخوصة وينفيان عنها طبيعتها الاولى ويحدثان لها طبيعة أخرى على مقدار من البرد والسخانة والرخاوة والصلابة وكيف تضع الانثى البيض في هذه الاخوصة وكيف يتعاقب الذكر والانثى الحضن ويتعاورانه ، وكيف ينصدع البيض عن الفرخ فيعلمان الفرخ الغذاء ويعينانه عليه وكيف يزقانه باللعاب ثم بالحب والماء على مقدار قوته وكيف يمنعانه بعض المنع بعد أن يطيق اللقط وكيف يفطمانه فطماً مقطوعاً مجذوذاً بعد ان يعلما ان اسبابه قد اجتمعت وكيف ينفيانه اذا بلغ لنفسه منتهي حاجته وسألها الكفاية وكيف ينزعان منهما تلك الرحمة له وينسيان ذلك العطف عليه ، فلا يروحان اليه ولا يغدوان عليه .

(١) العقد الفريد (الجزء الاول ص٥) .

ينظر الى مجامع هذه الحكمة فلا يسعه الا التسبيح لمن أودع المعرفة هذا الذكر والانثى وألقى اليهما الإلهام وبسط عليهما ظل الهناء وجعلها ضياء للمستضيء وراشداً للمسترشد ويقول [1] :

« فسبحان من عرّفها وألهمها وهداهما وجعلها دلالةً لمن استدل ومخبراً صادقاً لمن استخبر ذلكم الله رب العالمين » .

ومرةً ينظر الى أصناف الحيوان فيتدبر كيف تبيض في صدع الصخر وأعالي الهضاب وكيف تبيض في الأجحرة وكيف تلد ولا تبيض ولا ترضع ولا تلقم وكيف تبيض وترضع وكيف تبيض في أوكارها في عرض مقاطع الجبال وكيف تبيض في البيوت في اصول أجذاع السقف وكيف لا تبيض من الجبال الا في الوحشي منها والا في اسحقها وأبعدها عن مواضع اعدائها وكيف تتخذ بيوتها في عرض شطوط الانهار والسواقي وكيف لا تجثم على بيضها وكيف لا تزق ولا تلقم ولا تلحم ولا تحضن ولا ترضع وكيف تزق وتحضن وتحتاج الى ما تغذو به ولدها .

ينظر الى هذا كله فيستدل به على حسن صنع الله واحكامه وتدابيره [2] .

وحيناً ينظر الى الخنافس كيف يسقط الى المقابيس انها تجلب الرزق وان دنوها دليل على رزق حاضر من صلة اوجائزة اوربح اوهدية او حظ وكيف تدخل في قمص الناس فتنفذ الى سراويلاتهم فلا يقولون لها قليلاً ولا كثيراً وكيف يدفعونها ببعض الرفق . وينظر الى الذباب الكبير الشديد البطش الجهير الصوت كيف كانوا يحتالون في صرفه وطرده اذا اكربهم بكثرة طنينه وزجله وهماهمه ، وكيف صاروا يعتقدون انه مبشر بقدوم غائب وبرء سقيم فصاروا اذا دخل منازلهم وأوسعهم شراً لم يجبه احدمنهم .

ينظر الى هذا فيرى في أضعافه قدرة خالق يمد في الآجال مرة ويقصّر في الاعمار مرة ويهيء لكل واحدة منها سبباً فلا يسعه الى الاعتراف بهذه القدرة فيقول :

« واذا أراد الله عز وجل ان ينسيء في اجل شيء من الحيوان هيأ لذلك سبباً كما انه اذا أراد ان يقصّر عمره هيأ له سبباً فتعالى الله علواً كبيراً » .

(١) كتاب الحيوان الجزء الثالث ص٤٧ .

(٢) « « السابع ص١٩ .

ولقد ظهر هذا الشعور في قوله [١] :

« اعلم رحمك الله تعالى ان الله عزّ وجل قد أضاف ست سور من كتابه الى اشكال من أجناس الحيوان الثلاثة منها مايسمونها باسم البهيمة وهي سورة البقرة وسورة الانعام وسورة الفيل وثلاثة مايعدون اثنتين منها من الهمج وواحدة من الحشرات فلو كان موقع ذكر هذه البهائم وهذه الحشرات والهمج من الحكمة والتدبير موقعها في قلوب الذين لا يعتبرون ولا يفكرون ولا يميزون ولا يحصلون الامور ولا يفهمون الأقدار لما أضاف هذه السور العظام الخطيرة الشريفة الجليلة الى هذه الامور المحقرة السخيفة والمغمورة المقهورة ولأمرما وضعها في هذا المكان ونوّه باسمائها هذا التنويه وانا ذاكر من شأن الضفدع من القول مايحضر مثلي وهو قليل في جنب ماعند علمائنا ، والذي عند علمائنا لايحسن في جنب ما عند الله تبارك وتعالى » .

وظهر شعوره الديني في غير هذه المواطن . فاذا أطنب في ذكر العظيم الجثة من الحيوان فلايطنب في شيء من ذلك لعظم جثته وانما يلتمس ماكان اكثر أعجوبة وأبلغ في الحكمة وأدل عند العامة على حكمة الرب [٢] .

وبلغ من حرصه على الدين انه رأى ان الخطأ في الدين أضر من الخطإ في كل علم من العلوم فقال في كلامه على الترجمة في عصره وعلى شروط هذه الترجمة وعلى خطإ المترجم [٣] :

« والخطأ في الدين أضر من الخطإ في الرياضة والصناعة والفلسفة والكيمياء وفي بعض المعيشة التي يعيش بها بنو آدم » .

وهو يجد كتب الله تعالى أنفع وأشرف من كتب الاوائل وماشتملت عليه من عجيب حكمة ومن سيرة ، قال [٤] :

« واكثر من كتبهم نفعاً وأشرف منها خطراً وأحسن موقعاً كتب الله تعالى التي فيها

(١) كتاب الحيوان (الجزء الخامس ص١٥٢) .
(٢) « « « « ٤٩
(٣) « « « الاول « ٣٩
(٤) « « « « « ٤٣

الهدى والرحمة والاخبار عن كل حكمة وتعريف كل سيئة وحسنة » ·

وقد علمتم ان الزندقة كانت مستفيضة في عصر الجاحظ ومرّ بكم ان من الذين اتهموا بهذه الزندقة حمّاد الراوية وقد عرّض به حماد ابن الزبرقان بأبيات ذكرت في محلها منها :

وحبوت من زعم السماء تكونت والارض خالقهـا لهـا لم يمهد

وقد قال الجاحظ بعد هذا الشعر : فليس يقول احد ان الفلك بما فيه من التدبير تكوّن بنفسه ومن نفسه ·

وتعرّض الجاحظ لجماعة من الذين اتهموا بالزندقة واستنكر استفاضتها على نحو ما تبين لكم ذلك في كلامنا على عصره اذ قال :

« وقد ترك هذا الجمهور الاكبر والسواد الاعظم التوقف عند الشبهة والتثبت عند الحكومة جانبًا وأعرضوا عنه صفحًا فليس الا : لا أو نعم ، الاّ ان قولهم : لا ، موصول منهم بالغضب وقولهم : نعم ، موصول منهم بالرضى وقد عزل الحق جانبًا ومات ذكر الحلال والحرام ورفض ذكر القبيح والحسن » ·

ان هذا كله يدلنا دلالة واضحة على ان الجاحظ لم يضعف شعوره الديني فان نسبته الى الجهالات والضلالات وان الشك في دينه واتهامه بالكفر والنفاق كل هذا لا يخلو من تحامل ظاهر وأظن أنهم ماطعنوا فيه هذا المطعن الا لمخالفته اياهم في اصل الدين فان الرجل يستند في تفسير الآيات وتأويل الاحاديث الى عقله ·

في ٢ أيار سنة ١٩٣١

حروف التاج
وعلامات الترقيم
« ومواضع استعمالها »

هذا نص المقدمة التي وضعتها وزارة المعارف المصرية للنشرة التي أذيعت على مدارسها بشأن حروف التاج وعلامات الترقيم ومواضع استعمالها لتعميمها بين الطلبة وهو :

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الخط العربي أثر من آثار الحضارة الاسلامية ، انتقل في عصر الفتح الاسلامي من بلاد العرب مع اللغة والدين الى الممالك المجاورة : الروم · والفرس · وارض المغرب ودخل مصر وحل فيها محل الخط القبطي ولجماله واختصاره تغلغلت محبته في نفوس الامم حتى ان الممالك التي دخلها وشاء لها القدر ان تسترد لغتها القديمة كالفرس — وجدت من الخط العربي عوناً فاستبقته في حضارتها الجديدة ·

ومن أحسن العصور الغابرة التي ازدهت فيها مصر وتألق فيها بهاء الخط العربي عصر المماليك ففيه أنشئت المدارس وأقيمت العمارات · وكان جل اعتماد القوم حينئذ في النقش على الخط العربي · وهذه المساجد المنبثة في نواحي مصر وماحفر وكتب على جدرانها من مختلف أنواع الخط دليل على ما كان له في نفوسهم من الرعاية ·

ولما انتقلت الخلافة الى الاتراك اخذوا نصيبهم من العناية بالخط العربي وأتقنوه

وافتنوا فيه وخرّجوا فيه أساتذة رفعوا فيه سمعة الاستانة حتى عدت مركز الرئاسة في الخط العربي ثم دار الدهر دورته وحدث الانقلاب العام في المملكة العثمانية واستعاض الترك الحروف اللاتينية عن الخط العربي . عند ذلك أفل نجمه عندهم واخذت آثاره في العفاء .

تناول الناس بمزيد الدهشة حديث هذا الانقلاب ورأوا مع ذلك ان روح هذا العصر تدعو الى التجديد فتولدت فيهم حركة ترمي الى إدخال التعديل في الكتابة العربية واخذ المفكرون يبحثون عن وسيلة للتجديد في الخط فاجتهدوا وكان منهم المسرف وغير المسرف غير انه لم يغب عن إدراكهم انهم اذا استباحوا لانفسهم إدخال التغيير والتبديل كما فعلت تركيا استهدف الخط العربي الجميل لخطر جسيم وقطعت الصلة بين قديم الادب وحديثه وهذا امر يظهر ضرره في جلاء لابناء الاجيال المستقبلة .

ومن حسن الحظ ان وجه صاحب الجلالة ملك مصر فؤاد الاول التفاته السامي الى الخط العربي فأعاد اليه شبابه ورد اليه مافقد من مكانته . ولا غرو فان جلالته يجلس على عرش أمة هي قبلة الناطقين بالضاد وقدوة الامم العربية .

عزّ على جلالته ان يرى هذا النوع العربي في الفن الجميل يصارعه الفناء وتكاد تندرس اصوله . فأمر بانشاء معاهد لتعليم الخط في مختلف أنواعه . واخذ يرعاها ويشجع طلابهـا بالجوائز حتى خرّجت رجال فنانين خدموا الامة ورفعوا راية النهضة الحديثة ، ونشروا آثار هذا الفن الجميل حتى أصبحنا بحق نقول :

ان الخط العربي اذا عفا اثره من كل مكان فلن يموت في مصر . واذا شئت فقل : ان مصر ذات الارض الخصبة . والعقول المفكرة . والآثار البديعة . جادة في رفع منزلته وفي تكميله بحيث يماشي الحضارة الجديدة .

فلئن تخلت الاستانة عن مركز الرياسة لهذا الفن الجميل فقد نهضت مصر حاملة لواء الزعامة بفضل المجهود الصادق الذي يجود به صاحب الجلالة الملك .

وقد رأى جلالته عملاً بسنة التجديد ان يزيد من حسناته لرفع مستوى الكتابة والخط . فتعلقت ارادته السامية بامرين خطيرين : (١) ان توضع قواعد للترقيم توحيداً للعمل به . (٢) ان تبتكر صور للحروف الهجائية . غير بعيدة الشبه بالحروف العادية . تؤدي ماتؤديه الحروف الكبيرة في اللغات الأجنبية .

ومما لاجدال فيه ان طريقة الكتابة العربية في مجموعها مضطربة وقد أراد كثير من كتابنا معالجة هذا النقص بمحاكاة اللغات الأجنبية فاستعاروا منها علامات الترقيم . وأسرفوا في استعمالها اسرافاً يعمي على القارئ مقصده او قل : انهم ينثرون علامات الترقيم في ثنايا الكتابة لتكون حلية وزخرفاً بدلاً من ان تكون وسيلة لايضاح المعنى وتذليل مصاعب القراءة . إذن فما أحوج الكتابة العربية الى نظام واحد يلم شملها ويرفع ذكرها .

وقد فوض النظر في ذلك الى لجنة الفتها وزارة المعارف وقد فرغت من عملها .

اما ابتكار صور للحروف الهجائية فمن مزاياه توجيه التفات القارئ الى اوائل الكلام وتمييز الاعلام من غيرها .

ولما أذيعت هذه الرغبة الملكية على الجمهور ملكت مشاعره لصدورها من مليك امتاز بالعطف الكبير على العلوم والآداب والفنون . وامتاز بالسهر على ان يحل مصر في مكانها الارفع . من اجل ذلك استحث (حفظه الله) همم العاملين . باسداء الجوائز للفائزين في مضمار المسابقة .

فانبرت الافكار ودخل المسابقة أناس من القطر المصري ومن غيره من الأقطار الدانية والنائية وتقدموا باقتراحاتهم . وقد وفق بعض المستبقين الى ابتكار صور للحروف لها مميز لم يغير من شكلها تغييراً جوهرياً .

فتولت لجنة تحكيم امر الفصل فيما قدم لها من المقترحات ومنحت الجوائز مستحقيها .

ثم بدا لهذه اللجنة ان تسترشد بهذه الاقتراحات لوضع طريقة لكتابة الحروف الكبيرة مراعية في اختيارها اموراً : قرب شبهها بالحروف المعتادة . وسهولة كتابتها بالقلم المعتاد . وانسجامها اذا اتصلت بغيرها .

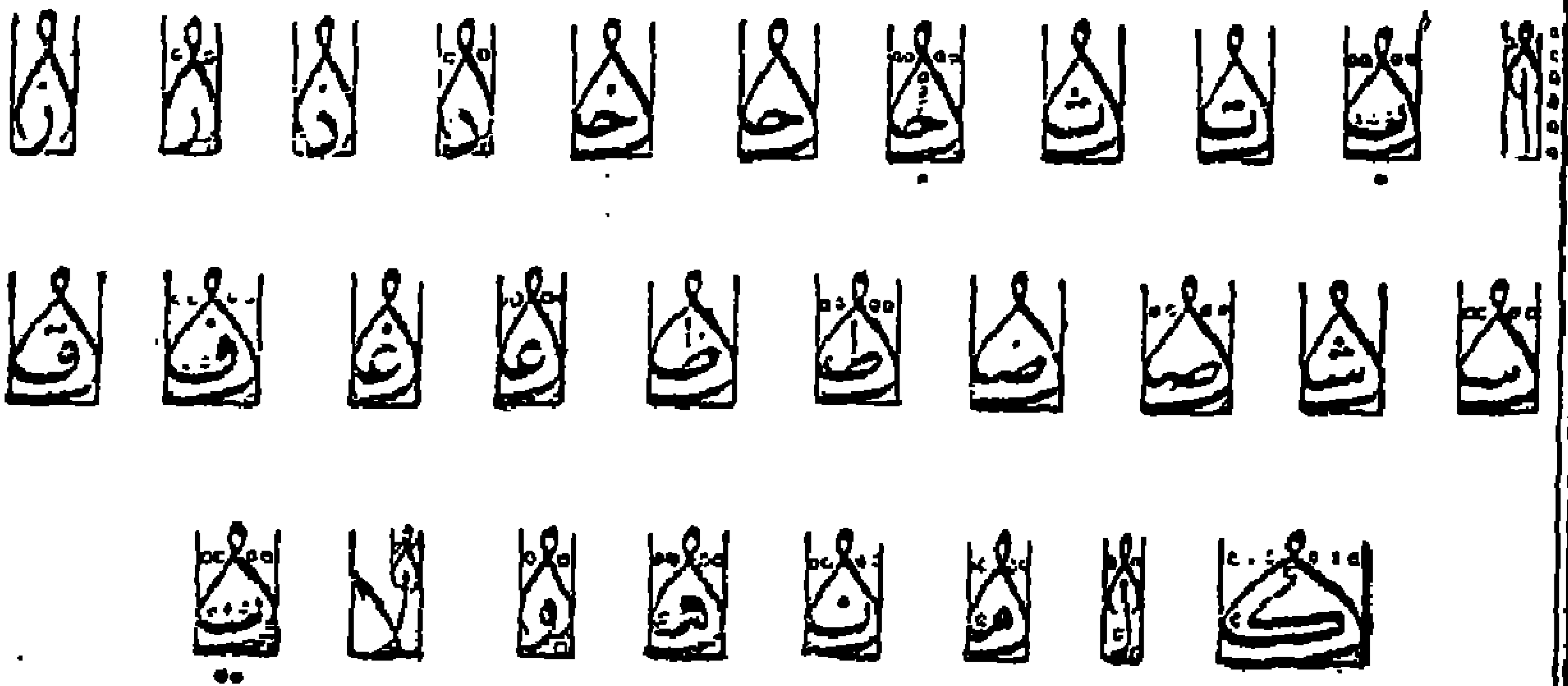
وارتأت تسمية هذه الحروف الجديدة حروف التاج . لان صاحب التاج هو صاحب هذه الفكرة . والمتفضل بجوائزها .

ثم آل الامر في شأن هذه الحروف الجديدة الى لجنة تنفيذية بوزارة المعارف العمومية . فكان منها ان عدلت بعض الشيء في صورة هذه الحروف . فجاء تعديلها خاتمة البحث في هذا الموضوع . ورفع الى السدة الملكية فحظي بالرضا والقبول . وصدر قرار الوزارة باذاعته على الجمهور والسير على مقتضاه في التعليم بالمدارس .

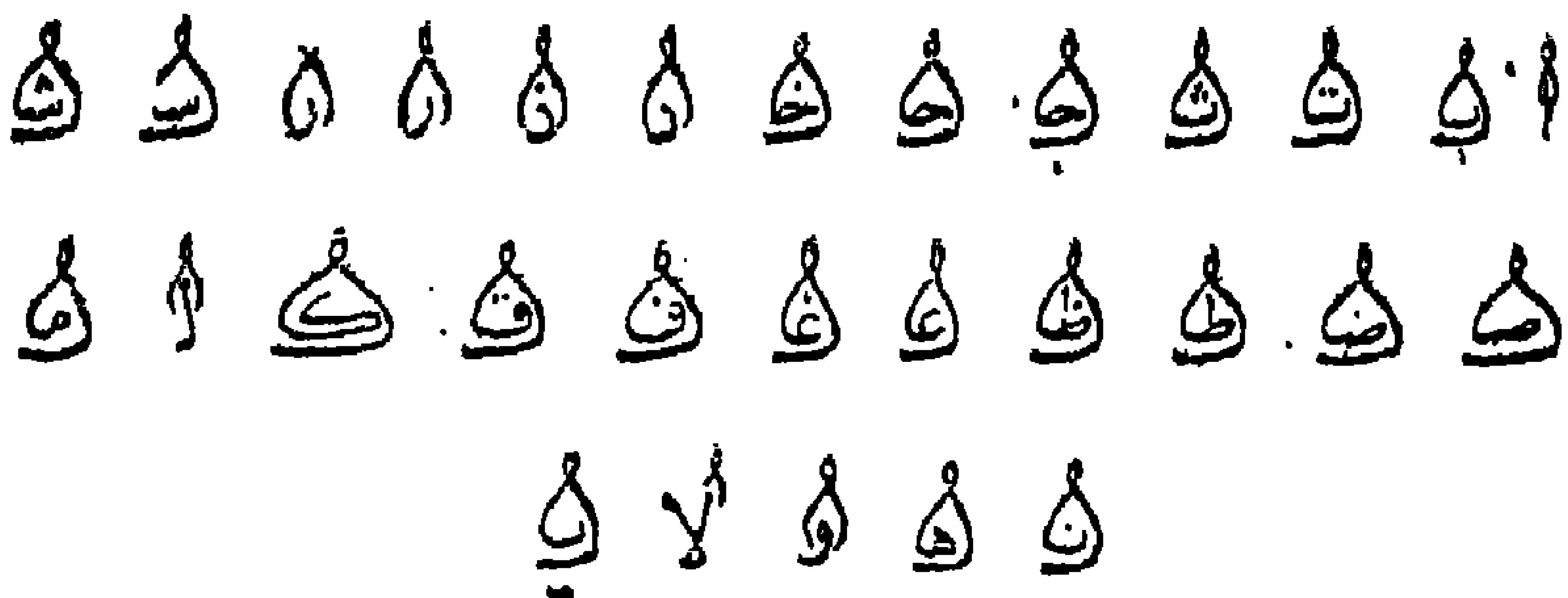
حروف التاج

خط النسخ

الحروف مضبوطة بميزان النقط



الحروف في شكلها المعتاد



ابو بيه

أمثلة لاستعمال الحروف

حكم مأثورة

الإنسان صنيعة الإحسان . تتبع العثرات يضعف المودات .
خير الأمور أوسطها . دواء الدهر الصبر عليه . رب ساع لقاعد .
سرك أسيرك . شهادات الفعال خير من شهادات الرجال .
صدق الحديث حلية . طول التجارب زيادة في العقل . عقد
المحبة يقتضي النصح . فصاحة اللسان حلية الإنسان .
كل ممنوع متبوع . لكل جديد لذة . نعم المؤدب الدهر .
هذب جليسك بحسن خلقك . وعد الكريم دين .
سئل بزرجمهر : "ما العقل ، وما الحلم ؟ فقال " ترك
ما لا يعني ، والعفو عند المقدرة "

هزايوبيه

خط الرقعة

حكم مأثورة

الإنسان صنيعة الإحسان. تتبع العثرات يضعف المودات. خير الأمور أوسطها. دواء الدهر الصبر عليه. رب ساع لقاعد. سرك أسيرك. شهادات الفعال خير من شهادات الرجال. صدق الحديث حلية. طول التجارب زيادة في العقل. عقد المحبة يقتضي النصح. فصاحة اللسان حلية الإنسان. كل ممنوع متبوع. لكل جديد لذة. نعم المؤدب الدهر. هذب جليسك بحسن خلقك. وعد الكريم دين. سئل بزرجمهر: "ما العقل، وما الحلم"؟ فقال: "ترك ما لا يعني، والعفو عند المقدرة".

[illegible]

الغلاظة في اللغة

-٣-

(العنق) — العِلْكَدُ ، الغليظ الشديد العنق والظهر من الابل · والأَجْوَق ، الغليظ العنق · ومسفوح العنق ، الغليظُه الطويله · والأَقْفَد ، الغليظُه · والأَلْوَدُ ، العنق الغليظ ج أُلواد · وقد غَلِبَ الرجلُ — غَلَبًا ، غلظ عنقه فهو أغلب وهي غلباء · وعنِق عنَقًا ، طال عنقه وغلظ ·

(القدم) — وقدم شَثْلَة ، متراكبة اللحم غليظته · ورجل شِرْداح القدم ، غليظها عريضها · وخَفَّاق القدم ، صدر قدمه عريض · وابتكاع القدم ، سمنها وغلظها واشتدادها · وقدم موقوعة ، غليظة شديدة ·

(الوجه) — ووجه مُرَغَّف ، غليظ ومثله الوجه المكتنز · والجَهْم والجهْم ، الوجه الغليظ المجتمع السمج · ووجه كَنْثَر ، غليظ ·

(الكف) — والشُّرابِث والشَّرَابَث ، الغليظ الكفين والرجلين والقدمين الخشنهما ·

(الشفة) — والشَّفَلَّحُ ، الرجل الواسع المنخرين العظيم الشفتين المسترخيهما ويقال شفة شفلَّحة أي غليظة · والمُذْلوغ ، الغليظ الشفة · والأَبْلَم ، الغليظ الشفتين ومثله الحَبَرْكل والخُثارِمُ (للرجل) والجحنفل والخُثارم · والخثرمة ، غلظ الشفتين · والوَذِرة ، المرأة الغليظة الشفة · وشفة كاثمة بائمة اي ممتلئة غليظة · والأَلجم الذي في شدقه غلظ · وقد عكَب الرجل عكَبًا اذا غلظت شفتاه ولحياه ·

(الساق) — وساق خَدَلْداة ، غليظة ممتلئة · وامرأة خِدْلِم ، غليظة الساق مستديرتها ·

(الاذن) – والقنفاء من آذان المعزى ، الغليظة كأنها نعل مخصوفة . والاقنف الصغير الاذنين الغليظهما .

(شيء) — وناقة ضِرناك ، غليظة المؤخر . ورجل مكتل ، غليظ الجسم يقال هو رجل مكتل الخلق . والمكتناء ، الناقة الغليظة الاخلاف . والمِكْتَب والمُكْتِب ، الحافر الذي غلظ من العمل . والتألب ، الغليظ الخلق المجتمع من الناس ومن حمر الوحش وهي تألبة . والجُنادِف ، الغليظ الخلقة القصير المزّز القصير الرقبة . والجَروض ، الغليظ الكبير البطن .

(الاسنان) — والعِطاطِظ ، الغليظ الاسنان . والأنْيَب ، الغليظ النياب . والأهْضَم ، الغليظ الثنايا .

(الصلب) — والهَكَوْك ، المكان الصلب الغليظ . والعِرْزَب والعِرْزَبّ ، الصلب الشديد الغليظ . والصاب ، المكان الغليظ الحجر وقد شرُس المكان اذا غلظ وصلب واشتد . ومجَن الشيء —ُ مجوناً ، غلظ وصلب . والحاظي الغليظ الصلب .

(الطويل او القصير) — والغُملوج ، الغليظ الجسم الطويل[1] . والكُنادِر ، الغليظ القصير مع شدة ويوصف به الغليظ من حمر الوحش . والجِنْعِيظ ، الاكول القصير الرجلين الغليظ الاشم . والإوزّ ، الغليظ اللحيم في غير طول . والخشاب القصير مع غلظ فيه . والوهن ، الرجل القصير الغليظ ومثله الكَسكاس والجِعْظار . والحزابي من الرجال والحمير ، الغليظ الى القصر يقال رجل حزاب اذا كان غليظاً قصيراً ومثله الحزابية والجِنْزاب . والجَهْبَر ، القصير القامة الغليظ القصب — والقَهْب الغليظ القصير الجَدْر ، الذي لم يُحكم نحته ومثله الجمبري . والمُجَذَّر ، القصير الغليظ الشثن الاطراف كالجيذر وهي مجذَّرة . والجعشم ، القصير الغليظ مع شدة . ورجل وقوم زَوازِية ، قصار غلاظ . والجِرْزِم ، القصير الشديد الغليظ السمين . والكُلاكِل والكُلْكُل ، القصير الغليظ الشديد . والكَأْوَلّ والمكوئل ، القصير او مع غلظ او مع لحج ويقال اكوأل الرجل اي كان كأولاً . والحبَنْطى ، القصير الغليظ . ورجل

(١) ومثله الغِملِيج والجَهْشَب .

ظَرِبٌ ، غليظ قصير ومثله الصِّمْصِم . ورجل زوَّاز ، غليظ الى القصر . والمكتنب الغليظ الشديد القصير .

(الحبل) — والجُبالة ، الحبل الغليظ سمي به لانه قُوَى كثيرة جمعت فأجملت جملة وقال مجاهد هي حبال الجسور ومثله الكَرُّ والأَنْدرِيُّ .

(الشجر) — والعَضاض ، ماغلظ من الشجر . وشجرة جَأْس وشُهد جلس ، غليظ والجلس ايضاً الغليظ من الارض . وقد أعرد الشجر اذا غلظ وكبر . ولَيَّفت الفسيلة ، غلظت وكثر ليفها . وقَشِرَ الشجر — قشَراً ، غلظ قشره . والجَزْن والجَزْل ، الخشب الغلاظ .

(الطريق) — والنِّقاب الطريق في الغلظ ومثله الشَّجْن والشَّجَن . والمثقب، طريق في حرة وغلظ . والضَّلوع ، الطريق من الحرة . وطريق اعروري ، غليظ . وطريق ظَلِف ، غليظ لا يؤدي اثراً ومثله ارض ظَلِفة .

(الصوت) — والأجشّ ، الغليظ الصوت من الانسان ومن الخيل ومن الرعد وغيره وفي الحديث انه سمع تكبير رجل أجشّ الصوت » وفرس أجشّ الصوت ، في صهيله جشش قال ابن دريد : هو مما يحمد في الخيل . الخُشارِم ، الصوت الغليظ . والجُشّة والجَشَش ، صوت غليظ فيه بحة يخرج من الخياشيم . والجُشْمة ، خشونة في الصدر وغلظ في الصوت وسعال . والغُنّة ، مايعتري الغلام عند بلوغه اذا غلظ صوته . والهد والهدّد الصوت الغليظ . وصوت نافج ، غليظ جاف . والأبحّ ، العود الغليظ الصوت — والبمّ لغلظ صوته — والدينار الأبح في صوته قال الجعدي يصف الدينار :

وأبحّ جندي وثاقبة ... سُبكت كثاقبة من الجمر

وقد شحج الغراب اي غلظ صوته . ونبح الهدهد نباحاً اذا أسنّ فغلظ صوته .

(الفرس) — وفرس جَحِد، غليظ قصير ج جحاد . والجَحْرش، الفرس الغليظ المجتمع الخلق . والبُوّب ، الفرس القصير الغليظ اللحم الفسيح الخطو البعيد القدر . وفرس مُجَمْثَن الخلق ، غليظ شبه باصل الشجرة في كدنته وغلظه .

(البعير) — والجُلذيّ ، البعير الشديد الغليظ . والدّلامك ، الناقة الغليظة المسترخية . والعَذَوْنس ، البعير الغليظ العنق . والعكناء ، الناقة الغليظة الاخلاف .

، العَنْتَرِيس ، الناقة الغليظة الوثيقة . والمكاء ، الابل الغلاظ السمان . والوَشْن ، البعير الغليظ يقال بعير وشن . والعِرْباض ، البعير الغليظ ايضاً . وناقة ملمة ، مدارة غليظة كثيرة اللحم معتدلة الخلق . والكِنْدأو ، الجمل الغليظ .

(الارض) — والجَدَش ، الارض الغليظة ج أجداش . والجَبوب ، الغليظة من الصخر لا من الطين . والجَرَج ، الغليظة ذات الحجارة . والجِلذاء ، الغليظة وكذا الجَلْس والجَنَد والعَنْعَلة والسَعَوْل والضُلَضِل والضُلَضِلة والضُلاضِل والضُلضُلة والجِلظاء والجَهاد وتوصف به فيقال ارض جهاد والصحاء والصَمْعر والصَمعَرة والصَحّاء والبكِرْشِفة والكِرْشافة والكَلَدة والكُلام والقيقاة والقيقاءة والكِدّة (لانها تكد الماشي فيها) والكدبد والشَصاصاء والحَزَن والكَرْشمة والزَلَفة والعَتَب والخُفّ ، والحَزْن ماغلظ من الارض في ارتفاع .

« للبحث صلة »

(النبك) : سالم خليل رزق

آراء وافكار

— (()) —

الترجمان المعرب عن دول «المشرق والمغرب»

كتاب مازال مخطوطاً مؤلفه ابو القاسم الزياني احد كتاب دولة العلويين في المغرب الأقصى . ومنصب الكتابة في هذه الدولة من اعلا المناصب وربما استغني عن الوزير بالكاتب بل ان الزياني هذا فوق منصبي الكتابة والوزارة كان سفيراً ايضاً فقد أرسله مولاي محمد بن عبدالله سلطان المغرب سنة ١٢٠٠ ﻫ سفيراً الى الاستانة لدى السلطان عبدالحميد الاول . وكان الزياني من رجال العلم والدين والتقوى ولم يكن من رجال الادارة والسياسة المبتنية على الحيلة والدهاء . ويعوزها حزم وزكاء . ولم يكن في الزياني شيء من ذلك وانما فيه بساطة واخلاص وصدق وأمانة . وكان سلاطين المغرب يضطرونه الى خدمة دولتهم اضطراراً . وقد جرّ ذلك عليه بلاءً ومحناً . فكان يكثر التبرم من اشتغاله بالسياسة ويتمنى على الله ان ينقذه من شرورها . وقد وصفه السلطان العثماني وصفاً صادقاً كما ذكر ذلك الزياني في مخطوطته التي نحن في صدد وصفها فقد قال ما خلاصته :

وجهني السلطان بهدية الى السلطان العثماني فأقمت ثمة مشة يوم وقضيت الغرض ورجعت . فوجه معي السلطان احد خدامه بهدية الى سلطاني وكتب اليه كتاباً مدحني فيه فقال : « وصلنا من مقامك الأسنى عشرون سفيراً وأحسنهم عقلاً ونبلاً وسياسة (؟) وأدباً فلان (يعني الزياني) فانه أدى لنا رسالتك وهديتك بادب وانفصل عنا بادب فمثله من يكون سفيراً بين الملوك فان اقتضى نظرك توجيه سفير من أطرافك فليكن هو فان باطنه وظاهره سواء » . وبهذا المعنى كتب الوزير (العثماني) يوسف باشا كتاباً الى

السلطان (المراكشي) فلما قرأ السلطان ذلك سر سروراً عظيماً ولما خرج للشور ؟ أمر بقراءة المكاتيب في الملأ وقال « هكذا نحب أصحابي فجزاك الله خيراً فانني لا أوجه الهدايا للمهانيين الا معك » .

اما مخطوطته فقد كنت أبحث عن نسخة منها حتى ظفرت بها عند صديقي السيد حمزة الرفيق في مدينة (وهران) واذا هي في ٥٨٤ صفحة مكتوبة بخط مغربي غير واضح وفيها تحريف يعسر تصحيحه وقد الفها مؤلفها سنة ١٢٢٦ هـ وكتبها كاتبها سنة ١٢٨٦ هـ اي بعد تأليفها بستين سنة .

وقال المؤلف في سبب تأليفها انه كان يوماً في مجلس مولاي سليمان ابن السلطان سيدي محمد بن عبدالله فجرى ذكر الامم الخالية والدول الماضية . فكلفه مولاي سليمان ان يضع تأليفاً جامعاً للدول ولأنساب قبائل المغرب فاعتذر فألح عليه . وفي اثناء ذلك مات السلطان محمد فخلفه (السلطان الجديد اميرالمؤمنين اليزيد) فنكبه هذا السلطان وسجنه وبقي مسجوناً حتى مات السلطان فخرج من السجن وأزمع الرحلة عن بلاد المغرب فمنعه منها السلطان الجديد صديقه مولاي سليمان بن محمد وقلده ولاية (وجدة) فذهب اليها فنهبه الأعراب في الطريق فانقطع في مدينة (تلمسان) وأقام فيه معتزلاً والف هذا الكتاب . ورتبه هكذا :

(المقدمة) تتضمن مايجب على السلطان وله
(الباب الاول) آدم والطوفان
(الثاني) تفرق اولاد نوح
(الثالث) دولة الفرس
(الرابع) ملوك اليمن
(الخامس) الفراعنة
(السادس) بنو اسرائيل
(السابع) البابليون
(الثامن) اليونان
(التاسع) الروم

(العاشر) الاسلام وظهور النبي عليه السلام
(الحادي عشر) بنو أمية وفتح الاندلس
(الثاني عشر) بنو العباس الى ظهور بني عثمان
(الثالث عشر) الفاطميون الى ظهور الايوبيين عليهم
(الرابع عشر) بنو عثمان
(الخامس عشر) الادارسة وملوكهم الى زمن المؤلف
وبعد هذه الأبواب :
(جامعه)
(خاتمة) ضمنها رحلته الى المشرق والاستانة والحجاز
(فصول)

وذكر في الجامعة وصفًا لملك آل عثمان لايقره عليه التاريخ الصحيح : من مثل ان العثمانيين كانت سلطتهم ممتدة الى بلاد فارس وخراسان وجرجان وطبرستان وبخارى وسمرقند وخوارزم الخ الخ ثم ذكر مجملاً من تاريخ آل عثمان بعد ضعفهم وقوة دول الافرنج حواليهم حتى تبدد ذلك الملك الشاسع ولم تبق منه سوى بقية كانت سلطة العثمانيين عليها بالاسم ايضًا ولم تكن لهم سلطة فعلية الا في ماجاور الاستانة من الولايات وأشار الى قيام الوهابيين في جزيرة العرب و (آل رسول) في اليمن حتى غلبهم الزيدية قال : « ولم يزل امر هذه الدولة العثمانية بضعف وهي في مرض من الايام وهم يعالجون مرضهم بالسياسة والتدبير الى ان يتم امر الله في شأنها عند هرمها » وأشار ايضًا الى ان العثمانيين كانوا يجارون رعاياهم فلا يردون لهم طلبًا مهما كان ، خشية اغتنام دول اوربا الفرص وهجومها عليهم . وما أنقله هنا من هذا الكتاب هو الذي يستحق النقل وما سواه لافائدة فيه . اللهم الا رحلته الى المشرق فانها على صغرها صورة للعالم الاسلامي منذ مئة وثلاثين سنة . وقد عزمت على نشرها في كتاب على حدة .

(تلمسان) : محمد سعيد الزاهري



مطبوعات حديثة

—*—

جزيرة رودس

« تأليف حبيب غزالة بك عضو الجمعية الجغرافية المصرية طبع في مطبعة »
« الاعتماد بمصر سنة ١٩٢٩ م في ٨٧ صفحة »

كتب المؤلف عن هذه الجزيرة وجغرافيتها وتاريخها وآثارها كتابة موجزة لكنها متقنة في تحقيقها وحسن تلخيص أخبارها منذ اول عهدها الى نزول الدولة العثمانية عنها الى دولة إيطاليا في معاهدة لوزان . ومما زاد هذا الكتاب حسناً وتقرب بفائدة انه قد أجيد طبعه وورقه وزين برسوم أتقن تصويرها وتمثيلها من ذلك رسم صنم رودس الشهير الذي هو احدى العجائب السبع عند الأقدمين وحصار العثمانيين لرودس ورئيس الفرسان الشيفالية (دي ليل آدم) امام فسطاط السلطان سليمان . ومنظر عام لمدينة رودس في العصور الوسطى وجامع الرئيس مراد وتمثال فينوس . عدا رسوم الخرائط والنقود وغيرها . فالكتاب على صغر حجمه غاية في الفائدة والإمتاع لمحب التاريخ . فالشكر لمؤلفه الفاضل . « المغربي »

═══

اصلاح الوعظ الديني

« تأليف محمد عبد العزيز الخولي أستاذ الشريعة الاسلامية بمدرسة دار العلوم »
« المصرية طبع بمطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٩٢٩ م في ٢٥٥ صفحة »

موضوع هذا الكتاب من خيرة الموضوعات التي يلزم تمحيص القول فيها لقوة علاقة بدهماء الامة الاسلامية وشدة حاجتهم الى الاستفادة منها: فان من يسمع الخطب الجمعية

كل جمعة والدروس الوعظية من وقت الى آخر في المساجد ولا سيا شهر رمضان — عرفان هذه الدروس وتلك الخطب لا تؤدي الى نتيجة حسنة في الدين ولا في الاخلاق بل ان الأمر على العكس تزيد الدهماء تمكناً من الجهل وإمعاناً في الخرافات لهذا وجب الترحيب بهذا الكتاب الجديد الذي ألفه الاستاذ الخولي وقد ضمنه أبحاثاً في الإرشاد عامة وطريقة الإرشاد النبوي وما ينبغي ان تكون عليه الخطب المنبرية والدروس الوعظية وذكر فيه نموذجات عصرية من دروس وخطب مما يناسب روح هذا الوقت ويتفق مع عقول أهله الى غير ذلك من الفوائد والنصائح المتعلقة بهذا الموضوع الجليل فنلفت اليه الانظار . ونشكر المؤلف والطابع على هذه الخدمة الدينية التي قاما بها نحو أمتهما .

« له »



المفكرة الزراعية

« وهي تذكرة لأسس الفنون الزراعية جاءت في ٤٥٠ ص من القطع الصغير »

« تأليف السيد وصفي زكريا »

من العجيب ان طلاب العلم في بلادنا اذا ماانتهوا من تلقي الدروس في المدارس العليا حسبوا انهم بلغوا في العلم سدرة المنتهى فأحرقوا الكتب او القوها الى الخزانة طعاماً للعث شهياً . و يندر ان تجد بينهم أناساً أدركوا ان الدرس يجب ان يكون بعد المدرسة خاصةً وان المدارس مهما كانت درجاتها ليست سوى مفتاح للعلوم او دليل يريهم الطريق التي يجب ان يسلكوها حتى يصلوا الى ينابيع العلوم المتدفقة فيرشفوا من معينها بعض القطرات ثم تنطفئ شعلة حياتهم القصيرة قبل ان يرتووا .

ومن الأفراد القلائل الذين داوموا على الدرس بعد ان تخرجوا في المدارس الزراعية صاحب هذه التذكرة المفيدة حيث يجد القارئ خلاصة في أهم الفنون الزراعية كالزراعة العامة والخاصة والاشجار المثمرة والبقول والدواب الدواجن والطيور الدواجن والنحل ودود الحرير والآلات الزراعية والحشرات وامراض الزروع والجغرافيا الزراعية والموازين والمكاييل والاعمال الزراعية التي تؤتى في كل شهر من شهور السنة الخ . .

ولقد أجاد المؤلف من حيث الفن ولم يجد من حيث اللغة . ولو انه عني بلغة كتابه عنايته بمضمون أبحاثه لازدادت فوائده . مصطفى الشهابي



اسرار المراهقة في الفتى

« تأليف الدكتور شخاشيري »

كتيب وضعه الفاضل الدكتور شخاشيري وضمنه أحاديث دارت بين أب طبيب وابنه المراهق في شؤون دور البلوغ ووظائف أعضاء الرجل التناسلية ومايرافق هذا الدور من تغيرات نفسية وجسمية وما يحدق به من الأخطار الاجتماعية ومايتطلبه من عناية ورعاية صحية وأخلاقية وفي فضائل الزواج الشرعي في سن الرشد ومساويء الدعارة والعادة السرية وغشيان دور الفحش وما ينشأ عنها من الامراض الوبيلة والآفات العضالة كالزهري مما لاينحصر ضرره في صاحبه بل يتعداه الى بنيه وأسرته وأمته وذلك باسلوب حسن وعبارة سهلة يخامرها قليل من الخطإ الناشيء في الغالب عن السهو من ذلك جعل الهمزة المكسورة فوق الألف كأنسان ، وأشباع وأغماء الخ والصواب وضعها تحتها او تشكيلها . ومنه قوله ص ٤١ س٩ « اتجها ناحية » والأولى الى ناحية . وقوله ص٤٣ س٣ « ولا يبعد ان تصاب الام — ماأصاب غيرها » والصواب ان يصيب الام ماأصاب . او ان تصاب الام بماأصيب به غيرها . وقوله ص ٤٥ س٦ « وجاءت اولادَها مصابين » والصواب باولادها او وجاء اولادُها . وفي ص ٤٨ س١٠ « وما تلك الحجرة الا مكان آخر للفسق والدعارة او مكانان اجتمعا (بالتنوين) فيهما من كل فاكهة زوجان . » فعبارة مكانان اجتمعا غير واضحة . وغيرفصيحة . الى غير ذلك من الخطإ الذي لاصلة له بجوهر الموضوع ولايبخس هذا الكتاب فائدته الكبرى في إصلاح الأخلاق ومكافحة الامراض الاجتماعية التي تهدد كيان الأسرة والأمة . اسعد الحكيم



اسرار المراهقة في الفتاة

« تأليف الدكتور شخاشيري »

رسالة وضعها الدكتور شخاشيري بصورة حوار بين والدة وابنتها ثم بين الابنة ووالدها في موضوع تشريح الجسم البشري والمحيض والخطبة . وقد استغرق قسم التشريح زهاء نصف الرسالة وجله يتعلق باسماء العظام التي يتألف منها الهيكل العظمي مما يجعل هذا البحث جافاً مملاً . لاسيما وهو بعيد عن موضوع الكتاب . ولم يأت في هذا البحث التشريحي ذكر لاعضاء المرأة التناسلية الباطنة التي هي ركن الموضوع .

ثم تطرق المؤلف الى مواعيد المرأة وكيفية حصولها والتدابير الصحية التي يجب عملها خلالها . وختم الكتاب ببحث خطير في نتائج العلاقات غير المشروعة وعواقبها الوخيمة وفي آداب المعاشرة والسلوك التي يطلب الى المرأة مراعاتها ولا سيما مع الخطيب مدة الخطبة ... والرسالة خاصة بالمرأة المسيحية دون المسلمة لان مايتعلق فيها بالمعاشرة والخطبة لا يتلاءم مع التقاليد الاسلامية ولأن امور الحيض تتعلمها المرأة المسلمة قبل البلوغ مع دروسها الدينية لانها مرتبطة بمبطلات الصلاة . اسعد الحكيم

الانتدابات في العراق وسورية

« بقلم السيد محمد جميل بيهم »

هو كتاب يبحث في القطرين العربيين العراق والشام من الوجهة السياسية والعمرانية والاقتصادية ، يستوعب مئة وسبعة وثلاثين صفحة ، وهو مطبوع في مطبعة العرفان بصيدا ومصدّر بتقدمته الى الامير شكيب أرسلان .

اما الأبحاث السياسية والمقارنة بين أساليب الانكليز ومناهج الافرنسيين في ادارة البلاد التي عهدت جمعية الامم الى كل منها الانتداب عليها وما هي السياسة التي تتوخاها الدول المنتدَبة والنهج الذي يقتضي ان ينهجه سكان البلاد تجاه هذا الانتداب الاوربي عليهم — فهي موضوعات لا شأن لنا بابداء الرأي فيها لخروجها عن دائرة موضوعات المجمع . واما من حيث أبحاثه العمرانية والاقتصادية في هذين القطرين العربيين فلا

تخرج عن حد التبسط في شيء من التاريخ القديم ونزر من التاريخ الحديث في عهد الدولة العثمانية ، وفي شرح الطرق والمواصلات ومظاهر الحياة والزراعة والتجارة وتعريف النهضة العلمية في الشباب ونهضة المرأة الى غير ذلك من التجديدات التي أدخلها التمدن العصري على جميع البلاد الشرقية ومن جملتها — بل من اقلها اقتباساً بالنسبة الى مصر والهند — العراق والشام . وان كل بحث من هذه الأبحاث يدور ويتحول في هذا الكتاب حتى ينصب في البركة التي يغرف منها المؤلف مادة واحدة وهي الطموح الى الاستقلال .

مثل هذه الموضوعات يتعذر كتابتها بلغة لا تكون بسيطة على ان لغة هذا الكتاب وان كانت بسيطة الا انها معربة وسلسة وخالية من التراكيب الركيكة ومن الاوضاع التي عليها مسحة العجمة مما جرت عادة محرري الصحف باستعماله ، واذا ما اضطر المؤلف الى استعمال كلمة انكليزية او افرنسية درجت الالسن عليها وضع معربها بجانبها بين قوسين . وكثيراً ما استشهد بابيات من الشعر لدعم الحجة التي يُدلي بها . عبد الله رعد

حياة بوذة
« والمذهب البوذي »

السيدة ماري غالو واضعة هذا الكتاب باللغة الافرنسية قضت ردحاً من حياتها متنقلة في الهند والصين منقبة عن الديانة البوذية وعاداتها وكتبها . ويظهر انها كتبت في هذه الديانة العريقة في القدم كتباً متعددة منها هذا الذي نحن بصدده وهو يأتي في مئتين وعشرين صفحة وبين صفحاته ثمانون رسماً تمثل المعبود بوذة بهيئات مختلفة ومعابد وكتابات بوذية الى غير ذلك من النقوش القديمة الهندية والصينية .

لغة هذا الكتاب بسيطة ويستحيل على مؤلفه وعلى اي كان من المؤلفين ان يكتب في موضوع غريب كهذا محشو الفاظاً أعجمية بلغة غير اللغة البسيطة . الا ان نبو به يشهد للمؤلفة بطول الاناة والصبر وكثرة المطالعة . اما مطالعته فلا تهم الا المولعين بالقراآت والمطالعات عن الغرائب . عبد الله رعد

المخطوطات

التي اقتناها المجمع العلمي في هذه السنة

(١) كتاب الفروسية والبيطرة في علامات الخيل تصنيف ابي حزام بن يعقوب الختلي اوله (الحمد لله ولي الحمد . اهله ومستخلصه لنفسه . أحمده حمد من خضع لعظمته وخشع لوحدانيته الخ . وهو جزآن في نحو ٢٥٠ صفحة بالقطع المتوسط . وقد كتبه (الفقير حمزة) سنة ست بعد الالف . وفي الكتاب صورتا فرسين أحداهما باللون الاحمر والأخرى باللون الأسود . وقد كتب بجانب أعضاء كل فرس أسماؤها في اللغة العربية ولكن الصورة الثانية مشوهة وغير كاملة التخطيط .

(٢) « كتاب تواريخ ملوك الروم من تملك قسطنطين الكبير الى تملك قسطنطين الاخير وهو باقي من دون اعراب على استخراجه الاصلي من اليوناني الى العربي » . هكذا كتب على ظهر الكتاب . وقوله وهو باقي من دون اعراب الخ كأنه اعتذار عن ركاكة ترجمته . واوله هكذا « بسم الله الموحد بالذات . والمثلث بالصفات) . ولما بلغ المؤلف الى قسطنطين الاخير الذي انتهت به ملوك الروم في القسطنطينية استأنف الكلام على ملوك الاتراك العثمانيين فذكر من أحوالهم مع ملوك الروم ثم فتح القسطنطينية . وذكر سلاطينها واحداً أثر واحد حتى انتهى بقوله « وتملك السلطان مراد ابن السلطان احمد في سنة ١٦٢٤ م هذا كان رجلاً عادلاً شجاعًا شهماً وكان يحب جنس المسيحيين كثيراً وكان عالي الهمة في الحروب » اه . والكتاب مجلد كبير القطع متين الورق واضح الخط مشرق الحرف في نحو ٣٨٠ صفحة وجلده أسود رهباني متين .

ثم قال كاتب النسخة « نسأل الكريم النجاة من كيد الاكليروس وجملة الرهبان الغير حافظي الزمام الراغبين النفخفخة وكبر المقام » وهكذا كتب عظة مختصرة في ضرر الكبر

وختمها بقوله « فإياك والكبرياء مع شرب الخمر فانهما خراب المسكونة كما تراه محرراً اذا تلوت هذا التاريخ بكل ضبط » .

ثم قال « عاقه بيده الفانية العبد .... صفرونيوس سماحا الكاهن في الرهبان القاطن يومئذ بدير القديس ماريوحنا الملقب بالشوير في تاريخ ١٦٦٥ مسيحية » .

ولا نعلم ان كان صفرونيوس هذا هو كاتب الاصل اليوناني او مترجمه الى العربية . اما كاتب النسخة فهو مجهول ويظهر من أسلوب الخط انه كتبها منذ عهد قريب لا يتجاوز نصف قرن . وربما كتبنا مقالاً خاصاً نضمنه خلاصات مما قاله ذلك المؤرخ اليوناني في ملوك القسطنطينية العثمانيين .

(٣) « نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب » لشهاب الدين ابي العباس احمد بن عبدالله القلقشندي صاحب كتاب (صبح الاعشى) والنسخة حسنة الخط لكنها ليست قديمة وفي أوراقها الاخيرة بعض تشويه . ولم يعلم كاتبها والتاريخ التي كتبت فيه . وانما وجد على غلافها اسماء الذين ملكوها وأشهرهم محمد بن ابراهيم الدكدكجي الدمشقي الصوفي الاديب المشهور المتوفى سنة ١١٣١ هـ وترجمته في سلك الدرر (جزء ٤ ص٣٥) .

(٤) « مجموع لطيف مشتمل على أنواع لطائف منتخبة من أماكنها عن أهلها وسميته تحفة المتحابين وتأليف المتباعدين ومن الله أستمد التوفيق والعون على تلفيقه لا من غيره فشرعت في ذلك نهار السبت ١٧ شعبان سنة ١٠٧٤ هـ » . هذا ما هو موجود على ظهر المجموعة وهي حسنة الخط جداً لكنها متآكلة الأطراف مفككة الأوراق غير موثوق بتمامها . وهي كسائر مجموعات علمائنا الأقدمين مما يسميه أهل هذا العصر (مذكرات أو نوطات) فمن قصيدة الى فائدة الى حكمة الى مواليا الى دوبيت الى وصفة طبية لتقوية الباه الخ الخ . وهذا شأن مجموعتنا هذه . « المغربي »

—«*﴿﴾*»—

المجلد الحادي عشر — الجزء ١١ و ١٢



مجلة المجمع العلمي العربي

انشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م

تنشر في دمشق مرة في الشهر

تشرين الثاني — كانون الاول

١٩٣١

دمشق :

المجمع العلمي العربي

كتاب الرموز[1]

« تأليف ابن ابي السرح[2] »

بتحقيق الدكتور س·م·حسين ، ام — اسے ، د ي — فل (اكسن)
أستاذ الآداب العربية والعلوم الاسلامية بجامعة دهاكه في الهند

ان لكل أمة[3] اموراً تستعملها[4] عن رموز النفس كنيرنجات الفُرْس ووهم الهند وعقد الروم · وهذه الامور تسميها فلاسفة اليونانيين (الجانيقومات) ورموز النفس في هذا الموضع تنقسم الى ثلاثة اقسام : قسم منها رمزٌ فوق الطبيعة كالرُّقى والوهم وهو الذي يقول فيه انبذقليس الفيلسوف إنّ للنفس كلّات روحانية من نحو ذاتها ، وقسم منها رمز نحو (الطبيعة[5] كتعليق الخُزَز[6] وما يشبه ذلك · وقسم منها رمز فوق الطبيعة

(١) عن مجموعة محفوظة في مكتبة راغب باشا بقسطنطينية عدد رقمها ١٤٦٣ ص ١٠٠—١٠٦ (٢) كذا في كتاب الفهرست ص١٢٨ «ابن ابي السرح» و بالاصل « ابن ابي سرح » وهو ابوالعباس احمد بن ابي السرح الكاتب ، ذكر ابن النديم : ان له من الكتب كتاب العلوم وما جاء فيه وله رسائل ، فمنها كتاب الرموز هذا وجاء فيه ذكر كتابين آخرين كتاب في أخبار الكلب الكَلِب وكتاب الإعتيان — راجع ص١٣ ·

(٣) كلمة «أمة» محذوفة في الاصل ضبطناها بمقتضى الكلام ، لعلها سقطت عن يد الكاتب · (٤) في الاصل « امور استعملها » محرفاً عن « اموراً تستعملها » ·

(٥) (الجمع) لعله تحت الطبيعة · (٦) «الجمع» هكذا ضبطها المصحح اي بضم اوله والصواب فتحها والخرز بفتحتين معروف امابضم ففتح فجمع خرزة وهي الثقبة فيها الخيط وتسميها عامتنا « طعنة » وهذا المعنى لا يناسب هنا · ولعل صوابه (الخُزَز) بزايين وضم الخاء ومعناه ذكر الأرانب وقد سقطت كلمة (كعب) والأصل (تعليق كعب الخزز) وتعليق كعبه خرافة معروفة منذ الجاهلية وسيأتي ذكر ذلك والاستشهاد عليه في كلام المؤلف ·

وايضاً نحو الطبيعة معاً كالرُّقى[1] والتماثيل واستعمالها في حال واحدة . والمعرفة بان للنفس رموزاً وان هذه الاقسام من رموزها انما تجب بعد اتفاق القول (لعله القوى) ولواحقها وهذه من صناعة الفلاسفة ليس من الغرض الذي نريد قصده فنتكلف القول فيه بالبراهين الموضحة عن حقيقته . وللعرب أفعال عن رموز النفس حسب ما لسائر الامم ولم أر احداً من مؤلفي الكتب عني بجمع ذلك . وانما هي منثورة متفرقة بين الاخبار[2] فجمعت من ذلك ما اعرف في كتاب لأكفي ملتمسه مؤونة الطلب و بالله أستعين وعليه أتوكل .

قال ابو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي : كانت العرب اذا أمسكت السماء عنهم[3] قطرها وأرادوا ان يستمطروا عمدوا الى السلَع والعُشَر فعقدوهما في أذناب البقر واضرموا فيهما[4] النار واصعدوها في جبل وعر وتبعوها يدعون الله و يستسقونه . قال أمية بن ابي الصلت الثقفي في ذلك :

سنة ازمة تخيّل[5] بالنا ... س ترى للعضاه فيها صريرا
لا على كوكب ننوء[6] ولا ريـ ... ـح جنوب ولا ترى طُحرورا
و يسوقون باقر السهل للطو ... د[7] مهازيل خشية ان تبورا
عاقدين النيران[8] في ثُكن[9] الاذناب منها لكي تهيج البحورا

(١) بالاصل « معادالرقى » كذا محرفاً عن « معاً كالرُّقى » .

(٢) أوردها الألوسي في كتابه بلوغ الارب في أحوال العرب ج٢ ص٣٠١ — ٣٢٠ وج٣ ص ١ — ٧٠ وابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة ج١٩ ص ٤٣٠ — ٤٥١ ، وذكر بعضها النويري في كتاب نهاية الارب في فنون العرب س٣ ص١١٦ — ١٢٦ والقلقشندي في كتاب صبح الاعشى ج١ ص٣٩٨ — ٤١٠ والشيخ شهاب الدين احمد الأبشيهي في كتاب المستطرف في كل فن مستظرف ج٢ ص ٨٩ — ٩٣ .

(٣) بالاصل عنها (؟) . (٤) في الاصل فية . (٥) في بلوغ الارب ٢+٣٠١ وشرح نهج البلاغة ١٩+٤٣٢ «تبرح» . (٦) في الاصل «بنوء» كذا مضبوط (؟)

(٧) بالاصل « للطور » (؟) . (٨) بالاصل «الشيران» . (٩) في بلوغ الارب وشرح نهج البلاغة فيامضى «ثكن» وفي نهاية الارب ٢+١١٠ « بكر » .

سَلَع ما ومثله عشر ما عائل[1] ما وعالت البيقورا

وغلط في هذا البيت عيسى بن عمر فقال لا أدري ما معنى قوله « عسل ما » وصحف الاصمعي في بيت من الابيات فقال « وغالت[2] البيقورا » قال ابن السكيت ومعنى قوله « وعالت البيقورا » اي ان السنة الجدبة أثقلت البقر بإ حمتيها[3] من السلع والعشر ·
وأنشد الجاحظ في هذا المعنى للورك الطائي :

لادرَّ درُّ رجالٍ[4] خاب سعيهمُ يستمطرون لدى الأزمان[5] بالعُشَر
أجاعل انت بيقوراً مسلعةً ذريعة[6] لك بين الله والمطر

قال ابو المنذر : وكانوا اذا فعلوا ذلك توجهوا بها نحو المغرب من بين الجهات قصداً الى العين يعني عين المطر ·

قال الشرقي بن القطامي : كانت العرب اذا أوردوا البقر فلم تشرب اما لكدر الماء واما لان لاعطش بها ضربوا الثور لان تقتحم البقر الماء[7] وكانوا يقولون ان الجن تركب ظهور الثيران فتصدّ البقر (عن الماء) لذلك قال الاعشى :

لكالثور والجنّيّ يركب ظهره[8] وما ذنبه ان عافت الماء مشربا
وما ذنبه ان عافت الماء باقر وما ان تعاف الماء الا لتضربا[9]

وانشد ليحيى بن منصور الذهلي :

(١) في الاصل (عائك) وفي شرح نهج البلاغة (عامل) لعله تحريف ·
(٢) ويمكن ان يحمل تفسير الأصمعي على محمل صحيح فيقال غالت بمعنى أهلكت يقال غاله واغتاله اي اهلكه وغالتهم غول يعني المنية ومنه (الغضب غول الحلم) — ابن ابي الحديد
(٣) بالاصل (حملت) (؟) (٤) في بلوغ الارب ٣+٣٠٢ (أناس) ·
(٥) في شرح نهج البلاغة ١٩+٤٣٤ وبلوغ الارب فيما مضى «الاعسار» · (المجمع) ويروى الأزمات جمع أزمة بمعنى القحط ·
(٦) في صبح الاعشى ١+٤٠٩ (وسيلة) · (٧) ضربوا الثور ليقتحم الماء فتقتحم البقرُ بعده — شرح نهج البلاغة · (٨) روي في بلوغ الارب ٢+٣٠٤ وشرح نهج البلاغة ١٩+٤٣٥ « يضرب وجهه » · (٩) في نهاية الأرب ١+١٢٣ وشرح نهج البلاغة فيما مضي آنفاً «ليضربا» ·

لكالثور والجنيّ يركب ظهره ... وماذنبه ان كانت الجن ظالما (؟)

وقال نهشل بن حرّي :

أيترك عامرٌ وبنو عليٍّ ... وتغرم دارمٌ وبنو براء (؟)

كذاك الثور يضرب بالمراوي ... اذا ما عافت البقر الظماء

وقال عوف بن الخَرِع :

هجوني ان هجوت خيال سلمى ... كضرب الثور للبقر الظماء

وقال أنس بن مدرك :

إني وقتلي سليكاً[1] ثم[2] اعقله ... كالثور يُضرب لما عافت البقرُ

وقال اللحياني : كانت العربُ اذا سافر الرجل منهم عمد الى خيط فعقده في غصن شجرة او ساقها فاذا رجع نظر الى ذلك الخيط فان وجده على ما عقده قضى بان اهله لم تخنه وان رآه حُلَّ حكم بانها قد خانته واسم ذلك الخيط (الرتم) وقال ابو زيد : وهو ايضاً اسم للخيط الذي يعقده الرجل في اصبعه ليذكر به[3] حاجته وأنشد :

هل ينفعنك اليوم ان همت بهم ... كثرة ما توصي وتعقاد الرتم

وانشد :

خانته لما رأت شيباً بمفرقه ... وغره حلفها والعقد للرَّتم

وانشد :

به من الهوى لمم ... وغره عقد الرتم

وقال ابو المنذر : تقول العرب مَن وُلد في القمراء[4] رجعت قلفته[5] فكان كالمختون قال ودخل امرؤ القيس مع قيصر الحمام فرآه اقلف فقال :

إني حلفتُ يميناً غير كاذبة ... انك[6] اقلف الا ماجنى القمرُ

اذا طمحتَ به مالت عمامته ... كما يجمّع تحت الفلكة الوبرُ

(١) بالاصل (سليطا) . (٢) ويروى في شرح نهج البلاغة ١٩+٤٣٤ (قتل سليك حين) بدل (قتلي سليكا ثم) . (٣) بالاصل (بها) . (٤) في الاصل (القمر) .

(٥) في رواية شرح نهج البلاغة (١٩+٤٤٣) وبلوغ الارب (٢+٣٣١) (تقلصت غرلته) . (٦) ويروى في شرح نهج البلاغة (١٩+٤٤٤) (لانت) وهو الاولى .

قال ابن حبيب : وهذان البيتان ينحلان للأُقيسر (صوابه الأُقيشر) .

قال ابن السكيت : تقول العرب ان المرأة المقلاة (صوابه المقلات) (وهي التي) لا يبقى لها ولد — اذا وطئت قتيلاً شريفًا بقي اولادها . قال الحنفي انما يفعل ذلك اذا قتل غدراً او قوداً قال الشاعر[1] :

تظلّ مقاليتُ النساء يطأنه يقلن ألا يُلقى على المرء مئزر

وقال . وتظلّ المرزّآت المقاليـ ـت يُطلن القعود بعد القيام [2]

وقال ابن الاعرابيّ : يقول العرب ان من علّق على نفسه كعب أرنب لم تصبه عين ولاسحر لان الجن تهرب منها لان الأرنب ليس من مطايا الجن لانها تحيض . قال ابن الاعرابي قلت لزبد[3] بن كثوة أتقولون ان من علق على نفسه كعب أرنب لم تقربه جنّان الحي ولا عمّار الدار[4] فقال إي والله ولا شيطان الحماطة[5] ولا جار[6] العُشَيرة[7] ولا غول القفر وكل الخوافي إي والله وتُطفأُ عين نيران السعالي وتبوخ . وقال امرؤ القيس في ذلك :

أيا هند لا تنكحي بوهةً[8] عليه عقيقته أحسبا

مرسّعة بين أرساغه[9] به عسم يبتغي أرنبا

ليجعل في يده[10] كعبها حذارَ المنية ان يعطبا

وقال ابوعبيدة : كانت العرب تقول ان الرجل اذا دخل قريةً يخاف وباءها

---

(١) بشر بن ابي حازم . (٢) يروى في بلوغ الارب ٢+٣٢٤ وشرح نهج البلاغة ١٩+٤٣٧ :

وتطيل المرزّآت المقاليـتُ اليه القعود بعد القيام

(٣) كذا في بلوغ الارب ٢+٣٢٤ وشرح نهج البلاغة ١٩+٤٤١ (لزبد) وبالأصل (ليزيد) . (٤) في رواية بلوغ الارب وشرح نهج البلاغة (جنّان الدار ولا عمّار الحي) .
(٥) الحماطة شجرة . (الجمع) صوابه الحماطة بالحاء المهملة امابالمعجمة فذاك الخمط .
(٦) في الاصل (حان) كذا بالحاء المهملة لعله تحريف (جار) : (الجمع) والصحيح جانّ بالنون المشددة . (٧) العُشَيرة تصغير العُشَرة وهي شجرة . (٨) في الاصل (فوهة) .
(٩) (الجمع) أو صوابه (مرسّعة بين أرساغه) (١٠) وروى (رجله) .

فوقف على باب القرية قبل ان يدخلها فعشّر كما ينحق (صوابه ينهق) الحمار — صُرِف عنه وباؤها وأنشد في ذلك :

ولا ينفعُ التعشيرُ ان حمّ واقعٌ ولا دعدعٌ[1] يغني ولا كعب أرنب

وقال الهيثم بن عدي : خرج عروة بن الورد وأصحاب له الى خيبر ليمتاروا فلما قرُبوا منها خافوا وباءها فعشّروا وأبى عروة ان يفعل ذلك وقال :

لعمري لئن عشّرتُ من خشية الردى نُهاقُ الحمير إنني لجزوع
فلا وألت تلك النفوس ولا أتت على روضة الأجداد وهي جميع[2]

فدخلوها وامتاروا وانصرفوا نحو بلادهم فما بلغوا روضة الأجداد الا وقد هلكت عامّتهم الا عروة ·

وتقول العرب ان السليم يعلق عليه الحلي والجلاجل وما أشبهها فيُفيق السليم بذلك· وقال الحنفي انما يُعلَّق عليه حلي الذهب لا غيره ولا يقربه الفضة وان علق عليه الرصاص هلك ·

وقال ابن السكيت قال الصقيل الاعرابي[3] اذا لُسع الانسان عندنا علّقوا[4] عليه سوار ين وطوقاً وماوجدوا من الحلي والترّهات[5] وتركوه عليه سبعة ايام ينفّرون عنه الحمة فاذا بلغ سبعاً رأوا انه قد أفرق فنزعوه عنه · قال النضر بن شميل : وقلت للصقيل بلغنا انه يعلق عليه لئلا ينام فقال كيف تمنعه الحلي من النوم(؟) أليس انما هي حلي النساء التي يتحلين بها ويتمن فيها(؟) انما يسهّد بالجلوس معه · وأنشد الجاحظ لرجل من بني عُذرة في ذلك :

كأني سليم ناله كلمُ حية ترى حوله حلي النساء مرصّعا

(١) في بلوغ الأرب وشرح نهج البلاغة (زعزع) وفي صبح الاعشى ١+٦ ٤٠ (ودع)

(٢) وروي في بلوغ الارب وشرح نهج البلاغة هكذا :

فلا والت تلك النفوس ولا أتوا قفولاً الى الارطان وهي جميع
وبعده وقالوا الا انهق لا تضرك خيبر وذلك من فعل اليهود ولُوع

(٣) في الاصل (اعرابي) · (٤) بالاصل علق ·

(٥) في الاصل (الزعات) لعله تحريف · (المجمع) لعله تحريف الودعات ·

ويروى مُوضّعا . وقال زيد الخيل :

اثم تكون العقل منه صحيفةً   كما عُلّقت فوق السليم الجلاجل

وانشد [(١)] :   وغرّوا كما غرّ السليم الجلاجل

وأطباء الهند يعالجون المخمور اذا صار كالمألوس بان يُعلّق عليه حلي الذهب والجوهر الرائع فيفيق من خُماره .

وقال ابو صدقة الاعرابي : اذا خفنا على الرجل الجنون وولوع الجن نجسناه بتعليق الأقذار عليه : منها خرقة العارك وعظام الموتى وانفع ذلك ان تعلقه عليه طامث ثم لا يراها . وانشد [(٣)] :

ولو كان جارتان وراقٍ   وعلق أنجاساً على المنجس [(٢)]

وقال ابن كشوة : ان الاجناس تنفّر عنه كلّ الخوافي ليس نافس(؟) المشق فان المشق لاينفعه ذلك . وقالت المحاربية انفع التنجيس مافعله نجِس او من قد نجُس تارةً .

وقال الحنفي : اذا ظهرت بشفة الغلام بثور اخذ منخلاً على رأسه ومرّ بين البيوت ونادى الحلاً الحلاً الطعام الطعام [(٤)] ويلقي فيه من هاهنا تمرةً ومن هاهنا كسرةً وبضعة لحم فاذا اجتمع نثره بين الكلاب فيذهب عنه البثر وذلك البثر يسمى الحلاً فاذا اكل منه صبي اصبح وقد بثرت شفته .

وقال الحنفي : اذا عشي الرجل قطعنا له سناماً وكبداً فألقيناهما في المقلاة وقليناهما جميعاً وأكله الأعشى وكلما اكل لقمة مسح جفنه الأعلى بسبابته وقال

(١) في بلوغ الارب ٢+٣٠٥ وشرح نهج البلاغة ١٩+٤٤٠ جاء صدرُه

وقد عللوا بالباطل في كل موضع

(٢) في بلوغ الارب وشرح نهج البلاغة روي للممزّق العبدي هكذا

فلو ان عندي جارتين وراقيا   وعلق أنجاساً عليّ المعلق

(٣) في الاصل (المجنس) . (٤) في الاصل (العطام) موضع (الطعام الطعام) لعله تحريف .

يا سنامُ وكَبِدْ ليذهب اليُدَبِدْ [١]

وأنشد ابن السكيت: ليس شفاء اليُدَبِدْ الا سنامٌ وكَبِدْ

ويسمي العَشاء اليُدَبد .

وقال الحنقي : اذا طرف الرجل عين صاحبه فهاجت مسح الطارف عين المطروف بسبابته سبع مرات يقول في كل مرة : باحدى جاءت من المدينة . باثنين جاءت من المدينة بثلاث جئن من المدينة . الى سبع فتمسك عينه . قال اللحياني : واما بنو تميم فتقول في هذا يمسح الطارف عين المطروف و يقول: واحدةٌ من سبع . اثنتان من سبع . ثلاث من سبع . اربع من سبع . خمس من سبع . ست من سبع . سبع من سبع .

وقال ابن كلثوم : كان الغلام من العرب اذا سقطت له سنٌّ اخذها بين السبّابة والإبهام واستقبل الشمس اذا طلعت وقذف [٢] سنّه في عينها وقال ابدليني بشيء أحسنَ منها ولتجر في ظلها أياتك وربما قال أياءك وقال بعض الرّواة كنا في ديوان لبني أمية فدخل علينا الشعبي فتذاكرنا فقال الشعبي مامعنى قول طَرَفة .

بدَّلَتْه الشمسُ من منبته بَرَداً أبيضَ مصقولَ الأشر

قلنا لاندري . فقال كان الغلام من العرب اذا سقطت سنُّه رمى بها في عين الشمس وقال أبدليني بها أحسن منها . وقال المهري ما فعله عربيٌّ قط فخرجت أسنانه عوجًا ولا ثعلاً وأنشد [٣]

سقته أياة الشمس الا لثاته أُسِفَّ ولم تكدم عليه بإثمد

وقال ابو دواد الإيادي : الق عليه أياء الشمس اوراقا

وقال الخليل بن احمد : المقعة دائرة تكون بالفرس [٤] فتقول العرب ان صاحب الفرس المهقوع اذا ركبه فعرق الفرس تحته اغتلمت حليلته وطلبت الرجالَ . وقال بعض العرب لصاحب مهقوع

(١) روي في بلوغ الارب ٢+٣٢٨ وشرح نهج البلاغة ١٩+٤٤٣

فيا سناما وكبد ألا اذهبا المدبد

(٢) في الاصل (حذف) محرفاً عن (قذف) (؟) (٣) لطرفة راجع معلقته .

(٤) وربما كانت على الكتف في الاكثر وهي مستقبحة عندهم .

اذا عرق المقوع بالمرء أنعظت حليلته وازداد حراً عجانها

فأجابه :

وقد يركب المقوع من لست مثله وقد يركب المقوع زوج حصان

وقال ابو مجلز : اذا خافت العرب على الصبي نظرة وخطفة علقوا عليه سن ثعلب وسن هرة واشباه ذلك . قال ابو ملحم أرادت جنية صبي قوم فلم تقدر عليه فلما رجعت الى صويحباتها قلن لها في ذلك فقالت[1]

كانت عليه نفرة ثعالب وهرره والحيض حيض السمره

قال الحنفي حيض السمرة شيء يسيل من السمرة في حمرة دم الغزال فاذا يبس كان أسود . فاذا دبغ بالماء عاد احمر . مايزال صبياننا حين تلد المرأة يخط به وجه الصبي ورأسه و ينقط به وجه أمه . يسميه نقطة النساء . واسم هذا الخط[2] الديدم . وقال ابن السكيت انما هو الدودم .

وقال ابوزيد عمر بن شبة : تقول العرب ان من خرج في سفر فالتفت وراءه لم يتم سفره . فيتطيرون من ذلك خلا العاشق فانه يتفاءل الى ذلك ليرجع الى من خلف . وقال الشاعر :

لوى أبن ابي الدقاق عينيه بعدما دنا من اعالي إيلياء فغورا

وقال آخر :

عيل صبري بالثعلبية لما طال ليلي ومأني قرنائي

كلما سارت المطايا بنا ميلا أنفت والتفت ورائي[3]

قال وانما التفت وراءه لانهم كانوا عشاقاً فتفاءلوا الالتفات كي يرجعوا الى من خلفوا قال وكانت العرب توقد خلف المسافر الذي يبغضونه والزائر الذي لا يحبون رجوعه ناراً .

(١) تعتذر اليهن . (٢) في الاصل (الحبط) كذا . (٣) هذان البيتان ذكرهما الخالع في هذا الباب وعندي انه لا دلالة فيهما على ما أراد لان التلفت في اشعارهم كثير ومرادهم به الإبانة والإعراب عن كثرة الشوق والتأسف على الفراق . قال بعضهم :

دع التلفت يا مسعود وارم بها

وجه الهواجر تأمن رجعة البلد

فقال ابو محلم : يقولون أبعده الله وأسحقه واوقد ناراً إثره [١]
وانشد :

وجمة أقوام حملت ولم تكن لتوقد ناراً إثرهم [٢] للتنـدم

وأنشد :

صحوت واوقـدت للجهل ناراً ورد عليك الصبي [٣] ماستعارا

اي ابغضت الصبي [٣] فلما مضى اوقدت ناراً في إثره . وفيه قول آخر : تقول نصبت له حرباً فأوقدت ناراً كما كانت العرب اذا ارادت الحرب اوقدت ناراً لتعلم أصحابها . قال الله عز وجل [٤] كلما اوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله . وقال عمرو بن كلثوم [٥]

ونحن غداة أوقد في خزازى رفدنا فوق رفد الرافدينـا

وقال الحنفي : اذا سافرنا اوقدنا النار بيننا وبين المنزل الذي نؤمه ولم نوقدها بيننـا وبين اهلنا فان أخطأ احدنا فأوقدها وراءنا قالوا له لا تجعل بيننا وبين اهلنا ناراً واذا انصرفنا راجعين اوقدناها من ورائنا لا يكون بيننا وبين اهلنا وفود .

وقال المنذر كانت العرب اذا اصاب إبلهم العر كووا السليم ليذهب العر من السقيم . قال الجاحظ : فأسقموا الصحيح من غير ان يبرؤا السقيم . وقال النابغة :

---

(١) ومن مذاهبهم كانوا اذا رحل الضيف اوغيره عنهم واحبوا ان لا يعود كسروا من الأواني وراءه . وهذا مما يعمله الناس اليوم ايضاً . قال بعضهم

كسرنا القدر بعد ابي سواح فعاد وقِـدرنا ذهبت ضياعا

وقال آخر

ولانكسر الكيزان في إثر ضيفنا ولكننا نقفيه زاداً ليرجعا

(المجمع) قوله (نقفيه) لم نجده ولعل صوابه (نقفوه) بتقديم الفاء مقلوب (نقفوه) بتقديم القاف ومعناه نتبعه بالزاد بينا غيرنا يتبعه بكسر الكيزان .

وقال آخر اما والله ان بني نفيل لحلالون بالشرف اليفاع

اناس ليس تكسر خلف ضيف أوانيهم ولا شعب القصاع

(٢) بالاصل (ارثهم) . (٣) في الاصل (الصبي) كذا مضبوطاً .
(٤) في القرآن الكريم (س ٥ آ ٦٤) . (٥) راجع معلقته .

وحملتني ذنب امرئٍ وتركته كذي العر يكوى غيره وهو راتع

وقال ابو عبيدة: كانوا اذا بلغت الابل الفاً فقأوا عين الفحل فان زادت على الف فقأوا العين الأخرى . فذلك المفقأ والمعمّى . وكانوا يقولون ان ذلك يطرد عنها العين والسواف والغارة . وقال الشاعر في ذلك

فقأت لها عين الفحيل تعيفاً وفيهن رعلاء المسامع والحام

وقال: لقد عارعينا[1] إبن عمرو وضيفه من الجوع مجوع . ومولاه مسلم

وقال آخر يشكر ربه على ماوهب له

وهبتها وانت ذو امتنان يفقأ فيها اعين البعران

وقال بعض من اسلم من العرب يذكر افعالهم في الجاهلية

وكان شكر القوم عند المنن كيّ الصحيحات وفقأ الاعين

وقال الفرزدق : غلبتك بالمفقئ والمعمّى وبيت المخابى والمافقات(؟)

والاحتجاج ببيت الفرزدق سهو من ابن ابي السرح لان الفرزدق اراد بالمفقئ وما اشبهه أبيات الشعر والبيت[2]: (غلبتك بالمفقئ والمعنى[3] وبيت المحتبي والخافقات)

---

(١) في الاصل عينين . (٢) وقد ظن قوم ان بيت الفرزدق من هذا الباب وليس الأمر على ذلك وانما اراد بالمفقئ قوله لجرير

(ولست ولو فقأت عينيك واجداً أخاً كلقيط او اباً مثل دارم)

واراد بالمعنّى قوله لجرير ايضاً

(وانك اذ تسعى لتدرك دارما لانت المعنّى ياجرير المكلّف)

واراد بقوله بيت المحتبي قوله

(بيت زرارة محتب بفنـائه ومجاشع وابوالفوارس نهشل)

(المجمع) قوله المختبي ومختب بالخاء المعجمة صوابهما المحتبي ومحتب بالحاء المهملة .

وبيت الخافقات قوله (ومعصب بالتاج يخفق فوقه خرق الملوك له خميس جحفل)

(المجمع) قوله (ومعصب) صوابه ومعصب وقوله في المتن (والاحتجاج ببيت الفرزدق الخ) لعلها حاشية أدخلها النساخ في المتن سهواً لان (ابن ابي السرح) هو مؤلف الكتاب .

(٣) بالاصل المعمي .

وقال ابو المنذر كانت العرب تقول ايما[1] امرأة احبت رجلاً او احبها فلم يشق عليها برقعها ولم تشق هي رداءه فسد حبهما فاذا فعلاه دام حبهما وامرهما . قال عبد بني الحسحاس[2] في ذلك

فكم قد شققنا من رداء محبّر[3] ومن برقع عن طفلة غير عانس
اذا شُق بردٌ شُقّ بالبرد برقعٌ دواليك حتى كلنا غير لابس

ولنذكر خرز العرب واحجارها في هذا المعنى .

قال المهري : ان لنساء مهرة احجاراً يجتلبننا بها اليهن ويدفعننا بها عنهن وقال اللحياني قالت العامرية « ان لنا لحجراً يؤخذ به الرجال عن النساء » .

وقال ابو عبيدة : من خرز العرب الهَنِمَة[4] والفَطْسَة[5] والدردبيس[6] والعقلة والعَطْفة[7] والكَحْلة[8] والهبرة والقَبَلة[9] ويقال القُبَلة والقليب والينجلب[10] والصّرفة والصحبة وكرار مثل قطام والسلوانة والهمزة ويقال الهمَزة[11] .

(١) في الاصل ايتها . (٢) سحيم . (٣) في الاصل (محرّ) .

(٤) تجتلب بها الرجال ويعطف بها قلوبهم ورقيتها : اخذته (بالهنمة) بالليل زوج وبالنهار أمة — شرح نهج البلاغة . (٥) بالاصل (الفسطة) كذا . الفطسة خرزة يرض بها العدو ويقتل . (٦) خرزة سوداء يتحبب بها النساء الى بعولتهن توجد في القبور العادية واصل الدردبيس الداهية ونقل الى هذه لقوة تأثيرها . (٧) في الاصل (العظمة) .

(٨) خرزة سوداء تجعل على الصبيان لدفع العين عنهم . (٩) القبلة والفطسة والدردبيس كلها لاجتلاب قلوب الرجال . (١٠) في الاصل التجلب .

(١١) ومن خرزاتهم القرزحلة انشد ابن الاعرابي

لا تنفع القرزحلة العجائز اذا قطعن دونها المفاوزا

وهي من خرز الضرائر اذا لبستها المرأة مال اليها بعلها دون ضرتها .

ومنها خرزة العقرة تشدها المرأة على حقويها فتمنع الحبل ذكر ذلك ابن السكيت في إصلاح المنطق .

ومنها الخصمة خرزة للدخول على السلطان والخصومة تجعل تحت فص الخاتم او في زر القميص او في حمائل السيف قال بعضهم :

وقال ابن حبيب اكثر أحجارهم وخرزهم انما يستعملونها في الحب والبغض وقال اللحياني القبلة حجر ابيض يُجعل في عنق الفرس لئلا تصيبه العين ·

وقال ابوعبيدة : من رُقاهم في التجلب[1] أخذته بالتجلب ، فلا يرم ولا يغيب ، ولا عند الطُّنُب (?) وقال الممزة[2]: ياهمزة إهمزيه من استمر ءِباله وبنيه[3] ·

قال ابوالمنذر من رُقاهم في كرار : يا كرار كُرّيه ، ان اقبل فسُرّيه ، وان ادبر فضُرّيه[4] ·

قال الحنفي رُقاهم في الدردبيس ، اخذته بالدردبيس ، تُدِرّ العِرْقَ اليبيس ، وتذَر الجديدَ كاللبيس ·

وقال أعرابيٌ اخذته بالفطسة ، بالثُّوَباء والعطسة ، فلا يزال في تعسة ، من امره ولبسه ، حتى يزور رمسه ·

وقال في الهمزة ؛ اخذته بالهمزه ، ولقطات المذره ، ونفثِ كيد السحره ، لبرزه وتذكره · وانشد ابن الأعرابي

جمعن من قُبُلٍ لهن وفطسة[5] والدردبيس مقابلاً في المنظم
فانقاد[6] كل مشذّب سلس القُوى لحبالهن وكل جلدٍ شيظم

وقال آخر

قطعت القيد والخرزات عني لمن انس[7] من علاج الدردبيس

وقال ابن الأعرابي السلوان خرزة يسقى عليها العاشقُ الماءَ فيسلو وانشد

شربت على سلوانة ماء مزنة فلا وجديد العيش يا ميّ ماسلوا

بعلق غيري خصمة في لقائهم ومالي عليكم خصمة غير منطقي

ومنها الوجيهة وهي كالخصمة حمراء كالمقبق · (١) في الاصل (التجلب) · (٢) (المجمع) لعل صوابه : وقالوا في الممزة : الخ · (٣)روي في شرح نهج البلاغة ياهمزة اهمزيه ، من إستِه الى فيه ، وماله وبنيه · (٤) وزاد عليه ابن ابي الحديد ، من فرجه الى فيه · (٥) في الاصل فسطه · (٦) بالاصل (فالفار) محرفاً عن (فانقاد) · (٧) في الاصل (لمن) محرفاً عن (انس) ·

وقال آخر

نخاض[1] شراباً بارداً في زجاجة وقرّب مني سلوةً وأوى ليـا

وهذه رُقاهم المجردة من ذكر الخرز .

قال اللحياني من رُقى العرب أرقيك من عِرق عاثر ، او نظرة ناظر ، وحفيف طائر ، بنجم طالع ، وبرق لامع ، ودبك سافع .

قال ومن رُقاهم للعيون . من عانك عينه رحيقٌ ، فيها ترب سحيق ، ودمه دقيق ، ولحمه مشيق .

وقال ابوالمنذر من رُقاهم ان تُؤخذ قَرعةٌ ، تملأ ماءً وفي اسفلها ثقبٌ بالابرة و يسيل منه كالدمعة وبعلّق . ورقيته : اخذتُه بدباء ، مملوّ من الماء ، معلق بين سماء ، فلا يزال يمشي ، وعينه تبكي .

وقال الخنفي من رُقاهم في الحب ، هوىً به وهوى بهٍ ، البرق والسحابهٔ ، فلان ابن فلانه ، فسقط العُقابه . جلبته بمركن ، فحبه تمكن ، جلبتـه بابره ، فلم ينم من عبره ، جلبته باشفى ؛ فقلبه لايشفى ، جلبته بمسرد ، فقلبه لايبرد .

قال ابن المنذر من رُقاهم اذا سافر مرن يبغضونه وتفعله الفارك[2] اذا سافر بعلها بافول[3] القمر ، وظل الشجر ، شمال تشمله ، ودبور تدبره ، ونكباء تنكبه ، شيك فلاانتقش ثم ترمي إثره بحصاةٍ ونواة وروثة وبعرة وتقول حصاةٌ حصت[4] إثره ، نواةٌ نأت داره روثةٌ ليرث خبره ، لفعته[5] ببعره .

وقال ابن البرقي من رُقاهم في العطف . الريح والبروق ، في الصباح والطروق ، فلانٌ اذا اقبل فنهـار آيس ، وان أدبر فشوكُ طلح يابس ، وجبل حابس ، وليل دامس .

فأما فعلهم أبقاك الله في عضّة الكلب الكلِب فقد ذكرناه في كتابنا في اخبار الكلب الكلِب وذكرنا في ذلك قول اطبـاء الهند والروم وأقوال سائر الامم . واما القول في

(١) (المجمع) قوله نخاض شراباً اي خلطه . (٢) بالاصل (الفاركة) .

(٣) بالاصل (يافول) كذا . (٤) في الاصل (حص) . (٥) بالاصل (لقمه) .

العيافة والقيافة والزجر والفــأل والخيــلات وأسرار الكف والخط والطــرق وقرض الفأرة وتلظي النار وضرب الشعير والجزر على طنين الفرس فليس من هذا الملتي فنذكره . واما الاعتيان فقد ذكرنا مائنيه (؟) . وقول العرب والفلاسفة والهند والفرس والاطباء والمنجمين فيه . وحكايات سائر الامم في كتابنا الموسوم بكتاب الاعتيان وهو هنالك مستقصى .

آخر الكتاب والحمد لله رب العالمين . حمد الشاكرين . وصلى الله
على سيدنا محمد النبي وآله الطيبين الطاهرين . وهذا الكتاب ألفه
ابن ابي السرح في سنة اربع وسبعين ومائتين[1]

---

(١) وكتبه صدقة بن الحنين في ربيع الآخر من سنة خمس وعشرين وخمسمائة كذا ذكر في آخر نسخة اصلنا في مكتبة راغب باشا بالاستانة .

ابن زيدون

— ٣ —

محاسن هذه الرسالة ومعايبها

لاتقل هذه الرسالة عن سابقتها في محاسنها حتى ليمكن ان نثبت كل ما ذكرناه من محاسن تلك في هذه ·

ولم يتعرض شارحها ابن نباتة لشيء من معايبها كما فعل الصفدي في شرح الجدية غير انها لا تخلو من بعض وجوه النقد ·

فما يؤخذ عليه فيها :

١ — سرد فقارها على أسلوب واحد في كل فصل من فصولها فيقول مثلاً :

ان فلان المشهور انما فعل فعله العظيم بسببك ومن اجلك بحيث لا يتعلم منها الناشي المتأدب تنويع أساليب ·

٢ — ومنها الاسفاف في العبارة حتى تكون أشبه بعبارة الفقهاء ومؤلفي القواعد منها بعبارة الادباء في الترسل · وماحمله على ذلك التعسف الا قصد إدماج قصة في فقرة او سجعة مثل قوله (وان احتيال هرم الخ) ·

٣ - ومنها إعادة ذكر الرجال المضروب بهم المثل ·

٤ — ومنها خلطه علماء فن بعلماء فن آخر من غير ضرورة ·

٥ — ومنها المعاجزة في امور واقعة من كثيرين بحيث لا يمكن تعيين واحد منهم للمعاجزة به كقوله « وانك الذي ... ناظر في الجوهر والعرض الى آخر هذا الفصل — وكلامه فيه كله تهافت ولغو خرج به عن الغاية التي قصد اليها وهي المعاجزة برجال مشهورين · وهذا الفصل اضعف فصوله في الرسالة ·

٦ — وقوله « ورجحم بين مذهبي ماني وغيلان » — ولا موازنة بين المذهبين لان الاول ثنوي مجوسي والثاني قدري يتأول في الاسلام .

٧ — سرد الأمثال بدون ربط والجمع بينها لادنى ملابسة كقوله « فكدمت في غير مكدم الخ » .

٨ — سوء تعبيره في قوله « ونخرت و بسرت وعبست فكفرت » على لسان اديبة متظرفة مع فظاعة كلمة « نخرت» و بشاعة لفظ « كفرت» .

٩ — اقذاعه فيها بذكر العورات والفحش ومما لا يليق ان يصدر عن وزير الى وزير او عن عذراء اديبة الى وزير كبير .

هذا الى هنوات أخري اعرضنا عن ذكرها خوف الاطالة .

اسلوب الرسالتين اتباع لا ابتداع

يظن كثير من متأدبي زماننا ومن قبلهم ان أسلوب ابن زيدون في الرسالتين السالفتين غير مسبوق اليه وهو غير صحيح في جملته . ونعم اننا لم نقف على رسالة مطولة كلها مضرب امثال برجال او اقوال اومشهور افعال ولكننا نجد فصولا كثيرة من رسائل المتقدمين صبت على هذا القالب من الكلام . والظاهر ان الاصل في هذه الغاية رسالة التربيع والتدوير التي وضعها الجاحظ في صفة احمد بن عبدالوهاب والتهكم به ثم نسج على منواله كثيرون في فصول من رسائلهم . ومنهم ابوبكر الخوارزمي وابو حيان التوحيدي والبديع فان ابن زيدون انتحى جانبهم في المماجزة والموازنة بمشهوري الرجال في رسالتيه وبخاصة الهزلية ، فاما حله لمشهور الشعر ، واقتباسه من مأثور النثر ، فهي طريقة اهل زمانه في المغرب والمشرق : طريقة ابن العميد وحلبته التي انتقلت الى الاندلس ، واولع اهله بها ، غير انه كان يخالفها في عدم التزام السجع ، وفي الاستكثار من الامثال وحوادث التاريخ في رسالتيه ، وان كان في الهزلية اسجع .

وهاك أمثلة من فصول من ذكرنا من المتقدمين في رسائلهم :

فمن رسالة الجاحظ الآنفة فصل يماجز به احمد بن عبد الوهاب و يتهكم به بمقايسته برجال اعلام قال :

« وكيف يرجو خيرك من يراك تطاول ابا جعفر وتخاشنه ، وتنافره وتراهنه ، ثم لاتفعل ذلك الا في المحافل العظام ، وبحضرة كبار الحكام ، ثم تستغرب ضحكاً من طمعه فيك ، وتعجب الناس من مجاراته لك ، واشهد انك تخاشن عمرو بن بحر الجاحظ وتماقله ، ثم تظارفه وتطاوله ؛ وتغني مع مخارق ، وتنكر فضل زلزل ، وتستجهل النظّام ، وتستبرد الأصمعي ، وتستغبي قيس بن زهير ، وتستخف الأحنف بن قيس ، وتبارز ابا الحسن علي بن ابي طالب رضي الله عنه » .

وفصل منها ايضاً يصفه بقدم العمر قال :

« فيا عقيد الفلك كيف امسيت ، ويا قوة الهيولى كيف اصبحت ، ويا نسر لقمان كيف ظهرت ، ويا اقدم من دوس ، ويا اسن من لبد ...

حدثني كيف رأيت الطوفان ، ومتى كان سيل العرم ، ومذ كم مات عوج ، ومتى تبلبلت الالسن ، وما حبس غراب نوح ، وكم لبثتم في السفينة الخ الخ » .

ومن فصل له فيها :

« وكيف وقد اصبحت وما على ظهرها خود الا وهي تعبر باسمك ، ولا قينة الا وهي تغني بمدحك ، ولافتاة الا وهي تشكو تباريح حبك ، ولا محجوبة الا وهي تنقب الخروق لمرك ، ولا عجوز الا وهي تدعو لك ، ولا غيور الا وقد شقي بك ... ولوادركت ابن الخطاب لصنع بك اعظم مما صنع بنصر بن حجاج ، ولو كبك باعظم مما ركب به جعدة السلمي ، بل لدعاه الشغل بك الى ترك التشاغل بهما ، والغيظ عليك الى الرحمة لهما الخ » .

ومن فصول ابي بكر الخوارزمي « ووفاته سابقة لوفاة ابن زيدون بنحو ثمانين سنة » .

فصل يستعجز نفسه عن امكان عتاب صديق له قال :

« واني لآخذ القلم لاكتب به عتابك فيتشظى عليّ ، ويسقط من يدي ، وكيف تساعدني بناني ، على ما يخالفني فيه جناني ، وكيف يطيعني بعضي فيما يعصيني فيه كلي ، ولو كنت احمد بن يوسف في البلاغة ، وعبد الحميد في اتساع الكتابة ، وجعفر بن يحيى في الاختصار ، وابا الربيع في التوسع والإكثار ، وابا العيناء في العارضة ، وابا العتاهية في البديهة ، وابن المعتز في التشبيهات ، وابانواس في الخمريات والطرديات ، والعتابي في المعاتبات ، والنابغة في الاعتذارات ، وصريع الغواني في الاستعارات ، والفرزدق في

الفخريات ، وجريراً في المهاجاة . وغلبت في الخطابة صعصعة بن صوحان ، وقمت في الفصاحة خالد بن صفوان ، ونطقت بيتيمة ابن المقفع مرتجلاً ، وأتيت بعجوز آل رقبة مبتدعاً ، وبعذراء آل خارجة مقتضبا ، وضرب بي المثل في المقامات لا بسحبان وائل ، وبوهي به في العي عندي لا بباقل ، وحفظت حفظ الشعبي ، وحاضرت محاضرة ابن القرّية النمري ، وابدعت إبداع ابي تمام الطائي ، ووعظت عظة الحسن البصري ، وجادلت جدل النظّام في الكلام ، وصنفت تصنيف الجاحظ في الجد والهزل ، واربيت على اياس ابن معاوية في الذهن والعقل ، وبهرجت الاصمعي رواية ، وزيفت اباعبيدة حفظاً ودراية وعلمت امير المؤمنين عليه السلام الحلال والحرام ، ولقنت شريحاً القضاء والاحكام ، وصرت الذي زاده لله بسطة في العلم والجسم ، ووفقت توفيق سليمان في الحكم ، واخذ عني بطليموس علم الهيئة ، وارسطاطاليس علم الفلسفة ، وبلنياس باب الطلسم والحيلة ، وقرأ علي سيبويه نحو البصريين ، والفراء نحو الكوفيين ، واختلفت الي الهند في تعلم الحساب ، ودرس عليّ أبو عثمان المازني علم التصريف والاعراب ، واقتبس مني الخليل عروض الشعر ، وكان هاروت وماروت تلميذي في السحر ، وضرب على قالب خطي خط ابن مقلة ، وتوارث الكتابة اهل بيتي كما توارثها بنو ثوابة ، وأمليت على ابن الكلبي شجرة النسب ، وعلى ابي عمرو بن العلاء ايام العرب ، وأوتيت الحكمة وفصل الخطاب ، وكنت الذي عنده علم من الكتاب ، وعددت في الراسخين في العلم عدا . وقال لي موسى هل أتبعك على ان تعلمني مما علمت رشداً ، ثم حملت بعد هذا كله على ان يمضي بي في عتاب الاخوان لساني . او يجري فيه بناني . لقصر عن ذلك عناني . ولارتبك فيه عقلي وبياني . ولعييت والحق معي وانقطعت والحجة لي الخ . وللبديع قريب الخوارزمي فصل يشبه هذا .

ولابي حيان التوحيدي « وهو من اهل عصر الخوارزمي والبديع » فصل من كتابه في ثلب الوزيرين ابن العميد والصاحب بن عباد ينكر فيه على ابن عباد تكليفه نسخ أجزاء مطولة من رسائله فاعتذر وقال له ان في امكانه ان يجمع غررها فحقدها عليه الصاحب ونكر له — وهذا الفصل حاكاه ابن زيدون في الجدية . قال ابوحيان :

« فقال (اي ابن عباد) : طعن في رسائلي وعابها ، ورغب عن نسخها وازرى بها ، والله لينكرن مني ماعرف ، وليعرفن حظه اذا انصرف — حتى كأني طعنت في القرآن ،

او رميت ... بخرق الحبض ، او عقرت ناقة صالح ، او ... في بئر زمزم ، او قلت كان النظّام مأبونا ، او مات ابوهاشم في بيت خمار ، اوكان عباد معلم صبيان ، وما ذنبي يا قوم اذا لم استطع ان أنسخ ثلاثين مجلدة الخ الخ .

ولا يظنن القارئ لهذا الكلام انه تمايزري بابن زيدون ! فقليل من الناس من ينظر الجيد فيحكيه ، ويستمع القول فيتبع أحسن ما فيه ، ولوكانت العبرة ممكنة لكل احد لقلَّ الجهل ، وارتفع الخطل من القول . ولولا ان يفيد الآخر علماً من الاول ، ويولد المحدث معنى من المخضرم ، لقد بطلت الصناعات ، وماشهدنا هذه الحضارة الباهرة .

* * *

تأثير الرسالتين في الادب والمتأدبين

لم يخل عصر من العصور التي تلت عصر ابن زيدون حتى عصرنا هذا من حفظة كثيرين لهاتين الرسالتين لاشتمالها على كثير من مادة الكاتب الاديب ، فوق جزالة لفظهما وحصافة عبارتهما ، فهما معدودتان من اقرب الذرائع التي يتخرج بها المتأدب والكاتب ، ولا أدل على ماقلنا من عناية أعلام الادباء بشرحهما ومعارضتهما واحتذاء حذوهما .

فمن الشراح صلاح الدين الصفدي شرح الرسالة الجدية أبدع شرح ، لم يقتصر فيه على حل المعنى وشرح الغريب وسوق الملح المناسبة للمقام ، وتراجم الاعيان الذين اشارت اليهم الرسالة حتى تعدى ذلك الى النقد الطريف . وذكر بعض ما عورضت به من الرسائل . وقد اقتبس شرحه من هذا الشرح الشيخ حمزة فتح الله في المواهب . ومنهم الشاعر الكاتب ابن نباتة المصري شرح الرسالة الهزلية بما لا يقل كثيراً عن شرح الصفدي للجدية وطبع الشرح الاول ببغداد والثاني مراراً بالقاهرة .

وممن عارض الجدية مضاهياً بعض فصول الهزلية شيخ الانشاء بالديار المصرية و يعسوب الحلبة الفاضلية محيي الدين عبدالله بن عبدالظاهر عارضها برسالة أطول منها كتب بها الى الامير ناصرالدين بن شاور الكناني المعروف بابن النقيب سنة ٦٥٣ في معنى تخص تنقصه عنده بسبب التواضع وهو ينسب الى رفض قال في مفتتحها .

« بلغني أعزك الله ، ولا برحت رحيب فناء الفخر ، قشيب ملبس العمر ، يانع ثمرة

الشكر ، منعم حياض البر ، ان فلاناً غض مني كل غض الجنى ، وانه عبث بي عبث الايام بالمنى ... الى ان قال :

« والذي أقول له مخاطباً ، واوحيه اليه محاوباً ، ان كان استرسالك أيها العابث عبثاً فما كل الافاعي تعبث بها الانامل ، ولا كل المراعي ينصب بها الحبائل ، ولا كل زخار يخاض ، ولا كل جناح يهاض ، ولا كل جامح يراض ، ولا كل سابغة تفاض الى ان قال :

« وعندي اني لا استحل ان آكل لقمة لك ولا بعد ثلاث ، ويعجبني ان تحفر لي بئراً تقع فيها ولا يعجبني ان أقع فيك ، متى كانت الاسود مثل الثعالب ، وأعود الى محانقة فتعود الى اظهار اللبس ، فأقول : هل انت يافلان الا متخرص يزور ، وآيس من الخير كما يئس الكفار من أصحاب القبور . وآمن من العواقب ولله عاقبة الامور . وما مبالاتي بك الا مبالاة الديك بالبط ، والشمعة بالقط ، ورماح الخط باقلام الخط ... ومامبالاتي الا مبالاة آدم بعدم سجود ابليس ، ولا تضرري منه الا تضرر الصرح الممرد بوطء بلقيس أم هل أبالي بك الا مبالاة البازي بالحمام ، والليث بالنقاف الخيس . ومتى كانت همدان تفخر على كليب ، اوتحذر منها الكيد . ام متى خاف الاسد من ابي زيد ... » ولم يزل يعارض فصلاً منها بفصل حتى اتى على القصيدة الميمية المختتمة بها رسالة ابن زيدون فعارضها بمثلها في الروي والبحر والاسلوب قال في ابتدائها :

العلا في ارتشاف در العلوم والحلى في اتشاح در الحلوم
والتناهي في فعل كل حميد والتباهي بكل خل حميم

وممن حاكى ابن زيدون في رسالتيه الصلاح الصفدي في ترجمته امام النحاة في عصره ابا حيان الاندلسي الجياني في كتاب أعيان العصر وأعوان النصر قال بعد ثناء كثير :

« فلو رآه يونس بن حبيب لكان بغيضاً غير محبب ، اوعيسى بن عمر لاصبح من تقصيره وهو محدب ، اوالخليل لكان بعينه قذاة ، اوسيبويه لماتردى من مسألته الزنبورية برداه ، اوالكسائي لاعراه حلة جاهه عند الرشيد وأناسه ، اوالفراء لفر منه ولم يقتسم ولدا المأمون تقديم مداسه ، اواليزيدي لما ظهر نقصه من مكامنه ، اوالاخفش لاخفى جملة من محاسنه ، او ابوعبيدة لما تركه ينصب لشعب الشعوبية ، او ابو عمرو لشغله بتحقيق اسمه دون التعلق

بعربية ، اوالسكري لما راق كلامه في المعاني ولا حلا ، اوالمازني لما زانه قوله ، ان مصابكم رجلا ، او قطرب لما دب في العربية ولا درج ، اوثعلب لاستكن بمكره في وكره ولماخرج الخ » . وجرى على هذا النحو حتى اكمل الترجمة .

الى هنا قد عرفت خاصة كتابته في الرسالتين ومن اي معين استساغ نهلها ، واستطاب عللها ، وكتابته في غيرهما لا تخرج عن هذه الخاصة في الجملة من حيث عدم التزام السجع والتمثل بالامثال ، ولكنها أقرب الى الطبع وابعد من التكلف .

وهاك نموذجاً منها :

كتب الى بعض اصحابه وهو الاديب ابو بكر بن مسلم لما اختفى بقرطبة بعد فراره رسالة يعتذر فيها عن فراره فمنها .

أبدأُ اولاً بشرح الضرورة الحافزة الى ماصنعت اذ بلغني انك احد اللائمين لي ، ومن أمثالهم « هان على الاملس مالاقى الدبر » وأُعاتبك على انفصالك عني و براءتك امد المحنة مني ، عسى ان تتلافى عوداً ماأُضعت بدءاً ، وان كنت في ذلك « كدابغة وقد حلم الاديم » فمنفعة الغوث قبل العطب ، وفي علمك اني سجنت مغالبة بالهوى وهو اخو العمى . وقد نهى عنه تعالى فقال تعالى « ولا تتبع الهوى الآية » وشهد عليَّ فلان الناشر لأذنيه طمعاً ، ليأكل بيده جشماً ، وقال فكان القول ماقالت حذام ، وليتني مع قبول مالاتحل شهادته عليّ ، يعذر فيه اليّ ، ولم يقرن الحشف بسوء الكيلة وكنت اول حبسي بموضع جرت العادة بوضع مستوري الناس وذوي الهيآت منهم فيه ، وفي الشر خيار ، وبعضه أهون من بعض ، ثم نقلت بعد حيث الجناة المفسدون ، واللصوص المقيدون ، ومنع مني عوادي ، فشكوت الى الحاكم الحابس لي فصم عني ، ولو ذات سوار لطمتني .

وانك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

ولم أستطع صبراً ، وعلمت ان العاجز من لا يستبد ، فالمرء يعجز لا محالة ولم أستخر ان اكون ثالث الاذلين العير والوتد ، وذكرت ان الفرار من الظلم والهرب مما لا يطاق ، من تشريع المرسلين . وقد قال تعالى على لسان موسى عليه السلام « ففررت منكم لما خفتكم » فنظرت في مفارقة الوطن اذ قديماً ضاع الفاضل في وطنه ، وكسد العلق[1] العبيط في معدنه .

(١) كذا في الاصل ولعله العلق النفيس في معدنه .

كما قال :

أضيع في معشري وكم بلد بعود عود الكباء من حطبه

فاستخرت الله في انفاذ العزم . وانا الآن بحيث أمنت بعض الامن الا ان السعي لم يرتفع . ومادة البغي لم تنقطع .

وفي صدد هذه الرسالة يقول ايضاً :

ولقد كان من محاسن الشيم ، وشروط المروءة والكرم ، ان يهب لي ماانكر لماعرف ، ويغفر ماسخط لمارضي ، ويدفع بالتي هي أحسن ، ويؤثر الذي هو أجمل وأرفق ، و يتوقف عندما نص له من سعاية ، وزف اليه من وشاية ، فان كان باطلاً ألقاه ، وفضح مخبر المتقرب به وأقصاه ، وان كان حقاً صبر صبر الحليم ، وأغضى اغضاء الكريم ، وقبل انابة المعتب ، واقتصد في مؤاخذة المذنب ، فقدم التوقيف ، قبل التثقيف ، والتأنيب قبل التأديب ، فان الرفق بالجاني عتاب ، والحر يلحي والعصا للعبد .

ومنها : وقد هجرت الارض التي هي ظئري ، والدار التي كانت مهادي ، وغبت عن أم انا واحدها ، تمد أنفاسها شوقاً الي ، وتنفض أجفانها حزناً علي ، والله يرى بكاءها ، ويسمع لي على من كلني نداءها ، فالاستجابة مضمونة للمخلص وللمظلوم ، وقد حملت السيئتين ، واستوجبت الصفتين ، ولكن بغيتك التي تدخرها عليها كلمة تأمين ، واشارة الى تأنيس وتذكير ، تراجعني بها . فأظهر بحيث انا آمنا ، وألقي العصا مطمئنا ، فان وجدت محزاً لشفرة ، فالعوان لا تعلم الخمرة ، وان اشبهت الليلة البارحة أعلمتني بذلك فطلبت الأمن في مظانه وتقريت السلامة في مواطنها ، وصبرت حتى يحكم الله لي وهو خيرالحاكمين .

شعره

منزلته في الشعر — ان أدباء الاندلس وان غلب عليهم قرض الشعر لم يبلغوا فيه غاية فحول المشرق ، وان نوابغهم يجيئون دائماً مصلين لامجلين ، اذا علمت هذا فهمت ان قول من يقول من أدبائهم ومؤرخيهم بان ابن زيدون ليس معناه انه يراجع البحتري في ميزان البراعة ، الا اذا انقلب التشبيه فكان المشبه أقوى في وجه الشبه من المشبه به ، وانما يعد بالاضافة الى شعراء الاندلس في طوالع الرعيل الاول ، وانه يجري على طلقه

في انتحال الصقيل من اللفظ ، والمنسجم من الاسلوب ، وفي ترقيق الغزل ، وبث حديث النفس وشكوى الغرام ، لا في كثير من فنون الشعر التي أبدع فيها البحتري اي ابداع كالوصف والمديح ، فكان أشبه به من غيره من الاندلسيين ، وكان بذلك بينهم سباق غايات وطلاع النجد .

اما نحن فمع حسن تقديرنا لمقال أدبائهم فيه وبعد قراءتنا ديوانه المحفوظ في دار الكتب المصرية بالقاهرة نجعله في درجة ابن عبد ربه وابن دراج وابن عمار وابن خفاجة اي في الطبقة التي تلي طبقة ابن هانئ الاندلسي ، واذا قلنا ذلك فقد قلنا انه من شعراء الطبقة الاولى الاندلسيين اذ كان ابن هانئ في منزلته مقطوع القرين .

وتبوؤ ابن زيدون هذه المكانة في الشعر لا يستوجب له نظيرها في النثر ، فان امتلاك ناصية الصناعتين غاية لا تدرك .

من أجل ذلك لم يعرفه الاندلسيون كاتباً بقدر ما عرفوه شاعراً فلم يخض مترجموه منهم في نثره كالذي خاضوا في شعره ، وانما الذي جعل شهرته بالنثر عند المشارقة تنسخ شهرته بالشعر عند المغاربة ، انه راقهم منه سعة اطلاعه وقوة استحضاره لمأثور الكلام والاستشهاد به ، لا قوة بلاغة نثره في ذاتها ، فان احد المعجبين به من شارحي رسائله وهو ابن نباتة المصري يقول في ترجمته له : « ونظمه أمكن عند النقاد وأجود من نثره » الى ان قال : « فأما نثره فانه اكثر فيه من استعمال أمثال العرب وحل اشعار المتقدمين والمتأخرين الى ان قيل ان رسائله أشبه بالمنظوم من المنثور وعلى ذلك فقد دل بها على اطلاع معجب واستحضار معجز » واطلاعه هذا واستحضاره هما اللذان خولاه وضع رسالتيه الجدية والهزلية بصورة تجعل كلتاهما وفضة أدب وجعبة أخبار ، لمتعجل التحصيل من نشأ المتأدبين ، فاستظهروهما فيما يستظهرون ولولاهما ما اعتبره المشارقة الا في عداد الشعراء لا الكتاب .

صفة شعره — قل غرض من اغراض الشعر وفنونه لم يضرب فيه ابن زيدون بسهم . ولكن المتفق عليه عند اهل الادب ونقاد الشعر ان أجود شعره ما قاله في الغزل وشكوى الفراق . فقد سارت له في هذا الباب قصائد ومقطعات استعذبها المغاربة

والمشارقة فحفظوها وتغنوا بها . فمنها قطعة بقولها في وداع ولادة بعد انصرافها من زيارة قال :

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على ان لم يكن زاد في تلك الخطى اذ شيعك
يا أخا البدر سناء وسنا حفظ الله زماناً أطلعك
ان يطل بعدك ليلي فلكم بت اشكو قصر الليل معك

وهذه الابيات عكس نسبتها المقري صاحب نفح الطيب فجعلها لولادة في ابن زيدون فقال في اثناء ذكره أخبار ولادة « وكتبت اليه لما أولع بها بعد طول تمنع .

ترقب اذا جن الظلام زيارتي فاني رأيت الليل أكتم للسر
وبي منك مالو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع و بالنجم لم يسر

ووفت بما وعدت . ولما أرادت الانصراف ودعته بهذه الابيات . ودع الصبر الخ » والعجب انه وافق كل من روى قصة هذه الزيارة من ان الزائرة ولادة والمزور ابن زيدون بدليل قوله « ولما أراد : الانصراف » ولم يفطن لما رواه في القطعة .

يقرع السن على ان لم يكن زاد في تلك الخطا اذ شيعك

فان الذي يشيع هذا المزور المقصود لا الزائر المنصرف .

وان سلمنا جدلاً صحة روايته — وهو لم يذكر مصدرها — اضطررنا لتأويل أن الزيارة لم تكن في دار احدهما بل كانت في فضاء بعيد عن منازلها بحيث يتأتى ان تساير ولادة ابن زيدون الى ناحية داره بما يحتمل ان يسمى تشييعاً ولكن كان على رواة القصة ان يسموها تلاقياً على موعد . على انه يأبى هذا الفرض ان الزيارة كانت ليلاً فكيف تشيع فتاة عذراء من بنات الملوك بعد دل وامتناع في آخر الليل وفي ضاحية من المدينة رجلاً محباً لم تزره الا بعد ان أعياه الجهد في استزارتها ؟ ولئن كان ما فرض واقعاً كان ابن زيدون أنذل عاشق علمنا .

ولعل الذي صدق على المقري ظنه ورود ذكر المقولة فيه الابيات بلفظ المذكر غير ان المقري وهو المطلع العظيم قرأ لابن زيدون شعراً كثيراً كني فيه عن ولادة احياناً

بلفظ المذكر الواحد والجماعة تعمية للوشاة والرقباء كما صرح بذلك مراراً في شعره .
ومن غزلياته قوله :

يا قمراً مطلعه المغرب قد ضاق بي في حبك المذهب
الزمتني الذنب الذي جئته صدقت فاصفح أيها المذنب
وان من أغرب ما مر بي ان عذابي فيك مستعذب

وقوله وهو من أرق ما سمع في هذا الباب :

يا نازحاً وضمير القلب مثواه أنستك دنياك عبداً انت دنياه
الهتك عنه فكاهات تلذ بها فليس يجري ببال منك ذكراه
عل الليالي تبقيني الى أمل الدهر يعلم والايام معناه

وقوله في ذكرى ولادة والشوق اليها وتضمن وصفاً بديعاً :

اني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً والافق طلق ووجه الارض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله كأنما رق لي فاعتل اشفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم كما حللت عن اللبات أطواقا
يوم كأيام لذات لنا انصرمت بتنا لها حين نام الدهر سراقا
نلهو بما يستميل العين من زهر جال الندى فيه حتى مال أعناقا
كأن أعينه اذ عاينت أرقي بكت لما بي فجال الدمع رقراقا
ورد تألق في ضاحي منابته فازداد منه الضحى في العين اشراقا
سرى ينافحه نيلوفر عبق وسنان نبه منه الصبح احداقا
كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا اليك لم يعد عنها الصدر ان ضاقا
لو كان وفى المنى في جمعنا بكم لكان من اكرم الايام اخلاقا
لا سكن الله قلباً عند ذكركم فلم يطر بجناح الشوق خفاقا
لو شاء حملي نسيم الريح حين هفا وافاكم بفتى اضناه مالاقى
كان التجازي بمحض الود مذ زمن ميدان انس جرينا فيه اطلاقا
فالآن احمد ما كنا لعهدكم سلوتم وبقينا نحن عشاقا

ومن أشهر غزلياته وأسيرها شرقاً وغرباً قصيدته النونية التي تعتبر مثالاً جميلاً للشعر الاندلسي وقل أديب لم يحفظها او شيئاً منها . وهي مذكورة في كثير من كتب الأدب ومجموعات الشعر . قال ابن نباتة فيها « وقد تداولتها الألسن وزيدفيها ما كانت غنية عنه » . وأولها :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا ... شوقاً اليكم ولا جفت مآقينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الاسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
اذ جانب العيش طلق من تألفنا ... ومورد اللهو صاف من تصافينا
واذ هصرنا غصون الانس دانية ... قطوفها فجنينا منه ماشينا
ليسق عهدكم عهد السرور فما ... كنتم لارواحنا الا رياحينا
من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم ... حزناً مع الدهر لا يبلي ويبلينا
ان الزمان الذي مازال يضحكنا ... أنساً بقربكم قد عاد يبكينا
وقد نكون وما يخشى تفرقنا ... فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا
لم نعتقد بعدكم الا الوفاء لكم ... رأياً ولم نتقلد غيره دينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا ... ان طالما غير النأي المحبينا
والله ما طلبت اهواؤنا بدلاً ... منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
ياساري البرق غاد القصر فاسق به ... من كان صرف الهوى والود يسقينا
ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا ... من لو على البعد حياً كان يحيينا
يا روضة طالما أجنت لواحظنا ... ورداً جلاه الصبي غضاً ونسرينا
لسنا نسميك اجلالاً وتكرمة ... وقدرك المعتلي عن ذاك يغنينا

وهي طويلة ختمها بقوله :

عليك مني سلام الله ما بقيت ... صبابة منك نخفيها فتخفينا

قال الصفدي في صدد ذكر هذه القصيدة « وعارض بها البحتري في قوله :

يكاد عاذلنا في الحب يغرينا فما لجاجك في عذل المحبينا
نلحى على الوجد من ظلم فديدننا وجد نعانيه او لاح يعنينا »

وقد عارض هذه القصيدة كثير من متأخري المشارقة في غرضها وفي غير غرضها وبلغ ولع صفي الدين الحلي بها ان خمّسها كلها . وأغرب ما في هذا التخميس ان صرفها به من الغزل الى الرثاء فرثى به السلطان الملك المؤيد عماد الدين صاحب حماة وقد حضر موته سنة ٧٣٢ وهاك تسميط البيتين الاولين فيها :

كان الزمان بلقيا كم يمنينا وحادث الدهر بالتفريق يثنينا
فعندما صدقت فيكم أمانينا أضحى التنائي بديلاً من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا
خلنا الزمان بلقيا كم يسامحنا لكي تزان بذكرا كم مدائحنا
فعندما سمحت فيكم قرائحنا بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا
شوقاً اليكم ولا جفت مآقينا

ومما قاله في الشكوى صدر قصيدة بعث بها في رسالة الى ابي حفص بن برد من سجنه .

ما على ظني باس يجرح الدهر ويأسو
ربما أشرف بالمر ء على الآمال ياس
ولقد ينجيك أغفا ل ويؤذيك احتراس
ولكم أجدى قعود ولكم اكدى التماس
وكذا الحكم اذا ما عز ناس ذل ناس
وبنو الايام أخيا ف سراة وخساس
نلبس الدنيا ولكن متعة ذاك اللباس

وله مدح بليغ في آل جهور وآل عباد ولكنه في آل عباد أبلغ لمكان السن والتجربة فليراجع في ديوانه .

فأنت ترى مما أوردناه عليك من شعره ان معانيه مسبوقة بحيث يصعب على الباحث

أن يرى فيها اختراعاً ولكنه كساها ثوباً أنيقاً من اللفظ الرشيق وخاصة الغزل والشكوى والعتاب . وقد تجد في مدحه ورثاه مسحة من الفخامة والجزالة يقارب بها ابن هاني الاندلسي بقتضيهما المقام .

وقد كنا عزمنا على ان نسهب القول في نقد بعض شعره وبيان بعض محاسنه والموازنة بينه وبين غيره الا اننا الى هنا مللنا التطويل ؛ وظننا ان نلم بذلك في فرصة أخرى .

على اننا معشر المشارقة انما نترجم له كاتباً لا شاعراً لمكان رسالتيه عند أدبائنا وعنايتهم بشرحها .

(القاهرة) : احمد الاسكندري

مذهب الجاحظ (١)

في التفسير والتأويل

—«×»—

تبين لنا ان الجاحظ يعتمد في تحقيق العلم على العقل وقد وضحنا مذاهبه في هذا الباب ولم يقتصر في إعماله العقل على العلم او على الفلسفة وانما أعمل هذا العقل في الدين وخاصة في تفسير الآيات وتأويل الأحاديث وشأننا في مجلسنا هذا ان ننتخب نماذج من تفسيره وتأويله ظهرت عليها آثار العقل ، وغايتنا في انتخابنا تبيين الصفة الغالبة من صفات الجاحظ وهي صفة المفكر ، فلسنا نرمي الى التخطئة والتصويب في هذه السبيل فلكل رأيه في التفسير والتأويل ومالنا في هذا الرأي الاّ الحيدة التامة .

قد كنت ذكرت لكم في كلامي على ثقافة الجاحظ ، وعلى أساتيذه قول النظّام في المفسرين : لا تسترسلوا الى كثير من المفسرين وان نصبوا نفسهم للعامة وأجابوا في كل مسألة الى آخر هذا القول ، وبيّنت لكم ان الجاحظ يشارك النظّام في هذا الرأي فمن قول الجاحظ في هذا الباب (٢) :

«وليس يؤتى القوم الا من الطمع ومن شدة إعجابهم بالغريب من التأويل» .

فمذهب الجاحظ في التفسير والتأويل اجتناب الغريب منهما ، فقد تمرّ به احاديث يحتج بها طائفة من القوم فيردها دون شيء من التصديق ، وقد يخالف هذا الردّ ، فمرة

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الأدب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

(٢) كتاب الحيوان الجزء الاول ص ١٦٩ .

يردّها ردّاً مجرداً دون الافاضة في بيان العلة ، من هذا الشكل قوله [١] :

« هشام بن عروة قال : أخبرني أبي ان عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها كانت تقتل الأوزاغ . —

يحيى بن ابي انيسة عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول للوزغ : فويسق ، قالت : ولم أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم امر بقتله . —

عبد الرحمن بن زياد قال : وأخبرني هشام عن عروة عن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للوزغ : الفويسق . —

ابوبكر الهذلي عن معاذ عن عائشة قالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ ، وفي يدي عكاز فيه زُجّ فقال : ياعائشة ماتصنعين بهذا ؟ قلت : أقتل به الوزغ في بيتي . قال : ان تفعلي فان الدواب كلها حين القي ابراهيم صلى الله عليه في النار كانت تطفئ عنه ، وان هذا كان ينفخ عليه فصمّ وبَرِص . —

وهذه الاحاديث كلها يحتج بها اصحاب الجهالات ومن زعم ان الاشياء كانت كلها ناطقة وانها أمم مجراها مجرى الناس » .

ومرةً يردها لان رُواتها يروونها دون توضيح شيء من عللها وبرهاناتها مقتصرين فيها على ظاهر الفاظها ، فالجاحظ لايصدّقها . فلنضرب مثلاً لذلك [٢] :

بحث الجاحظ عن الكلام المتروك والأسماء التي زالت مع زوال معانيها كالغلامة بمعنى الجارية وكالمرباع والنشيطة وعن الاسماء التي حدثت في الاسلام ولم تكن في الجاهلية وانما اشتقت من اسماء متقدمة على التشبيه مثل قولهم لمن ادرك الجاهلية والاسلام : مخضرم ، ومثل قولهم : المنافق والمشرك والكافر والتيمم .

وبحث عن بعض كلام كرهوه كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : لايقولن احدكم خبثت نفسي ، ولكن ليقل لقست نفسي ، كأنه كره ان يضيف المؤمن الطاهر الى نفسه الخبث والفساد بوجه من الوجوه .

(١) كتاب الحيوان الجزء الرابع ص ٩٦ .

(٢) « « « الاول ص ٦٦ .

وبعد أن أفاض بعض الافاضة في أشباه هذه المباحث قال :

« وقد كرهوا أشياء مما جاءت في الروايات لا تعرف وجوهها ، فرأى اصحابنا لا يكرهونها ولا نستطيع الردّ عليهم ، ولم نسمع لهم في ذلك اكثر من الكراهة ، ولو كانوا يروون الامور مع عللها وبرهاناتها خفّت المؤنة ولكن اكثر الروايات مجرّدة وقد اقتصروا على ظاهر اللفظ دون حكاية العلة ودون الإخبار عن البرهان وان كانوا قد شاهدوا النوعين مشاهدة واحدة ، قال ابن مسعود وابوهريرة لا تسموا العنب الكرم ، فان الكرم هو الرجل المسلم ، وقد رفعوا ذلك الى النبي صلى الله عليه وسلم ، واما قوله لا تسبوا الدهر فان الدهر هو الله ، فما أحسن مافسّر ذلك عبدالرحمن بن مهدي قال وجه هذا عندنا ان القوم قالوا وما يهلكنا الا الدهر ، فلما قال القوم ذلك ، قال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الله ، يعني ان الذي أهلك القرون هو الله عزّ وجل ، فتوهم منه المتوهم انه انما أوقع الكلام على الدهر » .

وحيناً يردّ الأحاديث ويجادل في ردّها ، من هذا القبيل قوله[1]

وقالوا في الحديث انه من اقتنى كلباً ليس بكلب زرع ولا ضرع ولا قنص فهو آثم : . . . .

وبعد ، فلعلّ النبي صلى الله عليه وسلم ، قال هذا القول على الحكاية لأقاويل قوم ولعلّ ذلك كان على معنى كان يومئذ معلوماً فترك الناس العلّة ورووا الخبر سالماً من العلل ، مجرداً غير مميز ، ولعلّ من سمع هذا الحديث شهد آخر الكلام ولم يشهد اوله ، ولعله عليه الصلاة والسلام قصد بهذا الكلام الى ناس من أصحابه قد كان دار بينهم وبينه شيء فيه ، وكل ذلك ممكن سائغ غير مستنكر ولا مدفوع » .

هذا مذهبه في ردّ الأحاديث التي يشك في روايتها ، ولقد ذهب هذا المذهب في تفسير الآيات ، فكما كره الغريب من تأويل الأحاديث فقد كره الغريب من تفسير الآيات ، ولم يخل من تهكم على بعض المفسرين ، وقد يظهر تهكمه من مجرّد ذكره لتفسيرهم من هذا النوع قوله ، وقد سمعتموه من قبل[2]

(١) كتاب الحيوان الجزء الاول ص١٤٧ .

(٢) « « « « ص ٦٧ .

« وزعم بعض المفسرين وأصحاب الأخبار ان اهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفار فعطس الأسد عطسة فرمى من منخريه بزوج سنانير فلذلك السنور أشبه شيء بالاسد وسلح الفيل زوج خنازير ، فلذلك الخنزير أشبه شيء بالفيل .

قال كيسان : فينبغي ان يكون ذلك السنور آدم السنانير ، وتلك السنورة حواءها وضحك القوم » .

نعم ، يكره الجاحظ الغريب من التفسير ، ومن تفرغه لتأويل قول رفع الى ابي موسى يتبين لكم مقدار إحاطته ببواطن الامور ، فهو لا يقتصر على ظواهرها وانما يتولى الكشف عن أسرارها ، وهذا تأويله الذي أشرت اليه [1] :

وعن قتادة ان اباموسى قال : لا تتخذوا الدجاج في الدور فتكونوا اهل قرية ، وقد سمعتم ماقال الله تعالى في اهل القرى : أفأمن اهل القرى ان يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ، وهذا عندي من ابي موسى لبس على مايظنه الناس لان تأويله هذا ليس على وجهه ، ولكنه كره للفرسان ورجال الحرب اتخاذ مايتخذه الملاح واصحاب التعيش ، مع حاجته يومئذ الى نفرتهم لحروب العجم ، واخذهم في تأهب الفرسان ، وفي دربة رجال الحرب ، فان كان ذهب الى الذي يظهر في اللفظ فهذا تأويل مرغوب عنه » .

وقبل أن أتعرض لذكر طائفة من أنماط تفسيره لا أرى بأساً برواية بعض كلام له يدل على مقدار كراهيته للغريب من تأويل اي شيء كان حتى قال ولم يهلك الناس شيء كالتأويل ، وهذا هو كلامه [2] :

ويقول الناس فلان مخدوم يذهبون الى انه اذا عزم على الشياطين والارواح والعمار أجابوه وأطاعوه ، فمنهم عبد الله بن هلال الحميري الذي كان يقال له صديق إبليس ، ومنهم كدياس الهندي وصالح الموسوي وقد كان عبيد يقول ان العامري حريص على إجابة العزيمة ولكن البدن اذا لم يصلح ان يكون هيكلاً لم يستطع دخوله ، والحيلة في ذلك ان يتبخر باللبان الذكر ويراعي سير المشتري و يغتسل بالماء القراح و يدع الجماع واكل الزهومات و يتوحش في الفيافي و يكثر دخول الخرابات حتى يرق و يلطف و يصير فيه

(١) كتاب الحيوان الجزء الاول ص١٤٣ .

(٢) « « « السادس ص٦٠ .

مشابه من الجن فان عزم عند ذلك فلم يجب فلا يعودن لمثلها فانه ليس ممن يكون بدنه هيكلاً لهـا ومتى عاد ضبطه فربما جن وربما مات ، قال : فلو كنت ممن يصلح ان يكون هيكلاً لكنت فوق عبدالله بن هلال ، قال الاعراب وربما نزلنا بجمع كثير ورأينا خياماً وقباباً وناساً ثم فقدناهم من ساعتنا والعوام تروي ان ابن مسعود رضي الله عنه رأى رجلاً من الزط فقال هم لأشبه من رأيت من الجن ليلة الجن ، قال وقد روي عنه خلاف ذلك وتأولوا قوله تعالى وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ولم يهلك الناس شيء كالتأويل ومما يدل على ماقلنـا قول ابي النجم حيث يقول .

يحيث تستن مع الجن الغول .

فأخرج الجن من الغول الذي باتت به الجن وهذا عادتهم ان يخرجوا الشيء من الجملة بعد أن دخل الشيء في الجملة فيظهر لأمر خاص وفي بعض الرواية انهم كانوا يسمعون في الجاهلية من أجواف الأوثان همهمة وان خالد بن الوليد حين هدم العزى رمته بالشرر حتى احترق عامة فخذه حتى عوذه النبي صلى الله عليه وسلم وهذه فتنة لم يكن الله تعالى ليمتحن بها الاعراب من العوام وما اشك انه كان للسدنة حيل والطاف لمكان التكسب » .

من هذا يتبين لنا انه يرد الامور الى حقائقها و يبين في كل فتنة جواهر عللها ، فليس في أجواف الأوثان شيء من الهمهمة وانما هي حيل والطاف يلجأ اليهـا السدنة على سبيل التكسب .

فلنعجل بعد هذا كله ، فنبين مواطن من تفسيره ظهرت عليها آثار عقله .

مرة يحمل اللفظ على ظاهره فالشيطان في اللغة معروف امره ولكن من المفسرين من فسر رؤوس الشياطين في الآية الوارد ذكرها تفسيراً عده الجاحظ غريباً ، ونفرغ لرد التفسير الى حقائقه ، مبيناً السبب الذي من اجله قد نستقبح الشيء ولم نر صورته ، فمن كلام للجاحظ في خلال تفسير بعض الآيات قوله في تأويل هذه الآية[1] :

« انها شجرة تخرج في اصل الجحيم . طلعها كأنه رؤوس الشياطين . قال الجاحظ في تأويل هذه الآية : وليس ان الناس رأوا شيطاناً قط على صورة ولكن لما كان الله قد جعل لما في طباع جميع الأمم استقباح جميع صور الشياطين واستسماجه وكراهته واجرى

(١) كتاب الحيوان الجزء الرابع ص١٣ .

على السنة جميعهم ضرب المثل في ذلك رجع بالايحاش والتنفير وبالاخافة والتقريع الى مافد جعله الله في طباع الأولين والآخرين ، وعند جميع الامم على خلاف طبائع جميع الامم ، وهذا التأويل اشبه في قول من زعم ان رؤوس الشياطين نبات ينبت باليمن » .

ومرةً يحمل الكلام على باطنه ، فالتين في اللغة والزيتون معروف امرهما ، ولكن الجاحظ في تفسير قوله تعالى والتين والزيتون ، لم يقفْ عند ظاهر المعنى ، وانما نفذ بواطن الامور استنباطاً للحكم منها ، من هذا النحو قوله[1] :

وقد قال الله عز وجل والتين والزيتون ، فزعم زيد بن أسلم ان التين دمشق والزيتون فلسطين وللغالية في هذا تأويل ارغب عن التعبير عنه وذكره ....

والكلمات في هذا الموضع ليس يريد بها القول والكلام المؤلف من الحروف وانما يريد النعم والأعاجيب والصلاة وما اشبه ذلك ، فان كلاً من هذه الفنون لو وقف عليه رجل رقيق اللسان صافي الذهن صحيح الفكر تام الأداة لما برح ان تحشره المعاني وتغمره الحكم .

وحيناً يعترض المعترضون في بعض الآيات فيتجرد الجاحظ لردهم الى الصواب ذاهباً في هذا مذهب المتكلمين . من هذا القبيل قوله[2]

وسنذكر مسألة كلامية وانما نذكرها لكثرة من يعترض في هذا ممن ليس له علم بالكلام ولو كان اعلم الناس باللغة لم ينفعك في باب الدين حتى يكون عالماً بالكلام وقد اعترض معترضون في قوله عزّ وجلّ « واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه اخلد الى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث اوتتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا » فزعموا ان هذا المثل لا يجوز ان يضرب لهذا المذكور في صدر هذا الكلام لانه قال « واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها » فما يشبه حال من أعطي شيئاً فلم يقبله ولم يذكر غير ذلك بالكلب الذي ان حملت عليه نبح وولّى ذاهباً وان تركته شد عليك ونبح مع ان قوله يلهث لم يقع في موضعه وانما يلهث الكلب من عطش شديد وحرّ

(١) كتاب الحيوان الجزء الاول ص ٩٧ .

(٢) « « « الثاني ص ٦ .

شديد ومن تعب . واما النباح والصياح فمن شيء آخر ، قلنا له ان قال ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فقد يستقيم ان يكون المراد لا يسمى مكذبا ولا يقال لهم كذبوا الا وقد كان ذلك منهم مراراً فان لم يكن ذلك فليس ببعيد ان يشبه الذي اوتي الآيات والاعاجيب والبرهانات والكرامات في بدء حرصه عليها وطلبه لها بالكلب في حرصه وطلبه فان الكلب يعطي الجد والجهد من نفسه في كل حالة من الحالات ، وشبه رفضه وقذفه لها من يديه ورده لها بعد الحرص عليها وفرط الرغبة فيها بالكلب اذا رجع ينبح بعد اطرادك له وواجب ان يكون رفض قبول الاشياء الخطيرة النفيسة في وزن طلبها والحرص عليها . والكلب اذا أتعب نفسه في شدة النباح مقبلاً اليك ومدبراً عنك لهث واعتراه ما يعتريه عند التعب والعطش . وعلى اننا مانري بابصارنا الى كلابنا وهي رابضة وادعة الا وهي تلهث من غير ان تكون هناك الا حرارة اجوافها والذي طبعت عليه من شأنها الا ان لهث الكلب يختلف بالشدة واللين .

وحيناً يطعن في بعض الآيات ناس من الملحدين وبعض من لا علم له بلغة العرب ومداخلها ومخارجها فيهديهم الجاحظ سواء السبيل مفصلاً لهم مذاهب لغة العرب أدق تفصيل ، من هذا النوع قوله [1]

وقد طعن ناس من الملحدين وبعض من لا علم له بوجوه اللغة وتوسع العرب في لغتها وفهم بعضها عن بعض بالاشارة والوحي فقالوا قد علمنا ان الشمع شيء ينقله النحل مما يسقط على الشجر فيبني بيوت النحل منه ثم ينقل من الاشجار العسل الساقط عليها كما يسقط الترنجبين والمن وغير ذلك الا ان مواضع الشمع وآثاره أخفى وأقل فليس العسل بقيء ولا رجيع ولا دخل للنحلة في بطن قط وفي القرآن قول الله عز وجل « واوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون » ولو كان انما ذهب الى انه شيء يلتقط من الاشجار كالصموغ وما يتولد من طباع الأنداء والأهواء والأشجار انما تمازجت لما كان في ذلك عجب الا بقدر ما نجده في أمور كثيرة ، قلنا فقد زعم ابن حائك وناس من جهال الصوفية ان في النحل أنبياء لقوله

(١) كتاب الحيوان الجزء الخامس ص ١٢٨ .

عزّ وجل « وإذ أوحيت الى الحوار يين » وماخالف ان يكون في النحل أنبياء بل يجب ان تكون النحل كلها انبياء لقوله عزّ وجل على المخرج العام واوحى ربك الى النحل ولم يخص الامهات والملوك واليعاسيب بل اطلق القول إطلاقاً وبعد ان كنتم مسلمين فليس هذا قول احد من المسلمين والاّ تكونوا مسلمين فلمَ تجعلوا الحجة على نبوة النحل كلاماً هو عندكم باطل . واما قوله عزّ وجل يخرج من بطونها شراب فالعسل ليس بشراب وانما يحول بالماء شراباً او بالماء نبيذاً فسماه كما ترى شراباً اذ كان مما يجيء منه الشراب وقد جاز في كلام العرب ان يقولوا جاءت السماء اليوم بامر عظيم وقد قال الشاعر :

اذا سقط السماء بارض قوم رعيناه وان كانوا غضابا

فزعموا انهم يرعون السماء وان السماء تسقط ومتى خرج العسل من جهة بطونها وأجوافها ومتى حمل اللغة على هذا المركب لم يفهم عن العرب قليلاً ولا كثيراً وهذا الباب هو مفخر العرب في لغتهم وبه قال وبأسبابه اتسعت وقد خاطب بهذا الكلام اهل تهامة وهذيل وضواحي نجد هؤلاء اصحاب العسل والاعراب اعرف بل ضمنة سائلة وعسلة سافطة فهل سمعتم باحد انكر هذا البيان او طعن عليه من هذه الحجة .

والأمثال في هذا الباب كثيرة ، فاذا حاولنا الاستقصاء فيها تراخى أمد الكلام ، فالذي يستخرج من كل ماتقدم ان الجاحظ في امور الدين يذهب مذهبه في امور العلم فكما نبّه في العلم على المسائل التي خرج فيها أصحابها من العقل ، فكذلك نبّه في امور الدين على المسائل التي لا تطابق العقل ، وتنبيهه كان على أساليب شتى ذكرت شيئاً منها ، ومهما اختلفت هذه الاساليب فان جوهرها واحد فالجاحظ لا يريد الا العلة والا البرهان في كل مسألة من المسائل ولقد عابوه باستهزائه من بعض الأحاديث او من بعض الآيات ولو أنصفوا لعدّوا له فضلاً عظيماً في التفسير والتأويل فقد تبين لكم كيف يتفرغ للرد على بعض الطاعنين في القرآن فيُهيب بهم الى الصواب آخذاً عليهم مداخل الطرق ومخارجها يحمل الألفاظ مرةً على ظواهرها اذا كانت الحكمة في حملها على الظواهر ومرةً يحملها على بواطنها اذا كانت الحكمة في حملها على البواطن حتى لا يبقى للطاعنين متنفس يتنفسون منه .

دمشق : ٩ أيار سنة ١٩٣١

اثر خالد

في تاريخ الفكر العربي

— كتاب الفهرست لابن النديم —

—*—

توارد الفرنج الى المشرق لغايات شتى فاحتملوا معهم هم ورجال حملة نابليون كثيراً من المخطوطات العربية . وكان بين هذه المخطوطات اثنتان لفهرست ابن النديم جيء باحداهما من القاهرة الى باريس في القرن الثامن عشر وجيء بالاخرى من القسطنطينية الى ليدن في نفس ذلك الزمن تقريباً فتهافت علماء المشرقيات الجرمان على هاتين النسختين وعهد الى الاستاذ « جوستاف فلوجل » درسهما حوالى سنة ١٨٥٠م فاستغرق درسه نيفاً وعشرين عاماً وتوفي سنة ١٨٧١ قبل ان ينجز طبعها فأشرف على الطبع مكانه « روديجر ومولر » وقد نجزت طبعة الكتاب في سنة ١٨٧٢م . ومع ان الكتاب جاء — كغيره من المخطوطات التي تطبع لاول مرة — مملوءاً بالاغلاط الفاحشة فقد كانت له مكانة عظيمة في الاوساط الاوربية التي تهتم بالمشرقيات لاسيما وقد بذل فلوجل جهده في ضبط اسماء الرجال من المصادر العربية التي كانت بين يديه عندئذ . بيد ان النسخة التي طبعها ظلت مبتورة . وهذا ثابت بدليلين :

اولهما — ان ياقوت يذكر في «معجم الادباء» اسماء كثير من العلماء ثم يصرح نقله عن كتاب الفهرست فاذا رجعنا الى النسخة المطبوعة لانجد لذلك اثراً على الاطلاق[1] ومثال ذلك انه « اورد ترجمة الجاحظ في الجزء السادس من معجمه (ص٧٥) ونقل فيها عن كتاب الفهرست ان ابن النديم قال : (ورأيت انا هذين الكتابين بخط زكريا بن يحيى

(١) كتاب التاج — تحقيق الاستاذ احمد زكي باشا ص٤٤ .

ويكنى ابايحيى وراق الجاحظ) ولا توجد هذه العبارة في النسخة المطبوعة [١] » ٠

ثانيها = « ان الاستاذ (هوتسما) عثر على جملة تراجم عما كتبه ابن النديم وهي غير واردة في النسخة المطبوعة فنشرها في المجلة النمساوية للعلوم الشرقية [٢] » ٠

وقد ساعد الحظ المستشرق (ريتر) فعثر في العام الماضي على مخطوطتي فلوجل الاصليتين بعد ان فقدتا زمناً طويلاً — نعني : مخطوطة باريس وهي تتضمن المقالات الست الاولى من الكتاب والمخطوطة المنقولة عن مكتبة شهيد علي باشا بالقسطنطينية وليس فيهما الا اربع المقالات الأخيرة من الكتاب وهذه ربما كانت بخط المؤلف نفسه — واخذ يعد طبعة جديدة كاملة مستنداً اليهما وعلى مخطوطة ينكي جامع [٣] ومخطوطتي الكوبريلي [٤] بالقسطنطينية ولكن فاته ان يتصل بالنسخة الموجودة بمكتبة المرحوم عارف حكمت بالمدينة المنورة [٥] ولهذا فستظل نسخته ناقصة ٠

والذي يظهر ان المؤلف جعل كتابه في جزءين مستقل احدهما عن الآخر : ضمّن الاول منهما وهو ما حوته مخطوطة باريس — أبحاثاً اسلامية محضة (الشرائع المنزلة على مذاهب المسلمين والنحو والسير والشعر والشعراء والكلام والمتكلمين والفقه والفقهاء والمحدثين) ٠ وضمّن الثاني ابحاثاً عن علوم عرفت قبل الاسلام ونمت في أوساط غير اسلامية (الفلسفة والعلوم القديمة والأسمار والخرافات والعزائم والسحر والشعوذة والمذاهب والاعتقادات والكيمائيين والصفو بين من الفلاسفة القدماء والمحدثين) والدليل على ذلك ان المؤلف يتخذ سنة ٣٧٧ ﻫ تاريخاً لتأليفه ويذكرها في مواضع كثيرة من القسم الاول من الكتاب بينما هو لا يتعرض لها ابداً في القسم الثاني منه ٠

على ان الكتب الاخرى التي يمكن الالتجاء اليها في ضبط الكتاب أصبحت اليوم كثيرة بفضل ما طبع في مصر واوربا من كتب التاريخ والتراجم العربية فلدينا اليوم طبقات الاطباء ومعجم الادباء وتاريخ ابن القفطي ونزهة الألباء وبغية السيوطي مثلاً وكلها قريبة المتناول

(١) كتاب التاج — تحقيق الاستاذ احمد زكي باشا ص٤٤ ٠

(٢) 〃 〃 ص٤٥ ٠ (٣) رقم ٨١٥ وعنوانها اسامي الكتب المسمى بالتذكار الجامع للآثار ٠ (٤) رقم ١١٣٤ و١١٣٥ وكل منهما عنوانه فهرس العلوم ٠

(٥) رقم ٤٤٧ بعنوان فهرست العلوم القديمة ٠

وحبذا لو ان الاستاذ احمدامين الذي وقف على طبع الكتاب في العام الماضي قام بهذه المهمة الشاقة فصحح لنا الكتاب وأظهره كاملاً بقدر الامكان · على ان الأمل في الحصول على نسخة تامة صحيحة في القريب العاجل كبير جداً وقد عهدت جامعة كولومبيا إلى الدكتور (ضودج) رئيس الجامعة الاميركية في بيروت بان يقوم بتصحيح الكتاب وترجمته الى اللغة الانكليزية ·

غير ان معرفتنا بالمؤلف نفسه ستظل كما كانت سابقاً ان لم يتح لاحد ان يكتشف مخطوطة جديدة تُفصل من حياة ابن النديم ما أجملته الكتب التي لدينا اليوم والتي نعتقد بانه لم يكن لها مصدر تقتبس منه سوى كتاب المؤلف نفسه · وعلى هذا فليست كتابة ياقوت في (إرشاد الاريب) ولا كتابة ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٣ ه (في لسان الميزان الملحق بميزان الاعتدال للذهبي) إلاّ مصدراً ثانوياً عن حياة المؤلف · وكذلك لا يمكننا ان نقبل من ابن النجار قوله (في ذيل تاريخ بغداد) ان ابن النديم « مات يوم الأربعاء لعشر بقين من شعبان سنة ٣٨٥ ه » وابن النديم نفسه يذكر في تراجم بعض الرجال تواريخ بعد هذه السنة اللهم الا ان ذهبنا مذهب فلوجل والاستاذ احمد امين[1] وقلنا « ان المؤلف كتب نسخته سنة ٣٧٧ ه وكان يترك فيها بياضاً يملؤه بما يجده بعد ذلك او يضع على النسخة تعليقات في أزمنة مختلفة » وقد « جرى ذلك في تراجم ابن خلكان[2] » ·

ولذا نعتبر هذه التواريخ منتحلة بكاملها كما قال (فيك[3]) فلنول وجهنا اذاً شطر كتاب المؤلف لنقف — قدر المستطاع على حقائق حياته منه ·

اسمه محمد بن اسحق النديم المعروف بابي الفرج ابن ابي يعقوب الوراق[4] كتب الجزء الاول من كتابه كما يقول مراراً فيه — سنة ٣٧٧ ه ثم أضاف اليه مقالات أخرى بين هذا التاريخ واول القرن الخامس · وأخبرنا ابن النديم في مكان آخر من كتابه في ترجمة البردعي[5] بانه « لقيه وكان به آنساً » وهذا ما يجعلنا نفترض تاريخاً لولادته يختلف بين سنة ٣٢٠ وسنة ٣٢٥ ه ويكون قد بدأ كتابة مؤلفه بعد ان اجتاز العقد الخامس من عمره وتوفي في

(١) انظر مقدمة طبعة فلوجل ومقدمة طبعة مصر · (٢) أبدى لي هذا الرأي الاستاذ السيد عمر الصالح البرغوثي سنة ١٩٣٠ · (٣) في مجلة جمعية المستشرقين الجرمان ZDMG ج٨٤ ص · (٤) انظر ص ٢٨٠ و ٣٣١ من طبعة مصر · (٥) ص ٣٣٠

أول القرن الخامس شيئاً كبيراً . نعرف ذلك من قوله في ترجمة ابن نباتة انه « ابونصر ابن نباتة التميمي من شعراء سيف الدولة وتوفي بعد الاربعمائة[١] » ومن قوله في ابن جني انه توفي سنة ٣٩٢ هـ[٢] .

اما موطنه فبغداد بلاشك لانه يذكر كثيراً عن تفاصيل حياة البغداديين فيحصي لنا عدد مانوية بغداد ايام حكم معزالدولة فيقول : « فأما مدينة السلام فكنت أعرف منهم (اي المانوية) في ايام معزالدولة نحو ثلاثمائة واما في وقتنا هذا فليس بالحضرة منهم خمسة انفس[٣] » .

وقد قال ابن النديم في حديثه عن مذاهب أهل الصين انه لقي راهباً من اهل نجران كان قد « أنفذه الجاثليق ... الى بلد الصين وأنفذ معه خمسة أناسي من النصارى وعاد من الجماعة هذا الراهب وآخر » قال : « فلقيته بدار الروم وراء البيعة » . وقد ذهب فلوجل في سنة ١٨٧١ م وأيد مذهبه المستشرق (فيك) الى ان دار الروم هي القسطنطينية وأن البيعة هي كنيسة القسطنطينية الكبرى التي شادها يوستنيانوس وحولها الترك فيما بعد الى مسجد آجياصوفيا - وعلى ذلك قالا : ان ابن النديم زار القسطنطينية . وخالفهم في هذا الرأي جمهور المستشرقين والاستاذ احمدامين . والحقيقة ان ابن النديم — على مانعرف — لم يصل القسطنطينية وليس في وسعنا ان نستنتج من هذه العبارة انه كان فيها ذات يوم . ويتضح ذلك بخمسة براهين :

اولها — ان التاريخ — على مانعرف — لم يذكر ان العرب اسموا القسطنطينية دار الروم بل كانوا يعرفونها (ببلد الروم) وهكذا فعل ابن النديم نفسه في كتابه .

ثانيها — ان مؤرخي العرب يقولون ان المدن العربية الكبرى كانت منقسمة الى محال وكل محلة من هذه كانت تعرف بدار وتنسب الى اسم معين فمن ذلك مثلاً : ان ياقوت[٤] يقول :

« دار القز محلة كبيرة ببغداد في طرف الصحراء ... وكل ماحولها قد خرب ولم يبق الا اربع محال متصلة » ثم يقول : « دار الفرج محلة كانت ببغداد » وان صاحب

(١) ص ٢٤٠ . (٢) ص ١٢٨ . (٣) ص ٢٧٣ .

(٤) معجم البلدان ج ٢ ص ٥٣٢ ليبسك سنة ١٨٦٧ .

التكملة[1] قال : « لما ورد سيف الدولة الى بغداد فاجتاز بشارع دار الرقيق على دور بني خاقان » .

ثالثها — ان ابن النديم نفسه ذكر في ترجمة ابن كلاب[2] مانصه : « قال ابو العباس البغوي دخلنا على فيثون النصراني وكان في دار الروم بالجانب الغربي فقال رحم الله عبد الله (يعني ابن كلاب) كان يجيء فيجلس الى تلك الزاوية وأشار الى ناحية من البيعة » . وعلى هذا فكانت دار الروم محلة ببغداد والبيعة هي بيعة النصارى في دار السلام لا كنيسة آجيا صوفيا .

رابعها — انه لو كانت دار الروم القسطنطينية لكان الذي أنفذ الراهب والأناسي معه البطريرك وهو أعلى سلطة دينية في البلاد لا الجاثليق الذي هو دون البطريرك لان كرسي البطريرك في القسطنطينية وكرسي الجاثليق في بغداد الذي هو زعيم النصارى في بلاد الاسلام .

قال البيروني في كتابه[3] : « قاثوليقا وهو الجاثليق ومقام جاثليق الملكائية من بلاد الاسلام بمدينة السلام وهو من تحت يد بطريرك أنطاكية فأما جاثليق النسطورية فيكون من عند امير المؤمنين على رضى من جمهورهم » . اما القلقشندي[4] فقال ان درجات النصارى الدينية ثمانية سادسها الجاثليق (بالثاء والتاء) « وهو عندهم صاحب الصلاة » وذكر هيستنكز ان هذا اللقب « لم يكن معروفاً عند غير الأرمن واليعاقبة والنساطرة » واول جاثليق للنساطرة في بغداد كان تيموسيوس وكان صديقاً للمهدي وهارون الرشيد . وقد نشرت مجلة جمعية المستشرقين الجرمانيــة نسخة عهد صادر من امير المؤمنين الى جاثليق النساطرة ببغداد في القرن الثالث عشر للميلاد جاء فيها : « ولما انتهت حالك الى امير المؤمنين وأنك أمثل اهل ملتك طريقةً وأقربهم الى الصلاح مذهباً وخليقةً . . . اتفقوا باجتماع من آرائهم والتئام من قلوبهم وأهوائهم على اختيارك لرياسة دينهم . . . فأوعز باسعافهم فيما سألوه بالايجاب . . . وبرز الاذن الامامي الأشرف — لازالت أوامره بالتوفيق معضودة —

(١) تجارب الامم لابن مسكويه ج٦ ص٢٣٩ ، مصر . (٢) ص ٢٢٥ .

(٣) الآثار الباقية عن القرون الخالية طبعة ساخاو سنة ١٩٢٣ ص ٢٨٩ .

(٤) صبح الاعشى ، القلقشندي ج٥ ص٤٧٤ المطبعة الاميرية بالقاهرة سنة ١٩١٥ .

بترتيبك جاثليقاً لنسطور النصارى بمدينة السلام ومن تضمه ديار الاسلام وزعيماً لهم ولمن عداهم من الروم واليعاقبة والملكية في جميع البلاد وكل حاضر من هذه الطوائف وباد » .

خامسها — انه لم يهتم بالارساليات التبشيرية من المسيحيين في ايام ابن النديم وقبله بثلاثة قرون نفر بتاً غير النساطرة الذين يرأسهم الجاثليق وقد قص علينا الرحالة ماركو پولو بانه وجد في سوقطرة[1] مسيحيين خاضعين لا للبابا بل لمن دعاه خطأ « بطريرك بغداد » بدلاً من جاثليق بغداد . ولسنا نعرف تاريخ اول ارسالية نسطورية قصدت الصين للتبشير ولكننا نعلم يقيناً انه في القرن الثامن للميلاد بعث (سلابسكا[2]) الاول النسطوري بمطران الى الصين[3] .

وهل بعد كل هذا يمكننا ان نقول — اعتماداً على عبارة ابن النديم — ان مؤلفنا هبط القسطنطينية — اللهم لا !

وأعود الآن الى ما كنا بصدده من البحث في حياة ابن النديم : فنلتمس صيرة ابيه ، فنجده — كما يتضح من المقالات الثلاث الاخيرة — ورّاقاً . ولسنا ندري أكان النديم لقبه او لقب ابيه او احد اجداده الاقدمين . وهو في كتابه ذكر تراجم طائفة من الندماء فبدأ باسحق بن ابراهيم الموصلي وانتهى بالآمدي ، لكنه لم يودع كتابته شيئاً يصح ان نستنتج منه انه كانت تربطه صلة قرابة باحد هؤلاء الندماء ، ولذلك فاني أرجح ان (النديم) كان لقباً له ، ويزيد ثقتي بهذا الترجيح ان ابن النديم عاصر عضد الدولة بن بويه وهو الذي « احيا العلوم وكانت مواتا وجمع اهلها وكانوا اشتاتا[4] » بل انه كان فوق ذلك « فاضلاً محباً للفضلاء مشاركاً في عدة فنون[5] » ولا يستبعد ابداً ان يكون مؤلفنا احد ندماء هذا

---

(١) جزيرة تناوح عدن من الجنوب (ياقوت : معجم البلدان) .

(٢) Slibàzka و معناه « المصلوب النضر (كذا) » .

(٣) Assemani - Bibl. Orient, p.p. 414 - 434

(٤) تجارب الامم لابن مسكويه ، ج ٦ ص٨ : ٤٠٨ .

(٥) ابن خلكان ، ج ١ ص ٤١٦ بولاق .

السلطان العظيم او من رجال خاصته[١] .

ومهما يكن من امر فالذي نعتقده ان ابن النديم كان من أفاضل رواة العلم ويصح ان يقال انه كان كاتبه — ورّاقاً — اذ يتعذر على غير ورّاقي ذاك الزمن ان تحيط دائرة معارفهم بكل ماأورده مؤلفنا في فهرسته من ذكر مؤلفين ومؤلفات . فهو ترجم مشاهير الشعراء وخاملي الذكر ، واهتم باخبار الندماء والجلساء والمغنين والمضحكين وذكر اسماء كتبهم بالتفصيل ووصف أحوال المعزّمين والمشعبذين والسحرة واصحاب الحيل والحركات وذكر كثيراً من الخرافات واهتم بعلوم الدين وأخبار الملوك والكتاب والمترسلين وشرح تعاليم مختلف الملل والنحل . أضف الى هذا انه عدد من الكتب والاسفار وذكر اوراقها وصفحاتها واسطرها مما لم يتسن لغيره ممن سبقه اوعاصره ان يعدد ذلك .

ثم ضمّن كتابه تراجم ورّاقين كثيرين منهم فيلسوف اليعقوبية يحيى بن عدي قال : « قال لي يوماً وقد عاتبته على كثرة نسخه من اي شيء تعجب في هذا الوقت ؟ من صبري . وقد نسخت بخطي نسختين من التفسير للطبري وحملتهما الى ملوك الاطراف وقد كتبت من كتب المتكلمين ما لا يحصى ولعهدي بنفسي وانا أكتب في اليوم والليلة مائة ورقة واقل » . ومن هذا يستدل على انه كان يخالط طبقة من الناس لا يختلط بها الا ورّاقو ذلك العصر .

وانك لتلمس خبرته بمهنة الوراقة حين يتحدث اليك عن نعوت اقلام الامم وأنواع خطوطها وأشكال كتاباتها . وحين يعدد لك اسماء مذهّبي المصاحف ومجلديها ، ومثل هذه الملاحظات الدقيقة التي لا يسترعيها انتباه من لم يمارس الوراقة . والظاهر من مطابقة أشكال الخطوط التي اوردها في مؤلفه للخطوط التي رسمها ابن وحشية في كتابه[٢] ان ابن النديم استقى شيئاً كثيراً من هذا المؤلف الثمين مما يتعلق بالخط واشكاله . وحسبك ان

(١) وذكر ابن مسكويه ايضاً ، ج٦ ص٤٠٨ مانصه : « وأفرد (عضدالدولة) لاهل خصوصه من الحكماء والفلاسفة موضعاً يقرب من مجلسه وهوالحجرة التي يختص بها الحجاب فكانوا يجتمعون فيها للمفاوضة آمنين من السفهاء ورعاع العامة وأقيمت لهم رسوم تصل اليهم وكرامات تصل بهم » .

(٢) شوق المستهام في معرفة رموز الاقلام تحقيق هامر سنة ١٨٠٦ .

تقابل ماجاء في صحائف ٩٢—١٣٤ من (رموز) ابن وحشية مع المقالة التاسعة لابن النديم لتحقق ذلك . ولم يخف ابن النديم مانقله وانما قال حين روى بعضه : « قرأت في بعض الكتب القديمة » وقال في الآخر : « قرأت في بعض التواريخ القديمة » .

والذي امتاز به مؤلفنا عن غيره تسامحه المذهبي ، فهو مع كونه شيعياً انصف اهل السنة وغيرهم من الفرق الاسلامية فذكر ماذكر عنهم باسناده الى قائليه حتى انه حين ترجم حياة ابي عمر الزاهد قال : « وسمعت جماعة من العلماء يضعفون حكايته وانتسبوا به الى التزيد وكان نهاية في النصب والميل على علي عليه السلام ... وتوفي سنة خمس واربعين وثلاثمائة وسنه ثمانون سنة ، لقاه الله عمله » . وهذا منتهى التعفف في الدعاء على الخصم ومنتهى التسامح المذهبي الذي لا تجده الا عند جهابذة المفكرين وفطاحل العلماء الافذاذ .

اما نظره في المذاهب غير الاسلامية التي يذكرها في المقالة التاسعة من الكتاب ، فقد جهر برأيه في هذا الباب الى حد قل من جاراه فيه من المؤلفين القدماء . والفن الاول من هذه المقالة « يحتوي على وصف مذاهب الحرانية الكلدانيين المعروفين بالصابئة » (وهم الذين انتحلوا اسم الصابئة تقية كي ينجوا به ويسلموا من القتل بعد ان انكر المأمون عليهم لبس الاقبية وأحل دماءهم يوم رحل يريد بلد الروم فأفتاهم فقيه ان يقولوا نحن الصابئة الذين ورد ذكرهم في الكتاب) .

وقد ترجم ابن النديم حياة ابن وحشية الكلداني قال : « وكان يدعي انه ساحر يعمل أعمال الطلسمات ويعمل الصنعة » ثم قال : « وقرأت نسخة هذه الاقلام بعينها في جملة أجزاء ... وربما وقعت هذه الخطوط في كتب العلوم التي ذكرتها من الصنعة والسحر والعزائم باللغة التي احدث اهلها العلم فلا تفهم — اللهم الا ان يكون الانسان عارفاً بتلك اللغة وهذا معوز وربما كانت هذه الكتابات تراجم تؤدي الى اللغة العربية فينبغي ان يتأمل ويجعل هذه الاقلام مثالاً لها ويرجع اليها ان شاء الله تعالى » . فانظر كيف انه احترم علم ابن وحشية واخذ عنه مع انه قال كان يدعى ساحر يعمل اعمال الطلسمات ويعمل اعمال الصنعة »

وذكر ابن النديم شيئاً كثيراً من مذهب المانوية ولم يُشر الى المصادر التي اخذ عنها والظاهر انه بنى اقواله في هذه المرة على ما كان يقوله له اتباع هذا المذهب في ايام معز الدولة (سنة ٣٣٦ — سنة ٣٥٦ﻫ) وقد ترجم حياة رئيسهم ابي علي رجاء يزدانبخت

قال : « قال له المأمون أسلم يا يزدانبخت فلولا ما اعطيناك اياه من الأمان لكان لنا ولك شأن - فقال يزدانبخت : نصيحتك يا امير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم - فقال المأمون : اجل - وكان أنزله بناحية المخرم ووكل به حفظة خوفاً عليه من الغوغاء » - ولم يعلق ابن النديم على هذه الحادثة شيئاً بل استحسن صنعها من المأمون على ما يظهر وعندما كان يذكر الملوك والرؤساء الذين كانوا يرمون بالزندقة كان لا يضيف اليهم كلمة تقريع اولوم - أليس هذا من تسامح ديني وسعة عقل ؟

اما أبحاث ابن النديم في الاديان القديمة فلا تزال حتى يومنا هذا مصدراً يقتبس منه علماء المشرقيات من مؤرخين وفلاسفة وهم يثقون باقوال المؤلف ثقة تامة جعلت لكتابه بينهم مكاناً عليا -

وقبل ان أختم كلمتي هذه في ابن النديم وكتابه أذكر شيئاً عن الأسلوب الذي نهجه في جمع تأليفه فقد قال في كتابه : « اذا ذكرت من المصنفين المشهورين انساناً أتبعته بذكر من يقاربه ويشبهه وان تأخرت مدته عن مدة من أذكره بعده وهذه سبيلي في جمع الكتاب والله يعين بمنه وفضله » -

وقال في موضع آخر حين تحدث عن الامام الناصر للحق الحسن بن علي : « هذا ما رأيناه من كتبه وزعم بعض الزيدية ان له نحواً من مائة كتاب ولم نرها - فان رأى ناظر في كتابنا شيئاً منها ألحقها بموضعها ان شاء الله تعالى » - وكذلك تراه في كل بحث طرقه يسند الروايات الى أصحابها وما رآه من التصانيف يقول رأيته وما سمع به يقول : « يقال كيت وكيت » ومن هذا نستنتج اموراً اربعة »

اولها — ان ابن النديم كان يجمع تراجم الذين يرغب في ذكرهم ويرتبها حسب الفنون لا حسب العصور -

ثانيها — ان غاية ابن النديم من تأليفه كانت خدمة العلم لانه سمح لغيره ان يضيف الى كتابه معلومات جديدة متى عثر عليها رغبة منه في إتمام الفائدة - واين من هذا قول الجاحظ [1] : « خطر ببالنا كثرة العيابين من الجهال برب العالمين فلم نأمن ان يسرعوا بسفيه رأيهم

(١) مع العلم بان ابن النديم كان يروي واما الجاحظ فكان يرى آراء حاسمة نخشى ان يدس عليه ما ليس له -

وخفة احلامهم الى نقض كتابنا وتبديله وتحريفه عن مواضعه ... وأحببنا ان نأخذ في ذلك بالحزم وان نحتاط منه لانفسنا ... ونبادر الى تفريق نسخة منها (من رسالة الشيعة) وتصييرها في ايدي الثقات والمستبصرين ... فان شيب به شوب يخالفه اواضيف اليه مالا يلائمه رجعنا الى النسخة المصونة . . واستعلينا بها على المبطلين[1] » . بل واين منه ماروراه ابن النديم نفسه في كتابه قال :

قال ابو عمر محمد بن عبد الواحد (الزاهد) هذه العرضة هي التي تفرد بها ابو اسحق الطبري آخر عرضة اسمعها بعده فمن روى عني في هذه النسخة هذه العرضة وحرفاً واحداً ليس من قولي فهو كذاب علي وهي من الساعة الى الساعة من قراءة ابي اسحق على سائر الناس وانا أسمعها حرفاً حرفاً » . فأنت ترى الفرق البين بين نزعة ابن النديم العلمية ونزعة الآخرين المتشبعة بروح الأنانية .

ثالثها = ان ابن النديم نحا في جميع كتابه منحى العلماء المحققين فأعطى كل ذي حق حقه وأرجع الامور الى مصادرها ولم يبخس الناس اشياءهم بل تعمد الصدق فيما قال وروى .

رابعها — « انه لم يبرز في فن من الفنون اوعلم من العلوم سوى ترجمة الرجال باختصار واضافة مؤلفاتهم اليهم مع ملخص محتوياتها ، وهذا عمل مفيد جداً ، ولكني لا ادري لم أهمل ترجمته المؤلفون والمؤرخون ؟ ألضعة نسبه ؟ اولضيق يده ؟ او لاحتباس شهرته في عصره او لسوء حظه ؟ او ان ترجمته دونت فلم تصل الينا ؟ وهذا هو الأرجح .

وبعد فكتاب الفهرست ذخر للعربي وأثر يشهد بما انتجته عقولهم ، واعتقد انه يجب على كل من يُعنى بالعرب واخبارهم وعلومهم وفلسفتهم ان يرجع اليه فيأخذ منه بعض حاجته من علم وفن ادب .

بيت المقدس : محمد يونس الحسيني



(١) ص١٨٩ مجموعة رسائل الجاحظ — مطبعة التقدم — مصر .

(تابع لوصف الارض) = الجرَع والجرَعة والجرْعة والأجْرَع ، الارض ذات الحزونة تشاكل الرمل وكذلك الجرْعاء · والأرْسان من الارض ، الحزنة · والركاء ، الارض الغليظة المرتفعة · والجمَد ، مكان الحزن · والحزباءة ، الارض الغليظة الشديدة الحزنة — ومكان غليظ مرتفع · والصُوَّة ، ماغلظ وارتفع من الارض ولم يبلغ ان يكون جبلاً · والحَزيز ما غلظ وصلب من الارض مع اشراف قليل ج حُزّان قال كعب ابن زهير :

ترمي الغيوب بعيني مفرَد لهَق اذا توقدت الحُزّان والميل

والكندرة ، ماغلظ من الارض وارتفع · والحَدْو ، موضع غليظ مرتفع عن السيل ج حقاء · والواعر والوَعْر المكان الحزن ومثله الوعير والأوْعر · والجُوَّة ، قطعة من الارض فيها غلظ · والدُرْس من جلد الارض ، الغليظ منها · والحَزْم ، ما غلظ من الارض وكثرت حجارته وكانت أغلظ وأخشن من حجارة الاكمة غير ان ظهره عريض طويل · والحَوْمانة ، المكان الغليظ المنقاد ج حَوْمان وحوامين · والزَيْزي والزَيزاء والزازِيَة ، ماغلظ من الارض ومثله الحُرْشُف والحَرْشفة · والخشباء الارض الغليظة الشديدة بها حجارة وحصى وطين · والخرشاف والخرْشَفة ، الارض الغليظة من الكذان لايستطاع ان يمشى فيها وانما هي كالاضراس · والخِرْشمّة الارض الغليظة الصلبة · والدَكْدَك والدَكْداك ارض فيها غلظ سُئل جرير بن عبدالله عن منزله فقال : « سهل ودكداك وسَلَم وأراك » والقَرْز ، الغليظ من الارض · والشأز والشَئِز المكان الشديد الغليظ · والصِبارة ، الارض الغليظة المشرفة لاتنبت شيئاً · والقَدم

والقدَمة ، ماغلظ من الحرة . والضارب ، القطعة من الارض الغليظة تستطيل في السهل . والخطائط ، طرائق تفارق الشقائق في غلظها ولينها . والأُبْس ، المكان الغليظ الخشن . والجِنْدِرية ، القطعة الغليظة من الارض . والصلداء والصيلداءة ، الارض الغليظة الصلبة . والصَلفاء والصَلِفاءة ، الغليظة الشديدة . والصَدَقة ، ماغلظ من الحرة . والنشز لمكان الغليظ الشديد . والكلَنْدى القطعة الغليظة من الارض من غير حصى . والقَضْقَضَة قطعة من الارض تغلظ وتحدودب وتطول قليلاً . والكُدْية الغليظة الصلبة ج كُدَى . السنبك الغليظة القليلة الخير . والجَدَد الغليظة الصلبة – والمستوية . والقرو التي لاتكاد تقطع . والأحزم الغليظ من الارض . والضمرزة الحرة الغليظة التي لا تُسلك بالليل . والضمز المكان الغليظ . والإنذار غلظ من الارض يعترض في فضاء واسع . والارض الظلْفة والظَلِفة الغليظة التي لا تؤدي اثراً وقد ظَلِفت الارض اي كانت ظَلِفة . والعَكَوَّك المكان الغليظ الصلب . ومثله الفدفد . والحزين الحزن .

(الغليظة) والعَكْباء الجافية الخلق . والعبلة الغليظة . والضمزر المرأة الغليظة ومثله الضمرزة . والشَثْلة والشثلة من الاقدام . والشَنَة القلفة والحمأة الكاثمة والكشمة والاثان الكُدُرة والنجة الكدمة . وقالوا عصاة وشبار غليظة كالخشبة . وامرأة مُتكَمْكمة غليظة كثيرة اللحم . ودُحيلة ضخمة غليظة . وجبلة غليظة عظيمة الخلق . والصلاية شريحة خشنة غليظة من القف . والجُلذية من الفراسن ، الغليظة الوكيعة . والعركة والعركانية الغليظة .

(القصير ايضاً) والكُنادر الغليظ القصير مع شدة ويوصف به الغليظ من حمر الوحش كقوله : كأن تحتي كُنْدراً كنادراً . والثُعْرور الرجل الغليظ القصير ومثله حمار جأمد وحُفاسي . والجَيْذر القصير الغليظ من الرجال الشثن الأطراف وهي بهاء ومثله الجذر .

(الزنجي اوالاحمر) والعَنْبُلي الزنجي الغليظ . والفراص الغليظ الاحمر .

(الضخم) والعَثْل الغليظ الضخم ومثله الكَنهدل والمعْد والعَزيز والجَعبس والجُخادب والجخادبي والجخادباء (من الرجال والحمر) والضمَدة يقال عبد ضمدة . والدُبُخس والجرْدحل (من البشر) .

(الكثير اللحم) والهُدْبُ الغليظ الكثير العضل · ورجل معتَّر غليظ كثير اللحم · ومثله البلخص · والتُلاتِل النارّ الغليظ ·

(شتى) والغضنر والغضنفر الجافي الغليظ · ومثله الخضيجم والحُضاجم والفحل الفُجارز والاعرابي الجليف والجلف واصله من اجلاف الشاة وهي المسلوخة بلا رأس و لا قوائم ولا بطن اي ان جوفه هواء لاعقل فيه · والدُحامل الغليظ المكتنز · والدُخّل الغليظ الجسم لتداخله · والهَوْرش المائق الجافي · والعُجْرُم والعُجارم الشديد الغليظ المعقد · والقنوُر الفظ الغليظ · والكَنَهْدر الغليظ من حمر الوحش والبُهْصُل الغليظ الجسم · والجرَنْبذ الغليظ الثقيل · والحَرْكك الغليظ القوي · والدُماحل الدحامل · والحَزْوَر المكان الغليظ · وقدح مُكْدَم زجاجه غليظ · ورُبّ عقيد غليظ شديد وقدح خاظٍ حادر صلب · واسد شرنبث غليظ ومثله حمار كُدُرٌ ورجل جَرْعب · وسقاء جارن قد يبس وغلظ من العمل · وحبْس جَمْد غليظ غير سبط · والجلَوْذ الغليظ الشديد ومثله الكَنْدد · والوَلْدم اللبد الجافي الغليظ ·

وقالوا هو مستعلج الخلق اي غليظ جاف · وطعنه في مستغلظ ذراعه اي حيث غلظت ذراعه · وهؤلاء قوم غلاظ الرقاب اي اجلاف عتاة · والحادر الغليظ من الرماح والعُسْقُد التار الجافي الخلق · والقفرنُ الجلف الجافي · والأنبخ الجافي الغليظ · والعيبوس ، الرجل الاهوج الجافي · والعَشْوَز والعَشَوَّز الشديد الخلق الغليظ · والفرافص السبع الغليظ · والفُرْنيُّ الرجل الغليظ · والخَضمُ ما كان غليظاً كالخلوق والغالية · وخبز فَدْم غليظ ومثله رجل قُصْقُص وقُصْقُصَة · ويقولون هذا سقاء لايستوكي ولايستكتب اذا كان فمه غليظ الاديم · والاوشاز من الامور الغلاظ منها ·

(النبك) : سالم خليل رزق

آراء وافكار

—()—

مطالعات ومراجعات

— في اللغة والأدب والتشريع والتاريخ —

قرأت في ص ٣٨ من مجلد هذه السنة من مجلة المجمع « وكانوا يقولون في الفرس السابق يلحق الغزال ، يسبق الظلام ... » أذكر انني كنت قرأت مثل هذه العبارة في رسالة الانتقاد لابن شرف القيرواني التي نشرت في جملة رسائل البلغاء وانه ورد فيها «الظليم» مكان «الظلام» وهو الصواب لان الظليم هو المعروف والموصوف عند العرب بسرعة الجري ولا مفهوم لسبق الفرس الظلام (١) . جاء في حديث احدى الجواري الخمس اللائي نعتن خيل آبائهن ورواه القالي في اماليه قول احداهن : « ان أقبل فظبي معاج وان أدبر فظليم هداج ، وان أحضر فعلج هراج ... » قال أستاذنا الامام الألوسي عليه رحمة الله في بلوغ الأرب معلقاً عليه : « معناه انه سريع الجري في كل حال من الأحوال الثلاثة ، فهو كالظبي المسرع اذا أقبل ، وكالظليم اذا أدبر ، وكحمار الوحش اذا أحضر ... والظليم ولد النعام وهو يوصف بسرعة المشي الخ » . وأحسب ان في تفسيره الظليم بولد النعام تحريفاً صوابه ذكر النعام ، والنعام مشهور بالخفة وشدة الحذر وسرعة الجري عند العرب . ومن مأثور اقوالهم « ركب جناحي نعامة » يضربونه مثلاً لمن جد في امر كانهزام اوغيره . قال يزيد بن قنافة من شعراء حماسة ابي تمام :

لعمري وما عمري علي بهين . لبئس الفتى المدعو بالليل حاتمُ
غداة اتى كالثور أحرج فاتقى بجبهته أقتاله وهو قائمُ
كأن بصحراء المُرَيِّط نعامةً تبادرها جنح الظلام نعائمُ

---

(١) «المجمع» وللظلام وجه وجيه بدليل قول النابغة :

فانك كالليل الذي هو مدركي وان خلت ان المنتأى عنك واسع

أعارتك رجليها ومافيَّ لبها وقد جُرِّدت بيض المتون صوارمُ

وقال احدهم يرثي عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

جزى الله خيراً من امام وباركت يد الله في ذاك الأديم الممزّق

فمن يسعَ او يركب جناحي نعامةٍ ليدرك ما قدمت بالامس يسبق

وفي ص ٤١ رأيت الكاتب وهو في سبيل البحث عن حياة الألفاظ ، يتسامح في استعمال مالاحاجة بنا اليه من اللفظ الدخيل . فقد وجد في (الاكاديمية) لذة فرددها ثلاث مرات في بضعة اسطر متقاربات ، وفي (المجمع) الذي ساغته الالسنة وسالت به الأقلام ودرج عليه الاصطلاح غنى عن (الاكاديمية) فلتمُت الاكاديمية وليحي المجمع . وارجو ان لا يأسف الكاتب العربي على ذلك أسف الكاتب الفرنسي صاحب مقالة الطان على كلمة (Midinettes) التي اطرحتها (الاكاديمية الفرنسية) فذه انما أسف لانها استغنت عما لاغنى للغة الفرنسية عنه ؛ وليس شأننا ازاء (الاكاديمية) كذلك .

واستعمل كلمة (الاوبرا) الدخيلة التي زعم من زعم انها عربية الاصل منقولة عن ابي العبر ، ماجن خليع ؛ نقلها الايطاليون عن العرب ايام احتكاك العنصرين بعضهما ببعض فحرفوها الى اوبرا ، واننا جهلنا ذلك فحسبناها دخيلة وهي اصيلة .

لا أريد ان أناقش هذا النوع من الضرب بالرمل او الطرق بالحصى وانما أريد ان أعذر مستعملها على كونها دخيلة في رأيي ورأي الاكثرية المطلقة من الباحثين حتى نقيم مقامها كلمة مفردة من العربي الاصيل تؤدي المعنى الفرنجي احسن اداء فان البقاء على الاوبرا افضل من قبول العبرة التي يزعم اصالتها الوهم ولا يؤيده النص ولا المعنى الغنيّ الدقيق لهذه اللفظة في لغة القوم ، فما رأي الاكياس الألباء ؟

وفي ص ٥٣ ورد (حسن البزار) بالزاي والراء وانما هو البزّاز نسبةً الى البز ، وقد نظمه الكاتب في حلقة كاظم الأزري والأخرس والعشاري والحبوبي من فحول شعراء العراق في القرن الماضي وليس بذلك . ونظم معهم ايضاً اسم السيد حسن الداوودي ولست أعرفه بل لم أسمع باسمه الا من طريقه فهل له ان يتفضل علينا بترجمته ؟

ووصف احد اعضاء المجمع نادرة دواوين اللغة «المقاييس» ٦٥ — ٧١ ، وقد وصفه قبله كاتب نجفي متنكر في المجلد الثاني من مجلة لغة العرب لسنة ١٣٣٠ هـ ولكنه لم يذكر

اسم مالك النسخة ». وأرجح انها نسخة آل كاشف الغطاء التي أشير اليهـا ولعل واضعها مالكها . وقد قال في جملة كلامه (طولها ٣٦ سنتيمتراً وعرضها ١٩ وطول المكتوب منه ٢٥ وعرضه ١٤ وفي كل صفحة ٢١ سطراً . وعدد اوراقها ٤٩٧ . وقد خرقتها الأرضة ولكن لم تؤثر في نفس الكتابة كثيراً والظاهر ان في حبرها شيئاً لا تستطيع الارضة أكله وهي كثيرة الغلط لا ينتفع بها الا من مارس هـذا الفن وأخذ باطرافه . وكأنها لم يذكر تاريخ الفراغ من نسخها الا ان المتدبر العارف بتاريخ الخط العربي يحكم بانهـا كتبت بعد الالف وهي بخط واحد . . .) ومهما يكن من امر هذه النسخة فان مقابلة نسخة المجمع العلمي العربي بها اذا تيسرت لا تخلو من فائدة . . .

وفي ص ٧٤ (الخلفاء اللامعين) ولعل الكاتب الفرنسي أراد — بحسب الظاهر — (الخلفاء الأمويين) فحرفتهـا الترجمة ، والا فما هو معنى الخلفـاء اللامعين . فهل اراد الخلفاء الراشدين فوصفهم باللمعان لحسن سيرتهم ؟ وعلى كل فان في التعبير غموضاً يحتاج الى ايضاح .

وفي ص ٨١ (ورّاقوا بغداد) وزيادة الالف بعد واو الجماعة في الاسم المضاف خطأ .

وفي ١٣٠ (الشيخ محمد محمود الذكري) والصواب التركزي .

وفي ١٣٨ و ١٤٠ استعمال فعل وفق متعدياً بالى تارة وباللام أخرى ، وميل الكتاب اليوم الى الاول أكثر بل قلّ من رأيته يعديه باللام ، والذي اعلمه ان الثاني هو الصحيح وان قيل ان حروف الجرّ يقوم بعضها مقام بعض . اني لأطأطئ الرأس لعلم الفقيد الاكبر صديقنـا احمد تيمور باشا ولكنني مستفهم مستفيد . وقد رأيته كذلك يستعمل فعل راق متعدياً باللام (ص ١٤٣ و ١٤٤) وهو انما يتعدى بنفسه ، اما تأولـــ اقحام اللام فتمحل لا يعدو ان يكون من الخرفشة التي نمت بها ابن خلدون النحاة ، وقد اغنانا العلامة الامير شكيب أرسلان فيما كتبه في ابطال زيادة هذه اللام هنا عن تفصيل القول فليرجع اليه من شاء في مجلة المجمع العلمي م ٩ ص ٦٨ .

وقرظ احد الاعضاء كتاب المخارج في الحيل المنسوب للامام محمد والذي نشره المستشرق الالماني يوسف شخت (Joseph Schacht) (ص ١٨٠ — ١٨٣) فكان جدّ موفق في نظرته الى الحيل التي تضاف الى الشرع الاسلامي وهو منها براء ولن يزال

المجمع العلمي بخير وهو يكل الامور الى اربابها . وأحب ان ألفت الناشر وغيره من الذين لم يكتب لهم الوقوف التام على الثقة الثّبت من مراجع الاسلام الى مناقشات الامام ابن القيم لأصحاب الحيل في كتابه اعلام الموقعين فانها أوسع ما كتبه علماء الاسلام في إبطال الحيل تمتاز باسلوبها العلمي الدقيق وايراد الحيل واحدة واحدة ونقضها بالدليل النقلي والبرهان العقلي في أناة وهدوء وانسجام . وفي رأيي ان هذه الحيل من وضع الشعوبية الذين هاموا لهدم الاسلام في كل واد ونفذوا اليه من كل سبيل ، ولا اكثر شراً على الاسلام من فتح هذه الثغرة التي فتحوها ووقع فيها من وقع من بسطاء المتفقهة . ألفت نظر الناشر وغيره الى كتاب الامام ابن القيم وأريد العلامة المغربي على ان يوافقني على ان تسميته الامام محمد كتابه - اذا صحت نسبته اليه — (كتاب المخارج في الحيل) ليست من الاحسان في شيء لان علينا أن نلاحظ المسمى قبل اسمه وننزه الحق من الباطل ولو مسّه الباطل اسماً او وهماً وخيالاً ، اما قوله « لو سماه كتاب المخارج في المخارج اي في المضايق والمآزق لكان اكثر احساناً لعمري » فاني لخجل جداً ان اقول في التعليق عليه : ان اصحاب الحيل لما رأوا نفرة الناس من اسم الحيل سموه (وجوه المخارج من المضايق) — انظر اعلام الموقعين م ٣ ص ١٥٧ ط أ — .

وفي ص ٢٠٣ (وهو كناني : قيل صليبه ، وقيل مولى) هكذا ورد صليبه بالباء الموحدة فالياء المثناة ، ومثله في ترجمة الجاحظ التي نشرها المستشرق ف . كرنكو في مجلة المجمع العلمي العربي م٩ ص٢٠٣ — ٢١٧ نقلاً عن تاريخ ابن عساكر من نسخة المتحف البريطاني . وهو تحريف عن صلبية بتقديم المثناة على الموحدة كما ترد كثيراً في كتب الانساب والتراجم وصفاً للرجل الذي كان عربياً نسباً لا ولاء ولا حلفاً ، وان شئت راجعتها في الاغاني في نسب الحزين ووالبة بن الحباب ومحمد بن وهيب ومحمد بن ذؤيب وغيرهم . ومن الغريب ان هذه الكلمة على شيوعها في كتب الانساب والتراجم لم تأت في كتب اللغة وصفاً للمذكر بحرف التأنيث ، وانما قالوا : رجل صليب وامرأة صلبية ، ففي اساس البلاغة « ومن المجاز عربي صليب : خالص النسب ، قال أمية : (وبمرفنا ذورأيها وصليبها) وامرأة صلبية كريمة المنصب عريقة » اه .

وجاء في الكلام على الجاحظ ص٢٠٤ (وكان يقال له ايضاً الحلّقي) والصواب الحدقي

كما في وفيات الأعيان م ١ ص٣٨٨ ومعجم الادباء م ٦ ص ٦٢ . ولعل الجاحظ هو الذي أطلق على نفسه هذا اللقب استدراكاً على غلط غلام عجمي حرفت رطانته الجاحظ الى الجاحد فقال له قل الحدقي فقال الحلقي في قصة ذكرها ياقوت الحموي البغدادي في معجم الادباء وهي : ان الجاحظ صار الى منزل بعض إخوانه ، فاستأذن عليه ، فخرج اليه غلام عجمي فقال : من انت ؟ قال : الجاحظ . فدخل الى صاحب الدار فقال : الجاحد على الباب ، وسمعها الجاحظ فقال صاحب الدار للغلام : أخرج فانظر من الرجل ؟ فخرج يستخبر عن اسمه ، فقال : انا الحدقي ، فدخل الغلام فقال : الحلقي ! وسمعها الجاحظ فصاح به في الباب : رُدَّنا الى الاول ! يريد ان قوله الجاحد مكان الجاحظ اسهل عليه من الحلقي مكان الحدقي ، فعرفه الرجل فأوصله واعتذر اليه .

وفي ص ٢٠٦ (كتاب الزرع والنحل) وكذلك ورد في معجم الادباء ، ولعل الاصل «النخل» مكان «النحل» .

وفي ص ٢٠٧ الحزوة ، وصوابه الحزْء اذا سكن الزاي ، والحزؤ بوضع الهمزة فوق الواو اذا ضم الزاي .

وفي ص٢٠٨ (... فقال الجاحظ : سألتني عن الجملة ...) وذلك في جواب رجل دخل عليه فقال له : يا اباعثمان كيف حالك ؟ وقد نبه الكاتب الى ان الاصل الذي اخذه منه «الجلة» وفي نسخة أخرى «المجلة» مكان «الجملة» . ورأيت مجلة المجمع العلمي م ٩ ص٧ ٢ تقول في التعليق عليه (ولعل صوابه : عن الحالة) فاجتمع عندنا اربع روايات وآراء في الكلمة : الجملة ، والجلة ، والمجلة ، والحالة . واني أوافق الكاتب على تصحيحه لأن سياق الكلام يؤيده وذلك قوله بعدُ (فاسمعها مني واحداً واحداً ...) فالسائل يسأل الجاحظ عن حاله جملةً والجاحظ يريد ان يسمعه اياها واحداً واحداً تفصيلاً ، فهل يصح في هذا الموضع غير كلمة الجملة ؟

وفي ص ٢٠٥ كتابة الرئاسة بالهمز تارةً وبالياء أخرى ، فأيهما الصحيح اوالاصح ؟ اما الكتّاب — اليوم — فيميلون في الاكثر الى الثاني ، واني أصححه بالهمز لانه الاصل في الكلمة فلاوجه لهذا القلب .

وجاء في ص٢٠٩ (... ولكنَّ الايام لاتصلح منك لفساد طويتك ...) وعلق

عليها في الهامش ما يأتي : (في الاصل : لا تصلح منك الاّ لفساد طويتك ... فأظن ان «الاّ» زائدة فلا محل لها) . قلت : الذي أراه ولا أكاد أتردد فيه ان « الا » هنا ليست باداة استثناء فتكون زائدة وانما هي «إلاّ» بكسر الهمزة وتشديد اللام في موضع النصب على المفعولية : ومعناها العهد والحلف ؛ ويؤيد هذا قول احمد بن ابي دواد للجاحظ ناجيًا بهاليه متيمّاً : « والله ماعلمتك الا متناسيًا للنعمة ، كفوراً للصنيعة الخ ».

وفي ص ٢١٠ س ٢و٣ (فوالله لئن يكون لك الامر ... ولئن أسيء) والصواب في الجملتين لأن . وفيها في س ٤ أما قلبك والصواب أمام قلبك ، وهو من غلط الطبع .

وفي ص ٢١٧ يذهب الكاتب الى ان الجاحظ الف كتابه الحيوان وهو مبتلى بالفالج مستنداً الى كلام الجاحظ في اول كتابه هذا « وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الارادة فيه ، اول ذلك العلة الشديدة » وانا أستغرب كل الاستغراب ان تفسر هذه العلة الشديدة بالفالج دون غيره فان الفالج — كما شاهدناه — داء اذا أصاب الانسان عطل جسده نصفه اوكله ، وأحال فكره ، وأبطل عمله . ويغلب عليه ان يرافق المبتلى به الى لحده ؛ لذلك أرى ان الجاحظ ألف هذا الكتاب الجليل قبل ان يمنى بالفالج وان هذه العلة التي يذكرها مرض عرض له في اثناء كتابته ثم زال وبرئ واستمر يؤلفه حتى وفق لاكماله ؛ والا فليرشدني الاستاذ الكاتب كيف يستطيع ان يؤلف مثل هذا الكتاب بل دونه بكثير « من نصفه مفلوج لو حزّ بالمناشير ما شعر به ، ونصفه الآخر منقرس لوطارالذباب بقربه لآلمه ، وأشد من ذلك ست وتسعون سنة هو فيها » كما قال الجاحظ عن نفسه رحمه الله فيما حدث المبرّد ؟! ودليل آخر نتيجته مبنية على مقدمات تاريخية نقلهاالكاتب نفسه في محاضرته ، وهوان الجاحظ الف كتاب الحيوان هذا لمحمد بن عبدالملك الزيات وزيرالمعتصم فأعطاه خمسة آلاف دينار ، ومحمد هذا توفي سنة ٢٣٣ هـ ووفاة الجاحظ كانت سنة ٢٥٥ هـ ، فبين موتهما اثنتان وعشرون سنة ؛ اذا أضفنا اليها ثلاث سنوات سلخها في التأليف على اقل تقدير ، وذلك قبل موت الوزير صاحبه طبعاً ، حصل عندنا تمام ربع القرن . والاستاذ مؤمن بان الجاحظ يوم قبض المتوكل على محمد ابن عبد الملك الزيات والقاه في التنور خاف ان يكون فيه ثاني اثنين ، لأنه كان صاحب محمد وصديقه ، ولأنه كان منحرفاً عن احمد بن ابي دواد للمداوة بين محمد واحمد واحمد

هذا هو الذي أغرى المتوكل بابن الزيات ففر على وجهه لئلا يلحقه منه ما لحق صاحبه الوزير الا انه لم ينج منه بل قبض عليه فجيء به الى احمد بن ابي دراد فلما نظر اليه قال : والله ما علمتك إلا متناسياً للنعمة ... فاستلانه الجاحظ بتزويق كلامه حتى أمر بفك القيود عنه وأمر بأن يصار به الى الحمام ويماط عنه الأذى ويحمل اليه تخت ثياب وطويلة وخف ، فلبس ذلك ثم أتاه فتصدر في مجلسه ثم أقبل عليه وقال : هات الآن حديثك يا ابا عثمان في قصة طويلة نقلها الكاتب في محاضرته عن معجم الادباء ... فهل كان كل ذلك — وكل ذلك كان بعد تأليف كتاب الحيوان ولا شك ! — والجاحظ مفلوج . « ليس بطائل ، ذو شق مائل ، ولعاب سائل الخ » ؟! .

ورأيت في المجلة عدا ما تقدم أشياء أخرى ، منها في ص٢٢٧ س ٦ (عرى) جمع عروة والاصح[1] كتابتها بالالف لان أصلها واو ، وفيها في س١٩ (بتؤدة) بالهمزة فوق الواو ويجب(؟) ان تكون منفردة قائمة بنفسها . وفي ص٢٣٦ ولا يمكن مؤرخاً ان ينسى الخ . ولعل الافصح ان يقال : ولا يسع مؤرخاً ان ينسى وصاحب المقال من الذين يتقيلون الفصيح . وفي ص٢٣٧ س١٢ أرى الارض تطوى اليَّ — والصواب تطوى لي . وورد في كلمتنا عن كتاب واسطة السلوك من أغلاط الطبع ص٢٤٩ اما الطبعة التونسية وهي والصواب فهي . وفيها ايضاً س ٢٦ سطر صوابه سطراً . وفي ص٢٥٠ س١٤ وانما هو موسى والاصل : وأنه هو موسى . وفيها س ١٦ موسى بن حمو — والاصل موسى أبو حمو .

والنبيث أحد الاعضاء في ١٨٢ يستعمل المديون بدل المدين ، وعهدي به أنه جد حريص على اتباع القياس لا يميل الى ما فيه تجوز وتسامح ، وفي الطرة على الغرة للحريري والألوسي بحث في هذا نغني الاشارة اليه عن نقله ، فليراجع في ص ٣٨٥ .

بغداد : محمد بهجة الاثري

---

(١) «المجمع» بل الاصح ان تكتب بالواو بناء على قاعدة الكوفيين كما كتبوا الضحى والخُطى .

المحكمة (1)

« كلمة غير قاموسية »

من الغريب ان كتب اللغة التي بين ايدينا لم تذكر كلمة (مَحْكَمَة) بفتح الميم وتخفيف الكاف في مادة (حكم) . مع اننا نستعملها اليوم كثيراً ونريد بها المكان الذي يجتمع فيه القضاة للحكم بين الناس . فهي إذن كلمة دخيلة غير قاموسية .

ولعل الذين أدخلوها في اللغة أرادوا بها تأنيث (المحكَم) اسم مكان بمعنى (مكان الحكم) ثم توسعوا بها فاستعملوها في الحكام أنفسهم . وذلك مثل نقول : «حكمت المحكمة على فلان » فقد نسبنا الحكم الى المحل والمراد الحال مجازاً كقولهم (جري النهر) اي ماء النهر .

ويحتمل ان لا يكون المراد بالمحكمة مكان الحكم ولا الحكّام أنفسهم . وانما المراد بها المصدر الميمي بمعنى الحكم (كالمضيعة) بمعنى الضياع والمتربة بمعنى الفقر فنكون أخذنا في لغة تخاطبنا من فعل حكَم مصدريه : «الحكومة » مريدين بهـا الهيأة التنفيذية التي تباشر الحكم الإداري في البلاد — و«المحكمة » مريدين بها الهيأة القضائية التي تباشر فصل الخصومات بين الناس .

وقرأ بعض الاخوان بيتاً من الشعر للفرزدق جاءت فيه كلمة (محكمة) فظنها (المحكمة) في اصطلاحنا اليوم . وهو قوله من قصيدة يهجو بها احد بني باهلة :

(أباهلُ أيّ محكمةٍ أحلّت لكم أخواتكم تحت الثياب)

فظن لأول وهلة ان الفرزدق انما اراد بالمحكمة القضاة والحكام . وقد اتفق ان سياق البيت يروّج ظنه .

ولكننا استبعدنا ان يكون الفرزدق أراد هذا المعنى فراجعنا البيت المذكور في مظان وجوده ثم عثرنا عليه في كتاب (نقائض جرير والفرزدق) المطبوع في اوربا فاذا فيه كلمة (محكمة) مضبوطة بالشكل : بضم ميمها الاولى وفتح الكاف على صيغة اسم المفعول

(١) قرئت في إحدى جلسات المجمع .

من (أحكم) الأمر اذا أتقنه . ومنه (آية محكمة وآيات محكمات) وهي التي لا تحتاج الى تأويل لظهور معناها .

فلا جرم ان يكون هذا المعنى هو المراد من كلمة (محكمة) في شعر الفرزدق . كأنه يقول لباهلة : أية آية محكمة من آيات القرآن أحلّت لكم إتيان هذا المنكر .

فلا شاهد إذن في الشعر وتبقى كلمة (المَحكَمة) المفتوحة الميم دخيلة في اللغة لا يعرفها أهل اللسان الأولون .

ويمكن ان يقال : إن (محكَمة) كما ننطقها اليوم محرفة عن كلمة (مُحكِمة) بصيغة اسم الفاعل من فعل (أحكم) بمعنى أتقن لأن رجال المحكمة يُحكمون أحكامهم ويتقنونها . فالمُحكِمة جمع بمعنى (المُحكِمين) كما ان (المُسلِمة) بمعنى (المسلمين) . ومنه قول الراجز في خبر فتح مكة :

(وفرّ صفوان وفرّ عكرمة وتبعتنا بالسيوف المسلمة) الخ

ويحتمل ان تكون (مُحكِمة) بصيغة اسم الفاعل مشتقة من (الإحكام) مصدر أحكم الفرس اذا جعل حَكَمة اللجام في فمه ليمنع جماحه . وهكذا المحاكم فانها تُحكِم الأشرار والمبطلين وتمنعهم من الظلم والفساد . على حد قول جرير :

(أبني حنيفة أحكِموا سفهاءكم إني أخاف عليكمو أن أغضبا)

والحاصل ان كلمة (مَحكَمة) من وضع او اشتقاق المولدين . واول من وضعها أراد بها اسم المكان مثل مدرسة ومصبغة — اوالمصدر الميمي مثل (مَضيَعة) و (متربة) او ان (مَحكَمة) محرفة عن (مُحكِمة) بمعنى متقِنة ومُجيدة .

« المغربي »

مطبوعات حديثة

ديوان رامي

« طبع في مصر بمطبعة فؤاد عدد صفحاته ٢٥٥ »

هو مجموعة ما نظمه صاحبه السيد احمد رامي المصري بين سنة ١٩١٦ وسنة ١٩٣٠ من أغزال ونسيب ومراثٍ وفي آخره طائفة من الاغاني العامية المصرية التي كانت تشدو بها المطربة الشهيرة السيدة أم كلثوم وتلقفها الى الآلة المعروفة بالحاكي فتذاع في جميع البلاد العربية بحيث أصبحت مستفيضة على أسلات ألسنة العوام والخواص في كل بلد وقطر وذلك من مثل الأنشودة التي اولها « ان كنت أسامح وأنسى الأسية » و « خايف يكون حبك فيَّ » و « خايف لتبرد نار حبي » فان الديوان مشحون بكثير من هذه (الطقاطيق) التي يقبل عليها الناس ساعات لهوهم فيسمعونها في المقاهي وحوانيت الباعة ويجدون في سماعها ارتياحاً وسلوى لانفسهم التي تساورها الهموم في الشطر الكبير من أعمارهم .

ومما تفرد به هذا الديوان عن سواه خلوه من المطولات فان اكثره مقطوعات ابيات كلٌ منها دون العشرة واذا وجد فيه بعض القصائد فلا تتجاوز احداها العشرين وهو خالٍ من النثر حتى من البسملة والحمدلة والمقدمة واول ما يستقبلك منه أبيات تشف عن اهدائه إياه الى من يهواه !! وهي هذه :

الى محراب افكاري ومهبط وحي اشعاري
الى القلب الذي حرّ ـ ك بالاشجان أوتاري !!؟
الى جنة أحلامي الى نزهة أبصاري
ألى الروح التي أحيت مني نفسي وأوطاري

الى الفجر الذهبي رمع ـ بالانداء نوّاري[1]
الى الطير الذهبي آ ـ نس بالتغريد اسحاري
اقدم كأس اشعاري واهدي غضّ ازهاري

وهذه الأبيات على غرابة أسلوبها وتغاليها في اظهار صاحبها ما يجده من هيام وصبابة بالمهدى اليه تكاد لاتجد فيها من الرشاقة والحلاوة مايثير الإعجاب وغاية مايقال عنها انهـا تتعمّد الايماء الى أنوثة المهدى اليه وتعبُّد المهدي لحرابه وجنانه وجمال تغريده ولو كان ظاهر المراد يقتضي اللبس والايهام والتكتم .

والديوان في سائر مشتملاته سهل الالفاظ صحيح التراكيب مستقيم الأوزان فيه شيء من الطلاوة والرونق وان كانت ابتكاراته نادرة فهو من قبيل الكلام المنظوم فان النظم غير الشعر كالايخفى وان كان هو هو من حيث آداب اللغة والفنون التي يترتب على الشاعر الإحاطة بها والاشتمال عليها ، ومن مستملحات شعره قوله :

هيئوا لي من الشعاع خيوطاً اعتلي متنهـا الى الأجرام
ودعوني اخطّ في صفحة الدـ ـهر سطوراً أبقى من الاهرام

ومنها وهو بيت القصيد :

سكنت نأمتي وكان لقلبي رقصات تحكي حباب مدام

(ص٣٨و٣٩) ويعجبني البيت الاول والاخير من قوله :

أزن الحديث اقوله عند اللقا فيضيع عنـد تقابل النظرات
واعود بعد ترقبي اقناعها والنفس ساهمة من الحسرات
فاقول ملتني وملت (سُخأتي) . والغدر طبع في هوى الفتيات
وأناصب النفس العداء فتنطوي ولربما يجني عليّ ثباتي

(١) «النُوّار» على وزن رمان «النور» وهو الزهر وقد جاءت في بيت من قصيدة قديمة للشاعر المعروف سليمان الصوله وهو قوله :

نبيةٌ معجزات الحسن في فمها فالماء والنار والنوّار في فيها

عاش سليمان في دمشق على عهد المغفور له الامير عبد القادر الجزائري وكان خاصّاً به واكثر مدائحه فيه ثم ارتحل في أخريات زمانه الى مصر ومات فيها في أوائل هذا القرن .

(ص٢٢١) ويستحسن بين مراثيه القليلة قوله في المرحوم محمد تيمور من قصيدة :

كيف أرثيك يارفيق شبابي يا نجيّي من زمرة الأحباب
أبدمعي؟ الدمع ارخص مابه ـ كي به صاحبٌ على الاصحاب
انتَ اولى بان يبأل مثوا ـ ك بطلٍ من الفؤاد المذاب

فان البيت الاخير لا يخلو من رقة وشجن (ص١٣٦) · وجلّ ما في الديوان ينطوي على وقائع غرامية ومواقف شوق ووصل تدلُّ على ان قبلة أغزاله واحدة وانها من ذوات الشهرة في عالم الغناء والطرب ولذلك طاب الولوع بها والتمادي في حبها ولله في خلقه شؤون ·

وللناظم في محمد عبد الوهاب المطرب المشهور خمسة ابيات وهي الى مطارحة الوجد اقرب منها الى المديح اولها :

هذه روحي انا : تصغي اليك وفؤادي خافقٌ بين يديك

وآخرها :

يحمل النفس الى دنيا المنى حيث يسري عنك ساجي ناظريك

وبالجملة والتفصيل فان الديوان تحفة جديرة بالاقتناء يستوجب ناظمه المدح وناشره الثناء · « سليم عنحوري »

البصريات الهندسية والطبيعية

« تأليف السيد مصطفى نظيف أستاذ الطبيعة بمدرسة المعلمين العليا بمصر »
« مطبعة الاعتماد بشارع حسن الاكبر بمصر سنة ١٣٤٩ هـ ١٩٣٠ م »

تخطو الثقافة العلمية العربية في مصر والشام بخطوات واسعة هذه السنين الأخيرة · فقد لا يمضي حين من الزمن الا وتُخرج فيه للعالم العربي نوراً جديداً يدل على حركة مستمرة واتجاه فكري مفيد · وعلى الرغم مما يعتور هذا الانتاج الجديد من نقص يعده محبو الطفرة عيباً مشيناً ينقص من فضل صاحبه · اما نحن فلا يسعنا الا ان نرحب بهذا الانتاج لاننا نرى فيه الحجر الاساسي الذي سيقوم عليه بناء الثقافة العربية المنشود في المستقبل ·

ومن الكتب العلمية النافعة التي وقفنا عليهـا اخيراً البصريات الهندسية والطبيعية للسيد مصطفى نظيف · فقد ألمّ فيه المؤلف بكل مايحتاج اليه الطالب في الجامعات من إلمام في مبحث الضوء من الوجهة العلمية والعملية ، بعبارة فصيحة سهلة لا يضيرها ما يعتورها في قليل من المواضع من ركاكة او تعقيد في التراكيب ناشئين عن حداثة العهد بالتأليف في الموضوعات العلمية الحديثة في اللغة العربية ·

وفي الكتاب خطأ مطبعي لم يأت ذكره في باب تصحيح الخطأ ، من ذلك مافي ص ٧ س ١ (تناسيا) والصواب تناسبًا · وفي ص ٣٦ س ١ (على متداد) والصواب امتداد ·

وقد جعل المؤلف في بعض المواضع الحروف الرمزية التي تتخلل العبارة من شكل حروف كلمات العبارة مما يوقع في الإشكال احيانًا · مثال ذلك ما جاء في ص ٤٣ س ١٢ « فاذا رسمنا من نقطة الشعاع او بحيث يكون الخ » فان حرفي (أ و) جاءا هنا كلمة تضلل القارئ زمنًا عن المعنى المقصود ·

وقد جاءت حروف القواعد والشروح واحدة في الكتاب مما يجعل مطالعته متعبة للنظر لا تستدعي استمرار الانتباه ·

ويلي الكتاب ملحق بالاصطلاحات الانكليزية الواردة في الكتاب ومعانيها العربية مرتب على حروف المعجم الانكليزي وقد كان الأفضل جعلها على الحروف العربية لانهـا لغة الكتاب والقارئ يضطر لمراجعة مصطلحاته العربية ليعلم مدلولها الأجنبي فيلقى صعوبة كبرى في عمله هذا ·

تلك نواقص لا يضير جوهر الكتاب وجودها ولكن اصلاحها يزيد في محاسنه نعسى ان يتلافاها المؤلف في الطبعة المقبلة ·

اسعد الحكيم

دروس التاريخ القديم

للسيد محمد عزة دروزه أسلوب جميل في سرد التاريخ يقربه لفهم الدارسين بديباجات مستدرجة ، وله سلسلة دروس تاريخية خاصة بابناء المدارس الابتدائية ودروس في فن التربية لقيت إقبالاً عظيماً في المدارس ، وقد رتبها باساليب فنية جذابة تبعث في الأولاد ولعاً على قراءتها وحفظها .

ومن هذه الطبقة كتابه « دروس التاريخ القديم » فهو كتاب مدرسي جاء في مئتين وثمان وثمانين صفحة . وقد زينه بكثير من الرسوم والخرائط مما يساعد على فهم الحوادث المسرودة وبنقشها في مخيلة الدارس والمطالع ، ونمقه باقاصيص اخلاقية وادبية نثرها ملحاً بين سطور التاريخ تستريح اليها ذاكرة الدارس وتكشف له القناع الذي يغشي احياناً إدراك الوقائع فيما لو جاءت متتابعة مترابطة بلا اداة ربط . وقد جاء في آخر كتابه على ذكر المراجع التي اقتبس منها فاذا هي ثقة لا غبار عليها .

صور الانسان في كتابه هذا الى التلاميذ مذ كان صياداً متنقلاً يعيش عيش الوحوش ثم تدرج به خطوة بعد خطوة مستقرياً اطواره وتطوراته ، وازمانه واقتباساته ، ومعيشته واجتماعياته ، حتى بلغ به الى تأليف الدول القديمة فتكلم عن الاشور بين والكلدانيين والحثيين والفينيقيين والعبرانيين والفرس واليونانيين الى ان ختم كتابه بالدولة الرومانية وسقوطها في عهد هرقل آخر قياصرتها وصيرورة ملكها الى العرب الفاتحين .

ولم يكتف المؤلف بسوق حوادث الحروب وكبار الملوك والقواد وذكر الفتوحات وتغيير الدول بل اتى ايضاً على نقد الاسباب الاجتماعية التي ادت الى تفوق المنصورين على المقهورين ، والم باهم ما يجدر ذكره إبان كل حقبة من الدهر عن الاديان والقوانين والزراعة والعمران تتمة للفائدة .

عبد الله رعد

الشواذ

في علم النحو

عجالة أتعرض فيها لذكر شيء من شواذ علم النحو أقدمها كالنموذج لمن احب الاطلاع على ما في هذا الفن من الشواذ التي لو تعرضتُ لحصرها واستقصائها لملأتُ بسوادها بياض هذه المجلة بأسرها ·

واني أتمنى ان يتاح لي التصدي للالمام بما في معاجم اللغة من الكلمات الشاذة والألفاظ الوحشية المهجورة التي تمجها الذوق و يستثقلها اللسان فأجمع منها سفراً كبيراً أنفي فيه غثها عن سمينها وأنتقي لبابها من قشورها التي يستغني عنها اللبيب استغناء الحي عن الميت ·

على ان عجالتي هذه لا يعدم الناظم والناثر من ان يجني منها عدة فوائد :

١ — وقوفهما على مايجوز استعماله من الشواذ وما لا يجوز فيستعملان منهما في الاختيار وحين الاضطرار الجائز ويهملان الممتنع ·

٢ — اطلاعهما على بعض اشعار غريبة في لغتها وتركيبها مما لا يتسنى لهما الاطلاع عليه الا بعد عناء طويل يصرفانه في تتبع كتب الأدب ودواوين العرب ·

٣ — استفادة المتأدب بعض أحكام وقواعد في فن النحو بعبارة بسيطة وأسلوب سهل يغنيانه في تتبعها عن مراجعة المطولات من كتب هذا الفن ·

٤ — اطلاع الأديب على ما في هذه المقالة من الأشعار التي يصلح الكثير منها لأن يكون مثلاً سائراً يذخره الأديب في حافظته فيورده في محاضراته وكتاباته حين الحاجة اليه ·

وقد أعرضت عن شرح ما أوردته من الشعر روماً للاختصار وتفادياً من ملل القارئ لان شرحها كما يجب يحتاج الى كتاب على حدته ·

وهنا أشرع بالمقصود مصدراً إياه بهذا التمهيد فأقول :

« المطرد والشاذ »

المطرد عند النحاة ما استمر في الاعراب وغيره .

والشاذ عندهم مافارق بقية بابه وانفرد عنها الى غيرها .

والمطرد والشاذ على اربعة أضرب .

« الضرب الاول »

هو ما اطرد قياساً واستعمالاً أي هو الذي يقتضيه القياس ويستعمل في حر الكلام وذلك كالرفع في الفاعل والنصب في المفعول والخفض في المجرور نحو قام زيد ورأيت زيداً ومررت ببكر ، هذا الضرب هو الغاية المطلوبة من وضع فن النحو وتقرير قواعده وضبط مناهجه على الوجه الذي نطق به فصحاء العرب وذو اللسن منهم .

« الضرب الثاني »

هو ما اطرد في القياس وشذ في الاستعمال اي ان القياس يقتضيه لكنه غير مستعمل في حر الكلام وذلك نحو الماضي من يذر[1] ويدع ، اصل الاول وذره يذره كوسعه يسعه فان القياس يوجب ان يكون له ماض أسوة بامثاله من الأفعال التي فاؤها واو كيرث ويثق ويرم ويرع فتقول في ماضيهما ورث ووثق وورم وورع ، اما يذر فليس له ماض اي لم يستعمل له ماض في حر الكلام ، واما يدع فأصله ودعته ادعه ودعاً ، يقول النحاة ان العرب امات ماضيه ومصدره واسم الفاعل منه كما أمات هذه الكلمات من يذر ، لكن قرأ مجاهد وغيره من أئمة القراء « ماودَعَك ربك » وورد في الحديث « لينتهين قوم عن ودْعهم » وقد جاء في بعض الاشعار ودع ماضياً فليس لنا ان نقول ان العرب أمات من هذه الكلمة ماضيها ومصدرها انما لنا ان نقول انها قليلة الاستعمال .

من أمثلة هذا الضرب ، خبر عسى اسماً صريحاً نحو قولك عسى زيد قائماً او قياماً ، هذا هو القياس أسوة باكثر أخوات عسى التي يكون الخبر فيها اسماً صريحاً ، غير ان استعمال خبرها اسماً صريحاً في حر الكلام محظور وما ورد منه في الشعر يعد شاذاً .

(١) كما ان يذر لا ماضي له فليس له مصدر ولا اسم فاعل فنقول بدل هذه الكلمات المائتة « ترك وترْك وتارك » وجاء عن بعضهم ليذر ماض شعراً وذرته وهو شاذ .

« حكم هذا الضرب »

هذا الضرب من الشاذ لايجوز استعماله في حر الكلام ولا الاحتجاج به في تمهيد الاصول لانه كالمرفوض ، انما للشاعر ان ينطق به مضطراً . قال ابن جني « يجوزللشاعر ان ينطق بما ينتجه القياس حين الاضطرار اليه كاظهار التضعيف في قوله (الحمد لله العلي الأجلل) وقوله (اني اجود لاقوام وان ضننوا) .

قلت يفهم من كلام ابن جني ان للشاعر حين الاضطرار ان ينطق بماضي يذر وماضي يدع وان يأتي بخبر عسى اسماً صريحاً وبكل مايرتضيه القياس وان خالف الاستعمال .

« الضرب الثالث »

هو ما اطرد في الاستعمال وشذ في القياس اي المستعمل في حر الكلام وان كان القياس يأباه وذلك نحو استصوبت الرأي واستحوذت على الكتاب واستنوق الجمل فان هذه الأمثلة شاذة عن القياس اذ هو يقتضي في استصوبت ان يقال استصبت وفي استحوذت استحذت وفي استنوق الجمل استناق كما تقول استقمت لا استقومت واستقام لا استقوم .

من هذا الضرب اي الشاذ قياساً المطرد استعمالاً (احزنه) فان مضارعه المقيس (يحزنه) بضم اوله لان ماضيه رباعي يجب ان يكون مضارعه مضموم الاول وانما اطرد استعمالاً يَحْزُن[1] بفتح اوله وضم ثالثه ومثله احمه الله فهو محموم وقياسه محم بضم ففتح لانه اسم مفعول لرباعي ومنه اجنه الله فهو مجنون وقياسه مجن بضم ففتح وهو شاذ في الاستعمال .

« حكم هذا الضرب »

حكم هذا الضرب من الشواذ — اتباع السمع الوارد فيه نفسه فيستعمل في حر الكلام لكن لا يقاس عليه غيره ..

---

(١) كان الاصمعي يقول الفصيح ويلغي ماسواه وابوزيد يجعل الشاذ والفصيح واحداً فيجيز كل شيء قيل ، قال ومثال ذلك ان الاصمعي يقول حزنني الامر يحزنني ولا يقول احزنني ، قال ابوحاتم وهما جائزان لان القراء قرأوا لا يَحزنهم الفزع الاكبر ولا يُحزنهم جميعاً بفتح الياء وضمها .

« الضرب الرابع »

هو الشاذ قياساً واستعمالاً ومن امثلته قولهم ثوب مصوون ومسك مدووف وفرس مقوود فان القياس يأبى تعاقب الواوين كما ان استعمال مثل هذه الكلمات مما لا يرضاه فصحاء العرب ، ومن هذا الباب كلمات يؤتى منها ببعض حروفها بحيث لا يعرف منها اصلها كقول لبيد (درس المنا بمتالع فابان) فان المنا لا تفيد ان المراد منها المنازل وانما استفيد هذا من القرينة .

« حكم هذا الضرب »

حكم هذا الضرب من الشواذ الرفض فلا يستعمل في حر الكلام ولا في ضرورة الشعر لانه غير مقبول عند الفصحاء والبلغاء .

قلت من هذا الضرب تشديد النون من لدنه في قول ابي الطيب :

فارحام شعر يتصلن لدنّه وارحام مال مانفي تنقطع

فهو مما شذ قياساً واستعمالاً وقد قيل لابي الطيب ان تشديد النون من لدن غير معروف في لغة العرب فأجاب باخلاصته : ان للشاعر من الكلام ماليس لغيره لا للاضطرار اليه لكن للاتساع فيه واتفاق اهله عليه فيحذفون و يزيدون واورد في ذلك ابياتاً منها :

اذا غاب عدوا عنك بلعم[1] لم يكن جليداً ولم تعطف عليه العواطف

ومنها قول لبيد (درس المنا) واتى من هذا النحو بكثير من كلام شعراء العرب الذي يخالف القياس والاستعمال ومن جملة ما استشهد به على قوله ان للشاعر من الكلام ما ليس لغيره قول بعض الاعراب :

(من لد شولاً فالى اتلائها) حيث حذف كان واسمها بعد لد وهو شاذ قياساً واستعمالاً كما سنبينه :

وقد رد عليه ناقدو شعره فيما احتج به عليهم وقالوا خلط هذا الرجل باحتجاجه واجرى كلامه الى غاية توجب قلب اللغة ونقض مباني العربية لانه جعل الشعراء بزعمه امراء الكلام واباح لهم التصرف على غير ضرورة ، وهذه القضية ان سيقت على اطراد قياسها زال نظام الاعراب وجاز للشاعر ان يقول ماشاء وانما أجيز للشاعر ابواب محصورة مثل

(١) يريد ابن العم .

صرف مالا ينصرف وقصر الممدود واظهار التضعيف كقوله « اني أجود لأقوامٍ وان ضننوا » وغير ذلك لا يسامح به الشاعر مما ليس له اصل يرجع اليه ويبنى أسه عليه ، اما تشديد النون من لدنه فليس هو من هذا القبيل بل هو مما شذّ قياساً واستعمالاً فهو غلط محض اه ٠

هنا أشرع بذكر طائفة مما سقنا هذا التمهيد من اجله وقد تسنى لنا جمعه من الكتب الموضوعة في فن النحو متوخياً به مذهب اهل البصرة دون مذهب اهل الكوفة جرياً مع جمهور علماء هذا الفن من حيث اتباعهم مذاهب البصريين في اكثر المسائل المختلف فيها بين اهل المصرين المذكورين فأقول :

— ما افعل — لايجوز استعمال ماافعل في التعجب من البياض والسواد كما لايجوز استعماله في غيرهما من الألوان وما ورد من ذلك في قوله :

اذا الرجال شتوا واشتد اكلهم فأنت ابيضهم سربال طباخ

وقوله :

جارية في درعها الفضفاض تقطع الحديث بالايماض
ابيض من اخت بني اباض

فهو شاذ قياساً واستعمالاً او يكون مراد الشاعر بابيض الذي مؤنثه بيضاء فيكون معناه فانت مبيضهم وفي درعها جسد ابيض ٠

— لا في خبر لكن — لا يجوز دخول لا في خبر لكن وشذّ دخولها عليه في قوله : (ولكنني من حبها لعميد) ٠

— النيف — لاتجوز اضافة النيف الى عشرة وشذّ قياساً واستعمالاً إضافتها الى عشرة بقوله :

كلف من عنائه وشقوته بنت ثماني عشرة من حجته

على ان العدد المركب بمنزلة اسم واحد والاسم الواحد لا يضاف بعضه الى بعض ، واذا أضيف النيف الى العشرة يبطل المعنى فانك اذا قلت قبضت خمسة عشر من غير إضافة دل على انك قبضت خمسة وعشرة ، واذا قلت قبضت خمسة عشرةٍ بالاضافة دلّ انك قبضت الخمسة دون العشرة كما لو قلت قبضت مال زيد فان المال يدخل في

القبض دون زيد كذلك ضربت غلام زيد فان الضرب يكون للغلام دون زيد .

– استطراد – اذكر هنا الحكم في تعريف العدد استطراداً لكثرة ما تمس الحاجة اليه اذ كان الكثيرون من محرري الصحف يغلطون به فأقول :

اذا أردت ان تعرف العدد بأل فصلها بجزئيه ان كان معطوفاً فقل اخذت الواحد والاثنين والحادي عشر والثاني عشر والعشرين والثلاثين والمائة والمائتين الخ ، وصل أل بجزئه الاول ان كان مركبًا اي ان كان من احد عشر حتى تسعة عشر فقل اخذت الاحد عشر ديناراً والاثني عشر درهمًا الخ ، وصل أل بجزئه الثاني ان كان مضافاً فقل جاءني خمسة الرجال وتسعة الرجال الخ .

هذا هو الحكم في تعريف العدد وعليه اتفاق الطائفتين ، غير ان الكوفي منهما يجيز في المضاف والمركب تعريف الجزئين فيقول في خمسة عشر درهمًا (الخمسة العشر الدرهم) و يقول في المضاف جاءني الخمسة الرجال ، على ان البصريين ينكرون ذلك و يقولون ان تعريف الجزء الثاني ايضًا من المركب غير جائز لان الاسمين لما ركب احدهما مع الآخر صارا بمنزلة اسم واحد لا ينبغي ان يجمع فيه بين علامتي التعريف بل تلحق الاسم الاول منهما لان الثاني يتنزل منزلة بعض الحروف ولذا عرف العرب الجزء الاول من الاسم المركب فقال ابن حمر :

تفقأ فوقه القلع السواري وجن الخازباز[1] به جنوناً

فقال الخازباز ولم يقل الخاز الباز فعرف الجزء الاول ولم يكرر التعريف بالثاني ولم يحك عن العرب ذلك في شعر ولا في اختيار الكلام ، واما تعريف الدرهم فغير جائز لانه تمييز والتمييز لا يكون الا نكرة .

اذا اتضح لك حكم تعريف العدد فاعلم ان كثيرين ممن يكتبون في صحف الأخبار يعرفون الجزء الثاني من العدد المركب فيقولون مثلاً اخذت خمسة العشر قرشًا وهذا غلط يأباه المذهبان ومنهم من يعرف الجزء الاول من العدد المضاف فيقول مثلاً ، اخذت الخمسة قروش وهذا ايضًا خطأ مخالف للمذهبين ، ومن هذا القبيل غلطهم في كلمة (غير) فانها من الاسماء الملازمة للاضافة فهي معرفة بما تضاف اليه فيلزم تعريفه فيقال مثلاً

(١) الخازباز هو صوت الذباب او هو اسم للسنور وقيل فيه غير ذلك .

هذا غير المطلوب منه ولا يجوز ان يقال هذا الغير مطلوب منه لما علمت ·

رجعاً الى الكلام على الشواذ

(ياء النداء) لا يجوز دخول هذه الياء على لام اللهم لان الميم عوض عنها وشذ دخولها عليها قياساً واستعمالاً في قوله :

اني اذا ما حادث الما   اقول يا اللهم يا اللهما

وقوله :

وما عليك ان تقولي كلما   سبحت او صليت يا اللهما

فان هذه الاشعار لا يعرف قائلوها فليس فيها حجة او يقال ان الشاعر جمع بين العوض والمعوض شذوذاً كما جمع بينهما كذلك في قوله :

هما نفثا في في من فمويهما   على النابح العادي اشد رجام

(الخفض في القسم) لا يجوز الخفض في القسم باضمار حرف الخفض الا بعوض نحو الف الاستفهام كقولك للرجل آالله مافعلت كذا او هاء التنبيه نحو هاالله ، وماعدا ذلك فهو شاذ استعمالاً ·

(الفصل بين المتضايفين) لا يجوز الفصل بينهما بغير الظرف وحرف الجر لضرورة الشعر وشذ الفصل بينهما بغير ذلك قياساً واستعمالاً بقوله :

فزججها   بمزجة   زج القلوص ابي مزاده

والتقدير زج ابي مزادة القلوص ·

وقوله :

تمر على ما تستقر وقد شفت   غلائل عبدالقيس منها صدورها

والتقدير شفت عبد قيس غلائل صدورها منها ·

وقوله :

لما رأت ساتيدما استعبرت   لله در اليوم من لامها

يريد لله در من لامها اليوم ·

(ساتيدما) جبل ما طلعت عليه الشمس الا لم يبق فيه دم ·

وقوله :

كتحبير الكتاب بكف يوماً يهودي يقارب او يزيل

يريد بكف يهودي .

وقول ابي الطيب وقد اخذ عليه :

حملت اليه من ثنائي حديقةً سقاها الحجى سقي الرياضَ السحائب

يريد سقي السحائب الرياض .

الى غير ذلك من الاشعار التي فصل فيها بين المتضايفين وكلها مما لا يحتج بها لان قائليها غير معروفين سوى المتنبي .

(تأكيد النكرة) لا يجوز تأكيد النكرة بغير لفظها فلا يقال جاءني رجل نفسه وشذ تأكيدها بغير لفظها بقوله :

لكنه عاقه ان قيل ذا رجب ياليت عدة حولٍ كله رجب

والبصريون يروونه (حولي) .

وقوله :

(قد صرت البكرة يوماً اجمعا) هذه الشطرة لا يعرف قائلها .

(العطف على الضمير المرفوع المتصل) لا يجوز العطف على الضمير المرفوع المتصل في حر الكلام فلا يقال ضربت وزيدٌ وشذ في قوله :

قلت اذ اقبلت وزهر تهادى كنعاج الفلا تعسفن رملا

وقوله :

ورجا الأُخيطل من سفاهة رأيه ما لم يكن وابٌ له لينالا

(العطف على الضمير المخفوض) غير جائز فلا يقال مررت بك وزيدٍ وشذ ما ورد من ذلك .

— أظنْ أنْ بعد كي شاذ —

— لا تأتي كَيْ بمعنى كيما فتنصب مابعدها وماجاء من ذلك فهو شاذ .

(الحال) يجب ان تكون نكرة ولايجوز ان تكون معرفة وشذ في ذلك قياساً قول بعض العرب (ارسلها العراك) و (طلبته جهدك) و (رجع عوده على بدئه) .

(نون جمع المذكر السالم) لا يجوز كسره وشذ ذلك قياساً واستعمالاً في قوله :

عرفنا جعفراً وبني ابيه وانكرنا زعانف آخرين

— الا لا يليها من الضمائر غير الضمير المنفصل وشذ ايلاؤها الضمير المتصل بقوله :

اعوذ برب الناس من فئة بغت عليّ فمالي عوض الاه ناصر

وقد اخذ على المتنبي قوله :

ليس الاك يا علي همام سيفه دون عرضه مسلول

وقوله : (لم تر من نادمت الاكا)

— مني وعني بالتشديد تلزمها نون الوقاية وشذ تخفيفها لحذف نون الوقاية منهما بقوله :

أيها السائل عنهم وعني لست من قيس ولا قيس مني

— لا يجوز دخول ال الموصولة على الفعل المضارع وشذ دخولها عليه قياساً واستعمالاً بقوله :

من القوم الرسول الله منهم لهم دانت رقاب بني معد

وقوله :

من لا يزال شاكراً على المعه فهو حرٍ بعيشة ذات سعه

— اذا كان متعلق الظرف والجار والمجرور — خبرين وجب حذف متعلقهما وشذ التصريح به في قوله :

لك العز ان مولاك عز وان يهن فانت لدى بحبوحة الهون كائن

وقد صرح ابن جني بجواز اظهاره لكونه اصلاً .

— لا يجوز تقديم الخبر المحصور فيه المبتدا بالا — على المبتدا وشذ قياساً واستعمالاً تقديمه على المبتدأ المحصور بالاّ في قوله :

فيارب هل الاّ بك النصر يرتجى عليهم وهل الا عليك المعول

— لا يجوز تقديم الخبر على المبتدأ الذي دخلت عليه لام الابتداء وشذ تقديم الخبر على المبتدأ الداخلة عليه لام الابتداء في قوله :

أخالي لأنت ومن جرير خاله ينل العلاء وتكرم الاخوال

— لا يجوز حذف كان مع اسمها بعد لدُ وشذ حذفها قياساً واستعمالاً في قوله :

(من لد شولاً فالي اتلائها) والتقدير من لد كانت النياق شولاً الى زمن تبعية ولدها لها ، وقد سبق الكلام على استشهاد المتنبي بهذه الشطرة محتجاً على من انكر عليه تشديد لدنه في قوله (فارحام شعر يتصلن لدنه) .

— لايجوز ان تعمل ان النافية عمل ليس وشذ عملها كذلك بقوله

ان هو مستوليًا على احد الا على اضعف المجانين

— لايجوز دخول اللام على خبر غير إن المكسورة وشذ دخولها على خبر أمسى بقوله

مروا عجالاً فقالوا كيف سيدكم فقال من سئلوا أمسى لمجهودا

— لايجوز دخول اللام على الخبر وشذ دخولها عليه بقوله

ام الحليس لعجوز شهربة ترضى من اللحم بعظم الرقبة

— لايجوز دخول اللام على خبر أن المنفي بلا وشذ دخولها عليه بقوله

واعلم أن تسليماً وتركا للا متشابهان ولا سواء

— لايجوز ان تجر ربَّ الضمير وشذ جرها اياه بقوله

واه رأيت وشيكاً صدع اعظمه وربه عطب انقذت من عطبه

(حتى لا تجر المضمر) وشذ جرها اياه بقوله

فلا والله لا يلفي أناس فتى حتاك يا ابن ابي زياد

(الكاف لا تجر الضمير) لانها مخصوصة بجر الظاهر وشذ جرها اياه بقول بعضهم (رب) لا يجوز ان تحذف و يبقى عملها من غير ان يتقدمها واو او فاء او بل وشذ جرها دون ان يتقدمها احد الثلاثة بقوله

رسم دار وقفت في طلله كدت اقضي الحياة من جلله

(كلا تضاف الى مفهم اثنين) دون ان يكون بينهما مايفرقهما فيقال كلا الرجلين كما جاء في قوله

ان للخير وللشر مدى وكلا ذلك وجه وقبل

فاما اذا أضيفت الى مفهم اثنين لكنهما متفرقان كقوله

كلا أخي وخليلي واجدي عضداً في النائبات وإلمام الملمات

فان اخي وخليلي وان كانا مفهمي اثنين الا انهما قد فرق بينهما بواو العطف فاضافة كلا اليهما في هذا البيت شاذة ·

(الجمع بين حرف النداء وال في غير اسم الله تعالى وما سمي به من الجمل) غير جائز وشذ الجمع بينهما في قوله

فيا الغلامان اللذان فرا ايا كما ان تعقبان شرا

(المضارع) لا ينصب بان محذوفة في غير المواضع التي تحذف فيها وجوباً اوجوازاً وشذ نصبها اياه محذوفة في غير ذلك كقوله

الا ايها ذا الزاجري أحضُرَ الوغى وان اشهد اللذات هل انت مخلدي

والبصريون يروونه احضر بضم الراء ، وقد اخذ على المتنبي نصبه المضارع بان محذوفة في قوله

بيضاء يمنعها تَكَلَّمَ دلُّها تيهاً ويمنعها الحياء تميسا

(من الاستفهامية) تلحقها الواو والنون في حالة الوقف فقط كما اذا قيل لك جاء القوم فقل منون بسكون النون الاخيرة ولا يجوز الحاقها بالواو والنون في حالة الوصل وشذ ذلك في قوله

اتوا ناري فقلت منون انتم فقالوا الجن قلت عموا ظلاما

والقياس هنا يقول من انتم وفي هذا البيت عدة شذوذات منها تحريك النون الاخيرة من منون مع انها ساكنة ·

(الاسم المفرد) الواوي العين اذا كانت صيغة جمعه على وزن فُعَّل جاز بقاء عينه في الجمع واواً وجاز اعلالها اي قلبها ياء فتقول في جمع صائم ونائم صوَّم ونوم وصيَّم ونيم · واذا كانت صيغة جمع الاسم المذكور على وزن فُعَّال وجب بقاء عينه واواً ولا يجوز اعلالها اي قلبها ياء فتقول في جمع صائم ونائم صوام ونوام ولا يجوز ان تقول صيام ونيام وشذ عن ذلك قوله

ألا طرقتنا مية ابنة منذر فما أرَّق النيام الا كلامها

(سواء) لا يجوز تثنيتها للاستغناء عنها بسيّ وشذ تثنيتها بقوله

فيارب ان لم تجعل الحب بيننا سوائين فاجعلني على حبها جلدا

(نون التوكيد) تلحق المضارع والامر فقط وشذ الحاقهـا باسم الفاعل في قوله « أشاهرن بعدنا السيوفا) وقوله « أقائلن أحضروا الشهودا » ·

— لايجوز ان يجمع اللفظ جمع مذكر سالم اذا كان مذكره على أفعل ومؤنثه على فعلاء كاحمر حمراء وشذ جمعه في قوله

فما وجدت نساء بني تميم حلائل أسودين وأحمرينا

— لايجوز ان يجمع اللفظ جمع المذكر السالم اذا كان مما يستوي فيه المذكر والمؤنث وشذ جمعه كذلك بقوله

منا الذي هو ما إن طرّ شاربه والعانسون ومنا المرد والشيب

فان العانس من الصفات المشتركة التي لاتقبل التاء عند قصد التأنيث لانهـا تطلق على المذكر والمؤنث بلفظ واحد ·

ولنكتف الآن بهذا القدر من الشواذ فحسب التاجر نموذجاً من سلعته حفنة يعرضها على المبتاعين اعلاماً بنوعها وتشجيعاً لهم على ابتياعها والله حسبي ونعم الوكيل ·

حلب : كامل الغزي

—«*»—

ليس للغة قاموس محيط بها

يظن بعضهم ان كل كلمة لم ترد في قاموس الفيروزابادي وفي صحاح الجوهري وفي لسان العرب ليست من اللغة وان استعمالها يكون خطأ ويهجمون على الكاتب الذي يكون قد استعملها بالتجهيل والتنديد . و يتوسع بعضهم في الامور فيضيف الى هذه المعاجم الثلاثة مخصص ابن سيده وأساس البلاغة والمصباح وتاج العروس فاذا كانت اللفظة لم ترد في هذه المعاجم السبعة فهي عنده ليست من كلام العرب في قليل ولا كثير .

وقد غلب هذا الوهم على اكثر الناس ونسوا ان مؤلفي هذه الكتب بشر مثلنا وانه لا يمكن ان تكون تآليفهم أحاطت بكل شيء فلم تدع شاردة ولا فاردة وانما نقل بعضهم عن بعض وقلد الآخر الاول حتى في الخطإ . ونسوا انه من المأثور انه لا يحيط بلسان العرب الا نبي .

ولست أريد بذلك ان هذه الكتب ليست معياراً يصح الرجوع اليه او ان وجود اللفظة فيها وعدمه سواء وان للانسان ان يستشهد بها وان لا يستشهد . كلا . ليس هذا المقصود بل كل ما أريد ان أقوله هو ان الاحاطة لم تقع وان كلمات كثيرة شردت من هذه المتون كلها او بعضها وهي لا تقل عروبة عن الكلمات المقيدة فيها .

ولا ينبغي ان يؤخذ من هذا ايضاً ان الخطأ الذي يجوز ان يقع فيه بعض الكتاب والمؤلفين من استعمال لفظ لم يسمع او لم يرد بالمعنى الذي استعمله فيه ذلك المؤلف لا يكون معدوداً من باب الخطإ ولو خلت منه المتون التي ذكرناها .

كلا لا يزال الخطأ خطأ والصحيح صحيحاً ولن تبرح هذه المعاجم لا سيما متى اتفقت رواياتها أحسن مراجع اللغة العربية .

ولكن تأتي لفظة في كلام علي بن ابي طالب او غيره من الصحابة رضي الله عنهم وتدل القرائن مما سبق ولحق على ان اللفظة ليست من تحريف النساخ ولا تصحيفهم بل هي هكذا من الاصل فهل نقول ان علياً أخطأ في الكلام العربي لكون تلك اللفظة لم تجئ في تاج العروس ؟

وتأتي أخرى في كلام الجاحظ او ابن المقفع او كتاب وشعراء متأخرين عنهما لكنهم ممن حفظ من اللغة اكثر مما حفظ الفيروزابادي وابن منظور والمرتضى الزبيدي فهل نحكم عليها بانها غلط لمجرد خلو لسان العرب منها ؟

كلا لانخطئ الثقات والاثبات والذين ينزلون مايقولون بمنزلة مايروون لاجل خلو هذه المعاجم من كلمات استعملها هؤلاء الائمة ·

وقد كان الاستاذ الطيب الذكر الشرتوني صاحب أقرب الموارد صديقاً حميماً لي وكثير الاجتماع معي فكاشفته مرة بما في نفسي من هذا الامر فوافقني عليه وسردت له عدة الفاظ وجدتها في كلام الفصحاء فنقلها وعثر هو على أخرى من بابها وأوعب ذلك كله في ذيل كتابه أقرب الموارد واثبتها تحت اشارة حرف « س » اي سعيد الذي هو سعيد الشرتوني أجزل الله ثوابه · وسماها بالضوال « التي افتلتت يراع اللغويين فلم يذكروها في مظانها من كتبهم » واني أذكر منها ما نبهته اليه من قول ابن المقفع في الدرة اليتيمة « وان رأيت نفسك تصاغرت الدنيا » اي رأتها صغيرة فاثبتها في ذيل أقرب الموارد وكنت انتبهت لها يوم طبعت درة ابن المقفع وهي الطبعة الاولى لها ·

وذكرت له ايضاً قول ابن الأبار القضاعي البلنسي في سينيته الشهيرة التي يستصرخ بها صاحب تونس الحفصي لنجدة الاندلس وهو هذا البيت :

وحال ما حولها من منظر عجب · يستوقف الركب او يستركب الجلسا

لقد جاء في معاجم اللغة (استوقف) بمعنى طلب الوقوف · ولم يجئ (استركب) بمعنى طلب الركوب · الا ان الحافظ الشهير ابن الابار القضاعي كان بحراً زاخراً من أبحر اللغة ولم يكن ممن يضع من عنده او ممن يتعسف في النقل ·

فهذه ايضاً أثبتها الشرتوني في ذيل كتابه وهي مما نبهته اليه مع غير ذلك من الألفاظ وقد جاءت ايضاً في كلام لسان الدين بن الخطيب في وصف اهل الاندلس وناهيك

بلسان الدين بن الخطيب رواية وثقة وحافظاً للغة ٠

الا ان الاستاذ صاحب المنار نبهني الى ان الاساس أورد (استركبته فاركبني) ولم يزدني هذا التنبيه الا اقتناعاً بصحة مذهبي الذي هو عدم الجزم بخطإ استعمال لم يرد في احد المعاجم الشهيرة فأنت ترى ان لسان العرب والقاموس لم يذكرا (استركب) وان الاساس أوردها ٠ ومن الغريب ان صاحب التاج فيما استدركه على القاموس في مادة (ركب) نقل عن الاساس كلمات ولم ينقل جملة (استركبته فأركبني) فورودها في معجم وعدم ورودها في معجم آخر أدل دليل على عدم الإحاطة وكذلك عدم نقل صاحب التاج لهذه اللفظة عن الاساس مع نقله غيرها في هذه المادة عنه دليل على عدم ثقته بصحتها ٠

ومما جاء في يتيمة ابن المقفع لفظة (راكم) اي ركم بعضه على بعض ولم يرد (راكم) لا في لسان العرب ولا في القاموس ولا فيما استدركه التاج ولا في أساس البلاغة وكلهم قالوا : أرتكم الشيء وتراكم اجتمع بعضه فوق بعض وركمه ركماً فارتكم وتراكم ٠

ولنفرض ان (راكم) هنا هي من تحريف النساخ ولم تكن في اصل كلام عبدالله بن المقفع نخذ لك لفظة لم ترد في معاجم اللغة وهي من كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه والتحريف بعيد عنها ٠

جاء في الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد في الجزء الثالث ص١٩٨ طبعة ليدن مايلي من قول عمر : « ثم إئت رجلاً من قومك من تجارهم فقم الى جنبه فاذا اشترى شيئاً فاستشركه فاستنفق وأنفق على أهلك » ٠

ورد في المعاجم (استنفقه) لكن لم يرد (استشركه) في لسان العرب ولا في القاموس ولا في التاج ولا في أساس البلاغة ٠ فهل نقول ان عمر لا يعرف اللسان العربي ؟ ألا ان هؤلاء هم أهل اللسان وعنهم اخذ ٠

ومن كلام عمر ايضاً ص ٢٣٩ من الجزء الثالث من الطبقات طبعة اوربة (أحصوا العيالات الذين لا يأتون) ولم أجد (عيالات) في كتب اللغة بلى جمع العيل عيال وعيائل ولقد ورد رجالات في جمع رجل ٠ فكأن العيالات جمع الجمع ٠

ولم يرد في معاجم اللغة (عديد) بمعنى كثير بل هي بمعنى عدد يقال لا يحصى عدده

او عديده · ولكن صاحب تاج العروس نفسه في مقدمة التاج في الصفحة العاشرة يقول ما يلي :

وقد أملى حفاظ اللغة من المتقدمين الكثير فأملى ابو العباس ثعلب مجالس عديدة في مجلد ضخم ·

ولم يرد (النوادي) بمعنى المجالس في كتب اللغة اي جمع ناد (وذكروا جمع ناد) على أندية وجمع الجمع أنديات · وقالوا في النوادي انها جمع نادية اي النخلة البعيدة عن الماء · ومما استدركه صاحب التاج على القاموس : نوادي الكلام مايخرج وقتاً بعد وقت والنوادي النواحي عن ابي عمرو والنوادي النوق المتفرقة ومما جاء في معنى النوادي الحوادث ·

والحال ان صاحب القاموس يقول في مقدمة القاموس (محمد خير من حضر النوادي) وفسرها صاحب التاج بقوله : المجالس مطلقاً او خاص بمجالس النهار او المجالس ماداموا مجتمعين فيها ·

وجاء في تاريخ الخلفاء العباسيين من (كتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق) من جملة اخبار ماز يار وعبد الله بن طاهر مايأتي : « وكان قادن هذا ابن اخي ماز يار وقد قوده وجعله مع اخيه قادن وضم اليه عدة من كبار قواده » يريد ان يقول جعله قائداً كما يقال (امّره) جعله اميراً · ولكنني لم اجد (قوّده) بهذا المعنى لا في لسان العرب ولا في القاموس ولا في مستدرك التاج ولا في أساس البلاغة للزمخشري · وهم يقولون (قوده) كقاده شدد للكثرة وفي الاساس قود فرسه أكثر قياده واذا نزلت من فرسك فقوده ·

وعبارة كتاب العيون والحدائق لاتؤتى من ضعف وهي من أفصح الفصيح وفي العيون والحدائق (ايضاً) : وكتب الى عبد الله بن طاهر في تحصيل الحسن ولد الافشين فحصله عبد الله بادق حيلة ·

وظاهر هنا انه يريد بلفظة (تحصيل) معنى الادراك او المسك والحال انه لم يرد في هذا المعنى للاشخاص بل للاشياء يقال حصلت الشيء تحصيلاً أدركته قاله ابو البقاء · وجاء في القاموس التحصيل تمييز ما يحصل · وقال الراغب التحصيل اخراج اللب من

القشرة وجمعه كأخراج الذهب من حجر المعدن والبر من التبن قال الله تعالى (وحصل ما في الصدور) اي أظهر مافيها وجمع . وفي التاج تحصيل الكلام رده الى محصوله وقد جاء ذلك في الاساس ومما ورد في الاساس من هذه المادة : حصل العلم واجتهد فما تحصل له شيء وحصل تراب المعدن ميز الذهب منه وخلصه وحصل الدقيق بالمحصل وهو المنخل وحصلوا الناس في الديوان ميزوا بين شاهدهم وغائبهم وميتهم وقال ذو الرمة :

(اذا الاشياء حصلت الرجالا)

اي ميزت خيارها من شرارها . وسمي كتاب الحصائل لان صاحبه زعم انه حصل فيه مافات الخليل اه .

فأما حصل رجلاً بمعنى أدركه او قبض عليه فلم ترد في معاجم اللغة وانما تجد العامة يقولونها فاذا أدرك انسان آخر بعد لأي يقال حصله بعد ان كاد يفوته وحصلت فلاناً في المحل الفلاني وما أشبه ذلك .

وفي الجزء الاول من طبقات ابن سعد (ص ١١٥) طبعة ليدن عن ابن عباس من حديث « فتحرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جليسه عثمان (يعني عثمان بن مظعون) الى حيث وضع بصره فأخذ ينغض رأسه (نغض رأسه وبرأسه حركه) كأنه يستفقه مايقال له وابن مظعون ينظر فلما قضى حاجته واستفقه مايقال له وشخص بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السماء كما شخص اول مرة (الى ان يقول) : فتحرفت اليه وتركتني فأخذت تنغض رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك او فطنت لذلك قال عثمان نعم الخ » .

والحاصل انه استعمل فعل (استفقه) وكرره ثلاث مرات وهو هنا بمعنى (استوعب) او (استفهم) وليس في القاموس ولا التاج ولا اللسان ولا أساس البلاغة (استفقه) وكل ماهنالك المستفقهة التي تجاوب النائحة .

والحديث هو عن عبدالله بن عباس وفي الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد وقد تكررت اللفظة ثلاث مرات بحيث لامحل لاحتمال التحريف او التصحيف فضلاً عن كون القرينة تقضي بانها (استفقه) وكون القياس يؤيدها .

وقد جاء في كتاب (نوادر الحمقى والمغفلين) المائق بمعنى الاحمق . ولم أجد هذه اللفظة

بهذا المعنى لا في لسان العرب ولا في القاموس ولا في استدراكات التاج ولا في الاساس وانما وجدت في المخصص لابن سيده في الجزء الثالث طبعة بولاق في باب ضعف العقل : رجل مائق بين الموق اي الحمق ·

وجاء في المخصص في تعريف الملباجة انه الاحمق (المائق) ·

وعن ابن السكيت : الملباجة الاحمق المائق القليل العقل الخبيث الذي لاخير فيه ولا عمل عنده وبلى سيعمل وعمله ضعيف وضرسه (بفتح فسكون) أشد من عمله ولا يحاضر به القوم وبلى سيحضر ولا يتكلم ·

وراجعت أقرب الموارد لصديقنا الاستاذ الشرتوني فوجدته تابع القاموس واللسان والتاج فلم يذكر سوى ·ئق الصبي يأق مأقاً اخذته المأقة فهومئق والمأقة شبه الفواق كأنه نفس يقلعه من الصدر عند البكاء والنشيج · والمئق الباكي ومنه انت تئق وانا مئق فكيف نتفق ·

وفي الجزء الاول من طبقات ابن سعد الصفحة ٤٣ عن عثمان رضي الله عنه : خرج الى الناس فخطبهم · وقد رأيت هذا الاستعمال في غير موضع من كتب الاولين · والحال اني لم أجد في كتب اللغة خطب الناس بمعنى خطب عليهم او قال خطبة فيهم · وانما فعل (خطب) يتعدى رأساً اذا كان بمعنى طلب كأن تقول خطب وده او بمعنى طلب التزوج كأن تقول خطب فلان فلانة ·

وجاء في رسائل بديع الزمان الهمذاني فعل (تقلق) بمعنى تكلف القلق ولم يرد هذا في كتب اللغة وانما العامة تقوله · وكثيراً مايقولون رأيته متقلقاً اي في قلق · وقد يقولون : تقلق في الليل بمعنى أرق ·

وقد جاء في تاج العروس لفظة (إشهار) اتى بها عند تفسير (تنديداً) فقال (اشهاراً له) ثم عند تفسير (شاهر سيوف العدل رد الغرار الى الاجفان بسلها) فقال : يعني ان اشهار سيوف العدل كان سبباً في ذلك ·

والحال انه في مادة شهر لم يأت بها في هذا المعنى بل قال : واشهروا اتى عليهم شهر تقول العرب : أشهرنا مذ لم نلتق · وقال : شهر زيد سيفه كمنع سله يشهره شهراً · وفي حديث ابن الزبير : من شهر سيفه ثم وضعه هدر دمه اي من أخرجه من غمده للقتال ·

وفي الحديث : ليس منا من شهر علينا السلاح ·

والعامة في بلادنا تقول (شهر) الثلاثي ولا تقول (أشهر) ولكن صاحب التاج استعملها مع نقله هذا الفعل عن الفيروزابادي مجرداً ·

ولقد استعمل عبد الله بن المقفع في الدرة اليتيمة لفظة (التبخيل) بمعنى الحمل على البخل وهو استعمال صحيح ومنه الحديث عن الاولاد : انكم لتبخلون وتجبنون · وفي حديث آخر الولد مبخلة مجبنة مما يؤيد هذا المعنى ولكن لسان العرب في تعريف التبخيل لا يزيد على قوله (بخله رماه بالبخل او نسبه الى البخل) ·

وأقرب الموارد لا يقول سوى (بخله) رماه بالبخل · وراجعت ذيل أقرب الموارد لعلي أجد على ذلك استدراكاً فلم اجد ·

ولكن التاج ذكر التبخيل بالمعنى الذي جاء في الحديث الشريف والذي جاء في كلام عبد الله بن المقفع فقال : (وبخله تبخيلاً رماه بالبخل) وفسرها الزبيدي هكذا : او نسبه اليه او جعله بخيلاً ·

وفي نهج البلاغة لسيدنا علي كرم الله وجهه لفظة (التركاض) في كتابه لابن حنيف ولا تجد هذه اللفظة في كتب اللغة · وقد اشار اليها الشرتوني في ذيل أقرب الموارد ·

وفي تاريخ الوزراء للصابي (وكان محمد بن داود قد وزر لعبد الله بن المعتز ودبره) ومعناه انه كان يدبر اموره او كان مستشاراً عنده · ولم ترد هذه اللفظة في كتب اللغة على هذا الوجه بل يقولون دبر الامر ودبر الوالي البلاد ولم يقولوا دبر الوزير السلطان او الخليفة ·

شكيب أرسلان

ابن خفاجة الاندلسي

—«×»—

هو ابواسحق ابراهيم بن ابي الفتح بن عبدالله بن خفاجة شاعر شرقي الاندلس واحد وصاف الطبيعة ·

ولم نعلم من نسبه اكثر مما ذكرنا · وقرأنا ديوانه فلم نتعرف منه أكان عربي الأصل أم اعجميه ولعلنا بعد عاثرون على مايقفنا على حقيقة عنصره اذا كان في الاجل فسحة ، وللجهد ندحة ·

« الحالة السياسية والاجتماعية والادبية في عصره »

لعلك أيها القارئ ذاكر ما وصفنا به في ترجمة ابن زيدون (المنشورة في الأجزاء الماضية) احوال البيئة السياسية والاجتماعية والادبية في الاندلس عصر ذلك الرجل وما كان لها من الاثر في طباعه ومعرفته ؛ فكذلك كانت البيئة التي نشأ فيها مترجمنا لأن ابن خفاجة الا قليلاً ، فانه نشأ في وسط هذا العصر اي في زمن ملوك الطوائف ، وعاش طويلاً حتى زالت دولهم · وورث المرابطون الملثمون ديارهم وولوا عليها السادة من ابناء سلطانهم ، فشاهد كل حكمهم في الاندلس ·

وهؤلاء المرابطون وان أسس اوائلهم دولتهم على مبدإ الانتصار للاسلام والزهادة في الدنيا ، وايثار الخشونة في العيش ، فان ابناءهم في الاندلس وولاتهم بها لم يلبثوا ان حذوا حذو ملوك الطوائف في التمتع والانق ، وان لم يستطيعوا الترفيه على كل المقيمين بالاندلس من اهل العلم والادب ، اذ كان فضل جباية الأموال والثمرات منقولاً الى الحضرة بمراكش · فمن لم يستطب العيش بالاندلس ممن ادركته حرفة الأدب أجاز الزقاق الى عدوة المغرب الاقصى وافريقية ، ومن كان له بقية من تراث آبائه تبلغ

بها عن مفارقة الوطن ، وتصون عن خدمة السادة من الابناء اوالثائرين عليهم المستبدين ببعض النواحي من اهل البلاد كمترجمنا ابن خفاجة .

ولكل هذه الأحوال تأثير بين في نشأة ابن خفاجة فوق تأثير طبيعة اقليمه الذي كان يقطنه من شرقي الاندلس ، وهو مدينة شقر التي تقع على نهاية وادي نهر شقر بين بلنسية وشاطبة (وهما من اطيب البلاد واكثرها بساتين ومنازه) وعلى مقربة من بحر الروم (البحر المتوسط) وتحيط بها المياه من اكثر جوانبها حتى سميت لذلك جزيرة شقر وفيها يقول ياقوت صاحب المعجم « جزيرة شقر في شرقي الاندلس وهي أنزه بلاد الله واكثرها روضة وشجراً وماء » وفيها يقول الاديب ابو عبد الله محمد بن عائشة من قصيدة بديعة :

فيا راكباً مستعجل الخطو قاصداً الا عج بشقر رائحاً ومغاديا
وقف حيث سال النهر ينساب أرقماً وهب نسيم الأيك ينفث راقيا
وقل لأثيلات هناك وأجرع سقيت أثيلات وحييت واديا

فكان في صباه شاباً طروباً مرحاً لعوباً يستبق الى اللذات و يباكر الرياض يصفها و يناغي اطيارها ، كأنه عندليب يحط من الوادي على سرحة ، فيصدح صدحة ، ثم يتخلل منه جنات الفافاً ، فيناشد ألافاً ، طبعته على ذلك طبيعة الوادي الذي يقطنه ، والدولة التي يعيش في سلطانها ، فقد نشأ في ملك بني عبدالعزيز العامريين ومواليهم[1] المستبدين بملك بلنسية وشرقي الاندلس ، وكانوا من خير ملوك الطوائف ايثاراً للادب وحدباً على اهله وضبطاً لامور بلدهم ، فطاب العيش في اكنافهم ، واشتمل الامن على رحابهم . وكان يتاخم ملكهم الى الجنوب من موالي العامريين ايضاً ملك المعتصم بن صمادح صاحب المرية ، وطال ملكه وعز سلطانه ، حتى لم يكن في آخر ملوك الطوائف من هو أقوى منه سلطاناً عند عبور المرابطين الى البلاد غير المعتمد بن عباد .

ولم يبرح ابن خفاجة في كهولته وشيخوخته وطنه ، بل أقام في سلطان المرابطين مقرباً الى ولاتهم والسادة من ابناء ملوكهم ، متعففاً عما في ايديهم بما في يده ، متبتلاً

(١) نسبة الى المنصور بن ابي عامر الحاجب المستبد بملك بني أمية مدة المؤيد هشام .

العافية والخصب والامن في دولتهم، حتى وافاه اجله عند انتهاء اجل دولتهم باستيلاء بني عبد المؤمن من الموحدين على ملكهم ·

فقد علمت مما تقدم ان نشأته الاولى وهي سن التأدب والتحصيل كانت في بهرة عصر ملوك الطوائف ، وكانت الاندلس حينئذ غاصة بالادباء والشعراء والعلماء ، وكان ملوكها انفسهم شعراء وادباء ومؤلفين ، وكانوا على اشد تنافس في اصطفاء كل ذي إجادة واستيزار وزرائهم من جلة الكتاب والشعراء ·

فالعيش في ظلال هذا الوادي اليانع ، وعلى ساحل هذا البحر المتوسط ، وتحت سرادق هذا الرخاء الشامل ، وبين هؤلاء المثقفين بالعلم الغزير والادب الرائع ، وحوالى هذه النعمة الموروثة ، ظنين بان يخرج في أفق الادب شاعراً مثل ابن خفاجة بهجًا بالصبا لهجًا بالهوى ، ولعًا بالجمال ، متقلبًا في اللذات ، وصافاً لبدائع المشاهدات من روضات الجنات ، حتى اذا ماانقشعت سحب شبابه ، وتشتت شمل أحبابه ، وعدت شعوب على اترابه أخاص في اوبته ، وأقلع عن صبوته ، الا بقية من ذكرى أيام الصبا واجتلاء محاسن الطبيعة لاتزال عالقة بشعره سائر حياته وما فارقته الا بمماته ·

« نشأته ومعيشته »

ولد ابن خفاجة سنة ٤٥٠ هـ بمدينة (شقر) وضبطها ابن خلكان بضم فسكون وضبطها ياقوت في معجم البلدان بفتح فسكون وعندي ان ضبط ابن خلكان اقرب الى الصحة لان اسمها أعجمي هي الوادي المسمى باسمها الذي تقع هي عند مصبه وهو نهر شقر · وكتب قديمًا على المصورات التاريخية للمملكة الرومانية بشين مشمة الى الضم ·

ومدينة شقر هذه من اعمال بلنسية المشهورة بكثرة بساتينها وفواكهها الى وقتنا هذا · وجنوبي شقر مدينة شاطبة ، ولا تقل عن بلنسية في طيبها · وكلتا المدينتين اخرجت الكثيرين من فحول الادباء والقراء واهل الحديث والعربية ، ولا غرو فاذا كتنفها المدينة شقر عن يمين وشمال كان لها اثر اي اثر في تنشئة ابن خفاجة ، ولقنه من علمائها فنون الادب وعلوم العربية ، وان لم نقف على اسماء من اخذ عنهم ، ولا على شيء من اخبار تربيته الاولى غير كونه في شبابه صاحب لهو وتطرب وقصف ومجون يختلف مع احبته وندمانه الى

الرياض والبساتين ويجتلي الثمار والرياحين . ثم تاب واناب . وفي ذلك يقول الفتح بن خاقان وهو من معاصريه .

« وكان في شبيبته مخلوع الرسن في ميدان مجونه ، كثير الوسن بين صفا الانتهاك وتجونه ، لا يبالي بمن التبس ، ولا اي نار اقتبس ، الا انه نسك اليوم نسك ابن أذينة ، وغض عن ارسال نظره في أعقاب الهوى عينه » .

ولم يعرف عنه انه تكسب بالادب والشعر او خدم في دولة ملك من ملوك الطوائف بالكتابة و بالحجابة كدأب اكثر أدباء الاندلس في التعيش فقال ابن بسام صاحب الذخيرة بعد أن أثنى عليه .

« وكان مقيماً بشرق الاندلس ، ولم يتعرض لاستماحة ملوك طوائفها ، مع تهافتهم على اهل الادب » .

إذن فمن اين كان يعيش ؟ إن من قرأ ديوانه يجد في خلاله انه كان يعيش من فضل تراث خلفه له آباؤه ، وانه كان له ضيعة اوضياع يتبلغ بغلاتها ، واستغنى بها عن قصد الملوك الا اذا ظلم بمصادرة او إرهاق بضريبة ، فربما قصد بعض الملوك او امراء المرابطين في التظلم اليه ، فمدحه ببعض القصائد ، وفي ذلك المعنى قصيدته الرائية البليغة التي بعث بها الى الامير ابي يحيى بن ابراهيم يمدحه ويسأله شكر القائد الاعلى ابي عبدالله محمد بن عائشة عن بره به وحمله في امر ضياعه . واولها :

سمح الخيال على النوى بمزار والصبح يمسح عن جبين نهار

وفيها يقول في استغاثته :

حرم اذا اشتمل الطريد بظله لم يخش من جور هنالك جاري

وقوله من قطعة كتب بها الى الامير ابي بكر :

اوجهك بسام وطرفي باكر وعدلك موجود ومثلي شاكر

وتأبى اهتضامي في جنابك همة تهزك هز الريح فرع أراك

وقد نام عني ظالم لي ذاعر فيا هبة السيف الحسام دراك

وفي غير ذلك كانت صحبته للوزراء والامراء والرؤساء صحبة مؤانسة ومنادمة ، وكان تعففه عما في ايديهم داعية لاكباره في صدورهم ، ورفعه عن مرتبة الملال من

نفوسهم ، فعاش فيهم عيشة النظير لنظيره ، وحفظ على نفسه كرامتها ·

والمطلع على ديوانه يرى من خلال الاغراض التي نظم فيها الشعر انه لم يغادر شرقي الاندلس كثيراً ، وربما رحل الى غربيها في بعض الحاجات فزار اشبيلية ونواحيها ، ثم يرى انه أجاز الى عدوة المغرب الاقصى في حكم المرابطين وطالت غيبته عن الاندلس حتى تشوقها وتلهف الى العودة ، فهل كانت سفرة الى عدوة المغرب تطلبًا لتصرف في خدمة المرابطين في دار سلطانهم كما فعل كثير من أدباء الاندلس ؟ هذا ما ينافيه قوله في كثير من المواضع وما اخذ به نفسه من النصون · ولعله كان في رفع ظلامة طال الامد على الفصل فيها ، حتى تبرم بالمقام وحنّ الى وطنه ، وفي ذلك يقول من قصيدة :

فيا لشجا قلب من الصبر فارغ ويا لقذى طرف من الدمع ملآن
ونفس الى جو الكنيسة صبة وقلب الى أفق الجزيرة حنان
تعوضت من واهًا بآه ومن هوى يهون ومن اخوان صدق بخوّان
وما كل بيضاء يروق بشحمة وما كل مرعى ترتعيه بسعدان
فياليت شعري هل لدهري عطفة فتجمع أوطاري علي وأوطاني
ميادين أوطاري ولذة لذتي ومنشأ تهيامي وملعب غزلاني
كأن لم يصلني فيه ظبي يقوم لي لماه وصدغاه براحي وريحاني
فسقيًا لواديهم وإن كنت انما أبيت لذكراه بغلة ظمآن
فكم يوم لهو قد أدرنا بافقه نجوم كؤوس بين أقمار ندمان

وفي تشوقه الاندلس يقول ايضاً :

ان للجنة في الاندلس مجتلى حسن وريا نفس
فسنا صبحتها من شنب ودجى ظلمتها من لعس
فاذا ما هبت الريح صبا صحت وا شوقاً الى الاندلس

وعاش ابن خفاجة بقية عمره في نسك وزهادة وحنين الى الصبا وذكرى لفقد أحبائه ولداته لتأخر اجله ؛ ولكن كل اولئك لم يسله عن اجتلاء محاسن الطبيعة ووصفها بابلغ القول حتى وافته منيته سنة ٥٣٣ بجزيرة شقر مسقط رأسه ·

* * *

« شعره »

يعتبر ابن خفاجة من شعراء الطبقة الثانية في الاندلس اي بعد طبقة ابن هانئ ، وان لم يكن له قريع فيها ، فهو لا يقل في جزالة لفظه وتصرفه في المعاني عن اكبر شاعر بعد ابن هانئ ، وهو يفضل ابن زيدون في اختراعه كثيراً من المعاني الرائعة وحسن توليده لها ويفضله ابن زيدون في غلبة السهولة والانسجام على شعره ·

وامتاز ابن خفاجة عن سائر شعراء الاندلس في حسن وصفه لمشاهد الطبيعة وكثرة تصرفه في معاني الوصف على كثرة ولوع شعراء الاندلس بهذا الفن من الشعر ، حتى عده أدباؤهم ومؤرخوهم فريد قطره ووحيد نسجه ، بل غالى بعضهم حتى جعله في هذا الباب مقطوع النظير في المشارقة والمغاربة ، فلا يدانيه أمثال ابن الرومي والبحتري وابن المعتز والصنوبري وكشاجم والمأموني من وصافي المشارقة ، ولا ابن هانئ وابن دراج وابن وهبون وابن عمار والشنتريني والايادي وابن شرف وابن رشيق وابن حمديس من وصافي المغاربة ، وهو قول لا يخلو من شبهة ، ولا يقبل الا بعد مراجعة وتعقب · ولعلنا نشير الى ذلك بعد ·

واذا حللنا — كما يقولون — شعره من حيث أغراضه ومعانيه والفاظه استطعنا ان نجمل ذلك فيما يأتي :

أغراض شعره اي أبوابه وفنونه وضروب مقاصده فيه ·

(١) الوصف — لا يغلو من يقول إن جل بضاعة ابن خفاجة من شعره الوصف بانواعه فلا تكاد قصيدة او قطعة له تخلو منه وبخاصة وصف مشاهد الطبيعة ، وربما أحله من صدور قصائده محل النسيب وذكر الديار ، بل أدخله في كل شيء من أغراض الشعر حتى الرثاء ولذلك عد عند جمهور الادباء من اكبر وصاف الطبيعة مع انه وصف غيرها كثيراً من المشاهدات والأحوال ، الا ان وصف تلك هو الغالب عليه · ومن قرأ ديوانه وجد ان وصفه يتناول جملة أشياء ·

فقد وصف من النبات وبقاعه الرياض والبساتين والربا المخضرة والاشجار والازهار وبعض الثمار ·

ووصف من المياه ومايداخلها ، البحار وسفنها وزوارقها ، والانهار وشواطئها وصفاءها

وحصاها ، والجداول والتواءها ، والسحب والأمطار والثلج والبرق ، وما يشاكل ذلك من النار وضوئها وهو مغري بوصفها .

ووصف من السماء غيمها وصحوها وشمسها والبدر والهلال والكواكب ذوات الصور والاسماء الشهيرة كالثريا والفراقد ، والليل وطوله وقصره وظلامه والسرى فيه وهو من أحسن واصفيه .

ووصف من الحيوان الخيل وكلاب الصيد والذئاب والارانب والحيات .

ووصف من الارض الجبال والاودية والديار والمنازل وقبور الموتى .

ووصف من أحوال الانسان السواد والبياض والشيب والشباب ونبات العذار وسواد الخال والنوم وطيف الخيال ومعارك القتال .

ووصف من الادوات السيف والرمح ومحك الذهب والكاس وآنية الشراب الخ .

ولو شئنا ان نأتي لوصفه كل شيء بشاهد واحد من قوله لا تسع بنا مجال القول وعز على الطالب استحضاره ، ولكننا سنذكر بعد بعض شيء من وصفه مع جملة من شعره في الاغراض المختلفة ومن أراد الاستيعاب والتوسع فليقرأ ديوانه وهو مطبوع مشهور . ولم نأت بشيء مما ذكرنا الا بعد ان قرأناه في ديوانه .

(٢) النسيب — اكثر نسيبه من نوع الغزل الخاص بذكر الشوق والغرام وذكر محاسن النساء والغلمان على طريقة المشارقة ، ويقل في كلامه النسيب بذكر ديار العرب ومنازلها في جزيرتها ووصف الأطلال والدمن والظعائن — وقد يستبدل بالنسيب الذي يمهد به للمدح في القصائد المطولة وصف الطبيعة .

(٣) المدح — لم يتكسب ابن خفاجة بالشعر يمدح به الملوك والامراء . وتلك القصائد الطنانة التي تعد اطول قصائده انما مدح بها من ذكرنا إما استعداء على جائر عليه في امر ضياعه اواستصلاحاً لها ، وإما شكراً على يد ابتداه بها ذو سلطان ، وإما وفاء بحقوق الصحابة واستبقاء لدواعي المودة ، ويدخل في معنى ذلك تهنئة صديق بارتقاء او قائد بفتح مدينة وفي ذلك يقول :

وأنشق لوعة لعرار نجد . صبا نجد أسائلها شميا

وكنت رجوت ان اعتاض منه زعيماً او عليماً او حليما
ولما ان نظرت مع الليالي فلم أنظر بهـا الا مليما
عياماً او ڪهاماً او جهاماً لئيماً او ذميماً او زنيما
شددت على القوافي كف حر كريم لا يسوغهـا لئيما
فما أطرب اذا اطربت الا حمياً او حبيباً او حميما
ومطروراً أجرده صقيلاً ويعبوباً أكرّ به كريما

ويقصد بالحمي ذا السلطان الذي يستعين به على حماية عقاره ويستشفعه في قضاء حاجته .

ويشهد له في تأييد دعواه هذه قول ابن بسام صاحب الذخيرة في ترجمته اياه (وكان مقيماً بشرقي الاندلس ولم يتعرض لاستماحة ملوك طوائفهـا مع تهافتهم على اهل الادب) .

وابن خفاجة اذا مدح أجاد المديح وطال فيه نفسه ، واتى بمعان غريبة .

(٤) الرثاء — وهو من الاغراض التي اكثر فيها القول وأبدع فيهـا المعاني بعد الوصف . واكثر ما قاله منه في رثاء إخوانه ولداته لوفاتهم قبله وتعميره بعدهم وتوحده في قرن يغايرهم تربية وطباعاً ، ولذلك كان توجعه لفقدهم وأسفه على ماضي ايامه معهم من أبلغ كلامه اثراً في النفس وأهيجه للشجون .

وربما استهل بعض قصائده في الرثاء بما يناسب مذهبه في وصف الطبيعة كقوله :

الا ليت لمح البارق المتألق يلف ذيول العارض المتدفق
ويركب من ريح الصبا متن سابح كريم ومن ليل السرى ظهر أبلق
فيهدي الى قبر بحمص تحيـة متى تحتملها راحة الريح تعبق
فنندي لحمص اسيّ نظرة لوعة وللنجم وهناً اي نظرة مطرق

وحمص هذه التي يذكرها اسم مدينـة اشبيلية لانه نزلها بعد الفتح جند حمص من اهل الشام .

وقوله وهو من بديع الافتنان من قصيدة يتصرف فيها بجملة فنون ويرثي إخوانه :

أفيما تؤدي الريح عرف سلام ... ومما يشب البرق نار غرام
وإلا فماذا أرج الريح سحرة ... واذكى على الاحشاء لفح ضرام
اما وجمات من حديث علاقة ... يهز اليه الشيخ عطف غلام
تحلت به ما بين سلمى ومربع ... سوالف ايام سلفن كرام
لقد هزني في ربطة الشيب هزة ... أرتني ورائي في الشباب أمامي

الى ان يقول في الرثاء :

وقفت وقوف الشك بين قبورهم ... أعظمها من أعظم ورجام
واندب أشجى رنة من حمامة ... وأبكي واقفي من ذمام رمام
قضوا بين واد للسماح ومشرع ... وغارب عز في العلا وسنام

(٥) الشكوى والتوجع — وا كثر ما يكون منه ذلك في شكوى الشيب والكبرة وفوات لذات الصبا واعياء الجسم وموت الأحبة فمن ذلك قوله :

فمن مبلغ الحسناء عني انني ... خلعت نجاد السيف خلع التمائم
وكنت اذا ما أعضل الخطب لاجئا ... الى كالئ من ضرب السيف عاصم
فها أنا لا يُسرى أُواخي على السُّرى ... عِناناً ولا يُثنى تلوذ بقائم

وقوله :

الا ساجلْ دموعي يا غمامُ ... وطارحني بشجوك يا حمامُ
فقد وفيتها ستين حولاً ... ونادتني ورائي هل أمام
وكنت ومن لباناتي أُبَيْني ... هناك ومن مراضعي المدام
يطالعنا الصباح ببطن حزوى ... فينكرنا ويعرفنا الظلام
وكان بها البشام مراح أنس ... فما ذا بعدنا فعل البشام
فيا شرخ الشباب الا لقاء ... يبل به على يأس أوام
ويا ظل الشباب وكنت تندى ... على أفياء سرحتك السلام

وقوله يندب الشيب ويأسف على فوات الشباب (ويا أسفا على الشباب !) :

وما راعني الا تبسمُ شَيْبة نكرت لها وجهَ الفتاة تجهما
فمفت غراباً يصدع الشمل ابيضاً وكان على عهد الشبيبة اسحما
فآه طويلاً ثم آه لكبرة بكيت على عهد الشباب بها دما
وقد صدئت مرآة طرفي ومسمعي فما أجد الاشياء كالعهد فيهما
كأن لم يشقني مبسم الصبح باللوى ولم ارتشف من سدفة دونه لمى
ولم اطرق الحسناء تهتز خوطة وتسحب من فضل الضفيرة ارقما
ولا سرت عنها اركب الصبح اشهبا وقد جئت شوقاً اركب الليل ادهما
ولا جاذبتني الريح فضل ذؤابة لبست بها ثوب الشبيبة مُعلما

وقوله في آخر عمره وهي من لزوم ما لا يلزم :

اي عيش او غذاء او سِنة لابن احدى وثمانين سنة
قلص الشيب به ظل امرىء طالما جر صباه رسنه
تارة تسطو به سيئة تحزن العين وأخرى حسنة

وقوله :

الا عرّس الاخوان في ساحة البلى وما رفعوا غير القبور قبابا
فدمع كما سح الغمام ولوعة كما أضرمت ريح الشمال شهابا
اذا استوقفتني في الديار عشية تلذذت فيها جيئة وذهابا
اكر بطرفي في معاهد فتية ثكلتهم بيض الوجوه شبابا
فطال وقوفي بين وجد وزفرة أنادي رسوماً لا تحير جوابا
وأمحو جميل الصبر طوراً بعبرة أخط بها في صفحتي كتابا
وقد درستْ أجسامهم وديارهم فلم أر الا أقبراً ويبابا
وحسبي شجواً ان ارى الدار بلقعاً خلاء واشلاء الصديق ترابا

(٦) الفخر — واكثر فخره من نوع الفخر الحكي المزعوم المنحول الذي لا يرجع فيه الشاعر الى منقبة معروفة عنه او منسوبة لآبائه ، فهو يفتخر بالشجاعة وقهر الاقران في مواطن القتال ونيل المجد بظبي السيوف وأسنة الرماح مع انه من ارباب الأقلام لا الحسام .

نعم لا يكثر عليه تغره في بعض قصائده ومقطعاته بامتلاك ناصية الفصاحة في الشعر والكتابة لانعما كل صناعته ومنتهى غايته ، ومع ذلك فهو لا يجيده في الجملة وانما يجيد الفخر أصحاب الهمم الطامحة او النسب الشريف ، وصاحبنا كان خليعاً في صباه متزهداً متعففاً في كهولته وشيخوخته وكلتا الخصلتين مجلبة للخمول ، ولو كان له من الهمة وطموح النفس دون حاله من علو الكعب في الشعر والكتابة لافترع مرتبة الوزارة او الإمارة كما فعل غيره من أمثال ابن عمار وابن زيدون .

(٧) الحكم والأمثال — يقل في كلام ابن خفاجة الحكم والأمثال العامة في سياسة الناس وتدبير المعيشة ، وان خاض في الحكم الخاصة بالزهادة والعزلة والاعتبار بالموت وريب الزمان .

(٨) الهجاء — وأقل مافي شعره الهجاء وهو لايحسنه بطبيعته ، وانما يهجو من يكثر اعداؤه وحساده بمنافسته لهم ، وهو قد أراح نفسه بالعزلة وعدم التعرض لمزاحمة الشعراء والنظراء على أبواب الملوك .

(٩) محبة الوطن والشوق اليه — وابن خفاجة ممن غلب على قلبه حب وطنه فآثر ملازمته اكثر حياته ، ولقد قضت عليه بعض الضرورة بالجواز الى عدوة المغرب فما هو الا ان عبر الزقاق حتى ألهبت فؤاده لوعة الفراق ، وحن الى العيش بين الاهل والرفاق ، وخيل اليه ان حياته ودنياه هي الاندلس واهلها ، بل هي جنة الدنيا ومنية النفوس القصوى بل رغب بها عن الاخرى وصاح وشدا :

يا اهل اندلس لله دركم ماء وظل وانهار واشجار
ماجنة الخلد الا في دياركم ولو تخيرت هذي كنت اختار
لاتختشوا بعدها ان تدخلوا سقراً فليس تدخل بعد الجنة النار

وقال :

اجبت وقد نادى الغرام فاسمعا عشية غناني الحمام فرجعا
فقلت ولي دمع ترقرق فانهمى يسيل وصبر قد وهى فتضعضعا
ألاهل إلى أهل الجزيرة أوبة فأسكن أنفاساً واهدأ مهجعا

وأغدو بواديها وقد نضح الندى معاطف هانيك الربا ثم أفشما
أغازل فيهـا للغزالة سُنة تحط الصبا عنها من الغيم برقعا
وقد فض عقد القطر في كل تلعة نسيم تمشي بينهـا فتضوّعا
وبات سقيط الطل يضرب مسرحة ترف بواديها ، وينضح أجرعا
وأين فنـا دار الحي حبيبـة وخسبك مصطافاً هناك ومربعا
لقد تركتني بين جفن جفا الكرى وجنب ثقلى لا يلائم مضجعا
اقلب طرفي في السماء لعلني أشيم سنا برق هناك تطلعا

وقد مر بك من هذا الباب مافيه غناء . « للبحث صلة »

القاهرة : احمد الاسكندري

ضحك الجاحظ (١)

—«»—

أدرج بكم من أفق من آفاق الجاحظ تتسع فيه أفياء الحقيقة الى أفق ينبسط فيه سلطان الجمال ، ان قطع عضو من أعضاء الحيوان ، او إلقاء السم على هذا الحيوان او استقصاء صفاته اودفنه في النبات اوذوقه او بعج بطنه او جمع أضداده في إناء ، ان هذا كله لاتلتمس فيه الا الحقيقة ، وسواء أكانت هذه الحقيقة بنت الحواس أم كانت بنت العقل انها جافة واي طراوة في تجريب على ضب او على حية او على ظليم او على خنفساء او على عقرب او على جرذ او على نملة ، ولكن عبقرية البشر لايتعاظمها تصوير الحقائق في صورة يتغير فيها الجفاف الى الطراوة واليبس الى الغضاضة وهذا التصوير انما هو من عمل الفن ، فاذا أردنا ان ندرك قدرة الجاحظ عليه لزمنا ان نجنح الى الإحاطة بناحية من نواحيه تنشئ لنا لذة تروّض قوانا العقلية فيخرج العقل من هذه الرياضة أقوى سلطاناً وأمرن طبيعة وأغنى مادة .

فها انا أخرج بكم من باب علم الجاحظ الى باب فنه . ولا يخطرن على بال احد ان العلم والفن ضدان فالحقيقة أخت الجمال واذا أردنا ان نعلم مقدار اتصالها بالجمال فلنسمع ماقاله واضع علم الكيمياء الحديث ، قال (Lavoisier) : « ولما كانت الالفاظ هي التي تحفظ الأفكار وتنقلها نشأ عن ذلك اننا لا نستطيع تجويد اللغة الا اذا جوّدنا العلم ، ولا نستطيع تجويد العلم الا اذا جوّدنا اللغة ، ومهما كانت الامور أكيدة ثابتة ومهما كانت الأفكار التي تولدها هذه الأمور صحيحة اننا اذا لم يتهيأ لنا بيان صحيح يعرب عن هذه الأفكار لاتنقل الا انفعالات خاطئة .

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الآداب في دمشق سنة ١٩٣١ .

هذا مقدار عطف عالم من أجل العلماء على الفن والبكم رأي اديب يفصح عن عطفه على العلم فقد تمنى (Maurice Donnay) في خطاب خطبه في الأكادمية ان ينشأ الادب والعلم معاً كما ينشأ الشقيقان . —

فالعلم والفن صنوان ، فلنتحول الى البحث عن فن الجاحظ ، اول جهة من جهات هذا الفن تهكم الجاحظ وقبل ان أتعرض للكلام على تهكمه لا بأس بامضاء القول في اضاحيك الجاحظ .

للجاحظ ولع شديد بالضحك والإضحاك فكأنما لا ينظر الى الحياة الا من وجهها المشرق واي شيء أدلّ على فرط اهتمامه بالضحك من قراءة هذه السطور التي تمثل لنا مقدار تفننه في بيان وجوه استحسانه وتأثيره في الطباع . قال ابو عثمان[1] :

« ولو كان الضحك قبيحاً من الضاحك وقبيحاً من المضحك لما قيل للزّهَرة والحِبَرة والحَلْي والقصر المبني كأنه يضحك ضحكاً وقد قال الله جلّ ذكره : وانه هو أضحك وأبكى وانه هو أمات وأحيى . فوضع الضحك بحذاء الحياة ، ووضع البكاء بحذاء الموت ، وانه لا يضيف الله الى نفسه القبيح ولا يَمُنّ على خلقه بالنقص وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيماً ومن مصلحة الطباع كبيراً وهو شيء في اصل الطباع وفي اساس التركيب لان الضحك اول خير يظهر من الصبي وقد تطيب نفسه ، وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذي هو علة سروره ومادة قوته ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمي اولادها بالضحاك وببسام وبطلق وبطليق ، وقد ضحك النبي صلى الله عليه وسلم وفرح وضحك الصالحون وفرحوا واذا مدحوا قالوا : هو ضحوك السن ، وبسام العشيات وهش الى الضيف ، وذو أريحية واهتزاز ، واذا ذموا قالوا : هو عبوس وهو كالح وهو قطوب وهو شتيم المحيا وهو مكفهر ابداً وهو كريه ومقبض الوجه وحامض الوجه ، كأنما وجهه بالخل منضوح وللضحك موضع وله مقدار وللمزح موضع وله مقدار متى جازهما احد وقصر عنهما احد صار الفاضل خطلاً والتقصير نقصاً ، فالناس لم يعيبوا الضحك الا بقدر ولم يعيبوا المزح الا بقدر ومتى أريد بالمزح النفع ، وبالضحك الشيء الذي جعل له الضحك ، صار المزح جداً والضحك وقاراً » .

---

(١) كتاب البخلاء (مطبعة الجمهور ص ٦) .

ثم نفلت الجاحظ حجة من التحجج في دفاعه عن الضحك فهو يستعين بكل شيء في هذا الدفاع ، يستعين بالأدب وبالقرآن وبالطب وبالنبي وبالصالحين ، وهذه طريقته في تقرير معنى يستأنس به ؛ وما هذا المعنى في مقامنا الا الضحك فالجاحظ مولع بالضحك ولكنه لا يريد ان ينفرد به وانما يحاول ان يشاركه فيه قراء كتبه فكأنما يحاول ان يحمل هؤلاء القراء على النظر الى الحياة من الوجه الذي ينظر اليه منها فهو يحرص الحرص كله على إضحاك القارئ خوفاً من ملالته وسآمته فيصرف كل همه الى إدخال السرور على قلبه والنشاط على ذهنه بما يهتدي اليه من النوادر والغرائب ولقد وضح حرصه هذا في مواطن كثيرة من كتبه وخاصة كتاب الحيوان ، وما خصصت هذا الكتاب الا لأنه جعله فيه للعلم أوفى نصيب فقبل ان يتفرغ للبحث عن الضب والغول والجن والهدهد والتمساح والظبي والأرانب والظربان وغير ذلك يستوقف القارئ في مقدمة كلامه ويعاهده على إضحاكه بشيء من النوادر أو الأخبار او الإشعار خوفاً من إضجاره فمن المواطن التي استوقف فيها القارئ قبل ان يندفع في مباحث جافة وعالها فيها بالإضحاك موطن يقول فيه [1] :

« وليس من هذه الأبواب باب الا وقد يدخله نتف من ابواب أخر على قدر ما يتعلق به من الأسباب ويعرض فيها من التقصير ولعلك ان تكون بها أشد انتفاعاً ، وعلى اني ربما وشحت وفصلت فيه بين الجزء والجزء بنوادر كلام وطرف أخبار وغرر اشعار مع طرف مضاحك ولولا الذي نحاول من استمطالك على استمتاع انتفاعكم لقد كنا سجّفنا وسجّمنا شأن كتابنا » .

فأنتم ترون في هذا الكلام مقدار اعتنائه بالاشارة الى مضاحكه والتنبيه عليها . ولقد فصّل مذهبه أوضح تفصيل في قوله [2] :

— باب ذكر الحمام —

« وان كنا قد أمللناك بالجد والاحتجاجات الصحيحة والمزوجة لتكثر الخواطر وتشحذ العقول فاستنشطتك ببعض البطالات وبذكر العلل الظريفة والاحتجاجات الغريبة

(١) كتاب الحيوان الجزء السادس ص ٦ .
(٢) « « « الثالث ص ٣ .

فرب شعر يبلغ بفرط غباوة صاحبه مالا يبلغه أحر النوادر وأجود المعاني وانا استظرف امرين استظرافاً شديداً : احدهما استماع حديث الاعراب والأمر الآخر احتجاج متنازعين في الكلام وهما لا يحسنان منه شيئاً فانهما يثيران من غريب الطيب ما يضحك كل ثكلان وان تشدد وكل غضبان وان أحرقه لهيب الغضب ولو ان ذلك لا يحل لكان في باب اللهو والضحك والسرور والبطالة والتشاغل مايجوز كل فن وسنذكر من هذا الشكل عللاً ونورد عليك من احتجاجات الاغبياء حججاً فان كنت ممن يستعمل الملالة وتعجل اليه السآمة كان هذا الباب تنشيطاً لقلبك وجماماً لقوتك ولنبتدئ النظر في باب الحمام فقد ذهب الكلال وحدث النشاط وان كنت صاحب علم وجد وكنت ممرناً موقحاً وكنت الف تفكير وتنقير ودراسة كتب وحلف تبيين وكان ذلك عادة لك لم يضرك مكانه من الكتاب وتخطيه الى ما هو أولى بك وعلى اني عزمت والله الموفق اني أوشح هذا الكتاب وأفصل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب الى باب ومن شكل الى شكل فاني رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة اذا طال ذلك عليها وماذلك الا في طريق الراحة التي اذا طالت أورثت الثقلة واذا كانت الأوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح وما غايتنا من ذلك كله الا ان تستفيدوا » .

وللجاحظ مقامات كثيرة أشار فيها الى ولعه بالإضحاك اكتفي بالقدر اليسير الذي ذكرته تفادياً من التطويل . ولقد كان في تكريره هذه الاشارة دليل واضح على شغل ذهنه بالاضحاك ، واذا علمنا ان الجاحظ عاش في عصر نقلت فيه كتب الهند وترجمت حكم اليونانيين وحولت آداب الفرس ، اذا علمنا ان عصر الجاحظ كان عصر حساب وطب ومنطق وهندسة وفلسفة وفلاحة وتجارة وغير ذلك من الأبواب التي قد تتعب الأذهان وتجهد العقول ، اذا علمنا هذا كله لم نعجب من ميل الجاحظ الى الاستنشاط ببعض البطالات وبذكر العلل الغاربة والاحتجاجات الغريبة .

ولكن العلم وحده وما طبع به من طابع جاف لم يكن السبب الاكبر الذي من اجله لجأ الجاحظ الى الاضحاك حرصاً على نشاط القارئ ، افلم يضع كتاب البخلاء الذي

قال فيه [1] :

« ولك في هذا الكتاب ثلاثة اشياء : تبيُّن حجة طريفة ، او تعرف حيلة لطيفة او استفادة نادرة عجيبة ، وانت في ضحك منه اذا شئت وفي لهو اذا مللت الجد » .

ولقد ذهب بعضهم الى ان ما تضمنه هذا الكتاب من احتجاج الاشحاء ونوادر أحاديث البخلاء لا صحة له وانما الجاحظ توخى في هذا كله مجرد الضحك والاضحاك على اني لا أستغرب شيئًا مما ورد في كتاب البخلاء . فقد تكون نوادره صحيحة ومن عرف اخبار البخلاء وجالسهم وخالطهم لا يستبعد كتاب الجاحظ في احتجاجهم ونوادرهم فضلاً عن ان الجاحظ لم يخترع الاسماء اختراعًا فقد قال في مقدمة البخلاء [2] :

« وقد كتبنا لك أحاديث كثيرة مضافة الى أربابها واحاديث كثيرة غير مضافة الى اربابها ، اما بالخوف منهم واما بالاكرام لهم » .

وكيف كان الأمر فلا يخرج كتاب البخلاء عن الإضحاك كما لم يخرج طبع الجاحظ عن الضحك والإضحاك وربما ذهب في هذا الباب مذهبًا ابعد فعمد الى الادب المجرد وسمى الاشياء باسمائها دون شيء من التورية وسيأتي الكلام على هذا المذهب .

يستخرج من كل ما تقدم ان الجاحظ مولع بالضحك والإضحاك وقد اجتمع له في هذا المعنى ما لا يسهل اجتماعه لغيره : خلقة مشوهة تعين على المزح والظرف وربما كانت مصدر الضحك والاضحاك وطبع على الهزل فالجاحظ مطبوع على الهزل لا تفوته النكتة ولو في ديوان الخلفاء وانتم تعلمون ما صنعه بابن العيناء لما تقلد خلافة ابراهيم بن عباس الصولي على ديوان الرسائل ، مولع بالنادرة ولوجلبت له هذه النادرة اشد الأذى ولم يفتكر ما فعله بمحفوظ النقاش فقد اكل اللبأ كله ولم يعبأ بفالجه طمعًا في الضحك والنشاط والسرور ومن فرط اهتمامه بالظرافة يخالط اهل الهزل ويروي من النوادر ولو على نفسه من هذا القبيل قوله :

فأما الذي اصابني انا من الذبان فاني خرجت امشي من عند ابن المبارك أريد دير

(١) كتاب الحيوان الجزء الثالث ص ٥ .

(٢) 〃 〃 〃 〃 ص ٨ .

الربيع ولم أقدر على دابة فمررت في عشب ونبات ملتف كثير الذبان ، فسقط ذباب من ذلك الذبان على أنني فطردته ، فلم اقدر ، فتحول الى عيني فزدت في تحريك يدي ، فتنحى عني بقدر شدة حركتي وذبي عن عيني ، ولذبان الكلأ والغياض والرياض وقع ليس لغيرها ثم عاد اليّ فعدت عليه ، ثم عاد فعدت باشد من ذلك فلما عاد استعملت كمي فذببت به عن وجهي ثم عاد وانا في ذلك أحث السير اؤمل بسرعة انقطاعه عني فلما عاد نزعت طيلساني من عنقي فذببت به بدل كمي فلما عاود ولم اجد له حيلة استعملت العدو ، فعدوت منه شوطاً لم اتكلف مثله مذ كنت صبياً فتلقاني الأندلسي فقال لي : مالك يا اباعثمان ، هل من حادثة ؟ قلت : نعم ، أريد ان اخرج من موضع للذبان عليّ فيه سلطان فضحك حتى جلس وانقطع عني وماصدقت بانقطاعه عني حتى نباعد جداً[1] » .

كلف الجاحظ بالإضحاك امر بيّن وقد بسط مذهبه هذا في أكثر كلامه ولست في حاجة الى ذكر نادرة من نوادره في اثناء كلام له على بعض الحيوان او على الفلسفة اوعلى الدين فان هذه النوادر مبعثرة في كتبه والحقيقة ان الذهن قد تتعبه امور العلم فيحتاج الى التنشيط فبين الجاحظ يمضي القول في العقرب وفي مقدار الانتفاع برمادها وفي طليها الانسان ونحوه وفي استخراجها من بيوتها اذ تمن على باله نادرة سمعها من ابي عبيدة فيقول[2]

« قال ابوعبيدة : لسعت اعرابياً عقرب بالبصرة فخيف عليه واشتد جزعه ، فقال بعض الناس : ليس شيء خير له من ان تفسل له خُصية زنجي عَرِق ، وكانت ليلة غميقة ، فلما سقوه قطب فقيل : طعم ماذا تجد ، قال : طعم قِرْبة جديدة » .

أو يخبره محمد وعلي ابنا بشير بهذا الخبر فيرويه فيقول[3] :

« ان ظئراً لسليمان بن دباس لسعتها عقرب فملأت الدنيا صراخاً ، فقال سليمان : اطلبوا لها هذه العقرب فان دواءها ان تلسعها لسعة أخرى في ذلك المكان ، فقالت العجوز : قد برئت وقد سكن وجعي ، لاحاجة لي في هذا العلاج ، قال : فأتوه بعقرب لا والله ماندري أهي تلك ام غيرها ، فأمر بها فأمسكت ، فقالت : نشدتك بالله وباللبن فأرسلها

(١) كتاب الحيوان الجزء الثالث ص ١٠٧ .
(٢) « « « الخامس ص ١١١ .
(٣) « « « « «

عليها ، فلسعتها ، فغشي عليها ومرضت وتساقط شعر رأسها ، فقيل لسليمان في ذلك فقال : يامجانين لا والله ان ردّ عليها روحها الا اللسعة الثانية ولولا هي لقد كانت ماتت » .

ولا شك في أن أمثال هذه النوادر تخفف من مؤونة البحث والتنقير والتعمق والتدقيق ، واذا جاز لنا ان نؤاخذ الجاحظ بشيء في هذا الباب فانما نؤاخذه في بعض الاحايين بفرط ولعه بالإضحاك فقد يخرجه غلوه في هذا المعنى عن المقدار فيرسل مثلاً في كلامه على بعض الحيوان أحاديث ونوادر من الشعر قد لا تتعلق بهذا الحيوان ، فكأنما الجاحظ يريد ان يضحك القارئ ويسره كيف كان الامر ، فهو يتعمد هذا الإضحاك أحياناً وهنا موطن الكلفة وموقع الإفراط فاذا تعمدنا الإضحاك فقليلاً ما نضحك والنادرة ان لم تكن بنت الطبع كانت فاترة .

وهذا المذهب الذي يلجأ اليه ليس فيه شيء من قوارص الكلام وربما أوحاه اليه عصره وطبعه وقد قلّد فيه الاوائل وتمم قوله في هذا المعنى : واذا كانت الاوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة ... ولكننا لا ندري من هم الاوائل ، أهم العرب أنفسهم ؟ ام هم اليونانيون ام الفرس ام اهل الهند ؟ وفي كل حال لم يتوخ الجاحظ في إضحاك القارئ الا التنشيط والاستجمام وسنتعرض في الاسبوع الآتي للمذهب المبني على القوارص وهو التهكم .

دمشق : في ٢٨ تشرين الثاني سنة ١٩٣١

الحلاج (١)

رجلٌ شعوبيٌّ عُرِف بالكتابة والشعر والتصوّف والزهد ثم شاع عنه ادعاء الربوبية (والعياذ بالله) اسمه الحسين بن منصور ويكنى بابي مغيث . ولد في البيضاء بفارس من أعمال سجستان ونشأ بواسط والعراق وهو مجهول تاريخ الولادة ولا نعلم شيئاً عن كيفية نشأته ودراسته قبل ان ذهب الى مكة المكرمة فقد اقام فيها مجاوراً زمناً طويلاً وقُتل في بغداد على عهد خلافة المقتدر ووزارة حامد بن العباس وذلك يوم الثلاثاء لسبع او ست بقين من ذي القعدة سنة ٣٠٩ للهجرة على ما سيجيء تفصيله وهو احد الذين قُتلوا في زمن العباسيين لقول روي عنهم او شعر نُسب اليهم كبشار بن برد الذي قتله المهدي لقوله :

لا يؤيسنك من مخدَّرةٍ   قولاً تغلظه وان جرحا
عسر النساء الى مياسرة   والصعب يركب بعدما جمحا

وكصالح بن عبد القدوس الذي اتهم عند الخليفة بالزندقة فأنكرها وأصرَّ على صحة عقيدته وكان شيخاً مسناً فاستتابه وعفا عنه حتى اذا خرج من حضرته قال القاضي وكان يريد قتله هذا يا امير المؤمنين الذي يقول :

والشيخ لا يرجع عن غيه   حتى يوارى في ثرى رمسه

فكيف يتوب عن شيء قد ألفه فاسترده الخليفة وامر بصلبه فصُلب .

وهكذا جرى بالحلاّج فانه اتهم باقوال داعية للشبهة صادرة عن لسانه وابيات شعر منسوبة اليه فيها ما يدعو الى الشك والارتياب فأُخذ ثم جودل فامتحن فضُرب فعذّب ثم

---

(١) مأخوذ من حلج القطن اي تجريده من قشوره وبزوره وتنقيته على ماهو معروف قيل لقب بذلك لانه جاء حلاجاً في دكانه وكلفه الذهاب في غرض له فمضى الرجل وعاد فوجد قطنه كله محلوجاً .

قتل وشهّر للناس وكان كل ذلك جائزاً مألوفاً في ذلك العهد عهد السيطرة على الآراء والضمائر . واخذ الناس حتى بالشبهات صيانة للحوذة وزوداً عن العقيدة ولا سيما بعد ان ظهر من الاباضية والشراة وسائر الخوارج واهل المذاهب الباطنية ماظهر مما أزعج الاسلام وارمضه ردحاً طويلاً وهو لا يزال في رغد شبابه ومقتبل ازدهاره .

ولقد صحب الحلاّج حال حياته القاسم بن الجنيد والثوري والحسن البصري وعمرو بن عثمان المكي والفوطي وتتلمذ على بعضهم وبعد ان مات على هذه الصورة قال عنه ابو العباس ابن عطاء ومحمد بن حنيف وابو القاسم النصراباذي وغيرهم كثيرون انه طاهر الجيب نقي الصحيفة صحيح العقيدة وانه احد الاقطاب الربانيين والجهابذة المحققين . والحق يقال انه لم يوجد احد تباينت فيه آراء العلماء وتضاربت أقوال المؤرخين وارباب السير والمتفقهين كالحلاّج فانهم اختلفوا في وصف حاله وقاله والحكم على سريرته وعلانيته اختلافاً بعيداً حتى تعذّر على المستشرق المحقق الدقيق استجلاء الواقع معها امعن في مطالعاته وبالغ في درس واستقصاء ما كتب عنه وله وعليه مع ان الكاتبين عنه — على ماحقق العلامة السيد ماسينيون الفرنسي قد بلغوا حتى هذا القرن الستمائة والستة وثلاثين مابين عربي وفارسي وهندي ومغربي واوروبي — فالعباس بن سُريج كان يقول اذا سئل عنه « هذا رجل خفي عني حاله فلا اقول فيه شيئاً » بينما تجد ابن خلكان على علمه وفضله يصرح بتسوئته ويقول بان اكثر علماء زمانه افتوا باباحة دمه ثم لم تبرح ان ترى القُشيري محبذاً كلامه وآراءه مثنياً عليه مزكياً له ، ويتابعه في ذلك الامام الغزالي الشهير الذي افرد للكلام عنه فصلاً طويلاً ضافي الذيل خرّج فيه ما كان داعياً الى الشك من كلامه تخريجاً حسناً وبرّأ ساحته من كل ما استنكره الناس ناسباً كل ذلك الى شدة الوجد في الكمالات الالهية والتوله في جمال صفاتها المطلق . اما ابن الاثير والقزويني وغيرهما ممن تابعهما فيقولون انه كان في بدء نشأته زاهداً متصوفاً يظهر الكرامات ويجترح الآيات ويأتي بالخوارق والمعجزات حتى انه كان يركب الاسد ويتخذ الحية سوطاً ويأتي بفاكهة الشتاء في الصيف وبفاكهة الصيف في الشتاء ويمد يده في الهواء فيعيدها مملوءة دراهم يسميها دراهم القدرة مكتوباً عليها «قل هو الله احد» ويخبر الناس بما اكلوه وماصنعوه في منازلهم ومشاغلهم — كما كان يفعل الحاكم بامر الله الفاطمي في مصر عندما ادعى الالوهية فافتتن به خلق

كثير واعتقدوا فيه الحلول فقال بعضهم انه رب قدير وقال غيرهم انه ولي كبير وقال آخرون انه ساحر مشعوذ كذاب تطيعه الجن والعفاريت فتأتيه بالفاكهة في غير اوانها الى غير ذلك من متلونات الأفواه بل مما تطيش ببعضه الألباب وتحار بجزئه منه المدارك . ومن المأثور من اقواله اثناء تواجده في محبة الله عزّ وجل :

انا من اهوى ومن اهوى انا   نحن روحان حللنا بدنا
فاذا ابصرتني ابصرته   واذا ابصرته ابصرتنا

فالحلاّج هذا على ما رأيت اختطّ طريقةً من الشعر لم يسبقه اليها سواه وانما تابعه عليها بعده كثيرون من كبار المتصوفين الروحانيين كالامام بن الفارض المصري صاحب الديوان المشهور والشيخ محيي الدين بن عربي(١) وغيرهما ممن اتخذوا الشعر وسيلةً لبيان تجردهم عن الدنيا وولوعهم بكمالات الله ووصفها وصفاً يدعو الى الحيرة بتفسير ما يرمدونه من اقوالهم المألوفة عرفاً وعقلاً على نحو قول الحلاّج هذا :

عجبت منك ومني   اغنيتني بك عني
ادنيتني منك حتى   ظننتُ انك اني

وقوله وهو عسير التفسير جداً على من لم يطلع منه او من احد مريديه على ما يريد :

ارسلت تسأل عني كيف كنتُ وما   لاقيتُ بعدك من همّ ومن حزنِ

(١) ذكره صفي الدين ابن ابي المنصور كقطب من الاقطاب الربانية وقال عنه الذهبي انه لولا شطحه في الكلام لم يكن به بأس . ولعل ذلك في حالة سكره بالمحبة وغيبوبته . ولد بمرسية سنة ٥٦٠ وتوفي في دمشق سنة ٦٠٨ للهجرة . ومن شعره الذي يجري مجرى نظم الحلاّج قوله :

قلبي قطبي وقالبي اجفاني   سرّي خضري وعينه عرفاني
روحي هارون وكليمي موسى   نفسي فرعون والهوى هاماني

ومن قوله في الغزل القدمي :

سروا وظلام الليل ارخى سدوله   فقلت لها صبًا غريبًا متيما
فأبدت ثناياها واومض بارقٌ   فلم ادر من شق الحنادسَ منهما
وقالت اما يكفيه اني بقلبه   يشاهدني في كل وقت أمامَا

لا كنتُ ان كنتُ ادري كيف كنت ولا   كنتم اذا كنتُ ادري كيف لم اكن

وكقول ابن الشلمغاني[1] وهو يدلّ على مذهب الحلول الذي تبرأ منه ابن الفارض في قصيدته التائية :

بكمُ اتحدث هوًى فلو حييتكم   قلت السلام عليّ اذ انتم انا .

والذي دعانا الى ترجمة الحلاّج في هذه المجلة انما هو هذه الجهة من جهات حياته اي كونه اديباً متكلماً ينظم شعراً عربياً خالص العروبة لا مغمز فيه ولا لحن يذهب فيه مذهباً غريباً يرمي الى مرامٍ روحانية كلها رموز واشارات لا سبيل الى تفسيرها تفسيراً جليًا جازماً

(١) هو ابو جعفر محمد بن علي الشلمغاني الكاتب المعروف بابن ابي العزاقر ولد في شلمغان ولا يُعرف تاريخ ولادته ولا كيفية تعلمه ودراسته وغاية ما علمناه في بدء امره اتصاله بابي القاسم بن روح الذي يسميه الامامية الباب وكان من خواص الوزير حامد بن العباس ثم تفارقا واتصل ابن الشلمغاني بالمحسن بن ابي الحسن بن الفرات في وزارة ابيه الثالثة للمقتدر فشاع عنه اذ ذاك ادعاء الربوبية واحداث مذهب جديد فطُلب في وزارة الخاقاني فلم يوجد بل فرّ الى الموصل واستتر هناك عند ناصر الدولة الحمداني ولما احسّ بانقطاع الطلب عاد الى بغداد سنة ٣٢٢ وتبسط في اظهار مذهبه حتى قال عن نفسه انه رب الارباب وظهر له اشياع فقبض عليه الوزير ابن مقلة في شهر شوال من تلك السنة وأُخذ معه ابن عبدوس وابن ابي عون ثم ضبط من داره رقاع ورسائل يخاطبه بها مريدوه خطاب العباد لمعبودهم فعرضت الخطوط على الناس فعرفوها واقرّ بها ابن الشلمغاني ولكنه انكر ادعاء الربوبية والخروج عن السنة ولما أُمر صاحباه بصفعه صفعه ابن عبدوس وامتنع ابن ابي عون مقبلاً لحيته ورأسه ثم قال « الٓهي وسيدي ورازقي » بعد ان الرجل ردّ دعواه ولبث مصراً على الانكار بحضرة الخليفة الراضي بالله وجمع غفير من الفقهاء وبعد اخذ وردّ طال امره أفتى هؤلاء باباحة دمه ودم كل من ابي عون والحسين بن القاسم بن وهب الذي وزر للمقتدر وقد وجد بخطه وتوقيعه كتاب الى ابن الشلمغاني يعترف فيه بربوبيته فصلب هو وابو عون في بغداد وأُحرقا بالنار وكان الحسين في الرقة فقتل هناك وحمل رأسه الى بغداد وكان ذلك في شهر ذي القعدة من سنة ٣٢٢ هجرية وهذه الحادثة تشاكل من اكثر وجوهها حادثة الحلاّج وكلتاهما وقعتا في عصر واحد وبين الاولى والثانية ثلاثة عشر عاماً فقط .

فيه مقنع لذوي الافهام كأنما القصد منها منذ إنشائهـا ان تكون كالأحاجي مغلقة مبهمة وان كانت منسجمة الألفاظ صحيحة التراكيب كقول الحلاّج عندما أخرج بباب الطاق للتعذيب والقتل :

نديمي غير منسوبٍ الى شيء من الحيف
سقاني مثلما يشرب بفعل الضيف للضيف
فلما دارت الكأس دعا بالنطع والسيف
كذا من يشرب الراح مع التنين بالصيف

وكان قد قال قبلما فارق الحبس « حسب الواحد افراد الواحد له » وكلا القولين مما لايستطاع دركه واستجلاء معناه بخلاف ماقاله وهو على الخشبة حيث كانت روحه تفيض بين السوط والسيف :

طلبتُ المستقرّ بكل ارضٍ فلم ارَ لي بارضٍ مستقراً
اطعتُ مطامعي فاستعبدتني ولو اني قنعتُ لكنتُ حرا

وهو قول بليغ واضح القصد جليّ المعنى يعرب عن زيادة طموح صاحبه الى المجد وحرصه على التفوق والشهرة ، ثم ينمّ في الشطر الاخير منه عن ندمه واسفه لإقدامه على المركب الخشن الذي اختاره سلماً يرقى به الى ذروة أمنيتـه وهي جلب إعجاب الناس وحيرتهم وتوخي فتنتهم عن طريق الاغراب في الأقوال والشذوذ في الأفعال مما ادّى به اخيراً الى تلك الخاتمة التعسة الاليمة وجعله في التاريخ علماً يستحق الرثاء أزاء ما كابده من ضروب المحنة واصناف البلاء .

فالحلاّج إذن شاعرٌ له مزية على غيره هي تفرده بطريقة اختطهـا لنفسه يريد منها امراً خاصاً خفيت حقائقه عنا وان كنا نستخرج منها هنا حبّ الاشتهار عن طريق الفلسفة في العقائد . ولكي يتسنى لنا تصوير حالة الرجل لقرائنا الافاضل من حيث خلقه وحذقه واقتداره العجيب على إدهاش معاصريه باظهاره غرائب الاعمال وخوارق العادات والشذوذ في سائر مناحيه الكلامية والمعاشية نبسط لهم هنا ملخص ماروى الثقات من سيرة حياته فنقول :

بعد ان قدم الحلاج من خراسان الى العراق — وكان اذذاك مجهولاً خامل الذكر –

أزمع الرحلة الى مكة المكرمة فأقام بها على ماقيل سنةً كاملة في العراء لا يستظل تحت سقف وكان يصوم بياض نهاره حتى اذا أمسى احضر له القوام ماء وقرصاً من الخبز فيشرب الماء ثم يعض من القرص ثلاث عضات ويترك الباقي . وكان شيخ الصوفية بمكة اذ ذاك عبدالله المغربي فلما اشتهر امر الحلاج اخذ اصحابه ومشى الى زيارته فوجده في جبل ابي قبيس جالساً على صخرة مكشوف الرأس حافي القدمين يتصبب العرق من جسمه متتابعاً فعاد باصحابه من حيث اتى ولم يكلمه . بل قال عنه لسائليه « هذا رجل يتقوى على قضاء الله فلسوف يبتليه سبحانه بما يفوق صبره وقدرته » ومنذ ذلك الحين شاع ذكره وذاع امره واخذ يتقول عنه الناس اموراً كلها غرائب وأعاجيب . قيل انه خرج يوماً من الحمام فلقيه بعض الهازئين به المخالفين له فصفعه صفعةً شديدة فقال يا هذا لمَ صفعتني . قال الحق أمرني بذلك فقال بحق الحق اردفها باخرى فلما رفع يده يبست . وقال القزويني لما ظهر قوله « انا الحق » وتكلموا فيه قالوا له تداركاً للامر قل « انا أُحقّقُ » بهمز الألف وتخفيف القاف فقال لا اقول الا انا الحق فأساؤا الظن فيه وقال له احدهم ان كنت صادقاً فامسخني قرداً فقال لو هممت بذلك لكان نصف العمل مفروغاً له . ومما قاله في استنكار الناس لقوله انا الحق :

سقوني وقالوا لا تغنِّ ولو سقوا جبال حنينٍ ما سُقيتُ لغنَّتِ
تمنَّت سليمى ان نموت بحبها واهون شيءٍ عندنا ما تمنَّتِ

ومما قاله متزهداً :

دنيا تخادعني كأنـ ـي لست اعرف حالها
حظر المليك حرامها فانا اجتنبت حلالها
فمتى طلبت زواجها حتى اردت وصالها
ورايتها محتاجةً فوهبتُ جملتها لها

قال بعضهم لقيتُ الحلاج فأنشدني :

ولي نفس ستتلفُ اوسترقى لعمر ابي الى امر عظيم

وهذا مما يؤيد القول ايضاً انه من اولئك الافذاذ الشديدي الطموح الى عالم الظهور

والاشتهار ولو عن هذا الطريق الوعر المسلك فعثر ومن لم يسلك الجدد هيهات ان يأمن العثار ·

قال عبدالله محمد بن حبيب دخلتُ على الحلاج وهو محبوس مقيد فرأيته يبكي ولما أدركته الصلوة رأيته نهض وقد سقطت عنه القيود فصلى · فقلت ياهذا لمَ لم تخلص نفسك قال ما انا بمحبوس ثم انشد :

والله لو حلف العشاق انهمُ   موتى من الحب او قتلى لما حنثوا
قوم اذا هُجروا من بعدما وُصلوا   ماتوا وان عاد وصلٌ بعده بُعثوا
ترى المحبين صرعى في ديارهم   كفتية الكهف لايدرون كم لبثوا

ثم قال : يا ابن حبيب لايكون الحزن الا لفقد محبوب وفوات مطلوب وهمُ الناس على قدر احوالهم واحوالهم مطبوعة بعلم الغيب وعلم الغيب محجوب عنهم · فالخلق كلهم حيارى وأنشأ يقول :

أنين المريد لشوق يزيد   انين المريض لفقد الطبيب
قد اشتد حال المريد فيه   لفقد الوصال وبعد الحبيب

ثم قال ايضاً ياابن حبيب حججت الى زيارة القديم فلم اجد لقدمي موطئاً من كثرة الزائرين فوقفتُ وقفة المبهوت فنظر اليَّ نظرة فاذا انا متصل به ثم قال من عرفني ثم أعرض عني ؟ فقلت :

عذابه فيك عذبُ   وبعده عنك قربُ
وانتَ للعين عينٌ   وانت للقلب قلب
حتى من الحب اني   لما تحب احب

وقيل في سبب قتله انه نقل عنه الى الوزير حامد بن العباس انه يحيي الموتى وان الجن يخدمونه ويحضرون له مايشتهي وان نصراً حاجب الخليفة يقول بقوله ويميل الى رأيه فالتمس الوزير من الخليفة المقتدر ان يسلّم اليه والحّ في ذلك كل الالحاح فسلّم اليه على الرغم من نصر ودفاعه فأخذه حامد واخذ معه انساناً يُعرف بالشمري وغيره ممن يعتقدون انه إله فقررهم فاعترفوا بربوبيته وانه يحيي الموتى وقابلوا الحلاج على ذلك فانكره وقال حاشا لي ان أدعي الربوبية او النبوة انما انا رجل اعبد الله عز وجل فاحضر حامد القاضيين

ابا عمرو ابن العلاء وجعفر بن بهلول وجماعة من وجوه الفقهاء فاستفتاهم فما أفتوا بشيء بل قالوا لا يجوز قبول من يدعي عليه الا ببينة او إقرار وكان حامد يخرج الحلاج مراراً الى مجلسه فيستنطقه فلا يصدر عنه ما يخالف الشرع او يوجب المؤاخذة وطال الامر على ذلك والوزير مجدٌّ في امره يلتمس علة ليقتله بها وجرى له معه امور يطول شرحها الى ان رأى الوزير كتاباً له ورد فيه ان الانسان اذا أراد الحج ولم يمكنه افرد من بيته حجرة طاهرة لا يدخلها احد فاذا ازفت ايام الحج يطوف حولها وبعد ان يفعل ما يفعله الحجاج بمكة يجمع ثلاثين يتيماً ويطعمهم ويخدمهم بنفسه ثم يكسوهم ويعطي كل واحد منهم سبعة دراهم فاذا فعل ذلك كان كأنه حج فلما قرئ هذا في المجلس قال القاضي للحلاج من اين لك هذا قال من كتاب الاخلاص للحسن البصري فقال القاضي « كذبت يا حلال الدم » فقد سمعناه في مكة وليس فيه هذا فلما سمع الوزير قوله له « يا حلال الدم » طالبه بالافتاء كتابة فدافعه ابو عمرو ولكن حامداً ألزمه فكتب باباحة دمه وكتب بعده من حضر فلما سمع الحلاج قال لهم « ظهري حمى ودمي حرام وما يحل لكم فاعتقادي الاسلام ومذهبي السنة ولي كتب في السنة فالله الله في دمي » ولم يزل يردد هذا القول وهم يكتبون حتى انصرفوا من المجلس وحمل الحلاج الى السجن وكتب حامد الى المقتدر بما كان فعاد الجواب انه يسلم الى صاحب الشرطة حيثما يضرب الف سوط فان مات من الضرب والا فليضرب الف سوط أخرى ثم يضرب عنقه فسلمه الوزير الى صاحب الشرطة وقال له ان لم يتلف بالضرب تقطع يده ثم رجله ثم يده ثم رجله ، ثم تحز رقبته وتحرق جثته فأخرج الى باب الطاق صبيحة يوم الثلاثاء في ٢٣ ذي القعدة سنة ٣٠٩ كما قلنا وقد اجتمع خلق كثير لا يحصى عددهم فأتم الشرط ما أمروا به مع كمال القسوة فلم يتأوه ولم يتوجع لحز رأسه بعد قطع أطرافه وأحرقت جثته ولما صارت رماداً ألقيت في دجلة ونصب الرأس على جسر بغداد ليراه اصحابه واشياعه ثم أرسل الى خراسان حيث يوجد له مريدون يقولون برجعته بعد اربعين يوماً وهم ينسبون اليه من خوارق المعجزات ما لا يجدر بنا سرده هنا وآخر ما اتصل بنا من شعره قوله :

لم يبق بيني وبين الحق اثنان ولا دليل بآيات وبرهان
لكن الدليل له منه اليه به وقد وجدناه في علم وفرقان

هذا وجودي وتصريحي بمعتقدي   هذا توحد توحيدي وايماني
لا يستدل على الباري بصنعته   وانتمُ حدثٌ ينبي بازمان

والأدعى الى الغرابة والدهشة ان يقوم في القرن العشرين اي بعد مرور زهاء الف سنة على قتل الحلاج رجل كالسيد ماسينيون من كبراء علماء المشرقيات من الفرنسيس فيخصص شطراً من صفوة ايامه ولباب حياته باحثاً عن الحلاج وعلم الحلاج ومذهب الحلاج وعدد من كتبوا اولاً واخيراً عن الحلاج من عرب وعجم وترك وهنود واوربيين وما هي كتبهم واين طبعت واين توجد ومن هم اولئك الكاتبون وما هي اللغات التي كتبوا فيها وما هي مؤلفات الحلاج وماذا قيل عن حياته وماذا قال ابنه عنه وشفع كل ذلك بصفحة مطبوعة بالزنكوغراف مأخوذة من كتاب عربي خطي الفه المرحوم السيد محمد سعيد القاسمي في الصناعات الشامية قال عنه انه من جملة كتب ابنه المغفور له السيد جمال الدين القاسمي وتقتصر هذه الصفحة على تعريف اسم الحلاج وما هي صناعة الحلاجة وكيف يحلج القطن وما هي الآلة التي يحلج بها العامة القطن ، ثم يجمع — اي ماسينيون — كل هذا في كتاب بالفرنسية يقع في مجلدين ضخمين .

ولقد اتينا استطراداً بهذه الاشارة لكي يرجع الى الكتاب من يرى من وقته متسعاً وفي نفسه ارتياحاً للاشتغال على هذه التفاصيل وغيرها مما يخرج عن الغاية التي نتوخاها من مقالتنا وهي تعريف حياة الحلاج من حيث هو شاعر ذو خطة معينة وطريق خاص كما قدمنا لا من حيث آراؤه الدينية وما ترتب عليها من العقاب السياسي فان كلا الموضوعين — الدين والسياسة — يخرج عن دائرة العمل عندنا ولم نذكر ما ذكرناه من هذا القبيل إلماماً وإلماعاً الا توصلاً للهدف الذي نرمي اليه من ايقاف المطالعين على مزية الرجل الشعرية والأدبية واتخاذه اياها وسيلة للخطة التي اختارها لنفسه في معترك هذه الحياة ليس الا .

على اننا نصرّح هنا اننا لم نر فيما قرأناه حتى الآن من تراجم احوال الرجال حياةً اكثر غرابةً وشذوذاً وميتةً اعظم عبرةً واشد هولاً من حياة هذا الرجل وميتته فانهما مرآة وضاءة ترسم لنا بُعد الانسان مهما ارتقى الى مراتب الحضارة والعبقرية والعلم عن ذروة الكمال والله وحده ولي المرجع والمآل .

دمشق : سليم عنحوري
عضو المجمع العلمي العربي

المهاجرة

لقد سحت في بلاد الغرب نحو عشرة اشهر صرفت معظمها في الولايات المتحدة الاميركية واجتزت تلك البلاد من الشرق الى الغرب وزرت اعظم ولاياتها ومدنها وشارفت عن كثب حالة السوري المهاجر فيها ، ومع ان الوقت الذي صرفته هنالك لااحسبه كافياً لاعطاء رأي حاسم في المهاجرة ، فها انا انقل لابناء بلادي باخلاص تام رأياً اعتقده صواباً غير مدع العصمة فيه او التفوق فيما انقله وابديه .

يرجع عهد المهاجرة الاول الى منتصف القرن الماضي على وجه التقريب وهو زمن الطلائع ولكن المهاجرة كانت على أشدها في الربع الاخير منه وفي اوائل هذا القرن حتى وقوع الحرب الكبرى ثم بعد انتهائها وليس هنالك احصاء دقيق لعدد المهاجرين من بلادنا يمكننا الرجوع اليه انما يعتقد العارفون ان هنالك على اقل تقدير ما يقارب نصف المليون من السوريين واللبنانيين والفلسطينيين المهاجرين الى الاميركتين وجزر البحر واوقيانوسيا وغربي افريقية وجنوبيها وشماليها واكثرهم من خيار الشبان الاقوياء . ففي بعض مدن الغرب الكبرى كنيو يورك وبوسطن وديترويت من اعمال الولايات المتحدة الاميركية وساوبولو وريودي جنيرو من اعمال البرازيل وبونس ايرس من اعمال الارجنتين وغير هذه جاليات سورية تملأ مدناً صغرى يرمتها عندنا كطرابلس وصور وصيداء . ففي نيويورك نحو اثنين وثلاثين الفاً وفي بوسطن نحو سبعة عشر الفاً وفي ديترويت نحو العشرين الفاً ويزيد العدد كثيراً في ساوبولو وريودجنيرو وبونس ايرس على هذا التقدير . وهنالك مدن كثيرة لا يقل عدد نفوس الجاليات السورية في كل منها عن اربعة او خمسة آلاف والسوريون قد تغلغلوا في بلاد المهجر حتى في اصغر القرى واحقر الدساكر يعمرون بلاد الاجانب وبلادهم تكاد تقفر من ساكنيها التي يقال انها كانت الى ثلاثة آلاف سنة خلت

نعد نحو الثلاثين مليوناً من النفوس . ولو حسبنا معدل نفقة المهاجر الواحد من بلادنا لايصاله الى ديار المهجر ثلاثين ليرة عثمانية ذهباً وانه يحتاج الى انفاق مثلها ليتمكن من العودة الى هذه البلاد لبلغ مجموع إنفاق المهاجرين في هذا السبيل ثلاثين مليون ليرة عثمانية ذهباً وذلك على أقل تقدير . وهل تملك بلادنا اليوم هذه القيمة من الذهب نقداً ؟؟؟ او لا تحييها من العدم وتنهض بها نهضة عظمى ثروة هذا مقدارها ؟؟؟

وما انا بمبالغ ان قلت لكم ان ثروة جميع المهاجرين السوريين في الولايات المتحدة وكندا الذين قد لا يربو عددهم كثيراً على المئة والخمسين الفاً من النفوس لا تتجاوز هذا المقدار المذكور عند التصفية لا بل قد تنقص عنه كثيراً . والسبب الاهم في ذلك هو أن السوري المهاجر يعاني أشدّ المنافسة في تلك البلاد التي تفوق غيرها من بلاد المهجر مدنيةً وعلماً ومباراةً واسرافاً . ولعل إخواننا السوريين القاطنين في مصر القطر العربي الشقيق هم أوفر حظاً واهنأ عيشاً وانعم بالاً واكثر عزاً واوسع جاهاً من جميع السوريين المهاجرين في جميع انحاء المعمور .

(اسباب المهاجرة) — ولعل في عداد الأسباب التي كانت تبعث على الهجرة ظلم الحكومة التركية البائدة وارهاقها العنصر العربي في المملكة وعدم تسهيل أسباب العمل والنجاح له او لازدياد الاسراف في بلادنا بعد احتكاكنا بالغرب الذي فتح سوقاً رائجة لمصنوعاته عندنا وبدأ القوم تدريجاً يقلدون الغربيين في إنفاقهم برغم ان مداخيل البلاد بقيت شرقية صرفة فلم يك اذ ذاك بدٌّ من ايجاد ما يسدّ النقص في الايراد ليعادل الانفاق وقد جاء ذلك عن طريق المهاجرة التي كانت لبلادنا شبه تجارة الرقيق نعطي رجالاً لنأخذ مالاً . او ما كان يروج بين البسطاء من ان اميركا هي بلاد الذهب والثروة ويؤيد ذلك احياناً عودة احد المهاجرين الناجحين الذي كان يتخذه القوم عندنا مثالاً يقتدون به وينسجون على منواله — واذا ما سئلت اليوم هل تعتقد بافضلية المهاجرة وفائدتها لهذه البلاد او للمهاجرين انفسهم لما تردّدت لحظة عن الجواب بمنتهى الصراحة — كلاّ .

كلاّ لا أعتقد مطلقاً بافضلية المهاجرة لا للبلاد ولا لمهاجريها وليس معنى ذلك انني لا أجد في المهاجرة حسنات ولا في حالة البلاد التي تدفع بنيها الى هجرتها سيئات ولكنني اجمع حسنات المهاجرة الى سيئات البقاء في الوطن وأقابل مجموعها بسيئات المهاجرة وحسنات

الاقامة فأفضل البقاء على الهجرة و كفة ميزانه عندي ترجح كثيراً على تلك وخصوصاً في هذه الايام ·

أليس مما يدمي الفؤاد ويقرح الجفون ان نشاهد القوم عندنا مقبلين على المهاجرة حتى في حالة منع الحكومات الاميركية لها وتضييق حلقتها دونهم باعتبارهم مادة شرقية لا تصلح للتصدير الى الغرب ولا تأخذنا على الأقل انفة العرب الكرام التي ندعيها في كثير من المواقف ·مذ نسمع القوم يصرحون لنا انهم لا يريدوننا عندهم ولكننا نقبل عليهم اي إقبال وها هي دور قناصل الحكومات الاميركية ملأى بالوف طالبي الهجرة لا يصدهم عنها ايصاد الأبواب دونهم او ردع القوانين ·

يؤلمني جداً فوق ذلك ان أشاهد حالة السور بين المهاجرين خصوصاً في هذه الايام وشدة جهادهم في بلاد لا تعرف غير الجهاد وكم يقاسون من عرق القربة في تحصيل الثروة التي لا يحرزها غير القليلين منهم ويبقى نصيب الاكثرية الساحقة الخيبة وكم منهم من لا يحصل قوت اليوم فيبقى عالة على المحسنين او رهن الذل والمسكنة والامراض · يؤلمني ان أعرف ذلك وان يجهله الكثيرون من طلاب الهجرة ويحسبون القوم هنالك جميعهم يحفرون على الذهب و يتاجرون بالجواهر والماس و يعيشون عيش الاسراف والترف · و يسوءني ايضاً كيف ان بعض قديمي العهد بالهجرة قاسوا الامرين في نومهم وقوتهم والبستهم وجميع احوال معيشتهم وشدة جهادهم قبل ان اقتصدوا بعض دريهمات جعلوها رأسمالهم الاول وقبل ان حق لهم ان يكونوا في عداد التجار الحقيقيين ومع ذلك ما من احد منهم اليوم الا وهو تحت رحمة الأقدار وثروته غير مضمونة البقاء ·

ولعل الخطأ الاكبر والباعث الاول نحو عقلية بلادنا بشأن المهاجرة وانها السبيل الوحيد الى الثراء حاصل من حنان بعض اخواننا المهاجرين لذوي قرباهم في هذه البلاد فهم احياناً كثيرة يقطعون القوت الضروري عن نفوسهم او قد يستدينون ليقدموا لذويهم مبلغاً صغيراً من المال هو عندهم عنوان النجاح وتحقيق الآمال وكثيرون منهم يخفون هذه الحقيقة الراهنة عن اهليهم استبقاء لاطمئنان نفوسهم او خوف الفضيحة وهزء الشامتين ·

ويخيفني جداً ان تكون هذه هي حالة الكثيرين من ابناء بلادنا في المهجر وان الاكثرية

الساحقة منهم لا تملك شيئاً سوى الكفاف وانهـا تشتغل بالبدل اليومي وتقاسي العذاب الشديد في جهاد الحياة بين قوم تختلف مدنيتهم عن مدنيتنا وعاداتهم عن عاداتنا ومعيشتهم عن معيشتنا ولغتهم عن لغتنا و يكفي ان نقول ان السوريين اللبنانيين هم هنالك في بلاد غريبة يذهبون اليها صفر اليدين وليس لديهم عضد او عون سوى الصحة والآمال و كثيراً مايضيع بالجهل كلاهما ويحترق في أتون جهاد تلك البلاد الحامية وتجار بها الخلاّبة وامراضها المختلفة المميتة ٠

لا عبرة بنجاح افراد قليلين من السوريين في بلاد الغرب وهؤلاء المصاميون لا شك في نجاحهم على تلك النسبة حتى في هذه البلاد بشرط ان يجاهدوا هنا كما يجاهدون هنالك فالسرّ في شخصية الافراد لا في الهجرة عينها وذووا الشخصيات البارزة ناجحون في كل بلاد وزمان ٠ او لم يكن السوري يوماً زعيم المدنية في العالم ورسول الاديان والاشتراع ومؤسس العلوم والصناعات ؟؟ بلى ٠ وماهو اليوم ولم يعد سباقاً في الميدان ٠ شاهده في بلاد الهجرة فاذا به يذكر اسمه واسم بلاده غير مقرون بالاحترام التام إن عدلاً وان ظلما فليس للسوري عموماً ذاك المقام الذي نريده نحن له بينما الامم والشعوب التي تحسب نفسها سبقته كثيراً في مضمار العلم والمدنية والارتقاء والعمران ٠ وهذه حقيقة مع انهـا مؤلمة جارحة تستحق الذكر والتصريح ٠ وماهي الاسباب الباعثة على هذا الحال ؟ اترك للقارئ اللبيب ان يجيب على هذا السؤال ويجلو معماه وأبقي لنفسي حرية عدم الاسهاب والتطويل ٠

بلادنا افضل بلاد الله لنا بقطع النظر عن ذكر حقوقها علينا وواجباتنـا نحوها فهي تصلح لنـا ونصلح نحن لها اكثر مما لسواها وهي واسعة جداً ولا خوف عليها من ان تزدحم او تضيق بنا ، هي ارحب صدراً وارحم قلباً وارق عاطفةً وأرأف بنا ، هواؤها وماؤها ، شمسها وقمرها ونجومها ، ارضها وسماؤها ، فصولها ، نبتهـا وغرسها ، درها وفاكهتهـا ، كل ما فيها حبيب الينا وحبيب جداً ٠ الا فلنشفق على نفوسنا وهذا الوطن ولنتعهده قبل ان نتعهد سواه بسواعدنا وقلوبنا وارواحنا ولنجتهد ان نجعل الصادر في تجارتنا من انتاج ارضنا وايدينا لا من انتاج ارواحنا وقلوبنا حتى اذا ما نقص هذا الانتاج نهلك وتهلك معنا البلاد ٠

لقد جبت كثيراً من الآفاق وتجولت في كثير من بلاد الناس واشهد عن يقين واختبار

انني لم أشاهد بلاداً أجمل من سورية ولبنان . اطللت من عُرض البحار على موانئ كثيرة في مختلف البلدان وشاهدت مناظر تأخذ العقول وتسبي الخواطر والالباب ولكن ما سحرت بمنظر احدها كما سحرت عندما اطللت من عرض البحر على بيروت ولبنان ولم أشاهد منظراً أروع من ذاك المنظر البديع الفتان ..... أطل من قم لبنان ان كنت من غواة التصعيد في الجبال . أطل من اعالي الكنيسة او صنين او ظهر القضيب او من حرمون وشاهد تحت سماء صافية وجو أزرق بديع الجبال والاودية والوهاد ، السهول والبطاح والانجاد ، المروج والجداول والبحيرات . وحدق بناظريك الى أبعد مرمى البصر الى فلسطين والشرق العربي — الى حوران وجبل الدروز — الى طرابلس وعكار — الى ساحل البحر وعرض البحر — الى بيروت وصيدا وصور — الى سهول البقاع وبعلبك وحمص وحماة وحلب — الى لبنان الغربي والشرقي — الى دمشق والغوطة الخضراء . بلاد هي اجمل البلدان ، ومهبط الوحي ومنبت الشرائع والاديان ، هي موطن المردة ، وعرين الآساد . ومرتع الغزلان .

وان كنت أقل طموحاً في التصعيد فأطل ولو من ظهر البيدر على بقاع المزيز — على المروج السندسية الخضراء الملتفة بالألوان المختلفة البديعة مقطعة تقطيعاً هندسياً جميلاً يخالها المشاهد قطعاً من الطنافس الثمينة منبسطة فوق تلك البطاح ، او اطل من ميسلون ، او اطل من قاسيون وشاهد شروق الغزلة وغروبها ، او انتبه وكن يقظاً عند مدخل دمشق الزمردة الخضراء على كتف الصحراء . مشاهد كلها تملأ القلب روعة وجمالاً وتبعث في النفس عزة وجلالاً ، وتهبط بالوحي على العقول المولدة المجددة الماكنة تلك الصور البديعة الخالدة شعراً وخيالاً في الخواطر ، ووحياً والهاماً في القلوب ، واطماعاً وهمة في النفوس ، وانغاماً شجية في الاسماع ، وآمالاً ورؤى واحلاماً ذهبية على لوحة المستقبل وصفحات الأقدار .

بلاد يأتيها السائح من بلاد الغرب فيؤخذ بجمالها الطبيعي و يندهش لآثارها التاريخية ويتخشع في أماكنها المقدسة و يعود غنياً بتأثير ذكرياتها الخالدة .

لم أشاهد شمساً ساطعة مشرقة كشمس هذه البلاد وسماء صافية كسمائها ولياليها قمراء زهراء كلياليها وفصولاً سنوية كفصولها . فربيع بلادنا ربيع تام وصيفها صيف تام وهكذا قل عن خريفها وشتائها . وفيها مايوافق جميع الامزجة لجميع الفصول : فمن

مشتى بيروت وساحل البحر المعتدل الى مصايف لبنان الجميلة وبعضها يعلوا اكثر من اربعة آلاف قدم عن سطح البحر ولا يقتضي الانتقال من هذه الى تلك سوى مسير اقل من ساعة واحدة بالسيارة الحديثة ، وهنالك مشتى طبرية حيث الهبوط اكثر من ثلاثمائة قدم عن سطح البحر — الى مشتى اريحا حيث الهبوط اكثر من الف قدم عنه وحيث الشتاء ربيع دائم ٠ وهل يوجد في الدنيا ربيع اجمل من ربيع دمشق ؟ ؟ ؟ لم أنشق نسيماً عطراً عليلاً كنسيم هذه البلاد ولم أرشف ماءً زلالاً عذباً كمائها ولم أتذوق طعاماً شهياً كطعامها ٠

لقد سألني الدمشقيون في المهجر عن المشمش الحموي والعنب الزيني وتفاح الزبداني واللبنانيون عن عنب زحلة وبحمدون وعن تين الجبل وصنوبره والحلبيون عن فستق حلب والفلسطينيون عن برتقال يافا ٠ ولعمري ليس لهذه البلاد في جميع مميزاتها من مثيل في جميع الاقطار والامصار ٠ أفمن اجل هذه المميزات تستحق هجرة بنيها والبعاد والنسيان ٠

ترسل الى بلاد الغرب شباناً في ريعان القوة وعنفوان الصبا وتأخذ عوض ذلك بعض الدريهمات فبئست التجارة الخاسرة هنا وهناك وبئس المصير أتباع الأرواح بالمال وهل تشرى النفوس بالدنانير ؟

ارسلوا هؤلاء الفتية من طالبي الهجرة في حقول البلاد يغرسون اشراسها ويزرعون حبوبها وزعوهم في مصانعها يحيكون الاصواف والحرير ، أوجدوا لهم عملاً فيعملون او أوجدوهم عندنا فهم يوجدون الاعمال ويحيون الآمال ٠

علموهم أن سعادة الحياة ليست في ثراء الغرب ولا هي في خزن الاموال ولا في اقتناء السيارات بل هي في الصحة والعلم والعمل ، وان العمل شريف جداً زراعة كان ام صناعة او في اي مهنة حرة تحتاج اليها البلاد ٠

لا تبعدوا الوالد عن عائلته ولا الفتى عن ذويه ولا تقضوا على سعادة الشرق بتفكك عرى بنيه فما الفوائد بمعادلة ماتبذلون وماالنتيجة عندما تؤملون ٠

أفيقي ايتها الحكومة مع الشعب وعالجي هذا الداء داء المهاجرة القتال وحاربيه لا بقوة المنع والشرائع فقط بل تخطي الى الوجهة الايجابيــة وسهلي على القوم العمل فتبقين على فلذات الاكباد في الوطن لا بل تحببين العودة الى كثيرين من ابنائك في ديار الهجرة ممن بقي في نفوسهم حنين اليك ولكنهم يخافون الفشل وعدم ايجاد اسباب النجاح ٠

بلادنا زراعية في الدرجة الاولى فأين وسائل الري ؟ اين تسهيلات المزارعين والفلاحين ؟ عندنا صناعات وطنية ابن تنشيطها التنشيط المثمر وحمايتها ؟ هنالك ما نستورده من بلاد الغرب ويمكن صنعه في بلادنا فأين ماعملناه في هذا السبيل ؟؟ ٠

ليذهب المهاجر منا في سبيل نقل العلم والصناعة والفنون اللازمة لنا ليذهب وليعد فاذا هو قوة جديدة في البلاد ٠ وليهاجر فقط من يتعاطى ترويج صناعات بلادنا ويتولى اصدارها لبلاد الغرب ولنحترز ان لايكون في عداد هؤلاء من يسيء سمعة البلاد وليذهب منا من يشاهد عن كثب تفوق الغربيين فيعود مجهزاً لنا في طلب الشرقي مثلهم ٠ ولنجتهد ان نعيد الاحترام السابق لنا بين الامم والشعوب فيكون هذا الاحترام رأسمال المسافر منا في سبيل شريف وليس للفرد والامة من مرمى أبعد وأسمى من احراز الرفعة والاحترام ٠

السوريون في الولايات المتحدة الاميركية قد تجنست اكثريتهم الساحقة بجنسية تلك البلاد والفقير منهم لايطمع بالعودة صفر اليدين والقليلون من ذوي الثروة لايرغبون في ترك مجال النجاح والتفوق هنالك والمركز الذي أحرزوه بشق الانفس والتعب الشديد وجهاد السنين الطوال ٠ وبعد زمن غير بعيد ستصبح الجالية هنالك من قلب الاميركيين فيقضي العجز والشيوخ فيها ومن كانت لهم صلة بهذه البلاد والنشء الجديد منها اكثره لا يقرأ اللغة العربية ولا يكتبها ولا هو باحتياج اليها فقد ولد في تلك البلاد ونشأ فيها واحبها وهو لا يعرف شيئاً مذكوراً عن هذه البلاد ٠ ومن الجهل ان نطمع بقدومه اليها او باستمراره على مساعدة ذويه عندنا ٠

اذاً ستكون الصفقة خاسرة لنا فهل نطمع ان نزيدها خساراً بان نستمر على الهجرة وان ننكب البلاد بضياع بنيها وفلذات اكبادها عاماً بعد عام ٠

بلاد الغرب تئن اليوم من العطلة وعدم توفر العمل للملايين العديدة من الشبان وفي الولايات المتحدة الاميركية ما لا يقل عن ستة الملايين منهم بطالين لايجدون سبيلاً للعمل والارتزاق والضائقة مستحكمة في تلك البلاد بصفة لم نعهد لها مثيلاً فيما مضى ٠ وقد لانشعر نحن بشدة هذه الضائقة العالمية لاننا نسير على مهل فتأتي صدمتها خفيفة عندنا لكنها قوية جداً عندهم لانهم يسيرون بسرعة هائلة ٠ ويا لبلية الاصطدام عند المسرعين ولعل نسبة سرعتنا في أعمالنا لسرعتهم هم كنسبة سرعة قطار بيروت — دمشق وهو

مصمّد في طريقه بين محطتي عاريا وعاليه الى مسرعة سيارة من الطراز الحديث تقطع سهل البقاع في طريق دمشق — بيروت المعبدة تعبيداً فنياً حديثاً لا بل قد يسيرون هم بالنسبة الينا على أسرع من هذا القياس بشيء كثير ·

الحياة عندنا فيها شيء من التعاون العائلي وحفظ حقوق الجوار المقدسة وقد ينتقل الى جانبك جار جديد فيحل له اقتراض بضعة أرغفة من الخبز لقوت عياله ولا يجد هو أو انت في ذلك نكراً أو فضيحة وقد تستعير امرأته بعض الادوات البيتية اللازمة لها فلا تفشل في طلب الاعارة · اما في بلاد الغرب فما للجار من حق على جاره حتى ولا للأخ على اخيه فهم من هذه الجهة يعيشون حياة فردية استقلالية جافة مجردة من هذه الحسنة التي لنا نحن في هذه البلاد وفيها ما فيها من معنى الانسانية الصحيح والتآخي البشري الحقيقي الناضج ·

يمرض الانسان في بلادنا وقد يشفى في اكثر الأحيان او يطول اجله لا من عقاقير الطب وذكاء الاطباء بل من محبة الاهلين وعيادة الاصدقاء وسيال الحنان الصادق ينبعث في عيون زائريه وذويه ويمرض هنالك في بلاد الغربة وقد يقضي عليه لمجرد فقد هذه المزايا لديه هناك ·

السعادة التي ننشدها يجيء اكثرها من خزان الدماغ الباطن في الانسان واجمل ما في هذا الخزان تذكارات زمن الصبا وصوره الحلوة واحلامه الجميلة ولهوه البديع وهذه جميعها تأتي مرتبطة بمشاهد الارض التي يمرح عليها الوليد ، وصفاء السماء التي يشاهدها فيما نسميه نحن الوطن ، وفيه البيت الذي نأوي اليه والاهل والاحباء والرفاق والمواطنون · لذا يشعر المهاجر بالغبطة عند عودته ولو الى مزرعة صغيرة تركها منذ زمن طويل بل ويحنّ اليها الحنين الكثير لانها توقظ فيه تلك التذكارات الجميلة تذكارات الصبا التي تبعث المرح في القلب والايمان في العيون وترجع الكهل شاباً او فتى يروحه بعد ان نهكته الايام ولوعته الحزن والمشقات وشدة الجهاد · ولولا هذا الارتباط والحنين وتلك التذكارات الجميلة الناعمة لأقفرت دساكر كثيرة لا تخلو سوى لساكنيها فقط ولنعق فوقها البوم واضحت أطلالاً دارسة ·

الا يفرح طائر السنونو المهاجر بعودته الى العش الذي بناه في عامه الاول ولا ينفك ملازماً له عاماً بعد عام ؟ أليس هو مقدساً لديه اكثر من كل بقعة أخرى تحت السماء ؟ بلى ·

مررت في عودتي الى بلادي على ميناء «نابولي» من اعمال ايطاليا وقد كان على ظهر الباخرة عدد من السوريين العائدين الى الوطن وعند رسو الباخرة «بروفيدانس» في مينائها سمح لجميع المسافرين بالنزول الى المدينة دون ادنى معارضة او تضييق ولكن حظر ذلك على السوريين فقط ما لم يسلموا جوازات السفر للبوليس الايطالي الواقف على سلم الباخرة فقلت في نفسي ولم عدم المساواة في وقت كهذا ام ان الحكومة الفاشيستية تريد ان تمتاز بشيء ولو على الضعفاء مع انهم لم يفعلوا هكذا عند مرورنا بتلك المدينة ونحن مسافرون على ظهر الباخرة «موريتانيا» ولعل ذلك لاحترامهم الشركة التابعة لها هذه الباخرة اكثر من احترامهم شركة «فابرلاين» التابعة لها الباخرة الاولى ، او لعل ذلك لاظهار مبلغ الاحترام الذي يتمتع به السوري المهاجر في بلاد الغرب . ان في الاسفار دروساً قيمة يتعلمها المرء في هذه البلاد وهي بحاجة شديدة اليها ألا وهي دروس القومية والاتحاد والتعاضد . فلا قوة في بلاد اجنبية بغير هذه المبارزة القومية وليس ما نشاهده من التعصبات المذهبية عندنا سوى مظهر من مظاهر الجهل الفادح والشقاق وما نفور الأقلية في البلاد من اكثريتها او سلوكها مسلكاً مخالفاً لها سوى دليل الذل والصغار وما ادعاء الاكثرية وتعاظمها على الأقلية سوى كبرياء فارغة لاوجود لها في قاموس ارتقاء الامم البالغة سن الرشد والادراك ، لاتبنى القوميات على الأديان ، وان فيما تبنيه تركيا الحديثة اليوم من عزّ ورقيّ وفلاح ، ونجاحها في هذا البناء لدليلاً بيناً على صدق ما اقول فهي لا تقف بين غيرها من الدول باسم الدين بل باسم الانسانية المطلقة وباسم العنصر التركي الذي يحق له الحياة كبقية العناصر البشرية في العالم . وعند تمر يجي على استانبول قدرت ان احترم المجهودات التي تبذلها الحكومة التركية في هذا السبيل القويم الشريف .

بلادنا واحدة ومصالحنا فيها مشتركة . والمهاجرة هي بلاؤنا الاكبر وداؤنا القتال فلنتعلم عنها الا في أحوالها المفيدة فقط وحيث لا نضطر الى تغيير جنسية المهاجر منا فيبقى اميناً على حقوق قومه وبلاده .

عرفت رجلاً انكليزياً كان في هذه البلاد ايام الحرب الكبرى وعندما أبعد جمال السفاح الاجانب الى داخلية بلاد الاناضول وضيّق عليهم جداً واستولى على ممتلكاتهم

عرض على هذا الرجل ان يجنس بالجنسية العثمانية وهو يعيد اليه حريته وجميع حقوقه وممتلكاته ويمكنه من السكنى في بيته , لكنه ابى ذلك بانفة عظمى وقال يهون علي كل شيء حتى تجرع غصص النفي والجوع والامراض والموت ولن أغير جنسية دولتي وبلادي . وان كان في عمل هذا الرجل الشهم ما يدعو الى الاعجاب والاحترام فان لسوري يعمل عمله في احوال كهذه فضلاً اكبر واعجاباً في نفوسنا أشد بالنسبة للبون الشاسع في المكانة بين الدولتين . فأين هي مكانة السوري المهاجر من هذا القبيل حيث لا ضغط ولا تهديد حتى ولا ترغيب ولا وعيد وكم هم الذين حافظوا على جنسيتهم السورية في بلاد المهجر . وقد شاهدت في استانبول انهم لم يأذنوا لركاب السفينة السور بين المتجنسين بالجنسية الاميركية بالنزول الى البر بينما هم سمحوا بذلك لسواهم لعدم احترامهم اواعترافهم بتبدل الجنسية هذه .

ولو ان المهاجرة بقيت عند غايتها السابقة قبل الحرب الكبرى اي طمعاً بالارتزاق فقط ولا يقطع المهاجر صلته ببلاده ولا يغير جنسيته ثم يعود بعد حصوله على ما يتمناه الى وطنه وبلاده — لما وجدت فيها الغبن العظيم الذي أجده هذه الايام ، وهنالك من يهاجر اليوم الى بلادنا قصد السكنى والارتزاق وعندنا من يرحل عن بلاده وهو بها اولى وهي به أرحب وحنانها عليه أشد . فلتدبر هذا الامر بالحكمة وبعد النظر قبل ان يعم البلاء ويستعصي الداء وهو ذو شأن اي شأن لنا ولبلادنا التي نحلم لها بمستقبل زاهر ونؤمن بوصولها يوماً الى ما نتوخاه لها من سعادة وحرية وفلاح[1] .

سليمان سعد
رئيس مدرسة الجامعة العلمية في دمشق



(١) ألقيت هذه المحاضرة في ردهة المجمع العلمي العربي بتاريخ ١٩ آذار سنة ١٩٣١ .

على اطلال الشعر الجاهلي

— (١) —

أَلِمَّا بشعر قام كالطلل البالي ... يمثل نفسَ القوم في الزمن الخالي
وارتاحَ ناس بعد خفض ونعمة ... عليهم أناخ الدهرُ يقسو بكلكال
وأشجانَ جيل في الشقاء تجرّعوا ... كؤوس المنايا ترّةً قبل اجيال
وما الشعر الاّ ما يمثّل آله ... فينقل من ماض أناساً الى الحال
وما كلُّ شعر قد سمعتَ بجيد ... ولا كل ماء قد وردتَ بسلسال
اذا لم يكن شعر الفتى من شعوره ... فما هو عند السامعيه بذي بال
وان قصّرت الفاظه عن مراده ... فما هو في يوم جدير باجلال
وان يزكُ معناه ولم يزكُ لفظه ... فذاك كخوّد في دريس واسمال

* * *

وما راقني ممن تقدّم عهدهم ... سوى الصدق ان الصدق اجمل سربال
ويا حبذا هذا الجديد لو انه ... من اللغو او كذب يغرّ به خال
وما عن قلىً رفضي الغُلاةَ وانما ... هنالك اميال تخالف اميالي
قد انهار صرحُ الشعر الاّ أقلّه ... وقد كان ملء العين كالجبل العالي
واما حياض ثرّ منه نميرُها ... فلستَ ترى من مائها غير اوشال
ولم ارَ فيمن خاب للجهل سعيهم ... كمغترف ماء يفيض بغربال
واكبرُ في عيني من الشعر شاعرٌ ... يرى ما آله للشعر لا الشعرَ للمال
رأيتُ ابتذالاً فيك ياشعر مزريا ... وما كان هذا في مصيرك آمالي
أردتك خلواً من عيوب زريّة ... فانك عندي ذلك الجوهر الغالي

«كأنك لم تركب جواداً لغارة ولم تتبطن كاعباً ذات خلخال»

* * *

يجادلني في الشعر لا عن روية فريق من الأشياخ كلهمُ قالِ
كلانا مُلمٌّ بالصواب بزعمه ولكن صوت المبطلين هو العالي
كلانا اذا خاض العجاجة مبسل ولكنما ابسالُهم غير ابسالي
هنالك حرب شبّها السخط والرضى وما كل من خاضوا الحروب بابطال
وكل امرىء يقنو هوًى في فؤاده لما هو في عين يراه بها حال
نشأتُ على استقلال نفسي بامرها فلا أرتضي نسجاً على غير منوالي
ولا أدّعي اني انفردت بقولي ولكنني راض كغيري باقوالي
سوى ما أريهم انني ان فتوتُهم شأوتُ واني فوق أجرد ذيّال

* * *

لقد ظلّ هذا الشعر خمسين حجّةً يقوّم أقوالي ويبرم أعمالي
فسرتُ على ما سنّه لهدايتي وان رام في تلك الهداية إضلالي
صدعتُ فلما أوهنتنيَ كبرةٌ وقفتُ عن الافصاح كالطلل البالي
وقلتُ أقلني أيها الشعر عثرتي فقد زلّ رجلي وهي تحمل أثقالي
وخذ بيدي في سقطة قد أتيتُها فمالِيَ حتى الموت غيرك من والِ
فأعرضَ عني لا يريد إقالتي واشمت بي عند النهاية عذّالي
واني ان أهلك فلستُ بخاسر لشيء كثير من نعيم واموال
لعمرك ما في الموت شيءٌ يهولني ولكن حياتي هذه ذات أهوال
على انّ لي بعد التقهقر كرّةً اصول بها جلداً على كل مختال
سأجهر بالحق الذي يكتمونه وان قطع الاعداء بالسيف اوصالي
واني في غيلي كرئبال غيضة ومن ذا ترى في غيله غير رئبال
لحى الله ناساً اخطأوا طُرُق العلى ولم يطلبوا الغايات الا من المال

* * *

« تمثال لليلى من الشعر »

نصبتُ لليلى من قريض نحتُّه … على صفحة القرطاس اجملَ تمثال
حكاها كأن الله صاغها معاً … شبيهين في ثوب من النور هلهال
وشبّه ناسٌ طرفها وقوامها … بابيض بتّار واسمر عسّال
على خطإ منهم فما السيف باتراً … ولا الرمح عسالاً لليلى بامثال
واحسب اني لاأشطّ عن المدى … اذا قلتُ ليلى النورُ في الافق العالي
سرى حبّ ليلى في جميع جوارحي … واشعل فيها ناره أي اشعال
وليلى كنار الشمس يجمل ضوءها … ويملأ عيني في غدوي وآصالي
فطوبى لمين لا تزال تشيمها … وويحٌ لقلبي ان قلبي بها صال
وان تك ليلى اليوم شطّ بها النوى … فما انا عن ليلى وايامها سال
ولو كنتَ في يوم الوداع بجنبنا … شجاك مشيجٌ من بكاها واعوالي
يعزّ على عيني الشقيـة ان ترى … لليلى بقربي منزلاً غير محلال
أريد رحيلاً عن بلاد تهينني … ولكن أفدني اين أنزل أحمالي
وفي القوم من لا يبتغي نُقلةً له … ولو زُلزلت ارض العراق بزلزال
ولكن حراً ليس يرضيه حاله … يموت ولا يبقى مقيماً على الحال
ارى النحس في بغداد لي متجسماً … يريني أنياباً كأنياب اغوال
يريدون بالاذلال جرحَ كرامتي … ويأبى جراحاتِ المذلة امثالي

بغداد : جميل صدقي الزهاوي

مطبوعات حديثة

—«»—

الآداب العربية وتاريخها

« تأليف السيد جرجي كنعان طبع في المطبعة الادبية في بيروت »

« سنة ١٩٣١ ص ٦٢٨ »

توخى المؤلف ان يكون تأليفه حسب منهاج البكلوريا اللبنانية والسورية . وقد اقتبس أسلوب تاريخ الأدب العربي للاستاذ الزيات وكتاب الوسيط للاستاذين الاسكندري وعناني وما صدر بعد ذلك في هذا الموضوع . فلم يأت المؤلف اذاً بجديد من مثل تحليل حياة الادباء والعلماء وما كان من اثر البيئة والاقليم والحضارة في منثورهم ومنظومهم . وتوسع في أدباء القرن التاسع عشر حتى يخيل للطالب ان العلم فيه انحصر في جبل لبنان وغير اللبناني لم يعمل شيئاً لخدمة الآداب العربية وهذا غمط لحق كثير من رجال الشام ومصر وتونس والعراق الذين عانوا فروع العلم والأدب وابرزوا مصنفات لا يسع عاقلاً تجاهل وجودها وتأثيرها في تكوين روح القومية والنهضة .

فقد ذكر المؤلف أناساً ماتوا اوائل الربع الثالث من القرن العشرين ليكثر بهم سواد المؤلفين في لبنان وهم ممن عملوا لخدمة الآداب ، فكان عليه ان لا يغفل ذكر غيرهم وهم لبنانيون ايضاً ، فقد ذكر الاب لويس شيخو وغفل عن ذكر الدكتور شبلي شميل والدكتور يعقوب صروف وهما اماما في العلم والفلسفة وبث روح التجدد . ونظن انهما نفعا اللغة العربية اكثر مما نفعها حبيقة وفرحات والصائغ ممن ذكرهم ليكثر بهم سواد العاملين من غير المسلمين وأغفل ذكر عشرات من عظماء المؤلفين في الاقطار العربية ممن قامت على أيديهم نهضة الامة أمثال من ذكرهم الاستاذ الزيات كمحمد المهدي وحسن العطار وعلي الدرويش

وشهاب الدين ومحمود صفوت الساعاتي وعبد الهادي نجا الابياري وحسن المرصفي ، عبدالله فكري وعلي مبارك وعبدالله نديم ومحمد عثمان جلال وعائشة التيمورية وملك ناصف وقاسم امين ، مصطفى كامل وفتحي زغلول ، مصطفى لطفي المنفلوطي ، سعد زغلول وعبد الرحمن الكواكبي وطاهر الجزائري ومحمود شكري الآلوسي وعبد الباقي العمري ومحمد بيرم وخير الدين التونسي ، وابراهيم المويلحي ، محمد المويلحي وعلي يوسف وحفني ناصف وحمزة فتح الله واسماعيل صبري . واذا جئت تعدد من هلكوا منذ ثلاثين سنة من رجال مصر فقط عددت منهم عشرات كان على المؤلف اذا لم يشأ ان يترجم لهم لضيق مجال كتابه ان يذكر جريدة باسمائهم واسماء كتبهم ليعرف الطالب ان اللغة العربية وخدامها اكثر مما تصورهم المؤلف ، وان في مصر وحدها من الرجال الذين يجيدون الكتابة والتأليف اكثر من جميع من أخرجهم لبنان من مدارسه . فعسى ان يتدبر المؤلف هذه الحقيقة ويبادر الى تلافي هذا النقص في الطبعة الثانية وان يعطف قليلا على قوم هم الذين عملوا للغة وحفظوها هذه القرون الطويلة - والدعاية لا تثبت بمجرد الاعلان والدعوى .

م . ك

الكوكب الدري المنير

— في احكام الذهب والفضة ولبس الحرير —

« تأليف الشيخ محمد سعيد الباني طبع في مطبعة المفيد بدمشق سنة ١٣٤٩ هـ »

« وسنة ١٩٣١ م ص ٢٧٨ »

هذا كتاب في موضوع لا يهم جمهور الناس اليوم لان من يلبسون الحرير ويتحلون بالذهب والفضة لا يتوقفون فيما يعملون على استصدار فتوى في الغالب . بيد ان المؤلف عالج هذا البحث كما قال نزولا على ارادة من أراده على الافصاح عنه وبيان حكم الشرع فيه فكان جوابه مناقشة من قالوا بحرمة ذلك من الفقهاء ، والقول بحله مع بعض القيود . وبذلك خرج عن جمود الجامدين في الحكم في هذه المسائل ممن يضيقون على الناس ويحرمون الزينة والطيبات . ومع تقديرنا حرية المؤلف قدرها لا نرى مانعاً من ان نقول ان كتابه

كتب في اوقات مختلفة فلم يصبر عليه زمناً لينضج قبل دفعه الى الطبع ولو نظر فيه نظرة اخيرة لما اتى اشياء في باب المكررات الغير المستحبة والمنكورة في صنعة التأليف اليوم . فقد كان الاولى مثلاً ان يبتعد عن ذكر حوادث لا يستفاد منها الا ان المؤلف كانت له صلة بها فأصبحت في حاشية الكتاب وربما في متنه من دون مناسبة . وأورد منامات لأناس ليسوا من العلم والدين في العير ولا في النفير كان الاولى ان تجل كتب العلم عن الاستشهاد بها ، وما كانت الأحلام يوماً من الأيام لتؤيد ديناً او تقوّم دنيا . وترجم بعض العلماء في أسلوب ربما تعمده ليلبس كلامه حلة اهل القرون المتأخرة والمتفقهة والمتصوفة ، ولو حذف من ترجمته لها ماجاء فيها من الغلو والمبالغة وأضاف اليها صورة أخلاقها لجاءت مقبولة في أذواق العالمين من اهل هذا العصر . فقد قال صمول سميلز في كتابه الاخلاق : « والترجمة كالتصوير لابد فيه من الظل والنور فلا المصور يختار لمن يصوره الوضع الذي يظهر عيوبه ، ولا المترجم يبالغ في بيان عيوب المترجم له ، وليس من الناس كثيرون فيهم صراحة كرمول حين جلس الى كوبر ليصوره فقال له : صورني كما انا بكل ما فيّ حتى الثآليل اه ولا بد من تصوير الوجوه والأخلاق كما هي ان أريد ان تكون الصورة صحيحة اه » .

م . ك

فتح العرب للشام

« تأليف السيد جورج مرعي حداد طبع في المطبعة الادبية في بيروت »

« سنة ١٩٣١ ص ١١٣ »

هي رسالة في فتوح دمشق على ايدي العرب المسلمين على الطريقة الجديدة في التحليل والانتقاد . رجع المؤلف في كتابتها الى مصادر افرنجية وعربية واعتمد على آراء بعض علماء المشرقيات في الفتح الاسلامي وقد نقل رأي العلامة بكر في قوله ان كتابات العرب عن الفتوحات الاسلامية مفعمة بالاكاذيب والاغلاط خصوصاً في مسألة التواريخ وترتيب زمن الحوادث وروى ماقاله المؤرخ جبن من ان النبوغ في فن التاريخ مفقود عند الشعوب الاسيوية لانهم يجهلون قوانين النقد والفلسفة . اما المؤلف فأشفق على هذا التراث العظيم

الذي خلفه العرب في التاريخ فلم يوافق المؤرخين المشار اليهما كل الموافقة وشعر انها لا تخلو من الصحة على رأي بكر وجبن في الحكم على تاريخنا يخالفه رأي سيديليو ويراون وغيرهما في قولها انه لم يكتب لغير العرب حتى اليوم ان اجادوا في وضع تاريخهم اجادتهم · وكيف كانت الحال فان هذا المختصر نافع على ما في بعض احكامه من الشطط وحبذا لو تناول كتابنا مسائلنا التاريخية بمثل هذا النقد والتحليل ·

م · ك



تهذيب تاريخ ابن عساكر

« للشيخ عبدالقادر بدران الجزء السادس الطبعة الاولى بنفقة المكتبة العربية »

« بدمشق ص٤٨٠ طبع بمطبعة الترقي »

كان المرحوم الشيخ عبدالقادر بدران الدومي الدمشقي المتوفى سنة ١٣٤٦ ﻫ اختصر تاريخ ابن عساكر مؤرخ دمشق وحذف منه الاسانيد وغيرها مما رآه يورث الكتاب تطويلاً ونشر منه الاجزاء الخمسة الاولى في حياته وصحت مؤخراً عزيمة المكتبة العربية بادارة صاحبها الاستاذ السيد احمد عبيد على تكملة نشر هذا المهذب · ولا يخفى ان تاريخ ابن عساكر ضم كنزاً عظيماً من تاريخ الاسلام يتأتى لكل باحث ان يستقي من موارده العذبة · وفي هذا الجزء من المسائل التاريخية مالا يكاد القارئ يعثر عليه في المؤلفات الاخرى لان بعض من اخذ ابن عساكر من كتبهم ضاعت مصنفاتهم هذا الى ما جاء في تأليفه من أبحاثه الخاصة وتحقيقاته المدققة ومنها كتاب الرسول عليه الصلاة والسلام الى أهل اليمن في الخراج والديات (ص٢٧٣) وكلام هشام لمؤدب ولده ومنهاج تأديبه (٢٧٧) ووصية شريح لمؤدب ابنه (٣١٢) وقصيدة في قيس ومضر (٣٩٤) وسيرة ابن فاتك الذي شهد فتح دمشق وهو الذي تولى قسمة الأماكن بين اهليها بعد الفتح فكان يترك الرومي في العلو ويترك المسلم في أسفل لئلا يضر المسلم بالذمي · وهذا من أغرب ما سمع في العدل البشري · وفيه وصف عمر لشريح الذي كان يقول : اذا دخلت المدينة من الباب خرجت الحكومة من الكوة · وكان شريح اذا قيل له كيف أصبحت يقول : أصبحت وشطر الناس عليّ غضاب · وفيه سيرة ابي علي الأزدي البلخي الزاهد ·

واشياء من الاسرائيليات وأحاديث صحيحة وضعيفة وترجمة صالح بن جناح وصالح بن عبدالقدوس من الحكماء وترجمة ابي ريحانة الازدي من الصحابة وهو اول من طوى الطومار وكتب فيه مدرجاً مقلوباً وفيه وصية عمر لشريح (٣٠٥) الى غير ذلك من المسائل التي تبين ثقل هذه الامة وفضل الاقدمين من رجالها عليها . وكلها تنادي بلسان الحال والمقال ان الناس كانت هممهم في طلب العلم لانني وان هم أحفاد أحفادهم ضعفت وفترت .

م . ك



طبقات الحنابلة

« تأليف القاضي ابي الحسين محمد بن القاضي ابي يعلى المتوفى سنة ٥٢٦ هـ »
« واختصار شمس الدين ابي عبدالله محمد بن عبد القادر بن عثمان النابلسي المتوفى »
« سنة ٧٩٧ وصححه وعلق عليه السيد احمد عبيد طبع بدمشق سنة ١٣٥٠ هـ »

أثبت ناشر هذا الكتاب الاستاذ احمد عبيد بما نشره من تركة السلف حتى الآن انه سائر على الطريقة العصرية في نشر كتب الأدب والتاريخ يخدمها بجلب النسخ المختلفة من الاقاصي ويعارضها على الاصول التي تصل اليه ويعلق عليها و يشفعها بفهارس كثيرة تفتح مخابئها وتجلي مغالقها . وهذه الطبقات على ايجازها تحمل فوائد تاريخية واجتماعية كثيرة ولئن كان المؤلف الاصلي ترجم أناساً كانوا من عيار أحط من العيار العالي فان فيه تراجم علماء تحنى الرؤوس لذكراهم ويجب على كل باحث ان ينقيل خطاهم ، مثل ابي اسحق الحربي العالم المؤلف المشهور وابي عبيد القاسم بن سلام وأمثالها من أئمة الحديث والفقه واصحاب التآليف الممتعة من اصحاب احمد بن حنبل رضي الله عنه . وقد ترجم المؤلف بعض النساء الفقيهات المحدثات ايام كان نساء المسلمين لايتحرجن من الاجتماع الى الرجال يأخذن عنهم ويأخذون عنهن . وفي آخر هذا الجزء اللطيف ست فهارس : الاول في مسائل الامام احمد والثاني في الاسماء والثالث في الكنى والرابع في الابناء والخامس في الالقاب والسادس في الانساب . وهذه الطبقات مفيدة من عدة وجوه ولا تقتصر فائدتها على المشتغلين

بعلوم هـذا المذهب ومعرفة رجاله بل تفيد كل أديب و باحث ، وليس أجمل من كتب التراجم ولا أبعث على التسلية والاستفادة من تلاوة ما كتب الأسلاف وما عانوه من ضروب المعارف .

م . ك

نيل الوطر

— من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر —

« جمعه محمد بن محمد بن يحيى زبارة الحسني اليماني الصنعاني الجزء الاول ص ٤٢٥ »
« الجزء الثاني ٤٢٨ وكلاهما مطبوع في المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٨ »
« وسنة ١٣٥٠ هـ »

مؤلف هذا الكتاب من فضلاء اليمن المعاصرين اخذ كتابه هذا من بضعة مصنفات في تراجم الرجال في القطر اليماني ومنها (البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع) للعلامة الشوكاني وقد طبع هذا ايضاً بمصر بفضل ارشاده وفي مجلدين بمطبعة دار السعادة . وقد حذا المؤلف في ترجمة الرجال حذو اهل القرن الثاني عشر والثالث عشر للهجرة فجاءت تراجم من ترجم لهم متشابهة متشاكلة على ان المجلدين من حيث الجملة يحويان كثيراً من الفوائد الأدبية والاجتماعية والتاريخية . وبعض المترجمين ان انصفنا لا يستحقون ان تشغل الصحف بهم لضؤولة مقامهم في المجتمع . وكان الاولى ان يقتصر المؤلف على المبرزين أصحاب السير والفضائل من اليمانيين ويتوسع في تراجمهم ويصورهم لقارئهم باعمالهم وعلومهم وآدابهم ومحيطهم وعصرهم . وحبذا لو تصدى لهذا الاسلوب الجديد بعد ان مارس الاسلوب القديم فان التطو يل في التأليف بلا محصل كبير مضيعة للاوقات ولا يلتئم مع ذوق العصر الحاضر .

م . ك

الرسالة العذراء

« لابراهيم بن المدبر »

ص ٥٢ الاصل العربي و٣٢ المقدمة الفرنسية طبعت في مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٣٥٠ هـ ١٩٣١ م

عثرنا على هذه الرسالة لاول مرة في مخطوطات أستاذنا المرحوم العلامة الشيخ طاهر الجزائري فنشرناها اولاً في الجزء التاسع من المجلد الرابع من مجلة المقتبس الصادر سنة ١٣٢٧ في ١٨ صفحة ثم جعلت مع ماماثلها من الرسائل النادرة التي نشرناها في تلك المجلة في مجموعة أسميناها « رسائل البلغاء » ونشرت في مصر سنة ١٣٣١ — ١٩١٣ وقد أعاد الآن طبعهــا على حدة الاستاذ الدكتور زكي مبارك من أدباء مصر وجعل لها مقدمة باللغة الفرنسية وقدمها الى مدرسة اللغات الشرقية بباريز وقالـــ انه قرأها مع الاستاذ مارسيه من علماء المشرقيات في فرنسا وعلى كثرة بحثه لم يجد نسخة مخطوطة أُخرى لهذه الرسالة يعارضها عليها غير نسختنا فأصلح بعض ماتوقفنا فيه ولم نرد ان نصححه من عندنا وعلق عليها حواشي لطيفة وعارضها على اصولـــ كتبت في عصر المؤلف فنشكره الادب العربي على عنايته · م · ك



الاكليل

« تأليف ابي محمد الحسن بن احمد بن يعقوب بن يوسف بن داود المشهور »
« بالهمداني المتوفى في سجن صنعاء في سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م) اخرجه الى الطبع »
« وصححه وعلق حواشيه وألحق به خمسة عشر فهرساً الاب انستاس ماري »
« الكرملي البغدادي طبع في بغداد بمطبعة السريان الكاثوليك في سنة ١٩٣١ »
« ص (١٤٨٨) الجزء الثامن »

اشتهر كتاب الاكليل عند الادباء وصحت همم بعضهم في مصر والشام والعراق على نقله ونشره وقد وفق الاستاذ الكرملي الى العثور على احد اجزائه فبادر حالاً الى نشره بما عهد فيه من التحقيق وسار على مثالـــ علماء المشرقيات في معارضته والتعليق عليه

وإشباعه من الفهارس ما استغرق نحو ثلث المطبوع من المتن . وهذا الجزء في محافد اليمن ومساندها ودفائنها وقصورها ومراثي حمير والقبوريات وسميت محافد لحفود الناس حولها وقصدهم اياها . لاجرم ان في هذا الجزء مثالاً مصغراً من مدنية اليمن في عهد المؤلف وقبله فقد ذكر الناشر « ان هذا الاكليل يكشف لنا ان اليمانيين كانوا قد توصلوا الى ان ينحتوا تماثيل البشر والحيوانات والطيور والأنبتة حتى توهم كثيرون ان تلك التصاوير كانت أحياء مسخها الله صخراً اوجلوداً اوحجراً . ويرى القارئ في بعض هذه المنحوتات من دقة الصنع وعجيب النقش ما يتحدى كل مصور غربي في مجاراته وقد تصرفوا في نحت الرخام تصرف الصحان في عجينه . ان هذا الاكليل يبوح لنا بان السلف كانوا قد احكموا عمل الآلات المتحركة من نفسها وكذلك الساعات المائية العظيمة المعروفة «بالقطارات» فقد جاء عن قصر غمدان قوله :

يسمو الى كبد السماء مصعدا عشرين سقفاً سمكها لا يقصر ..
وبكل ركن رأس نسر طائر او رأس ليث من نحاس يزأر
متضمناً في صدره قطاره لحساب أجزاء النهار تقطر

قال العلامة الناشر : فهذا دليل واضح على ان ذيالك القصر جاء على ابدع هيئة يحلو بها انسان هذا العهد . وحبذا اليوم الذي يتم نشر الاكليل برمته لتتجلى به أجزاء مدنية اليمن المدهشة .

م . ك

كتاب مالية مصر

« من عهد الفراعنة الى الآن لسمو الامير عمر طوسون »

طبع بمطبعة صلاح الدين الكبرى بالاسكندرية سنة ١٣٥٠ — ١٩٣١

ص ٣٤٠ عدا الفهارس

هذا كتاب كان وضعه مؤلفه النبيل العالم بالفرنسية وقدمه الى المجمع العلمي المصري . وقد عربه الآن ونشره وعسى ان يتم له أمنيته الشريفة فيعرب كل ما خطته يراعته في الموضوعات المفيدة لمصر ولغير مصر . وهذا السفر مجموعة فوائد يتعذر على الباحث الوصول

اليها الا بعد الدرس الطويل . ولقد وفق الامير الى بلوغ غرضه من التحقيق وبلغ الذروة منه وصوّر لنا مصر في اكثر أدوارها في الغنى وهل أتمّ من الجباية على درجة الثروة في الامة . فقد نقل ان فرعون موسى استخرج مصر تسعين الف الف دينار (٥٤ مليون جنيه مصري) ونقل ان مال مصر ارتفع على يد ندراس بن صا مائة الف الف دينار وخمسين الف الف دينار (٩٠ مليون جنيه) وذلك في ايام القبط وبلغت جبايتها مرة في عهدهم ١٦٢ مليوناً . وجبيت مصر لعهد فرعون يوسف (١٤٫٦٤٠٫٠٠٠ ج م) وجبيت في بعض الأدوار مائة الف الف دينار . ونزل خراج مصر على عهد البطالسة الى ٣٫١٢٩٥٫٨٠٠ ج ومليون ونصف ارنب قمح في عهد بطليموس فيلادلف والى ٢٫٧٠٠٫٠٠٠ ج في عهد بطليموس اوليت . وبلغت جبايتها في بعض عهد الرومان ٦٫١٧٤٥٫٩٠٥ وجباها هرقل اليوناني ١٨ مليون جنيه والمقوقس ٢٠ مليوناً وعمرو بن العاص في الاسلام ٧٫٢٠٠٫٠٠٠ ج م وجباها عشرة ملايين ونصف مليون وظلت على هذا النحو في خلافة الراشدين وانحط الخراج في عهد معاوية لاسلام رجال مصر فبلغ ثلاثة ملايين جنيه وبلغت جبايتها في عهد سليمان بن عبد الملك ٧٫٢٠٠٫٠٠٠ ج م ونزل في عهد الرشيد الى ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ ج وارتفع في ايام احمد بن طولون الى ثلاثة ملايين وجباها خمارويه ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ ج وفي ايام الإخشيدي ١٫٢٠٠٫٠٠٠ ج وفي زمن كافور ١٫٩٦٢٫٠٠٠ ج وفي اوائل عهد الفاطميين ٢٫٠٤٠٫٠٠٠ ج وجبيت في آخر عهدهم ٧٢٠٫٠٠٠ ج وجباها صلاح الدين ٣٫٢٨٨٫٠٩٤ ج والظاهر بيبرس ٧٫٢٠٠٫٠٠٠ ج وكانت جبايتها في عهد الترك العثمانيين ١٫٠٨٠٫٠٠٠ ج أوائل القرن السابع عشر و١٫٢٠٣٫٥٠٧ و١٫٤٤٠٫٠٠٠ في القرن الثامن عشر وجباها نابوليون ١٫٣٦٩٫٥١٩ ج وجباها محمد علي الكبير سنة ١٨٤٧ م ٣٫٩٥٠٫٠٠٠ ج وبلغت في عهد الخديوي عباس الثاني ١٧٫١٥١٥٫٧٤٣ ج م وفي عهد الملك فؤاد الاول سنة ١٩٣١ م ٤٦٫١٤٤٦٫٩٢١ جنيه الخ . وقد توسع المؤلف في ذكر الاثارة على عهد الفاتحين والغالب ان عمارة مصر كانت تبعاً لانخفاض النيل وارتفاعه وعدل الولاة وظلمهم . وذكر المساحات المزروعة من ارض النيل ونواحيها وبلادها وما طرأ عليها وما اصاب الفدان من الخراج في مختلف صور وختم كلامه بان مساحة الارض القابلة للزراعة في مصر هي ٧٫١٠٠٫٩٠٠ فدان

منها ٢٠٠٠٠٠ تربى فيهـا الأسماك وقال ان ارض المنوفية أخصب ارض مصر وان السكان يزيدون فاذا لم تجفف مياه إقليم البحيرات بحيث تصلح للزراعة تضيق مصر باهلها ٠

م ٠ ك

ذكرى فوزي المعلوف

وان امرأ ليس بينه وبين آدم أب حي لمعرق له في الموت ٠

أفتستطيع هذه الكلمة على بلاغة صدقها أن تهوّن من خطب هذا الموت وخاصة ان كان الميت في غضاضة من عوده ورطابة من غصنه قد اتسعت له افياء الامل ، فانبسطت بانبساطها جوانب الحياة فلما استعدّ للتحبج في هذه الجوانب جاء أجله فلم يستقدم ساعة ولم يستأخر ٠—

لابدع اذا دمعت العين وحزن القلب على فوزي المعلوف ، ولقد ترقرق هذا الدمع وتجلّى هذا الحزن في كتاب : ذكرى فوزي المعلوف ٠—

تضمنت هذه الذكرى ترجمة الفقيد وعدد آثار قريحته من منظوم القول ومنثوره ، وآراء الكتاب والشعراء في أدبه وذكر مرضه ووفاته ومأتمه وأقوال الصحف فيه والمراثي التي رُثي بها ٠—

تبارت أندية الأدب ورجال الصحف في اميركة ولبنان في البكاء على الفقيد فكان في هذا التباري دليل قاطع على قدر الأدب حق قدره وعلى تضامن المتأدبين واذا أمضّنا مانشاهد في بعض الأحايين من تضافر بعض الطوائف على الاطفاء من نور كل أديب يتلألأ نوره في سماء الأدب فقد أبهجنا تعاون طوائف أخرى على تنشيط كل أديب ينشأ ويترعرع فاذا استحكم الحسد في فريق استحكمت الغبطة في فريق آخر فكان لنا من هذه الغبطة عظة وعبرة ٠—

لقد تجلي الأسي في قصائد الذين بكوا على فوزي المعلوف واذا كان في بعض هذه القصائد موطن مؤاخذة فهذا الموطن انما هو من ناحية الفن فان بعض الذين بكوا على الفقيد لم يستطيعوا الافصاح عن حقيقة شجوهم فلم يصوروا فوزي المعلوف تصويراً يناسبه

ولا يناسب غيره وهذا عيب مراثينا في القديم وبعض مراثينا في الحديث فلم نهتد بعد الى الاعراب عن صدق العواطف .—

اما شعر الفقيد فمن خصائصه امتداد الخيال فيه فصاحبه نزّاع الى ادخال صور شعرية حديثة عليه ولكن الله لم يمد له في الأجل حتى يتمكن من افراغ هذا الخيال في قالب خالد .—

رحم الله شبابه الناضر ! شفيق جبري

الحياة البسيطة

خير كتاب وصف مساوي الحياة النفسية الاجتماعية الحاضرة وطرق معالجتها « الحياة البسيطة » تأليف شارل واغنار في اللغة الفرنسية وتعريف الارشمندريت انطونيوس بشير الذي نشره الشيخ يوسف توما البستاني صاحب مكتبة العرب بمصر سنة ١٩٢٨ . فقد استقرأ فيه المؤلف اسباب الاضطراب والتململ النفساني السائد في الحياة الاجتماعية الحاضرة وقد وجد ان هذه الاسباب تمت من حيث المنشأ الى اصل عام واحد هو الخلط بين الضروري وغير الضروري من الحاجات وإهمال الاول والتمسك بالثاني إرضاء للشهوات والتقاليد والعنعنات المقيدة لحرية الانسان الحقيقية التي تتطلب السعادة في ظل الهدوء والطمأنينة . ثم بحث عن هذه السعادة المنشودة فلقيها في بساطة الحياة البعيدة عن الكلفة والتصنع . وبعد ان عرف هذه البساطة تكلم عن بساطة الفكر والكلام والواجب البسيط والحاجات والملذات البسيطة والروح النفعية والبساطة والشهرة الكاذبة والخير المجرد عن الجد والعالم والبيت . والجمال البسيط والكبرياء والبساطة في معاملة الناس . والتهذيب على البساطة . وقد أجاد المعرب في نقل هذا الكتاب الى العربية بعبارة سهلة فصيحة . فهو لعمري كتاب الشاب والفتاة والزوج والمرأة يجدون فيه صورة الحياة الحاضرة بما فيها من سعادة وتعاسة واسباب الاولى وعلل الأخرى فيستنيرون بضوئه ويهتدون بنصائحه . اسعد الحكيم

تقويم مصر

« لسنة ١٩٣١ ميلادية »

للدعاية في هذا العصر مكانة كبرى في الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية وذلك بالنظر لما أوجدته وسائط النقل الحديثة من السرعة الهائلة في المواصلات بين جميع أقطار العالم الذي أصبح يؤلف باجمعه قطراً واحداً لا تختلف المسافة الزمنية ما بين أجزائه عن المسافة الزمنية التي كانت تفصل بين مدن المملكة الواحدة في العصور المتقدمة .

فمن الضروري والحالة هذه ان تعم معرفة القوانين والأوضاع الادارية والاجتماعية والاقتصادية المتبعة في كل مملكة تسهيلاً لسير الأعمال المشتركة وتوسيعاً للصلات التجارية التي لا يمكنها ان تشيع بغير العرض والدعاية .

وقد كانت الممالك الشرقية في معزل عن هذا الامر الحيوي حتى العصر الحالي . فكان نصيبها من هذا الاهمال بقاءها مجهولة مما أضرّ بها ضرراً لم تقدره قدره الا في هذا اليوم الأخير . وقد كانت مصر سباقة الى تلافي هذا النقص فقد اطلعنا اخيراً على تقويمها الذي أصدره قلم نشر مطبوعات الحكومة لسنة ١٩٣١ باللغة العربية فاذا به صورة مصغرة لأوضاعها ومصالحها واحصاآتها السياسية والادارية والاقتصادية والاجتماعية . « جغرافية مصر . الزراعة والتجارة والصناعة والري والحقانية . المالية . الجندية . الاشغال العامة . المواصلات . المعارف . الصحة الخ » مما يفتقر الى مطالعته كل من له صلة بالقطر المصري . وذلك بالحرف الصغير وفي زهاء ٦٦٥ صفحة يتخللها عدد من الرسوم والصور تفيد الموضوع .

اسعد الحكيم

الفهرس العام

« لما في هذا المجلد من المواد والموضوعات مرتبا على حروف الهجاء »

فهرست الاعلام

«اي اسماء كتاب المقالات المنشورة في هذا المجلد مرتبة على حروف المعجم»



جدول الخطأ والصواب

ورد في أجزاء هذا المجلد بعض أغلاط مطبعية نبهنا اليها فيما يلي :

جاء في ص ٤٠ س ١١ اللفة صوابها اللغة · وص ٤٢ س ١٤ فاللفط صوابها فاللفظ · وص ٥٣ س ٦ حسن البزار صوابها حسن البزاز · وص ٧٠ س ١٦ فيل صوابها قيل · وص ٧٩ س ١٦ كا صوابها كان · وص ٩٨ س ٧ اصلح للملك ولا يصلح لي الصواب اصلح للملك ويصلح لي · وص ١١٤ س ١٣ مرتصى صوابها مرتضى · وص ١٣٠ س ٣ الشيخ محمد محمود الذكري صوابها الشيخ محمد محمود التركزي · وص ١٣٣ س ١١ وصديفه صوابها وصديقه · وص ١٣٦ س ٩ وفد صوابها وقد · وفيها س ١٧ ينع صوابها يمنع · وص ١٤٦ س ٥ اجمد رسيد صوابها احمد رشيد · وص ١٥١ س ٣ اشتاشتوا صوابها اشتتوا · وص ١٦٣ س ١١ يتوحتد صوابها بتوحيد · وص ١٦٧ س ١ ولقد ترجم العرب عن احساسم الصواب ولقد ترجم العرب عن احساسهم · وص ٢٠٤ س ٧ الخلقي صوابها الحدقي · وص ٢٠٧ س ٣ لم يخلق صوابها لم يخلق · وفي ص ٢٠٨ س ٢٤ ابي داود صوابها ابي دواد · وص ٢١٠ س ١ و٣ لئن صوابها لأن · وفيها س ٤ أما صوابها أمام · وص ٢١٤ سطر ١٠ والقتل صوابها والفتل · وص ٢٣٧ س ١٢ ارى الارض تطوي الي الصواب ارى الارض تطوي لي · وص ٢٤٧ س ٩ يؤند صوابها يؤتدم · وص ٢٥٠ س ١٤ وانما هوموسى الصواب وانه هوموسى · وفيها س ١٦ موسى بن حمو الصواب موسى ابو حمو · وص ٢٥٨ س ١٤ إمكا صوابها إمكان · وص ٢٦٤ س ١٧ أم ان اللغة صوابه ان أم اللغة · وص ٢٧٠ س ١٠ يطربم صوابها يطربهم · وص ٢٧٤ س ٤ بهرة صوابها بهرته · وص ٣٠٥ س ٢ ة رة صوابها مستورة · وفيها س ١٧ العاة صوابها العامة · وص ٣٠٦ س ٢٥ و بلغ صوابها ومبلغ · وص ٣٣٨ س ٢١ نناظره صوابها لمناظره · وص ٣٥٩ س ٨ لا بازالة العامة صوابها الا بازالة العامة · وفي ص ٣٧٥ س ١١ جتمعت صوابها اجتمعت · وفي ص ٣٩١ س ٢٠ أ تز صوابها اهتز · وفيها

س ٢٢ وكا صوابها وكان · وص ٣٩٦ س ١٦ والحرة صوابهما والحرمة · وص ٣٩٩ س ١١ بباغت الصواب تباغت · وص ٤٠٣ س٨ منه الصواب منهم · وص ٤١٩ س ١ كا الصواب كان · وص٤٢٤ س٣ نع الصواب منع · وص٤٢٨ س٢٤ راك الصواب قراك · وص٤٣٠ س٥ والا الصواب وايلا · وص ٤٣١ س٦ فراش الصواب فراشه · و٤٤٢ س١٥ قتبسوها الصواب اقتبسوها · و٤٤٣ س١ او من الفئة الصواب او من الفيئة و٤٤٦ س١ الرفص الصواب الرفص · و٤٥٨ س٣ نهر ا الصواب نهرنا · و٤٧٠ س١٢ فمزم الصواب فعزم · و٤٧١ س١٠ بذ ق الصواب يذوق · و٤٧٨ س ٩ تثن الصواب نثن · و٤٨٠ س١٨ لا حي الصواب فلاحي · و٤٨٢ س١٥ يقل الصواب ينقل · و٤٨٩ س ٤ ثنج الصواب تنسج · و٤٩٠ س٣ وا ء الصواب والماء · و٤٩٢ س ٢٠ المكا الصواب المكان · و٤٩٧ س ١٦ ميثك الصواب بمبثك · و٥٠٠ س ٢١ مطاي الصواب مطاوي · و٥٠٢ س١٨ ابرحنا الصواب مابرحنا · وفيها س٢٤ اقتبس في بجمعه الصواب اقتبس في مجمعه · و٥٠٥ س ١ ينبت من الاراك الصواب ينبت من خب الاراك · وفيها س٣ ave الصواب Cave · وفيها س٩ ورحله الصواب ورجله · و٥١٤ س٩ فا ه الصواب فاره · و٥٢٩ س١ السآة الصواب السآمة · وفيها س١١ فالادلة الصواب والادلة · و٥٣١ س١٧ فانظر مانضير الصواب فانظر من تضير · وفيها س٢٥ الفيناء الصواب الفيناء · و٥٣٢ س١٣ ات الصواب مات · وفيها ١٤ فكأني الصواب فكأنني · و٥٣٤ س٣ ساعياً الصواب ساعيا · و٥٤٨ س٥ وعيا الصواب وعيان · و٥٥٠ سطر٩ لرد ا الصواب لردها · و٥٧٦ سطر١٤ الشفرى الصواب الشنفري · و٥٨٨ سطر ٢٤ بتخذيك الصواب بتحذيك · و٦٣٤ سطر٢٠ علاقة الصواب علاقتها · و٦٣٩ سطر٦ سنة الصواب سنة · و٦٤٤ سطر١١ تخذه الصواب تخذه · و٦٦٢ سطر٢٢ والوند الصواب والوتد · و٦٩٣ سطر ١ واصف الصواب واصفها · و٧٢٢ سطر ٢٤ ذ الصواب مذ · و٧٢٦ سطر١٣ بما ه الصواب بماته · و٧٥٢ سطر٤ ومع ن الصواب ومع ان .

— ◯ —

(تنبيه) نقول هنا ماقلناه في آخر المجلد العاشر من ان معظم الاغلاط ناتج عن تساقط الحروف وتكسرها مما لايغيب عن فطنة القارئ · كما يرى في هذا الجدول ·